وما أدراك ما عليٌّ

القسم الأوّل

بيتُ النُّبوّة ومدرستها

دار المؤرّخ العربي

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

وما أدراك ما عليّ

القسم الأوّل

بيتُ النُّبُوَّة ومدرستها

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٩٣٢٨٤
التاريخ ١٤/٨/٢٠١٠م

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

دار المؤرّخ العربي
بيروت - لبنان

حُقُوق الطّبع مَحفُوظَة

الطّبعَة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دَار المؤرّخ العَربي

بيروت - لبنان - ص ب ٢٤/١٢٤ - تلفاكس ٥٤٤٨٠٥
Email: al_mouarekh@hotmail.com

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخراج الفنّي : علي محمد جواد الطريحي

تصميم الغلاف : الفنان سلمان البصري

نشيدي وأنت له مطلع	من الشَّمسِ يعنو له مطلعُ
وقدرُكَ أرفعُ عند الثَّناءِ	سمُوًّا، بهِ قدرًا يُرْفَعُ
ومجدُكَ جاوز أُفْقَ الخلودِ	سمُوًّا ونفسُكَ لا تقنَعُ
فقَصَّرَ عنه رفيفُ الطُّموح	وكادت قوادِمُهُ تُنْزَعُ
وأرجعَ اليأسُ روّادَهُ	وفي مثل مجدِكَ من يطمَعُ
وأنّى يُطاولُ نجمٌ علا	حُسامُ الخلودِ به يُشْرَعُ
ومجدُ الإمامةِ وِترٌ يُضَمُّ	لمجدِ النبوَّةِ إذ يُشْفَعُ

عبد المنعم الفرطوسي
شاعر أهل البيت

إنَّ رَأْيًا واحِدًا شُجَاعًا أَكْثَرِيَّة

ولا تكونَنَّ عليهم سَبُعًا ضاريًا تَغْتَنِمُ أكلَهم فإنَّهم صِنفانِ
إمَّا أخٌ لك في الدِّين، أو نظيرٌ لك في الخَلْقِ

من سَرَّه الغِنَى بلا مالٍ، والعِزُّ بلا سُلْطَان، والكَثْرَةُ
بلا عَشِيرة، فليَخْرُجَ من ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللهِ
إلى عِزِّ طَاعتِهِ، فإنَّهُ واجِدٌ ذلِكَ كلَّهُ

إن أعظم الحسراتِ يوم القيامةِ حَسْرَةَ رجلٍ كَسَبَ مالاً في غير
طاعةِ الله، فوَرِثَه رجلٌ فأنْفَقَهُ في طاعةِ اللهِ سبحانه،
فدخل به الجنَّة ودَخَلَ به الأوَّلُ النارَ

المُرْتَضَى عَلَيْهِ السَّلام

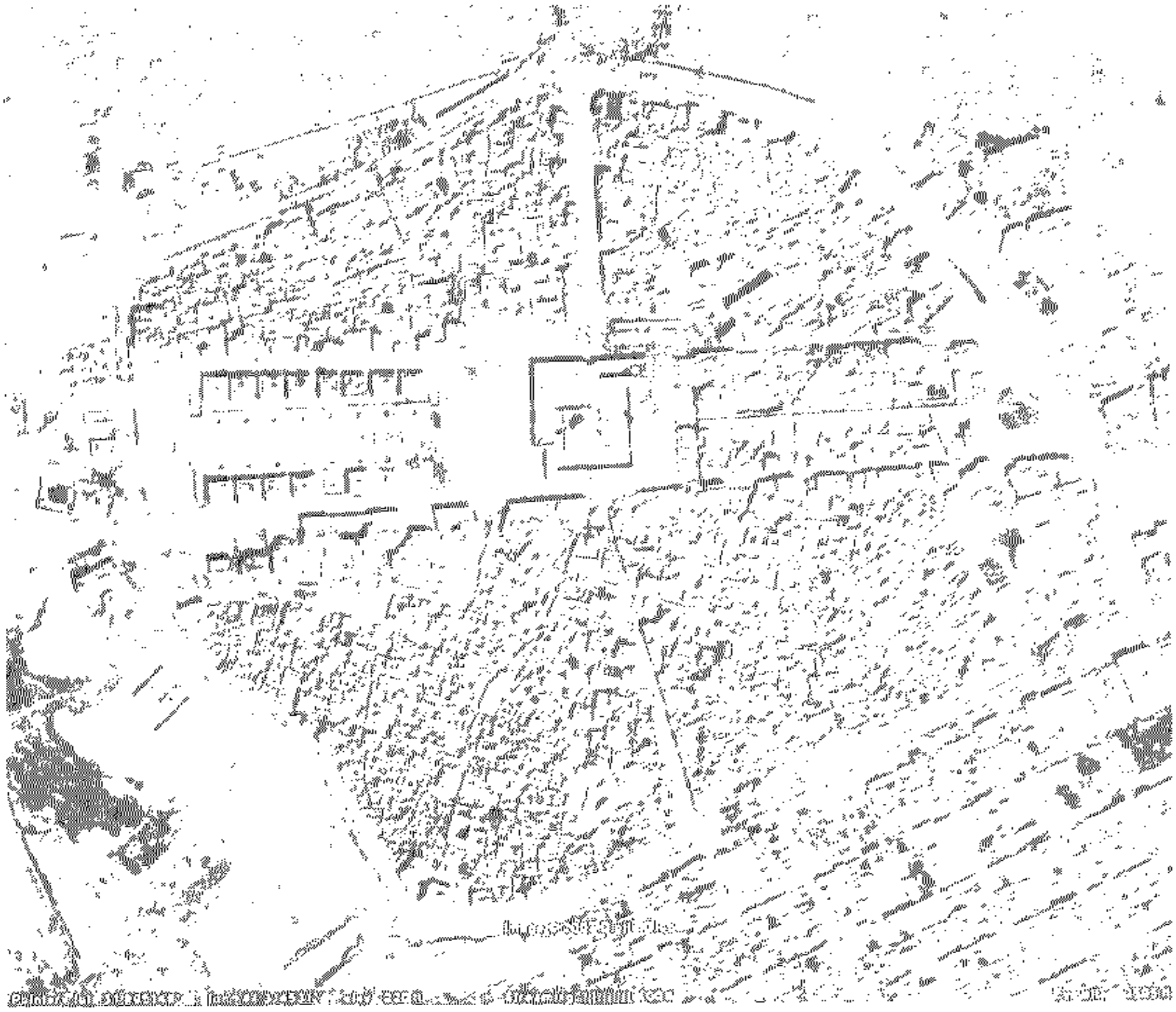

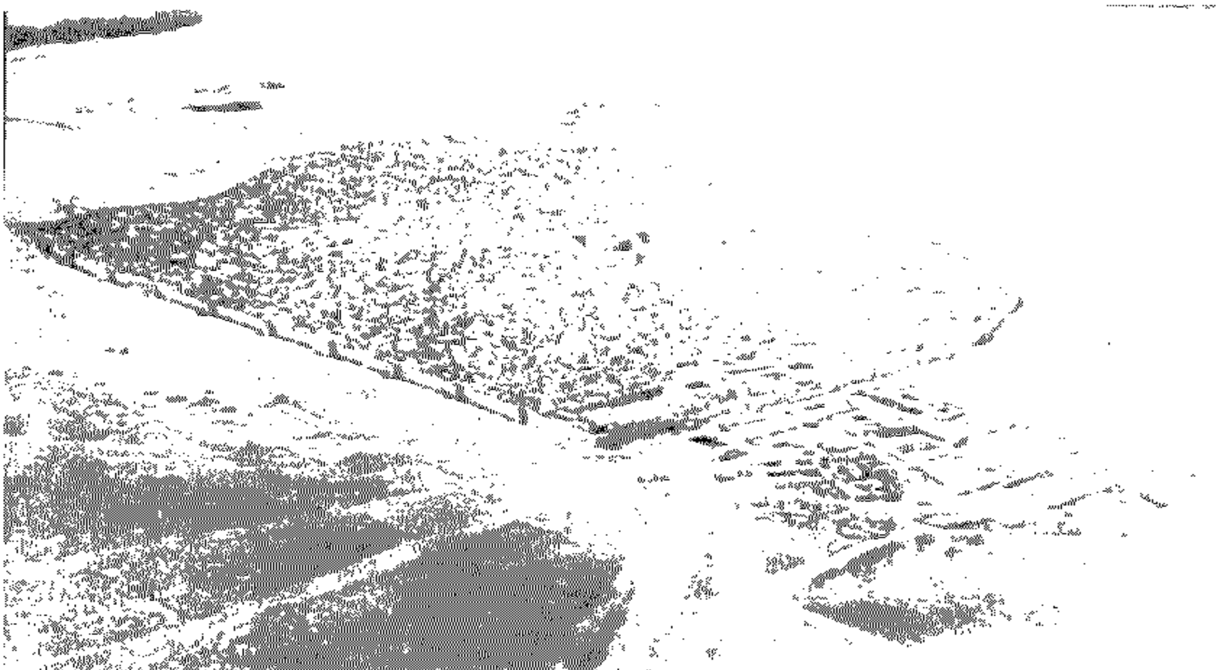

صورتان من الجو لمدينة النجف الأشرف

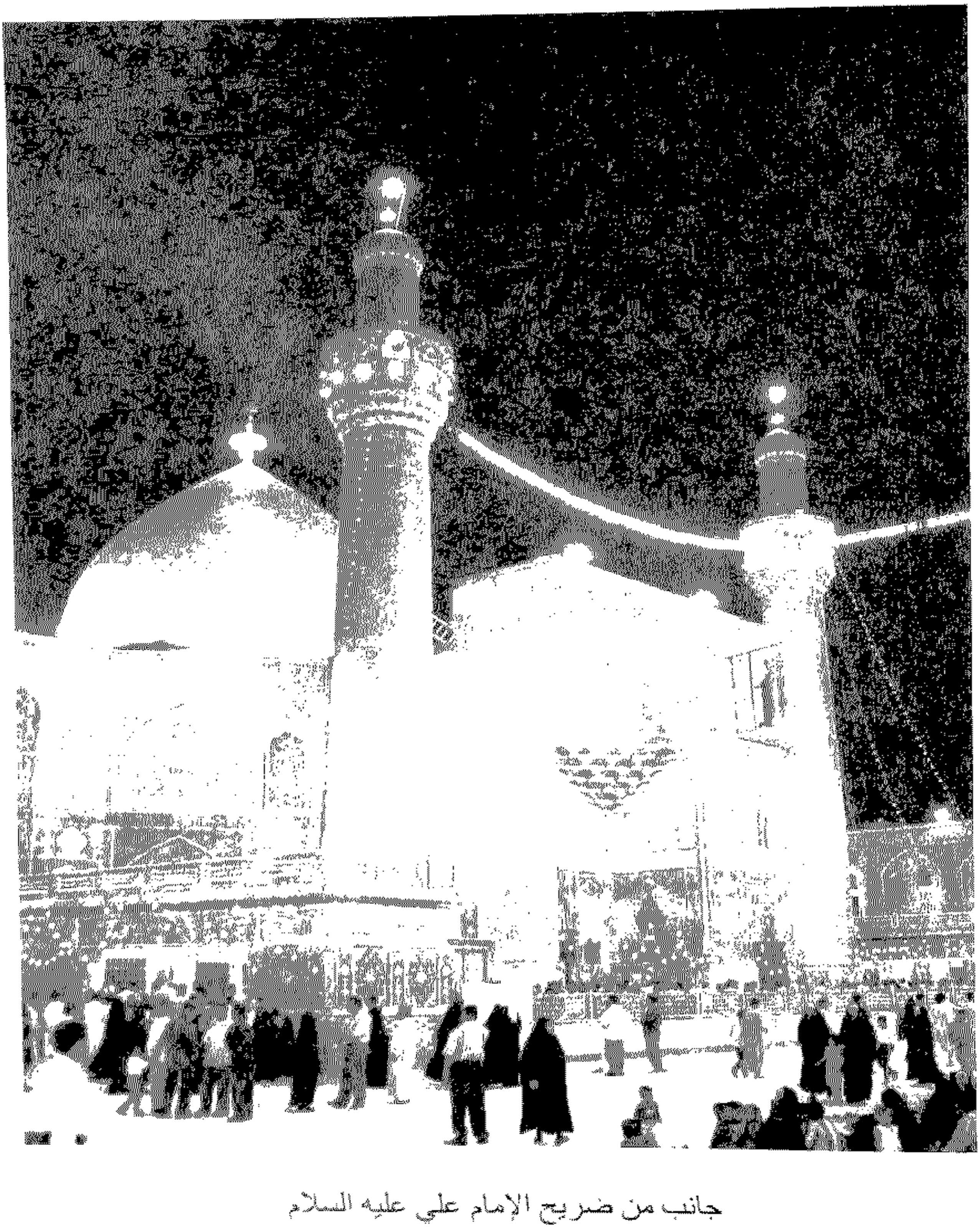

جانب من ضريح الإمام علي عليه السلام

المقدمة

مدينة ربيب الوحي

مازالت زيارة مدينة أمير المؤمنين عليه السلام، أو العيش فيها حلمًا يداعب ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتشرئبُّ لها الأعناق من بعيد فتتشوَّفها فردوسًا يتعبَّد في محرابه الطُّهر والإيمان، وتحفُّ به ملائكة الرحمن، وتطوف في جنباته أرواح آلاف العلماء والزُّهَّاد وعباد الله الصَّالحين من الذين رأوا في تربتها التي شرَّفها جسد عليٍّ أمير المؤمنين طهورًا لذنوبهم لأنهم في حماه، فمنذ يومه ذاك كان جواره ملاذًا للنُّفوس الشَّقيَّة التي تبحث عن شفيع تلوذ به من عذاب البرزخ، ومن هول المُطَّلَع العظيم، ويحدِّثك وادي السلام فيها، بقصصٍ تثير الدهشة وتدعو إلى العجب من إصرار أجيال من المسلمين قدموا من أقاصي الأرض تحدوهم رغبة في توسُّد تربتها بأيِّ ثمن، وإصرار أجيال أخرى على دفن موتاهم وأعزَّتهم فيها أملاً بشفاعته.

وانطلاقًا من هذه العقيدة الرَّاسخة، والحبِّ الغامر الذي ملك الأرواح اختارت جواره أممٌ من خلق الله، وشدَّت الرحال لزيارة روضته الطَّاهرة جحافل من الضَّارعين على مرِّ الدُّهور والحقب، وكتب عن دوره في تثبيت الدعوة وشجاعته وعلمه وإيمانه وقضائه وقيمه وتواضعه وزهده وتقشُّفه بانبهار وإعجاب خلق لا علاقة لهم بالإسلام، ورأت في حكومته أقلام من دهور متعاقبة مثالاً لن يتكرَّر للعدالة التي مازال الإنسان يبحث عنها في أرجاء

الأرض، وما من دستور من دساتير الدول المتقدّمة إلاّ وأنت واجد فيه من روحه عليه السلام في عدله وإنسانيّته وحقّ الحاكم والمحكوم ما يثير العجب والدهشة والاستغراب.

وبسبب من هذه العلاقة الروحيّة تعرّضت مئات الأجيال التي اتّخذت من جواره مسكنًا ومدفنًا ودار معرفة إلى القتل والسّحق والتّعذيب والظلم والحرمان والتشريد، وتعدّتها إلى مدن ودول أخرى في أرجاء الأرض، وكان مردُّ كلّ ذلك سوء الفهم الذي أوقده التراكم الطّائفيُّ السياسي، وما أجّجه الصراع بين الدولتين الفارسية والعثمانية، وبالدافع نفسه ناصبت شيعته العداوة والبغضاء أمّةٌ من المسلمين، واتّهمتهم بأبشع التُّهم، ووسمتهم بالكفر مرّة، وبالمروق عن الدِّين والكذب والتعصُّب في أخرى.

وسبب محنتهم ومحنة بعض إخوانهم من المسلمين أيضًا إما جهل متبادل، أو فهم إسلاميٌّ قاصر، أو بسبب فعلٍ وردِّ فعل، أو اجتهاد رأى فيه الآخر خروجًا على الدين، فلم يحاوره فيه كي يتبيّن الحقّ من الباطل، وهو ليس ابن اليوم فقد رأينا عبد الله بن خبّاب يذبحُ، وتبقر بطن زوجته على يد أخوة له أضلّهم الشيطان فأحلُّوا سفك دمه وفي الوقت ذاته لم يقبلوا هديّة متواضعة من ذمّيٍّ لأنه في ذمّة رسول الله صلى الله عليه وآله بزعمهم، وتطوّعت أخرى من بعد فذبحت الحسين وأهل بيته عليهم السلام في أبشع مجزرة عرفها الإسلام في تاريخه المليء بالفواجع، ونتيجة لكلّ ذلك كانت النّارُ تؤجّج نارًا، وتزرع كراهية وبغضاء، وحقبٌ تمرُّ وتتبعها أخر، والوجه الطائفي الملعون يكشّر أنيابه هنا وهناك دونما وازع من عقل أو رشاد في دين، أو وعي وإصلاح.

وعلى الرغم من محاولات بعض عقلاء المسلمين تبيان وجهة نظرهم في العقيدة أو الحكم، أو محاولتهم طيِّ صفحة الماضي والبدء بصفحة جديدة توحِّد ولا تفرِّق، وتزيح عن كاهلهم ما لحق بهم وبدينهم من تشويه، وتسمح لثقافة الحوار أن تشيع، وللغة التقارب أن تسود، فإن الطريق مازال محفوفًا بالمصاعب والأهوال.

وإذا كان عقلاء المسلمين وعلماؤهم من كلِّ المذاهب الإسلاميَّة يتحدَّثون عن الوحدة الإسلاميَّة، ويحلمون بيوم يعمُّ فيه الأمن والأمان في بلادهم فإن عليهم تهيئة السبل لها بفتح الأبواب على مصاريعها بكلِّ سماحة الإسلام ووسطيته، وليس شرطًا أن يحلَّ الوفاق في قريب منظور، فقد نتقاطع اليوم بدون تكفير أو تشويه، ولكن سنتقارب بالحتم غدًا، وليس كثيرًا على الله أن نحلم بالاتفاق في زمن آتٍ ليس ببعيد، ولعلّنا نتَّخذ عبرة من سلوك الإمام عليه السلام مع أعدائه من الخوارج أو غيرهم، فما رأيناه منعهم حقًّا في المال العام، ولا أجبرهم على رأي، ولا عاقبهم على اعتقاد، ومازال يحاورهم بالكلمة الطيِّبة، وبالحكمة والمنطق والعقل، وبسيرة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن ذهب شهيدًا بسيوفهم.

ومدينته واعية حاضرة أنجبت للأمَّة رعيلاً لا يحصى من كبار العلماء والمفكِّرين والكتاب في شتَّى مسارب المعرفة، واحتلَّ بعضهم مكان الصَّدارة بين أقرانه وأبناء جيله، كما أنجبت ما لا يحصى من الشعراء والكتَّاب والنقَّاد والأدباء والساسة مازال بعضهم من مفاخر الأمَّة، وإياك إن قمت بزيارتها يومًا أن تكتفي بالنظر إلى شوارعها العريضة وتترك المرور في أزقتها الملتوية التي بالكاد تستطيع الشمس أن تجد موضعًا لأشعتها على جدرانها، أو تتهاون

بخرائط بيوتها التي لا تمتُّ إلى هذا القرن بصلة، فمن تلك البيوت تخرَّج ذلك الرعيل الذي زاحم رجال الفكر والأدب في العالمين العربي والإسلامي فزحمهم على الرغم من كلّ الظروف العصيَّة التي أحاطت بهم إحاطة السوار بالمعصم، ولا يختلف اثنان من المنصفين حول مشاركتها الواضحة في حركة الفكر والمعرفة والنضال في الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولا يشكُّ منصف في أنها كانت ومازالت كفرسي رهان في السبق الثقافي التَّنويري مع القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت والقيروان وفاس وغيرها من مراكز الإشعاع في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، ولعلَّ خير شاهد على ذلك عدم خلوّ أيّ كتاب جادٍّ من إشارة إلى فكر بعض أبنائها، أو إلى مطبوع مطابعها التي زاحمت أقدم المطابع العربيَّة في الرِّيادة.

وحقَّ لي أن أراها بكل زهو العواصم الإسلامية وأمجادها الغابرة لأنَّ من بعض مفاخرها مدينة مولاي أدريس بجامعتها، وقاهرة المعز بأزهرها، وحوزة قمّ بشيوخها وعلمائها، وهنا وهناك في المشرقين عشرات بل مئات ممن تولوا الحكم وتصدَّروا السيادة حاولوا بكلّ وسيلة ربط نسبهم بصاحب قبَّتها الذهبيَّة عليه السلام.

والمدينة التي تنام في أحضان تاريخ أهل البيت عليهم السلام بعلمهم وثوراتهم ونسلهم المبارك عصيَّة على القيادة أو التَّرويض منذ أن تأسَّست، فمازال إمام الحقّ والعدل عليه السلام يتردَّد صدى صوته في جنباتها، فتسمع قرآنًا وترى حكمة، وتقرأ عدالة، وتشهد مواقف إنسانيَّة لا تعرف جورًا، وليس فيها إلاَّ العدل المشوب بالرحمة الذي لم يعرف المهادنة أو المراوغة أو لعبة السِّياسة، وإن رأيت جهلاً فيها أو تطرفًا فهي ليست بدعة بين مدن

المسلمين وعواصمهم، وهكذا رأيتها بين حين وآخر تتمرَّد على حكامها وتستقل في الحكم بنفسها، بل مرَّت عليها عقود وعقود وهي لا تعرف حاكمًا يحكمها من خارجها تنصاع له، أو تخضع لقوانينه، وإن ارتبطت في تاريخها بحكومة مركزية فهو ليس أكثر من ارتباط شكلي تفرضه ظروف السطوة والقوة.

ولقد شهدت من مظاهر التطور العلمي والثقافي ويعد النظر ما زاحمت به عواصم الفكر والتنوير، فمازال الاجتهاد الذي أغلق أبوابه منذ قرون في كثير من محافل الدراسات الإسلامية مفتوحًا على مصراعيه فيها بسبب تأثرها بفكر الإمام عليه السلام ومنهجه، وقد كان ذلك سببًا في حيوية دراساتها الفقهية والأصولية التي استمدَّت أصولها من مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي منحت العقل حريَّة في الحركة، فاستلهمت ذلك التراث الذي دونته وحافظت عليه، ثم أبدعت في درسه وتفسيره، وكان من نتاجه آلاف مؤلفة من الفتاوى التي تتماشى مع إيقاع الحياة وتطورها ومتطلباتها دونما خروج على أسس الشريعة وقيمها.

وقدِّر لي أن أكون واحدًا من أبنائها الذين كُتِبَ عليهم الرَّحيل في آفاق الله وهو يحمل مدينته وبلاده وهموم أمَّته على كتفيه بانتظار فرج الله، ويوم كاد يراه في بلاده اظلمَّت الآفاق من جديد في مواسم الديمقراطية التي ظنَّتها الأكثريَّة شعارات تُرفعُ، وقوانين تسطَّرُ، وحريَّة قول في صحيفة أو تلفزة أو مذياع، وفاتهم أنها عقد مقدَّس أهم بنوده الدفاع عن الآخر، وحقُّ الجميع في عيش كريم تحت خيمته يعبِّرون عن آرائهم دونما خوف أو وجل، ولكن وفق سلسلة لا نهاية لها من القيم التي تلتزم بها الأمَّة، وتحاسَب عليها،

وتنصاع لأحكامها إذا أخلّت فيها، ويوم تصل الأمَّة إلى ذلك المستوى من الوعي لا تكون في حاجة ماسَّة إلى حكومة أو برلمان، ولقد مرَّت على بعض الأمم التي قاربت هذا النهج فترات بقيت فيها بلا حكومة لأشهر معدودات، ولكنَّ الحياة لم تتوقّف، وقيم العقد لم تنفرط، واستمرَّت الحياة بالسير على إيقاعٍ جميل من دون أن يعكّر صفو شعبها مُكَدِّرٌ، أو يحرمها من حقٍّ بحجَّة غياب حكومة أو حاكم أو مسؤول.

وأمر الديمقراطيَّة حكاية نحتاج إلى عصور في بلادنا الإسلاميَّة كي نستوعبها وفق رؤية إسلاميَّة أو غربيَّة، ويوم هبطت فجأة على عراقنا الحبيب في ذلك المولد الكبير شددنا الرحال على أجنحة الأحلام، ونسجنا خيوط الشمس كي نسابق الريح إليها، ولكننا لم نمسك حتى على تلك الخيوط، وعلى أنغامها العذاب حلّت لعنة على بلادنا ما سمعنا بها من قبل على طول تاريخنا الطويل المليء بالفواجع والمحن والآلام، وهي حريَّة ذبح المسلم وقتله والتمثيل بجسده وسجنه واختطافه، وتشريده، ونهب ماله الخاص والعام، وتدمير مكتسباته تدميرًا أهوج ليس للعقل أو الحكمة أو الرأفة أي مكان فيه، وفي زحمةٍ من اليأس المدمِّر من إصلاح ما يمكن إصلاحه، وجدت قلمي يأخذني أخذ مقتدرٍ إلى عليٍّ عليه السلام الذي أخذ بيد الأمَّة إلى طريق لم تعرفه من بعد، ويصعب أن تقترب منه حتَّى وإن حلّت في ربوعها الديمقراطيَّة المزعومة، ولكنَّها من سوء حظها العاثر فقدته، ومازالت تندبه، وليتها في زحمة البكاء عليه كلّفت نفسها أخذ قبضة من هديه فاهتدت به.

في زحمة ذلك اليأس شددت الرحال إلى سيرته وقلّبت ما حفظ التاريخ من بعض صفحاتها في جميع أطوار حياته، لا حبًّا به فحسب، لأننا من كل

المذاهب ندَّعي محبَّته، ولا أدلَّ على ذلك أن قرابة نصف المسلمين تسمَّوا باسمه أو بأسماء ذرِّيَّته الطاهرة، وإنما لأنّي وجدت في كثير من صفحاتها كل الأشياء الجميلة التي ضاعت من حياتي التي فقدتها أثناء تجوالي في طرقات الوطن وأزقته، وفي مدن التغرُّب وشوارعها التي لا أعرفها ولا تعرفني، رحلت إليه بعد أن مللتُ من كلِّ كتاباتي السابقة التي لم تقدِّم لي أي نوع من المتعة أو النَّفع المعنوي أو المادي أو الفكري، بل لم أجد من يحرص على قراءتها أو الاهتمام بها، فهي لا تغني ولا تشبع من جوع، أشد جفافًا من حرِّ صيفنا اللافح في أيام الديمقراطية المجيدة.

ورأيت في تقليب صفحاتِ سيرته وفكره ومشروعه عليه السلام حلمًا يقربني من بعيد لا أراه سيأتي، ولكنَّها في كلِّ الأحوال خير ألف مرَّة مما كتبت أو قرأت، وأقل قليلها أن كلَّ صحيفة فيها جديرة بالتأمل والاعتبار، ويكفيها فخرًا بالنسبة لي أن جميع الضجيج الذي أحاط بي واجتاح بلادي ذلك الاجتياح التتريّ القاصف ما استطاع أن ينتزعني منها منذ ذكرى استشهاده في رمضان سنة ٢٠٠٥م وحتى الساعة.

وتشوَّفت في أثناء ذلك أيضًا كلَّ الأحداث المروِّعة التي مرَّت خلال صراع الحقِّ مع الباطل الذي لم يتوقَّف في بلادنا الإسلامية، ومازال يحصد أرواحًا يشهد التاريخ أنها عصيَّة على الإحصاء، ومازال النَّزف على أشدِّه في المغارب والمشارق، وعجيب أن تكون الصَّولة للباطل في غالب الأحيان، حتى كِدتُّ - وأستغفر الله - أقنط من رحمته، فكم من عمرٍ انقضى في بلادنا التي تدَّعي الإسلام ما بين حسرة ولوعة وتشرُّدٍ وقتل وتمزيق

وفقر ومرضٍ، ويأسٍ من يوم أمنٍ واحدٍ يمرُّ بسلام لا تُزهق فيه روح بريئة في هذه البلاد أو تلك.

وأزعم أن الصراع مع الذات كان على أشُدِّه منذ أن وضعت حجر الأساس لهذا المشروع، أحيانًا أضع نصب عيني هذا أو ذاك، فأشعر أن الواجب يدعوني اتِّجاهه للتخفيف من حدَّة الاندفاع، وأحيانًا أرى في ما أكتب اعتداءً على مشاعر الآخر فتذهب صفحات كتبتها في سلَّة الإهمال على الرغم من حرصي الصَّادق على عدم الخروج عن جادَّة الحقّ، لأنّي رأيت في كثير من الأحيان أن نسيان الماضي قد يقرِّبُ بعيدًا، ويزرعُ مودَّة ورحمة وإخاء هو أكبر بكثيرٍ من حقٍّ تنازلت عنه، وحرِّيَّة في الرأي حبستها، وقد أغوص في أعماق التاريخ أحيانًا ساعات لا أحصيها أنبشه بلا هوادة، في محاولة لتسليط نقطة ضوء على حادثة، أو لدفع رواية أو لتأييد أخرى، ثم فجأة أرى أن التاريخَ وما فيه من هموم وأحداث ليس من مهمَّة المشروع، وما كان غاية من غاياته. لأنَّ الغاية كانت تقديم مشروع الإمام الإنساني إلى الآخر من أي مذهب أو ديانة أو قومية كان، ولكن سرعان ما أعود إليه حينما تأخذني شخصيَّة المرتضى عليه السلام أخذ مقتدر، فأجد نفسي مدفوعًا لقراءته ثانية لمعرفة الظروف التي شاركت في خلق تلك الشخصيَّة التي ما رأيت لها مثيلاً في التاريخ.

وأشهد أن ليالٍ مرَّت لم أستطع النوم فيها بسبب فكرة حاصرتني أو أخرى دوَّنتها، ورأيت أن ما كتبته لا يعبِّر عنها بصورة دقيقة، فأبدأ بالدوران حول نفسي إلى أن يقرَّ لي قرار، وقد لا يقِرُّ فأعود إليها بعد حين، وقد تبقى عائمة فأهرب منها.

ولم تكن محاولتي هربًا من واقعٍ فحسب ، قدر ما هي عود على بدء أجد فيه ما افتقدته في رحلةِ الخمسةِ عقودٍ ونيِّفٍ مع القراءة ، والثلاثة عقود ونيِّفٍ مع القراءة والكتابة لعلَّ أحدًا يقتدي ويتفكَّر فيبدأ بنفسه فيصلحها قبل أن يطلبَ الإصلاحَ والصَّلاحَ من الآخرين.

ولم يدُرْ في خَلَدِي مطلقًا تقديم مشروع إسلاميٍّ بديلاً عن المشاريع القائمة ، أو أدعو لفكرٍ جديدٍ في السِّياسَةِ أو الحكم يستقي قيمه من رحمة الله في عدله ، ومن حبِّه لخلقه ، لأني على يقين أن ما هو قائم استقى شيئًا كثيرًا من كلِّ ذلك لقوانينه ، ولكنَّ التوفيق لم يحالفه لأنَّ الحاكم والمحكوم قد ابتعدا عن التطبيق بالطريقة المثلى.

ولقد صدق أحدهم حينما قال: إن أكثر الشعوب حديثًا عن الديمقراطية أقلها تنفيذًا لقيمها أو اهتمامًا بها ، وأكثر الشعوب اهتمامًا بقيمها أقلها حديثًا عنها.

والمشروع من بعد لبنة أخرى بذلت ما بوسعي كي تنسجم مع صرح أمير المؤمنين المرَّد ، أشركت فيها المؤرِّخ والراوية والمفكِّر والمحدِّث فلم أعزلهم في ذيل البحث لأني رأيتهم شهودًا على أحداثه ، ولهم حقُّ المشاركة في نسيجه ، ولا شكَّ أني بهذا أخرج على المعتاد ، ولن أجد من يقف في صفِّي من زملائي الأكاديميين خاصة ، وقد يرونها منقصة لا يقرُّها منهج البحث ، كما لم أقسِّمه على أبواب وفصول ، ولم أسأل نفسي عن هندسة كنت أطالب طلبتي بها ، وأسألهم عنها في بحوثهم وأطاريحهم وما زلت ، لأني يوم قرَّرت الدخول إلى ذلك البهاء وجدته عصيًّا على التقسيم إلى بحار وخلجان وروافد ، وإذا كان ما رأيته مدعاة لإثارة أو نقد ، فإنها حجارة من حجر كثير وطَّنت رأسي عليه ، وتسلَّحت له بنيَّة صادقة ليس لها من مطمع عند أحد في بقيَّة أسأل الله فيها حسن الختام.

ولكن بعد أن انتهيت من كتابته رأيت تقسيمه على أربعة أجزاء أو أقسام، اخترت للقسم الأول عنوان «بيت النبوَّة ومدرستها»، لأنه تناول سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في عصر النبوَّة ودوره العظيم في نصرة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومدى إيمانه بدعوته، وأثر بيت النبوَّة عليه.

أما القسم الثاني فقد اخترت له عنون «بعد رحيل الوحي وصاحبه»، وقد تناولت فيه سيرته عليه السلام من حين انقطاع الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورحيله، إلى حين التحاقه بأخيه صلوات الله وسلامه عليهما.

أما القسم الثالث فقد اخترت له عنوان «الزهراء في بيت علي»، وهذا القسم كان في الأصل من مباحث الجزء الأول، ولكن بسبب خصوصيَّته رأيت أن يستقلَّ بذاته، وفي ذات الوقت فإنَّ العودة إليه تكمل جوانب من ذلك الجزء وتسلط الضوء على بعض أحداثه.

وقد خصصت كتابًا مستقلاً، وهو بعنوان «قبر أمير المؤمنين وضريحه»، ويعود بحث هذا الموضوع إلى عاملين، الأول: دفع الشكوك التي أثارها بعض المؤرخين حول موضع قبره عليه السلام، والثاني: محاولة عرض تاريخ الضريح بأطواره المختلفة، وتسليط الضوء على أهمية التحف والهدايا التي قدِّمت له، وأهميَّة إقامة متحف لها في النجف الأشرف على أسس علمية وفنيَّة تتناسب مع قيمتها التاريخية والمعنويَّة والماديَّة.

ولم يكن الدُّخول إلى بهاء الإمام عليه السلام بالأمر الهيِّن، ولا الخروج منه بالسهل، فقد فكَّرت فيه قبل أوانه بوقت ليس بقريب ولكنَّ بدايته جديرة بالذِّكر، إذ شاءت الصدف أن يقدِّم لي الأستاذ الدكتور أحمد آقندوز رئيس

الجامعة الإسلامية في روتردام نسخة من كتاب آيا صوفيا الذي ألّفه بالاشتراك مع مجموعة من الأفاضل، ولقد بهرني بحلّته القشيبة التي صدر بها، وهي حلّة لا تدانيها حلّة أيّ كتاب صدر عن أي أثر إسلاميّ من قبل، ولقد شعرت في حينها بحزن شديد لأننا لم نستطع طبع كتاب بذلك المستوى الرفيع من الإخراج لا عن ضريح أمير المؤمنين عليه السلام والهدايا المقدّمة له على الرغم من قيمتها المعنويّة والماديّة، ولا عن غيره، كبيت الله مثلاً أو الحرمين الشريفين المدني والقدسي، وتداولت الأمر مع الأستاذ المذكور حول عقد ندوة عن ضريح الإمام وهداياه، فوافق على إقامتها في قاعة الجامعة، والمشاركة فيها، وعقدت في مساء يوم السبت الموافق ٢٠٠٥/٩/٢٤م، وأدارها الأستاذ محمد سعيد الطريحي، وتحدّث فيها الدكتور آقندوز عن بعض الأمانات المقدّسة المحفوظة في متحف طب قبي سراي بمدينة استنبول، أما أنا فقد تحدّثت عن النجف الأشرف، وعن تاريخ عمارة الضريح وعن بعض الهدايا المقدّمة له، وعن أمل مازال يراودني بإقامة متحف إسلاميّ في مدينته عليه السلام يتناسب مع قيمة الإرث الحضاري للمدينة، وقدسيّة الهدايا المقدّمة للضريح، وقيمتها الماديّة والمعنويّة، وكانت تلك المحاضرة في ما أعلم أول محاضرة تلقى في أوربا عن الضريح الخالد، وقد يسّرت عليّ من بعد الدخول إلى مقام الإمام عليه السلام.

وأجدني في محاولتي مثقل بديون لا أملك لوفائها إلاّ دعوة صادقة للدائنين بحسن العاقبة والصحّة والسعادة والرزق الحلال والبصر والبصيرة، فقد أنجزتها في بلادٍ عزّ فيها الكتاب العربيّ، كما عزّ فيها المستشار، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى يسّر لي الوسائل فقد أفدت فائدة جديرة بالتنويه والشكر والامتنان من

مكتبة جامعة روتردام الإسلاميَّة، ومن مكتبة الأستاذ محمد سعيد الطريحي بالدرجة الأولى، والشكر موصول أيضًا لأخي محمد علي الدجيلي الذي حمل إليّ مشكورًا كتابي موسوعة النجف الأشرف لجامع بحوثها طيب الذكر جعفر الدجيلي، ومشهد الإمام لمحمد علي جعفر التميمي، والامتنان يدعوني إلى شكر المؤرخ الإسلامي الكبير العلامة الشيخ محمد هادي اليوسفي الذي سعدت بلقائه ومعرفته أيما سعادة وأفاض عليّ بعلمه ولطفه، وأبرد لي كتابه موسوعة التاريخ الإسلامي الذي أفدت منه فوائد جمّة في غير موضع، والعرفان يدعوني إلى تقديم صادق الشكر للعلاّمة المحقّق السيِّد علي الميلاني الذي شرفت بمعرفته وسعدت بها وأفدت منها، فقد تكرَّمَ عليَّ مشكورًا بمراجعة أوليات البحث الخاص بالزَّهراء عليها السلام، كما أفدت أيضًا فائدة كبيرة من كتابه الرسائل العشر، ولست ناسيًا بالشُّكر أيضًا أخواني الأعزاء القاضي الدكتور محمد جواد الطريحي الذي لم يبخل عليَّ بعطفه، وبما تيسَّر في مكتبته من كتب ومراجع، واحتمل ضجري وحماقتي في أوقات كان يستحقُّ عليها كلَّ الشُّكر والثناء لأنه كان سببًا في تعريفي بنخبة من أفاضل العلماء، والشكر موصول لولده علي الذي لاقى الأمرين في مساعدتي بإخراج أجزاء الكتاب عامة، والجزء الخاص بقبر الإمام وضريحه خاصة، فقد احتمل تقلبات رغباتي في استبدال بعض الصور أو تغيير أماكنها، أو إضافة صور جديدة أو معلومة طرأت على بالي وددت أن أضيفها هنا أو هناك، وما يتبع ذلك من تعب وعناء يستغرق ساعات طوال كي يعيد النظر في الإخراج من جديد.

وأثقل كاهلي أيضًا أخي الباحث المحقق الأستاذ حامد الخفاف رئيس مؤسسة المؤرخ العربي بلطف لا أنساه ودين يصعب وفاؤه يوم استوعب قلقي في أمر

طبع هذا السفر الكبير بالصورة التي تمنيتها، فبذل من الجهد في متابعة طباعته ما لا أجد كلمة تفيه حقه من الشكر، وكان الرجل الطيب قد أعانني في غير مناسبة، بروح إسلامية سمحة، وخلق كريم، فجزاه الله خير ما يجزي به عباده الصالحين.

والشكر موصول أيضًا لأخي العزيز الدكتور مجيد خليل نائب رئيس الجامعة الحرة في هولندا لإصراره على المشاركة المادية السخية في صناعة صندوق للكتاب بعد طبعه لتقديمه إلى سدانة الضريح لوضعه في المكان الذي يرونه مناسبًا احتسابًا للأجر والثواب.

وأشكر أيضًا أخي الأستاذ صفاء وديس الذي لفت انتباهي إلى غير مرجع، وصوّر لي صفحات من كتب في ألمانيا عزّ علي الوصول إليها، والشكر موصول أيضًا لأخي سعيد الحيدري الذي بذل جهدًا كبيرًا كي يصوّر لي الروضة الحيدريَّة من الدَّاخل والخارج، ويسابقه في الشكر أيضًا الصديق العزيز الدكتور حميد الرفيعي، والمهندس صفاء الفرطوسي لما بذلاه من جهد في تصوير بعض ما أمكن تصويره، وما كان بإمكاني أن أحقق بعض هذا لولا مساعدة سدانة الضريح الموقرة، ممثلة بالسيد مهدي الحسيني سادن الروضة، وبالصديق العزيز السيد فائق زوين، وبالقائمين على شؤون الإعلام فيها، فلهم من الله الثواب، ومني الشكر والعرفان، وقائمة الشكر تطول وكلٌّ يستحقُّ الثناء والتَّنويه.

ولكنَّ مسك الختام الذي ليس كمثله مسك شكر ثلاثة من ذرِّية المرتضى عليه السلام الأول: أخي الصديق الشَّفيق العلاّمة المحقّق الأستاذ الدكتور حازم الحلّي الذي تكرَّم عليَّ بقراءة مسوّدة البحث قراءة واعية جادَّة صوَّبت فيه ما صوَّبت من خطأ الطباعة وفوت القلم، ومن خطأ ظننته صوابًا في اللغة والنحو، ولفت

انتباهي إلى جوانب كان بعضها في حاجة إلى إعادة نظر، أو إلى نواح مررت بها على عجالة، أو فاتني بحثها، وفي ذات الوقت ألبسني حلالاً من الثناء الجميل الذي لا أستحقه، فجزاه الله أفضل ما يجزي به عباده الصالحين، واحتسب حرصه وإخاءه الصادق في ميزان حسناته.

والثاني: أخي الصديق العزيز العلامة المحقق السيد الجواد الشهرستاني صاحب مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث على ما حباني به من لطف وتكريم لا أستحقه، ومن رعاية وتنويه تتجاوز قدري، ومن عواطف أذكرها لسماحته بلسان الشكر والثناء الجميل، والدعاء الصادق بالصحة والسلامة والتسديد، ومازال حفظه الله يطوقني بألطاف من الصعب أن أعبِّر عن مدى امتناني واعتزازي بها، ليس آخرها تحمل تكاليف طبع هذا السفر، وإهدائه لمؤلفه.

والثالث: زوجتي العلوية التي احتملتني قرابة ثلاثة أعوام طويت فيهما الليل بالنهار ليس لي معها أو مع أطفالنا من حديث إلاّ ساعة الطعام، وغالبه فيه من نكد الكلام أكثر ما فيه من حلوه، وكانت على الرغم من نزق أعصابي تشفق عليَّ وتحرص على راحتي، فجزاها الله وذريتها وذويها عن جدِّها المرتضى عليه السلام خير الجزاء.

وبعد هذه المغامرة التي تجاوزت قدري فيها حقَّ لي أن أعتصم بقوله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾، من شطحات الفكر، وسهو القلم، وخطأ في الحكم أو الاجتهاد، وهو الله أسأله أن يوفقنا جميعًا لما يحبُّه ويرضاه، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنه على كلِّ شيء قدير.

تمهيد

إلى باب عليٍّ

ما ازدحم التاريخ يومًا في باب أحدٍ كما ازحم على باب عليٍّ عليه السلام، وحقَّ له أن يسطِّر ما سطَّر على صفحاته، بعد أن وجده أعجوبة من أعاجيب الله، وكلمة من كلماته الخالدات، وقرآنًا في مسيرته منذ الولادة حتى الشهادة، وبين هذه وتلك استطاع بإيمانه المطلق برسالة الدين الخاتم أن يمزِّق حجب الظلام كي تعم قيم السماء أرض الله، وكي تتجاوز سيِّد الأرض الإنسان إلى جميع مخلوقاته التي سخرها لأجله، ليعمِّرها ويجعل منها جنَّةً، وشَاءَ خَلْقُ الله أمرًا آخر، فذهب هو بكل المجد، وكان الخسرانُ نصيبَ من انْحَرَفَ عن طرِيقِهِ وناصبه العداوة والبغضاء.

وتحدَّثوا عن شجاعته أحاديث مازالت ملء السمع والبصر، واتَّهمه بعضهم بأنه رجل حرب لا يعرف إلاَّ الطعان والقتل والقتال، وخاب فألهم، فما أحبَّ خلقَ الله أحدٌ من خلقه كما أحبَّهم بعد الله ورسوله، وقد دفع باطل الشرِّ بكلتي يديه بقوَّة وحميَّة وحكمة وعقل وإدراك، وتحدَّثوا عن دفاعه عن الحقِّ واستشهاده في سبيل إقامة عدل الله، ولعلَّ من جوانب هذه العبقريَّة أنه كان لوحده على بيِّنة أن الرحمة التي فوق العدل هي التي تبني الأمم وتعمِّر البلاد، وتسموا بسيِّد المخلوقات إلى أعلى عليِّين.

ولا أحدثك عن أي وهج ملائكي يعمر الروح حينما تفكر بهذه الشخصيَّة التي فاضل الله بها كل أوصياء الأنبياء ففضلهم بكل صفاته، ترى هل كان

مَلَكًا يسير على الأرض، أو روحًا بنفحة ربَّانية، دفعت بعضَ البشر إلى عدم التَّصديقِ بإنسانيته، فعبدته بحماقة معتقدة – وأستغفر الله – حتى الساعة بأنه هو الخالق العظيم. فأية حقيقة كان، وأي إنسان من الخلق أراد الله أن يباهي به ملائكة السماء.

وشخصية فريدة من هذا النوع جاءت وسط مئات الشخصيات الكبرى في تاريخ فجر الإسلام فبزَّتها، وشغلت الدنيا منذ ذلك الفجر وحتَّى الساعة يحق لك أن تتأمَّل في صفحات سيرتها بين حين وآخر.

أحيانًا رغبة في تشوُّفٍ تاريخ فجر الإسلام الذي أشرق على العالمين بنوره رحمة وهدًى، وعالمًا من البهجة والإنصاف والعدل، فتتأمَّله كي تبحر في أحداثه لسبر أغواره، ومعرفة سبب جنوح سفينته.

وأحيانًا هروبًا من واقع مرٍّ يحاصرك ببشاعة لا مثيل لها، فلا أنت قادر على الهرب منه، ولا أنت قادر على دحره على الرغم من طبول الفتح والنصر المبين التي تقرع في كل ساعات الليل والنهار، واقع ليس بين يديه ما يقدمه لشعبه وأمته غير عضلاته التي هي أوهى من خيوط العنكبوت، ولكنه يفتلها بكل عنجهية وحماقة لذبحه، فلا هو قرأ تاريخه فعرف ما مرّ به من إحن وبلايا فاعتبر، ومن علم وعقل وحكمة فتعلَّم، ولا هو استفاد من مهرجان البربرية الذي مازال يجتاح العالم فتأمَّلَ.

وأحيانًا عجبًا من واقع ليس له من الإسلام حتَّى الاسم، ولا علاقة له به لا من قريب ولا من بعيد، يقتل ويذبح ويستبيح الحرمات، ولا يؤمن بالله ولا برسوله ويدَّعي الإيمان بهما، وهو أبعد في نهجه وسلوكه عنهما بعد السماء عن الأرض، فأصبح الإسلام بسببه سبَّة للآخرين، والإسلام ونهجه

بعيد عن تلك الوجوه الكالحة التي ابتلي بها المسلمون أيما بلاء في مشارق الأرض ومغاربها.

وأحيانًا رغبة في سبر أغوار هذه الشخصية التي أحيطت بقدسية لم تستطع أن تدانيها أو تقترب منها شخصية أخرى من شخصيات التاريخ المجيدة، علمًا وحكمة وإنسانية وإيمانًا، وزهدًا بحياة القوم، وطمعًا بحياة تعمرها القيم السماوية التي حاولت إنصاف بني البشر من أنفسهم.

وأحيانًا رغبة في التقرب إلى الله بشخصية أنت على يقين أن الله أحبّها يوم خلقها، وقبل أن تبلغ العشرين فازت الفوز العظيم يوم باهى بها الله ملائكة السماء. وشخصية من هذا النوع يستحيل أن تجد لها مثيلاً، وليس كمثلها يجدر أن تقدمها إلى الآخر لعلّه يتأمّل الإسلام من خلالها فيزيل القذى من عينيه، ولعله يقتدي ببعض ما تحلّتْ به من قيم كانت مضرب مَثَلٍ في كل العصور، وكانت محل اقتداء جميع المصلحين على طول التاريخ وعرضه، ومحلّ تطلُّعِ جميع الشعوب التي اضطهدت نفسها قبل أن يضطهدها الآخرون.

وأحيانًا رغبة في تقديم مثال اتّفقت الأمة على تعاقب العقود والقرون على محبَّته وتبجيله من كلّ الملل والنحل، ولكنها لم تعرفه حقّ معرفته، لأنها لم تعرف الهدي كي تقتدي وتهتدي وتحاول.

وأحيانًا رغبة في تقديم صورة عن الإسلام تقترب من حقيقته من خلال هذه الشخصيَّة الفذّة لتي قدَّمت أعظم دستور للبشرية كان الإنسان فيه قطب الرحى الذي تدور حوله الحياة، وليس للحاكم فيه من الحقّ أكثر من حقّ أي فرد من أفراد المجتمع، وليس لأي فرد فيه مهما كان من ذي قرابة أو جاه أو

سطوة أو سلطان أكثر من حقِّ الآخر فيه، بل ليس بين موادِّ ذلك الدستور أية مادَّة تمنح ميزة أو صلاحيَّة لآخر مهما كان، فلعلَّ من يقرأ يقتدي ويهتدي، ولعلَّ من يقرأ يُحاسِبُ ويُحاسَب.

وشخصية من هذا النوع رحلت منذ قرابة الخمسة عشر قرنًا لابد أن تحيط بمسيرتها أنواع من القصص والحكايات، بعضها يقترب من الواقع فيلامسه، وبعضها يبتعد عنه كما الثريًا عن الأرض، وفي لُجَجٍ من العواطف الجامحة يكون من الصعب إقناع الآخر بحيادك وحسن نيَّتك إذا لم تكن قادرًا على إقناع نفسك بالحياد، ثم كيف تستطيع إقناعه بأنك في بحثك ليست غايتك الحقيقة لأنك تعرفها ويعرفها، أو تقترب منها حتى تكاد تلمسها كما يكاد، وليست غايتك العبرة والاعتبار فليس بين بني البشر من لا يستطيع التمييز بين الأبيض والأسود، أو بين الحلال والحرام، أو بين الحق والباطل، وإنما غايتك تقديم مثال جدير بالتأمُّل والنظر، ولكن كيف تستطيع أن تعرضه وسط العالم الذي أحاط به، والظروف التي تشابكت عليه، بدون أن تتعرض لأحداثٍ ما انشغل العالم الإسلامي على طول تاريخه بمثل انشغاله بها، ومازالتْ حتى الساعة محلَّ شدٍّ وجذب، ومحلَّ خلاف وعناد، ومحلَّ دماء تسيل غدرانًا بأرض المسلمين، وتتعدَّاها إلى أرض غيرهم فتشيع بين الأمم الأخر عداوة وحقدًا على الإسلام والمسلمين، وكلاهما براء مما يحدث.

ووسط هذا الطوفان كيف تستطيعُ العثورَ في تراثنا على مصادر محايدة ترسمُ من خلالها صورةً لمسيرة الإمام عليه السلام بعد تدخلِ عوامل يصعب حصرها في تأليفها، منها ما يعود إلى دوافع سياسية ومذهبية وحزبية وعنصرية

وعقائدية، ومنها ما يعود إلى الهوَّة الساحقة بين زمان التأليف وزمان الأحداث التي دوَّنها، وهي في ما يتعلّق بالسيرة والحديث تقارب الثلاثة قرون أو تتجاوزها، ومنها ما يعود إلى الظروف التي أحاطت بالمؤلِّف ومصادره، ومنها يعود إلى طبيعة التأليف التاريخي عبر العصور، ومنها يعود إلى قدرة الذاكرة على استيعاب الأحداث ونقلها بأمانة جيلاً بعد جيل، ومنها ما يفعله التدخل العاطفي في توجيه النص بحسب الوجهة التي يميل إليها صاحب الخبر، ومنها ما يعود إلى موقف من عاصره من الصحابة والتابعين منه، ومن الأحداث التي أحاطت به، ومنها ما يعود إلى موقف الحكم الذي جاء بعده منه ومن وتراثه عليه السلام، وما فعلوه به، ومنها ما يعود إلى طائفية الحكم وما فعلته بأخباره إما سلبًا وإما إيجابًا، بحسن نيَّة أو بسوء نيَّة، استلمت أجرًا على فعلتها أو لم تستلم، ومنها ما يعود إلى أثر يوم السَّقيفة في الأحداث، وغيرها من العوامل التي تصعب على الحصر والإحصاء.

وعلى الرغم من كل تلك العقبات شاء قدر الله أن أقتحم الصَّعب ليلة استشهاده عليه السلام في رمضان سنة ٢٠٠٥م، وأبدأ بخط الحرف الأول من كتاب سيرته وما دار حول قبره وضريحه، وأساله سبحانه وتعالى أن يوفقني كي أضعه حينما يستوي على نار هادئة بعد حين بين يديه وفي مدينته، بهيًّا كبهاء ضريحه، خالدًا خلود محبَّته، نقيًّا نقاء سيرته، لا تتدخل فيه دوافع الأنا من أيِّ وجه، كي يكون نبراسًا للحاضر والمستقبل، وشفيعًا بين يديه عند الله لمسلم عرفه فأحبَّه، فيحسب من محبِّيه، ويثاب ثوابهم في الدَّارين، كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ووسط عشرات الآلاف من الصفحات التي سُوِّدَتْ عن مسيرته، ومئات الكتب التي كتبت عن حياته، أو عن جوانب شتى من سيرته وسيرة من عاصره من عظماء الإسلام ما الجديد الذي يمكن تقديمه حول شخصيَّة صمدت في وجه الزمن صمودًا أسطوريا؟! لابد أنها محنة كفيلة ببلبلة ذهن أي كاتب تعرض ويتعرض لسيرة هذا العبد الصالح الذي قيل عنه ما قيل.

وأنت حينما تمسك بأول الطريق ستواجهك بمرور الوقت محنة أخرى، وهي متى تستطيع الوصول إلى الشاطئ الآخر، وتتلاحق الساعات، ثم تتلوها الأيام والشهور، وكلما ظننت أنك اقتربت من بهائه عليه السلام، تبين لك زيف ما ظننت، فتعود كرَّة وأخرى، وتبقى نهاية المطاف في علم الغيب.

ولا يختلف اثنان في أن الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو حديث عن الإسلام بأصفى صوره وأنقاها، بعيدًا عن كل ما شارك في تشويهها وأساء إليها، فأنت تتحدث من خلاله عن سماحة هذا الدين وعدله، وقيمه التي أرادت أن يكون سيِّدُ الخلق الإنسان سيِّدَ الأرض، وتتحدَّث عن الصِّعاب التي واجهته يوم أريد له أن يُوأدَ في مهده، وعن قوة إيمان الصَّفوة التي استطاعت أن تنجِّيه من مهالك الطغيان وجبروته في ذلك الجدب الذي ليس كمثله أي جدب، وعن أسباب خلوده وانتشاره على الرغم من كلِّ الباطل الذي أحاط به منذ فجر الدَّعوة، وعن السَّيف الذي زلزل الطغيانَ ونسفه وهدَّم عروشه، وعن الرَّحِمِ التي وُلِدَ فيها، وعن عنَّاتٍ لا حصر لها لا تدري كيف ستمسك بخيوطها لتضعها في نسيج بهي يسرُّ الناظرين.

والحديث عن الإمام عليه السلام هو حديث عن صاحب الرسالة صلوات الله عليه الذي ربَّاه فأحسن تربيته، قبل أن يُبَلِّغَ بها وبعد تبليغه وحتى رحيله خطوة خطوة، من يوم الولادة ولحين الانتقال إلى بيت الوحي، معه في مكة والمدينة، ومعه في سلمه وحربه، وفي نسكه وعباداته وعمق إيمانه، في تسامحه ورحمته وعدله وجوده وكرمه وتواضعه، وفي المعاني الكبرى للتربية الإسلاميَّة الحقّة، وفي كل خطوة خطاها إلى أن رحل صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم رحل لم ينفصل عنه لأن روح أخيه بقيت ترافقه إلى أن التحق به عليه السلام في ذلك اليوم الذي مازال سواده يغطّي سماء المسلمين.

وما أصعب الدخول إلى مقامه، فهالة النور التي أحاطت به لا تستطيع كل الأبصار والبصائر أن تواجهها، وخاصَّةً بعد أن تناولت جوانبَ من سيرتِهِ أقلامٌ بطول مسيرة التَّاريخ، من محبي أهل البيت؛ من أتباع مذهبهم أو من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، أو من غير المسلمين؛ وكل من كتب عنه حدثك بأن فضائله لا نهاية لها، وأن ما كتبه عنه ليس نهاية المطاف، ولكنه لابد أن يتوقف، أو يخبرك أنه أفرد لفضائله كتابًا عليك أن تعود إليه، أو يخبرك أن للحديث بقيَّة سيعود لإكمالها في وقت تسمح الفرصة به.

وكانت كتاباتُ بعضِهم عنه أقربَ إلى الشِّعر والموسيقى والفنِّ الرفيع منها إلى كتابة سيرة أو تاريخ، لأن من كتب كان في الغالب تأخذه عبقرية الشخصية أخذ مقتدر فيفتتن بها، ويغرق في عوالمها اللانهائية الساحرة، أو يجد نفسه - إذا كان من المسلمين - أمام فيض نورانيٍّ لا حدود له، فيأخذه بصفاته القرآنية الخيِّرة، وبمناسبات الأوسمةِ التي نالها من الله ورسوله، ثم يراه فوق هذا يناطح السماء عزًّا وفخرًا لا يدانيه أحد فيه من

المسلمين ولا يطاوله، فكلُّ مسلم بعده لابد أن يستغفر له، أما هو عليه السلام حين يقرأ قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ ثمَّ ينتقل إلى النصف الثاني من الآية

الكريمة ﴿ وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ لا يجد أحدًا يستغفر له إلاَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان من أحد فليس غير خديجة رضوان الله تعالى عليها، ولقد تحدَّث غالبيَّةُ من تناول سيرته أو جانبًا منها عن معاناته وخوفه من اقتحام ذلك البحر الذي لا يقرُّ له قرار، ولا يُعْرَفُ له شاطئ.

وأقسمُ بما أقسم به محمد جواد مغنية في كتابه الإمام علي حياته وفضائله ٣٣٧ حين قال: (ما من إنسان، أي إنسان، يتفهَّم كلمات آل الرسول، ويتدبَّر معانيها إلاَّ تركت في نفسه قبسًا من نور الله من حيث لا يحسُّ ولا يشعر)، وتراني أجاهد لعلّي أصل إلى الشَّاطئ الذي يأخذ بيدي إلى تدبُّر كلمات الإمام عليه السلام لعلي أتدبَّر شيئًا منها أتسلح به للباقيات من آيَّامي في هذه الزحمة الخانقة التي تحيط بي إحاطة السوار بالمعصم.

والنَّفسُ أمَّارةٌ ترغبُ بالكمالِ، وتحلم بالسَّبق، وليس إلاَّ الله أسأله بحقِّهِ أن يُيَسِّرَ محنةَ الدُّخولِ، ويفتح الأبواب على مصاريعها، فأزداد معرفة به، وإيمانًا بولايته، وقربًا من نهجه، وحبًّا لمن أحبه، وبغضًا لمن بغضه، وعداوة لمن عاداه، وتعريفًا به عند من جهله، ولعل الآخر من أية ديانة أو ملّة أو مذهب يتأمل فيقتدي، بعيدًا عن أي وسواسٍ خناس.

وإياك أن تأخذك الظنون والأهواء ويلتبس عليك الأمر فتتهمني بتحيز على حساب أي حساب، إذ ليس في خطتي أن أؤثِّر عليك، وليس في خطتي أن تغير المذهب الذي تَحْتَكِمُ إليه في عباداتك أو معاملاتك، بل وليس في

خطتي أن أسيء إلى مذهبك أو معتقدك بأية صورة من الصور، لأني على يقين أنك حينما تؤمن بأي معتقد بعقل ورويَّة بعيدًا عن التعصُّب الأعمى لن يأتي منك الأذى لأحد، ولن تفكّر بالاعتداء على أحد، وكلما ازددت إيمانًا كلّما أصبحت شفّافًا كالبلّور، وأنا في صفّك إن كنت مؤمنًا، ولا يمنع أن أتمنّى أن يأخذ بيدك ما أكتبه عن أبي الحسن عليه لسلام إلى جادَّتِهِ وهديِهِ وصلاحه، وأن تنسى كل جوانب عالمك الدنيوية وتفكر بعالمه، فتعود إليه، ويدي تشتبك بيدك، وإن تقاطعنا اليوم، فقد نتقارب غدًا ويكفينا أن نحلم بالاتفاق بعد غدٍ.

وليس اليوم الذي ذكرته لك هو الذي فكّرْتُ فيه بالكتابةِ عنه، فقد سبقته سنين لا أُحصيها سبَّب لي كثيرًا من الخوف والتردد، إذ إني لست مؤرخًا عارفًا بزوايا التاريخ وخباياه، ولا فقيهًا يستطيع إدراك أحكام الفقه من أقرب الأبواب، ولا أنا من العارفين بعلوم الحديث ورجاله، كما أني لست من الذين سبروا أغوار مكتبات كل تلك العلوم، فعرفوا الغثَّ فيها فأبعدوه عن السمين.

خوف منه عليه السلام بالدرجة الأولى إذ كيف أستطيعُ الدخولَ إلى رحابه، وهو بذلك البهاء، وما ملك عليٌّ أحدٌ أقطارَ نفسي كما ملكها هو بعد أخيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما في إيمانه شجاعته وعدله وسماحته ومنهجه وزهده وعلمه.

وخوف من الأنا التي تجول بخاطري أن لا يكون ما أكتبه جديرًا بتقديمه بين يديه بعد ما كتب عنه عمالقة الفكر من شتّى الديانات، وبعد بهاء كل كتابات غير المسلمين ممن أحبه وأعجب بسيرته، فإذا كان ذلك ما كتبوه، فكيف

ينبغي أن تكون كتابة ابن مدينته، الذي ما حلم بمدينةٍ سواها منذ أن فارقها في خريف سنة ١٩٩٣م وحتى الساعة، فقد توسَّدتْ أحلامه، وعشَّشَتْ في حنايا أضلعه، ورآها بكلِّ عجائبِ المدنِ الأخرى وسحرها وشموخها وقدسيَّتها لأنها استطاعت أن تتسع لقبر الإمام، وتحتمل ثقل جسده الطاهر الشريف، ومازالتْ منذ أن توسَّدَ تربتها تتحفُ العالَم بين حين وآخر بألوان من العبقريات التي لا تتناسب مع مواردها ومساحتها وكثافة سكانها، والحصار الذي فُرِضَ عليها منذ أن ثوى بتربتها عليه السلام.

وخوف من الآخر أن يتهمني بالانحياز والطَّائفية بعد أن نظرتْ إليَّ جمهرةٌ من أخواني المسلمين داخل العراق وخارجه من شتى المذاهب والطَّوائف نظرة تقدير واحترام، بسبب وسطيَّتي، وميلي الشَّديد إلى الحوار والتَّقارب، ونقدي طائفية الحكم المقيتة التي عزوت لها كلَّ مصائب الأمَّة التي ابتُلِيَتْ بها قديمًا وحديثًا، وكانت سببًا في تمزيق كلِّ شيء جميل بدعوة سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم، التي أرادت أن ترتقي بسيد الخلق الإنسان إلى أعلى علِّيين في الدارين.

ولكن الداخل إلى رحاب أبي السبطين لابد أن يتهم بالطائفيَّة والانحياز في عصرنا الحاضر هذا، لأنه سينساق شاء أو أبى إلى المفاضلة بطريقة أو بأخرى، ومصادر الدراسة من كتب التاريخ والحديث والمذاهب حينما تفاضل لا تحلو لها المفاضلة إلا بينه وبين الخليفتين أبي بكر وعمر، وهي مفاضلة خضعت لأدوار هذه الصفوة في عصر النبوَّة وبعد غيابه، ولو أن المسار اختطَّ لنفسه غير الطريق الذي سلكه، لكان للعملة وجهٌ آخر.

وكلُّ حياة الإمام عليه السلام من المهد إلى ما بعد اللحد محطّات تغري بالإبحار فيها، بعضها تأخذك بسحرها الذي أعزَّ الإسلام فتغوص بأعماقها في محاولة للوصول إلى القعر، ومهما حاولت فإن الأمواج لابد أن تتقاذفك وإن كنت من أمهر الغطّاسين، إلاّ أنك في محاولتك تشعر بمتعة غامرة وإن لم يحالفك التوفيق في رسم ملامح هذه المحطّة أو تلك.

وبعضها يعتصرك الألم فلا تدري كيف ستسبحُ بها، وكيف ستتعاملُ مع أمواجها العاتية، وكيف ستقدمها في إطار يخدمُ الهدفَ الذي من أجله بدأت مشروعَكَ الحلم في الكتابة عن الإمام عليه السلام، بل كيف تقدمها إلى أمَّةٍ من الخلق اختلفتْ حولها قديمًا وحديثًا، وتمذهَبَتْ، وتفرَّقتْ شيعًا وأحزابًا، واقتتلتْ أشد الاقتتال، وذهبت نفوسٌ لا يستطيع حصرها إلا الله، ويظن بعضهم أن معرفة تلك الأحداث لا تهم أحدًا، وأن محطّات لا تحصى في سيرة أبي الحسنين هي الأجدر بالبحث والتقصّي، وإذا كنت أحيانًا أذهب إلى ما ذهبوا إليه، فإن الحقيقة تكذِّب النظرية لأنها ماضي الإسلام الذي نتشوَّف من خلاله مستقبله، إنْ خيرًا وإنْ شرًّا، وهي في الوقت عينه تقدِّمُ لنا صورة عجيبة لقدرةِ ذلك العبد الصالح على الإمساك بتلابيبِ الذاتِ كي يكون مثالاً لم يتكرر من بعد لشخصية المسلم التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وعلى المسافر من تلك المحطّات أن يتَّخِذَ من بهاء شخصيَّة الإمام عبرة وموعظة فيبتعد عن الغلو ما شاء له الابتعاد، وينزِّه قلمه من كلِّ ما يسيء إلى سيرته ومكانته بين المسلمين، ولاسيما أنه ليس في حاجة إلى أن يكال له بمديح أو ثناء، وليس في حاجة إلى من ينتصف له أو يدافع عنه بعد أن ذهب بكلِّ المجد.

وفي محاولة لكبح جماح الانحياز - الذي لا أبرئ نفسي منه - رأيت أن أتّكئَ على أخبار يرتضيها الوسط الإسلامي والأكاديمي، ولا أشمُّ منها رائحة تطرُّفٍ، وهي في الوقت ذاته مصادر كل من كتب عن الإسلام في فجره وضحاه وظهره وغياب شمسه، ولم أمنع نفسي من النظر في غيرها، أراجعُ ما سمعت، وأقارن بما أقرأ، ولم أكتفِ بمصدرٍ ولا برواية ما وسعني جهدي في هذا المغترب الذي تعزُّ فيه مصادر المشرق ومراجعه في كلّ قضيَّة أعرض لها أو تعرض لي، ولم أتحرَّج أحيانًا من الوقوف موقف المتأمِّلِ من كلّ رواية رأيتها جديرةً بالنظر والتأمُّل إذا اصطدمت مع طبيعة الأحداث ومسارها مهما بلغت منزلة راويها ومكانته، ومهما كانت قيمة المصدر الذي صدرت عنه أو استندت إليه، وخاصَّة إذا ابتعدت عن المنطق وما يرتضيه العقل، وهو نظر قد يمنح فرصة للحوار إن حسنت النَّوايا، واتَّفقنا على أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للودِّ قضيَّة، ولا يخرج مسلمًا من الملَّة، إذا لم يمس ثوابت العقيدة والإيمان. وإذا اجتهدت فإني أطمع بثواب المجتهدين، وأطمع إن أخطأت أو تجاوزت قدري أن يعيدني منصفٌ إلى الحقّ إذا كان قد غاب عنِّي بدون تعصُّبٍ أو اتِّهام، وفي الوقت ذاته أحذِّره من رميي بحجر فليس مِنَّا من هو بلا خطيئة.

ولا أشك في أنك توافقني الرأي بأن أي مسلم يملك شيئًا من الوعي والالتزام لا ينتقص من منزلة أحدٍ من صحابةِ رسول الله رضوان الله عليهم، أو يرغب بالإساءةِ إليهم، فيكفيهم شرفًا صحبتهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ووقوفهم بجانبه وإيمانهم برسالته ودفاعهم عنها، ولكنهم جميعًا من البشر لهم ما للبشرِ من نوازع لا ينكرها أي إنسان أوتي شيئًا من الوعي والمعرفة، كما أن قسمًا ليس بقليل منهم احتسبت الصحبة له ولّما

يتغلغل الإيمان في قلبه، وقد يكون السيف أدخله فيه فضمر من الأحقاد غير ما أظهر، وقد تكون حسابات الربح والخسارة هي التي أخذت بيده فكان وبالاً على الإسلام والمسلمين، ولابد أن نؤمن أيضًا أن هناك قَدَرًا سماويًا واكب الأحداثَ فسارتْ بالشكل الذي سارت عليه، وهي إرادة الله سبحانه وتعالى أرادها.

وإذا كنتُ مأخوذًا بشخصية الإمام بالطريقة التي حدثتك عنها، فإن هذا الأخذ لم يكن بسبب عقيدةٍ موروثةٍ فحسب، وإنما بسبب قراءة أزعم أنها كانت واعية لكل المزالق الذاتية التي يمكن أن تجنح بالكاتب أو القارئ أو المفكِّر، كما أن تجربتي في البحث العلمي التي تجاوزت الثلاثة عقود أشرفتُ خلالها على عدد ليس بقليل من الرسائل العلمية، وشاركت في مناقشة عدد لا يستهان به منها في غير جامعة، منحتني بصرًا وبصيرة لا أنزِّههما من نوازع الأنا، ولا أتهمهما بالغلو والجنوح، ولقد تحدَّثَ طلابي في غير بلاد من البلدان التي قَدَّرَ لي الاغتراب أن أدرِّس فيها عن المنهج العلمي الطيب الذي التزمت به في الإشراف والتوجيه والمناقشة، ونُشِرَتْ لي كتبٌ في مؤسسات ثقافية عرفت برصانة مطبوعاتها وخضوعها للتحكيم قبل النشر، فما وجدت كلمة تقولها غير الإشادة بما قدَّمْتُهُ لها.

وإذا كان الإمام عليه السلام قد عاصر كلَّ ذلك الجمع من الصحابة فلابد للذي يتصدى لسيرته أن يتصدى لأحداثها، وعلاقة تلك الأحداث بهم، ولا شكَّ أن فيها من العسل المرِّ ما قد يدفع كثيرين إلى الانحياز ضدّ الكاتب مهما حاول أن يبقي صلة الرحم قائمة بينه وبينهم.

وفي محاولة لكبح جماح الانحياز - الذي لا أبرئ نفسي منه - رأيت أن أتّكئَ على أخبار يرتضيها الوسط الإسلامي والأكاديمي، ولا أشمُّ منها رائحة تطرُّفٍ، وهي في الوقت ذاته مصادر كل من كتب عن الإسلام في فجره وضحاه وظهره وغياب شمسه، ولم أمنع نفسي من النظر في غيرها، أراجعُ ما سمعت، وأقارن بما أقرأ، ولم أكتفِ بمصدرٍ ولا برواية ما وسعني جهدي في هذا المغترب الذي تعزُّ فيه مصادر المشرق ومراجعه في كلّ قضيّة أعرض لها أو تعرض لي، ولم أتحرَّج أحيانًا من الوقوف موقف المتأمّلِ من كلّ رواية رأيتها جديرةً بالنظر والتأمُّل إذا اصطدمت مع طبيعة الأحداث ومسارها مهما بلغت منزلة راويها ومكانته، ومهما كانت قيمة المصدر الذي صدرت عنه أو استندت إليه، وخاصّة إذا ابتعدت عن المنطق وما يرتضيه العقل، وهو نظر قد يمنح فرصة للحوار إن حسنت النّوايا، واتّفقنا على أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للودِّ قضيّة، ولا يخرج مسلمًا من الملّة، إذا لم يمس ثوابت العقيدة والإيمان. وإذا اجتهدت فإني أطمع بثواب المجتهدين، وأطمع إن أخطأت أو تجاوزت قدري أن يعيدني منصفٌ إلى الحقّ إذا كان قد غاب عنّي بدون تعصُّبٍ أو اتّهام، وفي الوقت ذاته أحذّره من رميي بحجر فليس مِنّا من هو بلا خطيئة.

ولا أشك في أنك توافقني الرأي بأن أي مسلم يملك شيئًا من الوعي والالتزام لا ينتقص من منزلة أحدٍ من صحابةِ رسول الله رضوان الله عليهم، أو يرغب بالإساءةِ إليهم، فيكفيهم شرفًا صحبتهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ووقوفهم بجانبه وإيمانهم برسالته ودفاعهم عنها، ولكنهم جميعًا من البشر لهم ما للبشرِ من نوازع لا ينكرها أي إنسان أوتي شيئًا من الوعي والمعرفة، كما أن قسمًا ليس بقليل منهم احتسبت الصحبة له ولمّا

يتغلغل الإيمان في قلبه، وقد يكون السيف أدخله فيه فضمر من الأحقاد غير ما أظهر، وقد تكون حسابات الربح والخسارة هي التي أخذت بيده فكان وبالاً على الإسلام والمسلمين، ولابد أن نؤمن أيضًا أن هناك قَدَرًا سماويًا واكب الأحداثَ فسارتْ بالشكل الذي سارت عليه، وهي إرادة الله سبحانه وتعالى أرادها.

وإذا كنتُ مأخوذًا بشخصية الإمام بالطريقة التي حدثتك عنها، فإن هذا الأخذ لم يكن بسبب عقيدةٍ موروثةٍ فحسب، وإنما بسبب قراءة أزعم أنها كانت واعية لكل المزالق الذاتية التي يمكن أن تجنح بالكاتب أو القارئ أو المفكّر، كما أن تجربتي في البحث العلمي التي تجاوزت الثلاثة عقود أشرفتُ خلالها على عدد ليس بقليل من الرسائل العلمية، وشاركت في مناقشة عدد لا يستهان به منها في غير جامعة، منحتني بصرًا وبصيرة لا أنزّههما من نوازع الأنا، ولا أتهمهما بالغلو والجنوح، ولقد تحدَّثَ طلابي في غير بلاد من البلدان التي قَدَّرَ لي الاغتراب أن أدرّس فيها عن المنهج العلمي الطيب الذي التزمت به في الإشراف والتوجيه والمناقشة، ونُشِرَتْ لي كتبٌ في مؤسسات ثقافية عرفت برصانة مطبوعاتها وخضوعها للتحكيم قبل النشر، فما وجدت كلمة تقولها غير الإشادة بما قدَّمَتْهُ لها.

وإذا كان الإمام عليه السلام قد عاصر كلَّ ذلك الجمع من الصحابة فلابد للذي يتصدى لسيرته أن يتصدى لأحداثها، وعلاقة تلك الأحداث بهم، ولا شكَّ أن فيها من العسل المرّ ما قد يدفع كثيرين إلى الانحياز ضدّ الكاتب مهما حاول أن يبقي صلة الرحم قائمة بينه وبينهم.

ولست بصدد عرض سيرته عليه السلام من خلال ما روي عنه من أخبار تدور في فلك المعجزات أو الغيبيات، فأبعدتها من محاور البحث، لأني ما رأيته في حاجة إليها وإن صحَّت، ولا أقف منها موقفًا سلبيًّا، ولا أراها كثيرة عليه، فمنزلته بعد منزلة أخيه المصطفى صلوات الله عليهما وسلامه، لا يختلف على ذلك إلاَّ مكابر رأى الحقَّ فجانبه، أحيانًا بعناد وسبق إصرار، وأحيانًا بسبب إرث لا يستطيع التنازل عنه، وأحيانًا بسبب جهل وعدم تبصُّر، وإذا كان سبحانه قد خصَّ نبيَّه صلوات الله وسلامه عليه بفضيلة فقد خصَّه بها، باستثناء النبوَّة، وإذا كان قد أدَّبه سبحانه، فقد أدَّبَ وليَّه بأدبه، وأحبَّه مثلما أحبَّ أخاه، وقد أعلن ذلك المصطفى في غير مناسبة -كما سيتبيَّن لك من بعد - بل إن جميع محطَّات حياته الكبرى المنظورة عليه السلام تدور في فلك المعجزات، ومن الصعب أن تعرض لفصل من فصولها بدون أن تربط بينه وبين فصول حياة المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما.

وبعد كلِّ هذا لك أن تتخيَّل ما عانيته يوم تجاوزت قدري واتَّكلت على الله وعزمت على الإبحار في رحاب تلك السيرة، يومها لم أجد ما أتعلَّق به إلاَّ ما تعلَّق به زوَّاره عند دخولهم ضريحه المقدَّس فقلت معهم: (يا مولاي أتأذنُ لي بالدخول أفضلَ ما أذِنت لأحدٍ من أوليائكَ فإن لم أكنْ له أهلاً فأنت أهلٌ لذلك)، ويومها سألت الله مخلصًا أن يشرح لي صدري، وييسِّر لي أمري، ولم أكتف بذلك، وإنما استعنت أيضًا بقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾!!.

إمام الأئمة

كانت ثوابت المرتضى عليه السلام بنيانًا متين الأركان والقواعد، ما استطاعت كل العواصف والزعازع والزوابع والزلازل والأعاصير التي دارت من حوله أن تزحزحه عنها قيد أنملة، وكان الإنسان والإيمان فيها قطب الرحى الذي تدور حوله، وكان المجتمع الفاضل هدفه، وسعادة الإنسانية في الدارين مبتغاه، ولكن شيطان المطامع والمطامح والأهواء والتعصب والعنصرية وقف سدًّا منيعًا أمام مشروعه العظيم، إلا أنه استمر يقاوم إلى أن تمكّن الشرُّ منه فذهب شهيدًا حميدًا، ولكن فكره لم يذهب، ومبادئه لم تغب، وسيرته لم تشوَّه على الرغم من الجهود الخرافية التي بذلت لطمسها وتشويهها، والأموال التي أهدرت ومازالت تهدر لمحو سنا ضوئها الذي بهر الدنيا.

وما أعظم خسارة المسلمين خاصَّة، والدنيا عامَّة بسبب موقف تلك الفئة الضالَّة الباغية التي حاربته وناصبته العداوة عن بصر وبصيرة، أو عن غيرهما، ولم تترك له فرصة حقيقيَّة لتطبيق دستوره الذي أعلنه يوم استخلفه المسلمون إمامًا.

إنه أبو الحسنين فخر جميع الأنبياء والمرسلين، وجميع المفكرين والمصلحين والثوار الصادقين، فخر كل من أحبه وتغنى بذكره، وعزُّ من جاهد من كل الملل والنحل للتعلق بأطراف مسيرته الخالدة، عليٌّ وما أدراك ما علي، مثال الورع والتقوى، ومثال التضحية والفداء، ومثال الزهد والتعفف، ومثال الحكمة والعقل، وديوان الحق والرحمة، وأبو الضعفاء

والمساكين، وإمام العلماء والمصلحين، ونور الله المبين، وصراطه المستقيم، وسيف الله الذي ما نبا في واقعة، عزُّ الإسلام وفخره، ووجه قيمه الكبرى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو عترته الطاهرة، وسفينة نجاة من تمسك به في الدارين.

ولقد صدق ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/٢٢ بقوله: (**فأما فضائله عليه السلام فإنها بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار مبلغًا يسمُجُ معه التَّعرض لذكرها، والتَّصدي لتفصيلها.. فما أقول في رجل أقرَّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنَّه استولى بنو أميَّة على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكلِّ حيلة في إطفاء نوره، والتَّحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعَّدوا مادحيه، بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمَّن له فضيلةً، أو يرفع له ذكرًا، حتى حظروا أن يسمَّى أحدٌ باسمه، فما زاده ذلك إلاَّ رفعةً وسُموًّا، وكان كالمسك كلَّما سُتِرَ انتشر عَرفه، وكلَّما كُتِمَ تضوَّع نَشْره، وكالشمس لا تُستَرُ بالرَّاح، وكضوء النَّهار إن حُجبت عنه عين واحدة أدركته عيون كثيرة.**

وما أقول في رجل تُعْزى إليه كلُّ فضيلةٍ، وتنتهي إليه كلُّ فِرقةٍ، وتتجاذبه كلُّ طائفةٍ، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذرها، وسابق مضمارها، ومُجَلِّي حَلْبتها، كلُّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى).

وفي مسيرته من العبر ما لا يحصى، ومن الخوارق ما لا يعد، ومن حكايات البطولة ما لا يصدق، ومن قصص الإيثار ما يدعو إلى الدهشة والعجب، ومن حكايات الزهد بالدنيا ما جعله إمام النساك وقدوتهم، ومثال

المتصوِّفة ومنارتهم، وكان في عبادته إمامًا، وفي إقدامه وتضحيته وشجاعته عجيبة، ولقيم الفروسيَّة ومعانيها مثالاً، أعطى كل شيء، ولم يطمع بشيء، وما طالب بشيء لا لنفسه ولا لذويه، ولم يأخذ أي شيء، وحتى الحق الذي كتبه الله له وللذرِّيَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليهم في كتابه تنازل عنه، ولم يطالب به، ولعلَّه ما فكَّر به، فخرج وما خلَّف لأبنائه ملبوسًا ولا مأكولاً، وعاش بعزٍّ لم يشاركه فيه أحد من خلق الله، لانتصاره العجيب على نفسه، وخرج، وذلك ضريحه، وأولئك زواره، وتلك صُرُحُ من ناصبه العداوة والبغضاء تضج بالخزي والعار والشنار، رِمَمٌ بالية تنعق فيها الغربان، تذكِّر الأجيالَ بخسَّتهم، وقِصَرِ نظرهم، وسوء منقلبهم.

ويكفيه فخر الدَّهر وعزُّ الأبدِ أن يكون على يقين بأن ناصره ومحبه ينتظر من الله الرحمة، وعدوه ومبغضه ليس أمامه إلا غضب الله وسطوته، فحقٌّ له حين قال وهو الصادق الأمين في موضع التذكير لا موضع الفخار كما جاء في النهج ٢٩٣: (نحن شجرة النبُّوَة، ومحطُّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحِكَم، ناصرنا ومحبُّنا ينتظر الرحمة، وعدوُّنا ومُبغِضُنا ينتظر السطوة)، قالها بملء فمه لا تبجحًا ولا فخارًا، لأنه رأى ذلك حقيقة لا مراء فيها ولا مبالغة، فأراد تذكير القوم بها، أليس هو رأس الثقل الثاني الذي قال عنه صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه « إني تارك فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي »، وهل بعد هذا القول استزادة لمستزيد؟، وكيف لا يكون؛ والله سبحانه وتعالى هو الذي اختاره من بين خلقه كي يكون أولهم إسلامًا وإيمانًا برسالة المصطفى، وإن كان من أحد فليس غير خديجة الكبرى رضوان الله تعالى عليها.

وأحرى بك أن تنعم النظر في فصول حول فضائله عقدها ابن أبي الحديد في شرح النهج، وابن حنبل في كتاب فضائل علي، وابن عساكر في الأجزاء التي خصَّصها لترجمته في تاريخه، وغيرُهُم من أصحاب كتب السير والحديث، فوالله إنها ستأخذك أخذ مقتدر إلى حزن ما بعده حزن، وفجيعة ما بعدها فجيعة، وكيف لا تفجع وأنت تقف على صفحات من حياته عليه السلام ولعلك قرأت غالبيتها متفرقة هنا وهناك، وكلُّها تكوي القلب، مما تبعها من صور حياة حكام الأمة على مرِّ الحقب والأجيال قديمًا وحديثًا.

وإذا كنت آخذ بيدك فلكي أبين لك كيف أن الإنسان ينزع إلى الباطل في سجيَّته وليس إلى الحق، وأن الظلم طبيعة فيه وليس العدل والإنصاف، وأن حبَّ الدنيا والتكالب عليها فوق كل حب، وأن الشحَّ غالب على طبعه، وحبَّ المال أسمى أهدافه، وأن روح القبيلة مازال فوق كلِّ روح في بلادنا الإسلاميَّة، ولأثبت لك أن قِمَّة الحكم مهما كانت سويَّة طاهرة نظيفة لا يمكن أن تسيطر على نوازع الأنا في ذاتها، وأن أساليب الترغيب والترهيب التي هي ليست من ناموس الحق والعدل لابد منها في ظروف إدارة الحكم في مجتمع غارق بالتخلُّف والجهل، وأن الإمام عليه السلام انتصر على كلِّ سجايا النفس الشرِّيرة الغارقة في الظلمة، كان يطمح أن يرتفع بأمته إلى جنان الخلد في الدنيا والآخرة، وذلك بتطبيق أنقى المثل وأصفاها على نفسه أوَّلاً، وعلى أهل بيته ثانيًا، وعلى أقرب صحابته ثالثًا، أراد أن يتساوى القريب القريب مع البعيد البعيد، وأراد أن يجتثَّ دابر الفقر من جذوره كي يخلق مجتمعًا فاضلاً لا يشعر نفر فيه بالحيف ويكون قدوة لأجيال الدنيا القادمة، لا يبنى فيه قصر منيف يعاني ساكنه من التخمة وبجانبه كوخ يئن ساكنيه من الجوع

والفاقة، أراد كلَّ هذا بحوار لم ينقطع، وبنصيحة في كلِّ مناسبة، وبقدوة في المأكل والملبس والسلوك، ولكن ما أراده صعب التحقيق، إلاَّ أنه جَدَّ في محاولته بدون كللٍ إلى أن استشهد في سبيلها، وعاش وسط ذلك الجدب، وأية عيشة عاش، وبأي رداء خرج، وأي مجد ترك، وبأي شموخ تحلّى!!!.

ميزان المرتضى

قال أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٦١/١ : (علي بن أبي طالب سيد القوم، محبُّ المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والعلوم، ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات، راية المهتدين، ونور المطيعين، وولي المتقين، وإمام العادلين، أقدمهم إجابة وإيمانًا، وأقومهم قضيَّة وإيقانًا، وأعظمهم حلمًا، وأوفرهم علمًا، علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. قدوة المتَّقين، وزينة العارفين، المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع علم التفريد، صاحب القلب العقول، واللسان السؤول، والأذن الواعي، والعهد الوافي، فقّاء عيون الفتن، ووقيٌّ من فنون المحن، فدفع الناكثين، ووضع القاسطين، ودمغ المارقين، الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله).

وروى ابن أبي الحديد أيضًا في شرح النهج ٣٠٥/٤ عن أبان بن عياش قال: (سألتُ الحسن البصري عن عليّ عليه السلام، فقال: ما أقول فيه! كانت له السابقة والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحبة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة، إن عليًّا كان في أمره عليًّا، رحم الله عليًّا وصلى عليه! فقلت يا أبا سعيد، أتقول: صلَّى عليه لغير النبي! فقال: ترحَّم على المسلمين إذا ذكروا وصلِّ على النبي وآله، وعلي خير آله. فقلت: أهو خير من حمزة وجعفر؟ قال: نعم، قلت: وخير من فاطمة وبنيها؟ قال: نعم، والله إنه خير آل محمد كلهم، ومن يشكُّ أنه خير منهم، وقد قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وأبوهما خير منهما!» ولم يجر عليه اسم شرك ولا شرب خمر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام: «زوَّجتك خير أمتي»، فلو كان في أمته خيرٌ منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه آله وسلم بين أصحابه، فآخى بين علي ونفسه، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الناس نفسًا، وخيرهم أخًا. فقلت يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في عليٍّ؟ فقال: يابن أخي، أحقِنُ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لشالت بي الخُشُب)، ومما يوثّق ما ذكره الحسن ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٨٧ من قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: « الحسن والحسين سيِّدا أهل الجنّة وأبوهما خيرٌ منهما».

تلك قطرة في بحر مّما قيل بحقّ عليّ، توثّق بعض أوسمته التي وشّحه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتبين بعض صفاته التي انفرد بها، وإذا كانت القطرة كلَّ هذا فماذا أستطيع أن أقول، وأية سفينة أركب في بحر ليس به غير اللؤلؤ، ولكنه في عاصف لا يؤمن ركوبه. على أن ما يخفف من هول المطّلع أني أردت من بين ما أردت في محاولتي إبراز قوّة الإنسان في ذاته، وقدرته على التسلط على نفسه، وتطويعها كي تسمو عليها بصورة لم ألمسها عند غيره من بني البشر.

ولقد فتشت في أوراق التاريخ والسيرة بعين تبحث عن المثالب أكثر من بحثها عن المحاسن لعلمي بها، ولقد نظرت في كل ما وصلت إليه يدي من كتب أصحاب الحديث والأخبار والسير والأحداث ففشلت في العثور على ما يثلب سيرته أو يخدشها، ولعل ما أخذته من كتب علماء أهل البيت في

مشروع قراءة نهجه وسيرته أقل القليل، لا خوفًا من أحد لأني لا أكتب عن أي أحد، وإنما أكتب عن عليٍّ، وأنا على يقين أنه ما كان لشيعة أو سنة خاصَّة، وإنما هو إمام هداية للإنسانية عامَّة، من أحبَّه، وتمسَّك بهديه نجا، ومن فارقه واختلف مع هديه فارقه الهدى، وعجيب أني ما رأيت فضيلة له في مصدر إلاَّ ورأيتها هي هي في آخر، وإن اختلف صاحب الأول مع صاحب الثاني في مذهبه.

و يوم قررت - في جوٍّ من مشاعر التغرُّب والوحشة - أردت من بين ما أردت أن أتقرب إليه لا طمعًا بثواب على الرغم من مسيس حاجتي إليه، ولا رغبة في شفاعة أنا من أكثر أمة محمد حاجة إليها، ولكنِّي وجدته شاخصًا أمامي في كل أمر عظيم تمنيته لهذه الأمة وإن لم أستطع العمل به، ورأيته يملك علي أقطار نفسي منذ طفولتي المبكرة يوم بهرني سنا ضوء قبَّته المقدسة، كما ملك أقطارها في كل صفحة مشرقة قرأتها في سيرة أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، إذ وجدته بجانبه يواكب كل فصول رسالته، ما عارضه في أمر، ولا اشتكى من أمر، ولا طمع بأمر، وما أخذ من ظلال سيفه، ولا من حقِّه في محكم كتابه، ولا من خلافة أمته درهمًا ولا دينارًا، ولقد ذهب وليس في داره شروى نقير من ذلك الحطام الذي اقتتل القوم بسببه، وملأ بيوت كثير من خاصَّة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، بل لم أجد في بيته بعض تلك الأنفال التي ينبغي أن يتمتَّعَ بها أهل بيته عليهم السلام، ولقد رأيته حينما يزدحم القوم على متاعٍ أبعدهم عنه، ولكنَّه حينما يقصده طالب حاجة، لا ينظر في وجهه حياء منه، وكان على الإملاق يطعم من يطعم حتى ضجت ملائكة

السماء من تلك الأريحية التي لا مثيل لها، فما أثقل ميزانه عليه السلام في كتاب الله المحكم.

ويراودني يقين أن الإمام عليه السلام لم يكن معنيًا بتكوين علاقات مع هذا أو ذاك، فهو مشغول عن هذا وذاك بعباداته وتوسلاته، وبمشروعه الذي لا يعرف الانحياز إلاّ للحق والعدل والإنصاف، ولقد ذهب إلى ذلك صاحب كتاب الغارات من قبل فقال: (كان هو عليه السلام قليل التآلف للناس، شديدًا في دين الله، لا يبالي مع علمه بالدين واتباعه الحقّ من سَخِطَ ومن رَضِيَ) كما نقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/٣٠٤ عنه، وكان مشغولاً أيضًا عن كل ذلك بأمر وسائل تثبيت الدعوة وسبل نشرها، ولعلّه كان أقرب للصرامة في التطبيق، وهي صرامة لا تعرف المجاملة أو الانحياز، ويراودني يقين أيضًا أنه وجد في تلك الرسالة السمحة مشروعًا لتحقيق المجتمع الفاضل الذي تطلّع إليه بعد أن عايش المجتمع القبلي الذي واكبه في الجاهلية والإسلام فرأى ظلمه وجوره وتعسّفه، ولعلَّ هذا الأمر ملك عليه أقطار نفسه فما عاد يفكّر إلاّ بإكماله بعد رحيل أخيه صلوات الله وسلامه عليه، ولاسيما بعد أن عرف البون الشاسع بين المجتمعين، مجتمع الفضيلة الذي أراده الإسلام لخلق الله، وقيم المجتمع الفاسد الذي كانت عليه الجاهلية، ولعلّه أيضًا لم يكن له من الوقت ينفقه على أية علاقة جانبية لا تخدم ما آمن به، إذ إن اهتمامه بأمور الدنيا كان من نوع خاص لا أظنه كاهتمام غيره بها على ما سيتبين لنا.

وإذا وفّقك الله يومًا للصلاة ما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وقبره في تلك الروضة المباركة فستجد اسطوانة شاخصةً يصعب على الآتين من بعد رفعها من مكانها أو إزالتها كما أزيلت مئات الشواخص التي

تخص بيت النبوَّة من مكَّة والمدينة، كان يصلّي بقربها عليه السلام عليه السلام، فسمِّيت باسمه، وتقع خلف اسطوانة التوبة كما ذكر ابن النجار في تاريخ المدينة ٢١٠، وذكر الدكتور حاتم عمر طه في كتابه الكوكب الدري ١٨٩ في تحديد موضعها: (وتقع خلف اسطوانة التوبة من جهة الشمال وتسمى اسطوانة علي بن أبي طالب فقد كان مصلاه صلى الله عليه وسلم إليها. وكان يجلس في صفحتها التي تلي القبر مما يلي باب بيت رسول الله يحرسه، وكان أمراء المدينة يصلون عندها).

وما رأيت عليًّا تبجَّح ببطولة أو ادَّعاها أمام أحد لشهرة أو مطاولة أو مفاخرة، بل رأيته بعين منصفة غير منحازة - على الرغم من انحيازها - شامخًا شموخًا لا يماثله إلا تواضعه وزهده وعدله وتعففه، وما أكثر الوقفات التي وقفتها بين يدي سيرته، وفي كلِّ وقفة أزداد انبهارًا بها وتعلقًا بصاحبها، لم أكتب عنه لأحد، وإن كتبتُ فلأخَفِّفَ لوعةَ فرقةٍ، وحرقةَ أسًى، وإسارَ زمن باعدني عن ضريحه المقدس الذي حرمت من زيارته كل تلك السنين العجاف، وما زلتُ أرى أخرى أشدَّ سوادًا من حَنَكِ الغراب الله وحده يعلم متى ستنزاح كي تعود الطيور المهاجرة إلى أعشاشها.

ومنذ أن أنعمت النظر في بعض أوراقه عليه السلام تأكد عندي أنه كان إمامًا للبشر من كل الملل والنحل والأجناس، لأنهم عنده أخوة في الدين أو الخلق، فهو إن تحدث أو خاطب تحدث عن رَعِيَّةٍ هم من مسؤولية القائم على الأمر، لا يخص عربيًّا أو أعجميًا، أو مسلمًا أو ذميًا، وإنما هي الأمَّة بطوائفها وأعراقها، وهم عنده سواء في الحقّ، من أحبَّه منهم أو من ناصبه العداوة والبغضاء. أو من عرفه أو لم يعرفه، ولا أدل على ذلك من رواية رواها ابن

كثير في البداية والنهاية ٥/ ٤٨٢ وابن عساكر في بتاريخه بترجمته عليه السلام ٣/ ٢٤٩ عن علي بن ربيعة تقدِّم صورة من صور عدم الانحياز إلاّ للحقّ مهما كانت العواقب قال: (جاء جعدة بن هبيرة إلى عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلهزه عليٌّ وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله).

ورأيته عليه السلام في علمه وسيرته معينًا مازالت البشرية قاطبة تغترف منه، وتقتدي في سن قوانينها ودساتيرها حينما غلّبت الجانب الإنساني بهدي دستوره الذي تلقّاه حرفًا بحرف من أخيه المصطفى، ومازالت صرامته في تطبيق ما آمن به مضرب مثل، ومحل دراسة، ومحاولة اقتداء منذ رحيله، فلم يستطع أحد من الخلق بعده أن يحتذي تلك السيرة أو يقاربها، فاستمر في مشهده قبلة العالمين وقدوتهم، فأتعب من حاول، وعنّى من أصرّ.

وانقسم الخلق في محبته أممًا وخلائقَ، وشدُّوا الرِّحال لزيارته من أقطار الأرض، ونزفوا بسبب انبهارهم بسنا مسيرته دمًا وأرواحًا لا يعلمها إلا الله، أحبُّوه في السرِّ والعلن، تحت ظلال السيوف، وفي ظلمات السجون وغياهبها، ومن أين ما نظروا، وحين نظروا وجدوه أهلاً لكل ذلك الحب وتلك التّضحية.

نظروا إليه من زاويا تصعب على التحديد، فأصحاب الحاجات يتوسلون به عند الله بسبب مكانته عنده، فيجدون استجابة تدفعهم إلى التوسل به كلما ضاقت بهم الأمور وعصفت بهم العواصف، وكلما أحاط بهم خوف أو نزل

في ساحتهم بلاء أو مكروه، أو دهتهم داهية، أو سلبهم ظالمٌ حقًا، ويعتقدون في زيارته شفاء من كل داء استعسر طبُّه، فهو باب الحوائج، وهو حبيب المصطفى، وأخوه، وأبو ذريته الطاهرة، وخليفته في الأرض، ومبلغ رسالته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأحبَّه خلق لمنزلته عند الله ورسوله، وهي منزلة لم ينلها بسبب قرابة أو مصاهرة فحسب، أو بسبب مال أو جاه، أو بسبب انخراطه مع من انخرط من قريش وغيرها في الإسلام، لقد نالها باستحقاق لأدوار ثبَّتت الإسلام، ودافعت عنه دفاعًا لا يستطيع أحد أن يطاوله به، ووقّى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بروحه في غير مناسبة، ولم يقل في حقّه ما قال رغبة منه، وإن رغب، وإنما هو أمر الله الذي أراد تكريمه في الدنيا كما كرَّمه في الآخرة، فقال من بينما قال في حقّه: « علي منّي وأنا من علي » و « علي مني بمنزلة هارون من موسى »، و « علي أخي في الدنيا والآخرة »، و « من كنت مولاه فمولاه علي »، و « خلقت من شجرة واحدة أنا وعلي »، و « من سرَّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي فليتولَّ من بعدي علي »، و « أمرني ربّي بسدِّ الأبواب إلا باب علي »، و « عنوان صحيفة المؤمن حبُّ علي »، و « علي أحب خلق الله إلى الله ورسوله».

وأحبَّه خلق لكل ذلك، ولأنه صلى الله عليه وآله رآه قرآنًا في إمامته، وقيادته، وجهاده، وعدله، وقضائه، وتبليغه، وهديه، وعلمه، وصدقه، وما إلى ذلك من القيم التي شرَّعها الإسلام، فقال في حقّه أيضًا: « علي مع القرآن والقرآن مع علي »، و « علي إمام المتقين وأمير المؤمنين وقائد الغرُّ المحجلين »، و « كفُّه وكفّي في العدل سواء »، و « علي الصدِّيق الأكبر »،

و « علي الفاروق بين الحقّ والباطل »، و « لا يبلّغ عنّي إلاّ علي »، و « أنا المنذر والهادي من بعدي علي »، و « أقضى أمّتي علي »، و « الصّديقون ثلاثة مؤمن آل ياسين، ومؤمن فرعون، وأفضلهم علي»، و « أعلم أمتي من بعدي علي ».

وأحبَّه خلق لأن الله سبحانه أراد مكافأته على تضحياته التي لا تحصى، ومسيرته مع النبي في حياته وبعد رحيله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو حامل لوائه في الدارين، وباب علمه، وترجمان رسالته، وهو كفء الزهراء، ومن شايعه فقد فاز بالقدح المعلّى، وحبه عبادة لا تضر معها سيِّئة، وبغضه نفاق، وهو وصيُّه ووارثه، وواوات كل واحدة منها استغرقت من القدماء والمحدثين وقفات تصعب على الإحصاء، ومن بين ما قال صلوات الله وسلامه عليه: « علي حامل لوائي في الدنيا والآخرة »، و « علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به »، و « علي وشيعته هم الفائزون »، و « علي بمنزلة الكعبة »، و « ذكره عبادة والنَّظر إلى وجهه عبادة »، و « علي في النَّاس كمثل قل هو الله أحد في القرآن »، و « علي خير البشر فمن أبى فقد كفر »، و « علي أولكم ورودًا على الحوض وأولكم إسلامًا هو علي »، و « حبُّه إيمان وبغضه نفاق »، و « حقُّه على الأمَّة كحقِّ الوالد على ولده »، و « طوبى شجرة في الجنَّة أصلها في دار علي وفرعها علي »، و « أشقى الأولين والآخرين قاتل علي »، و « أوصي من آمن بي وصدَّقني بولاية علي »، و « لم يكن لفاطمة كفء لو لم يخلق علي »، و « براءة من النار حبُّ علي »، و « لكل نبي وصيٌّ ووارث ووصيِّي ووارثي علي »، و « نادى المنادي يوم القيامة يا محمد نعم الأب أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك علي »، و « عليٌّ

منّي مثل رأسي من بدني »، و « عليٌّ حبيب بين خليلين بيني وبين إبراهيم »، و « علي قسيم الجنّة والنّار ».

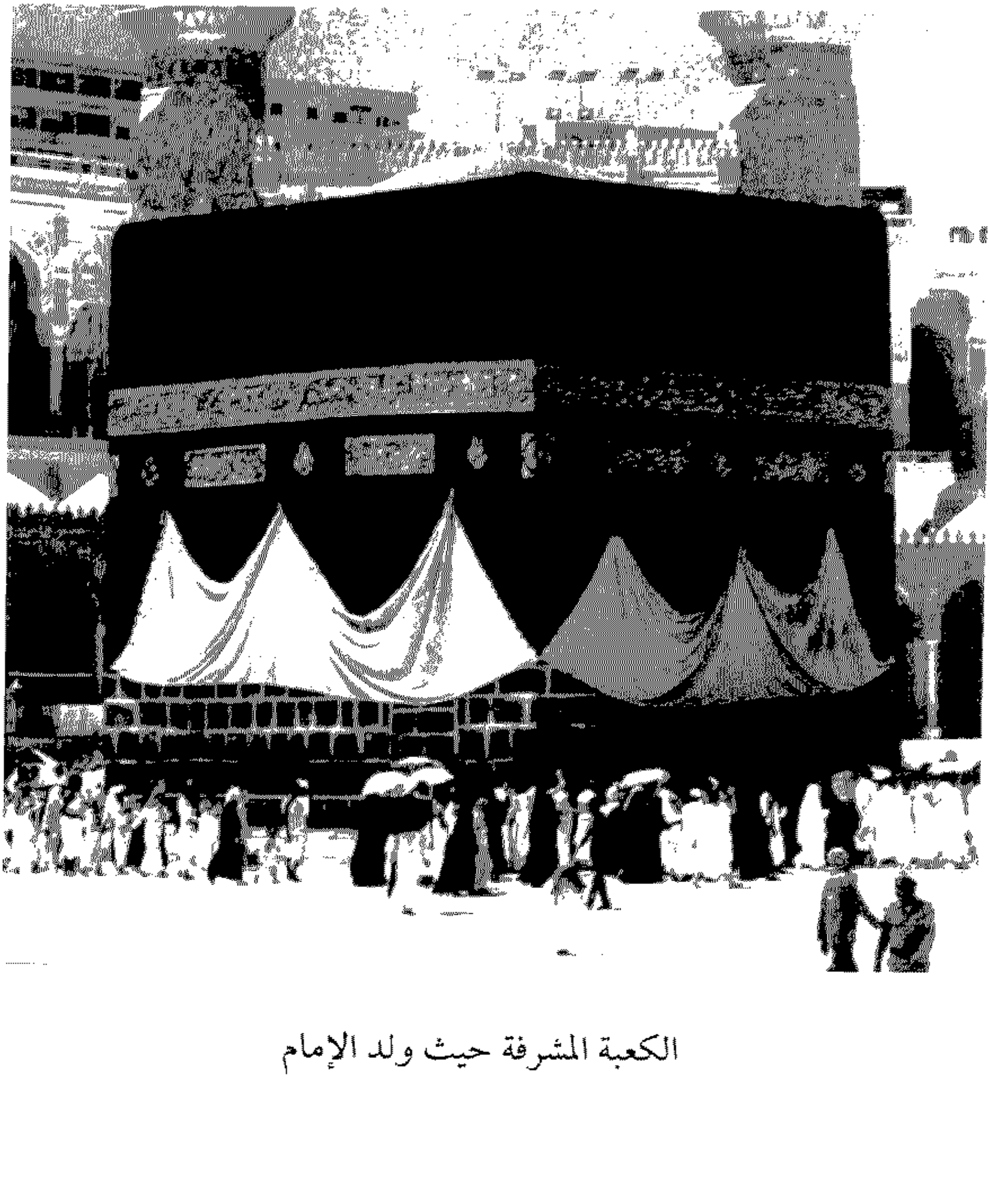

الكعبة المشرفة حيث ولد الإمام

ابن من، وأخو من !!!

وما بين ميلاد أبي السبطين واستشهاده حكاية إعجاز لها أول وليس لها آخر، إعجاز في الميلاد لا يبتعد كثيرًا عن إعجاز ميلاد أخيه ابن الذبيحين صلوات الله وسلامه عليهما في رحلة المخاض من إبراهيم عليه السلام إلى عبد الله، فقد شاركه التنقل بين تلك الأصلاب الطاهرة إلى أن استقرَّا في صلب عبد المطلب، ثم اختلفا في إعجاز الولادة، فيسَّره لوالد حبيبه المصطفى بمائة من الإبل في حكاية النذر التي أعقبت حفر زمزم التي رواها ابن هشام في سيرته ١/١٩١ عن عليٍّ عليه السلام، وحققه لأبي السبطين باختيار البيت العتيق موضعًا لمخاض أمه فاطمة بنت أسد أول هاشميَّة تولد لهاشميين كما ذكر ذلك جمهور من المؤرخين رضوان الله عليها، وهو مخاض لم يشاركها فيه أحد من الخلق منذ قيام البيت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد رآه عزيز السيد جاسم في كتابه علي بن أبي طالب سلطة الحق ١٤—١٥ حكمة الله، وهي حكمته لا ريب في ذلك، لقد أراده سبحانه وتعالى خلقًا آخر ليس كبقيَّة البشر، فكوَّنه فأحسن تسويته وتكوينه، كي يكون النبراس الذي باهى به ملائكة السماء قبل أن يباهي به البشر، ورآه محمد باقر الصدر في كتابه الإمام علي ١٥ إشعارًا (بأنَّ هذا الوليد العظيم سيكون له دور في مؤازرة الرسول على تحطيم الأصنام ونشر دين الله)، ولعلَّ مصداقًا لكلِّ ما يقال عن يوم مولده ذاك ما رواه ابن الأثير في أسده ٥٩٩/٣ من أن الله أوحى (إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما

أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختارا كلاهما الحياة، فأوحى الله عزَّ وجل إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب ؟! آخيت بينه وبين نبيِّي محمد، فبات على فراشه، يفدِّيه بنفسه، ويؤثره بالحياة؛ فنادى جبريل: بخٍ بخٍ ! من مثلك يا ابن أبي طلب يباهي الله عزَّ وجلَّ به الملائكة !).

قال عزيز: (ففي بيت الله العتيق الذي أعتقه الله من الطوفان القديم ومن الرق في محراب الله ولد علي بن أبي طالب مديرًا ظهره للأصنام، فما كان البيت العتيق المليء بالأصنام الجامدة البلهاء إلاَّ بيتًا لله، فكانت ولادة علي بن أبي طالب حكمة الله)، ورآها العقاد في عبقرية الإمام ٢٣ إيذانًا بعهد جديد للعبادة في كعبة الله، فكان كما أراد الله حكمة أريد لها أن تكون معجزة كإعجاز ميلاد المصطفى، قال العقاد أنه عليه السلام (ولد في داخل الكعبة، وكرَّم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمَّة إيذانًا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها، وكاد عليٌّ يولد مسلمًا، بل لقد ولد مسلمًا على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام).

وليس غريبًا أن يُختلف في يوم مولده وشهره وسنته، فهي سُنَّة التاريخ في ذلك الزمان وما تلاه من لأزمنة قبل أن يعرف المجتمع الدوائر التي تسجِّل فيها المواليد. ومن سنَّة التاريخ أيضًا أن ينشغل الناس بمعرفة تواريخ مواليد عظمائهم فيستفتون هذا المصدر أو ذاك، ويقدِّرون على أسس تتناسب مع أوضاعهم، ولابد أن يجانبهم الصواب في كثير من الأحيان، ولكنهم في الغالب أيضًا يقتربون من الحقيقة، إلاَّ إذا كان وراء التقدير ما وراءه من أسباب.

ولا أدل على غياب ذلك التاريخ من اختلاف أصحاب السنن والسير والتاريخ في تحديد عمره الشريف يوم نزول الوحي ما بين ست سنوات إلى ما يزيد على ضعفها، وطبيعيٌّ أن تختلف بعد ذلك في تقدير عمره الشريف يوم استشهاده ما بين سبع وخمسين وخمس ستين سنة، وقد روى في ذلك ابن عساكر في ترجمته ٣/٣٨٣–٣٩٢ خمسًا وثلاثين رواية.

وكما عجزت مصادر أهل الحديث عن وضع تاريخ محدَّد لولادته، عجزت مصادر علماء أهل البيت أيضًا، فقد ذكر المجلسي في بحاره ٣٥/٤–٣٩ عن مصادره غير تاريخ لمولده المبارك في اليوم والشهر والسنة، يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة عن "التهذيب"، وبعد عام الفيل بثلاثين سنة عن الكافي، والثالث عشر من رجب قبل البعثة باثنتي عشرة سنة عن ابن عيَّاش في "المصباحين"، وقال: وروي عن عتَّاب بن أُسيد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب وللنبي صلى الله عليه وآله وسلَّم ثمان وعشرون سنة قبل النبوة باثنتي عشرة سنة، ويوم ثالث عشر من رجب قبل النبوة باثنتي عشرة سنة في "إقبال الأعمال"، وقال أيضًا: قال الشهيد رحمه الله في "الدروس": ولد في يوم الجمعة ثالث عشر شهر رجب، وروي سابع شهر شعبان بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثين سنة، وقال أيضًا: (وقد قيل إنه عليه السلام ولد في الثالث والعشرين من شهر شعبان، وقال علي بن محمد المالكي ...ولد بمكة المشرفة داخل البيت الحرام في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر الله الأصب رجب سنة ثلاثين من عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وقيل: بخمس وعشرين، وقبل المبعث باثنتي عشرة سنة، وقيل: بعشر سنين).

وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في كتابه موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٣٠٦–٣١١ جميع ما أورده المجلسي من روايات في تاريخ ولادته عليه السلام، وأضاف إليها غيرها مما وقف عليه، ولكنه لم يضف أي جديد، ولم يرجِّح تاريخًا بعينه يمكن ذكره.

أما محمد صادق الصدر فقد ذكر في كتابه حياة أمير المؤمنين ٢٩– ٣٣ أنه ولد في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، ورجح أن ولادته كانت قبل المبعث بعشر سنين على أشهر الأقوال كما قال، وبعد ميلاد النبي صلى الله عليه وآله بثلاثين سنة، وهو الراجح اليوم بين أتباع مذهب أهل البيت يحتفلون بمناسبته في كلِّ عام.

أما توفيق أبو علم فقال في كتابه الإمام علي بن أبي طالب ٩–١٠ (ولد رضي الله عنه بمكة داخل البيت الحرام في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة - ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواه - وفي ذلك يقول السيد الحميري:

ولدته في حرم الإله وأمنه — والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة — طابت وطاب وليدها والمولد
في ليلة غابت نحوس نجومها — وبدت مع القمر المنير الأسعد
ما لفَّ في خرق القوابل مثله — إلا ابن آمنة النبي محمد)

وعلى الرغم من كثرة المصادر التي ذكرها الشيخ الغروي في موسوعته، ومحمد صادق الصدر في كتابه حياة أمير المؤمنين بهامش الصحيفة ٣٠ منه لتوثيق ولادته عليه السلام في البيت، وغيره من المحدثين، فيبدو لي أن قصيدة

السيد هي أقدم مصدر وصل إلينا بشأن ميلاده في البيت عليه السلام، ولمزيد من التفصيل في معجزة ميلاده لك أن تنظر في البحار ٣١/٣٥–٤٤، ومروج الذهب ٣٥٨/٢ والاستيعاب ١٠٨٩/٣–١١٣١، أما روايات أهل البيت عليهم السلام فقد وصلتنا في مصادر متأخِّرة.

ولا شكَّ أن ميلاده كان عجيبة من عجائب دنيا الرجال والنساء من قريش عامة ومن بني عبد المطلب خاصة، وسيبقى، ولابد أن فاطمة حينما أطلت برأسها من البيت وهي تحمل الوليد المبارك رأت أُمَّةً من نسوة قريش بانتظارها، فالوالدة زوجة سيد البطحاء، والمولود عجيبة ما سمعت قريش بمثلها ولا رأت، كما لم يسمع بها العرب والعجم من قبل ومن بعد، ولقد روى المجلسي في بحاره ٣١/٣٥–٣٨ روايات عدَّة عن هذه المعجزة التي كرَّم الله بها الإمام وأبويه وذريته الطاهرة ومحبِّيه من بعد.

ولقد تقولت بعض الأقلام قديمًا وحديثًا بشأن مولده في البيت العتيق، وصعب عليها قبول مكرمة مثلها يختصُّ بها الإمام، فنسبته لمولود آخر، هو حكيم بن حزام ابن أخي خديجة الكبرى رضوان الله تعالى عليها كما ذكر ابن أبي الحديد في أمر ميلاد المرتضى عليه السلام من بين ما ذكر في شرحه ٢٠/١.

وأنكرته عليه، وادعته بدعة، أو تجاهلته فلم تشر إليه مصادر أخرى، ولو استبعدنا روايات ما حدث للبيت ساعة أدرك المخاض فاطمة، وتصورنا الأمر على واقعه لتبين لنا إمكانية حدوثه، وأن مجرد ولادته فيه هو إعجاز لأنه لم يتحقق لغيره من بني البشر، وهي كرامة خُصَّ بها هذا العبد الصالح لدور سيحين من بعد جعله جديرًا بكل كرامة وإعجاز.

فالبيت يوم ولد المرتضى عليه السلام ليس هذا البيت الذي يعرفه المسلمون اليوم، لم يكن يوم أدرك المخاض فاطمة بنت أسد غير الكعبة المشرفة وغير فضاء يحيط بها، وغير المسعى الذي لا يبتعد عن بيوت الهاشميين وغيرهم إلاّ بفاصل لا يتجاوز عشرات من أمتار، ولو كتب الله لك حجَّ بيته الحرام وسألت أيَّ خادم من خدَّام البيت المعظَّم عن مكتبة مكَّة المكرَّمة لأشار لك بإصبعه إلى مكانها، وهي لا تبتعد عن الكعبة أكثر من خمسمائة متر في ما أحسب، وعلى أرضها كان المنزل الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شكَّ أنَّ بيت أبي طالب بجواره، ولا يستغرب من أم المرتضى ولا من غيرها أن تطوف بالبيت العتيق حينما يثقل عليها الحمل لعل ربَّ البيت يخفف عنها آلامه وأوجاع مخاضه إن جاء، بل لعلَّ القلق من أوجاع المخاض وآلامه ساور أمَّه رضوان الله عليها أكثر من غيرها من لداتها القرشيات وغيرهنَّ، فحملها هذا كان في أخريات أربعينياتها، ولعلَّها تجاوزت الخمسين يوم حملت به، ولعلَّ خوفًا شديدًا اعتراها في هذا الحمل بسبب أوجاعٍ رافقته، فما يمنعها أن تذهب إلى بيت جدِّها إبراهيم عليه السلام تدعو فيه ربَّ إبراهيم أن ييسر عليها مخاضها ويخفِّف من آلامها، وإياك أن تظن أن البيت العتيق تفصله عن بيت أبي طالب فيافٍ وقفار، فهو بجواره، أو على حدوده، ولا يستبعد أيضًا أنه كلما قارب حين مخاضها ساورها خوف يدفعها رضوان الله عليها للذهاب إلى البيت والطواف حوله، ولا يستبعد أن يدركها المخاض في أثناء طوافها، فلا تستطيع العودة إلى بيتها، وليس لها من ملجأ إلا أن تدخل البيت المبارك لتلد فيه، ولعل غيرها من النساء

أدركهنَّ المخاض أثناء الطواف، ولكنهن استطعن مقاومته وذهبن إلى مكان يمكن أن يلدن فيه خارجه، ولكنَّ الله أراد أن يكون ميلاده معجزة فكان.

ولا شكّ أنه من بركة وليد البيت أن فاطمة بنت أسد لم تستطع مقاومة مخاضها، ولم يكن لها من ملجأ في تلك الساعة الحرجة تلجأ إليه غير كعبة إبراهيم عليه السلام.

وإذا كانت بعض المصادر قد أحاطت تلك الولادة بحكايات ذكروها بسندها فقد رآها بعضهم تبتعد عن الواقع، ورآها آخرون من كرامات ولادة الإمام، وأيًّا كانت، فإن الإمام بشخصه عليه السلام من أعظم معجزات رسالة سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه بعد القرآن، لا يختلف على ذلك أحد من المنصفين من أية ديانة كان.

وذكر أبو الفرج في مقاتله ٣٩ وابن أبي الحديد في الشرح ١/ ١٨ أن أمه فاطمة بنت أسد رضوان الله عليها سمَّته حيدرة، فغير أبوه اسمه وسمَّاه عليًّا، وذكر السيد أحمد صقر في هامش مقاتل أبي الفرج ٣٩ نقلاً عن ابن قتيبة أنه قال: (كانت أم علي بن أبي طالب سمته وأبو طالب غائب حين ولدته أسدًا باسم أبيها أسد بن هاشم بن عبد مناف، فلما قدم أبو طالب غيَّر اسمه وسمَّاه عليًّا، وحيدرة اسم من أسماء الأسد).

وذكر ابن أبي الحديد في الشرح ٣١٨/٤ (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتيمن بتلك السنة وبولادة علي عليه السلام فيها، ويسميها سنة الخير وسنة البركة، وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن من قبلها شاهد ذلك « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا أبوابًا كثيرة من النعمة والرحمة»، وكان كما قال

صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحامي عنه وكاشف الغمَّاء عن وجهه، وبسيفه ثبت دينُ الإسلام، ورست دعائمه، وتمهدت قواعده).

وعلى عادة القوم في ذلك الزمان لابدَّ من مرضعة ترضع الوليد إذا كان من أبناء البيوتات والأحساب، فكانت امرأة هلالية حلَّت بركته عليه السلام على بيتها، فسمَّته ميمونًا إذ كان سببًا لنجاة أخيه من الرضاعة من موت محقق وهو في سنٍّ لم تتجاوز الثانية، ودارت حول طفولته حكايات تدخل من باب المعجزات أيضًا، كما دارت حول مناسبات أسمائه حكايات أخرى لن نتطرَّق إليها تماشيًا مع خطَّتنا في عرض سيرته، أما غير ذلك فيمكن الرجوع إليه في الأجزاء التي خصصها الإمام المجلسي في بحاره لحياة أمير المؤمنين عليه السلام، أو إلى غيره من كتب السيرة والتاريخ.

وليس خافيًا أن عشيرتهما الأقرب التي أمر الله نبيَّه بإنذارها هي عين العشيرة، رأسها قصي بن كلاب سيِّد ولد إسماعيل الذي أعاد لقريش مجدها الغابر فأصبح وليَّ أمر مكة بلا منازع، وسادن بيتها العتيق، ويوم رحل أصبح ولده عبد مناف عماد البيت القرشي، فلمَّا رحل تسلَّم مكان الصدارة فيها هاشم وجه مكة، وعلمها، وأولُّ من سنَّ رحلتي الشتاء والصيف لقريش، أمُّه عاتكة بنت مُرَّة بن هلال.

ومازالت الأمة تضرب المثل بكرم هاشم هذا وطول قامته التي ارتفعت فوق كلّ قامات العرب في زمانه، بعد تولّيه رفادة ضيوف الرحمن وسقايتهم، وشمخ برأس قريش بين قبائل العرب يوم سنَّ سُنَّة استضافة زوار بيت الله.

وسمَّاه أبوه عَمْرًا، ولكنّ الله قدَّر له أن يعرف بتلك الكرامة التي أنقذت قريشًا من غائلة الجوع في عام شديد الإملاق فسمِّي هاشمًا، ولعلّه ببركة سنَّته

تلك كان حلف الفضول الذي تعاهدت فيه قريش على إنصاف كل مظلوم من أهل مكّة أو من غيرها يظلم فيها، ولقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»).

وجدُّهما الأقرب شيبة الخير عبد المطّلب بن هشام، وجه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ووريث بئر هاجر، وسيِّد قريش وحامي البيت، وأمير الأصالة العربيَّة وقيمها النبيلة من كرم وشمم وإباء وعزَّة ونبل ووفاء، الحنفي الذي عرف الله حقَّ معرفته فتحنَّث في الغار عينه الذي تحنَّث به حفيده من بعد، الذي آمن بأن ربَّ البيت قادر على حماية بيته على الرغم من فيلة إبرهة وجيشه وجبروته، فلم يخيِّب سبحانه رجاءه، وهو فوق كلِّ هذا جدُّ المصطفى خاتم الرسل حبيب ربِّ العالمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أمه سلمى بنت عمرو النجَّارية الخزرجيَّة اليثربية التي ببركة رسول الله وركة أخيه، وبصلة رحمها تلك جعل الله من يثرب مدينة رسول الله ودار هجرته، فقد تزوجها هاشم في أثناء مروره بيثرب في طريقه بتجارة إلى الشام، فكانت طالعَ سعد على الحفيد المبارك الذي جاء من بعد، ولم تستجب لدعوته أول مرَّة جميع القبائل التي هاجر إليها ودعاها أو التي التقاها في مواسم مكّة باستثناء ستة من الخزرج بينهم اثنان من أخوال أبيه بني النجار هما أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث رأوا في دعوته فكاكًا لرقابهم من النار، وحلاً لمشكلات مدينتهم التي كادت تحيلها حرب الأخوة هشيمًا تذروه الرياح، وبعودتهم إلى مدينة العداوة والبغضاء استجاب نفر آخر، وفي عام قابل زار مكّة من ذلك النفر اثنا عشر رجلاً من الخزرج بينهم ثلاثة من بني

النجار لمقابلة المصطفى ومبايعته بيعة العقبة الأولى، وبعودتهم رفقة مصعب بن عمير الصحابي الشهيد رضوان الله عليه استجاب نفر آخر زار منهم مكّة في عام قابل ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان بينهم تسعة من الأوس أما البقيّة فمن الخزرج بينهم تسعة من بني النجار، فكانت بيعة العقبة الثّانية، كما ذكر في السيرة ٢/٤٦-٤٩، ٣٨-٣٩ وأنساب الأشراف ١/٢٧٥-٢٩٧ وشرح النهج ٤/٣٢٧) وغيرها.

وجدَّتهما التي اختارها الله وعاءً لوالديهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، نسب كان موضع تكريم لعبد المطلب، وموضع تشريف لعمرو بن عائذ أراد الله أن يخصَّ ابنته فيه لحمل أمانة نطفة محمد وعلي عليهما السلام. وإن شئت المزيد من أخبار هذه الشجرة المباركة فلك أن تراجع طبقات ابن سعد ١/٥٩-٨٩، وسيرة ابن هشام ١/١٥٦-٢٣٤، وأنساب البلاذري ١/ ٥٦-١٠٥، وترجمته عليه السلام في تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٢١-٢٥ وغيرها من كتب الحديث التاريخ والسير والأنساب.

وتعلم قريش أنها ليست من جزيرة العرب، فهم من نسل إبراهيم، ولقد سئل الإمام غير مرَّة في الكوفة على ما ذكر ياقوت في معجم بلدانه ٤/٥٥٤ عن أصل قريش فقال: نحن نبط من كوثى، وهي من أرض بابل، ولد فيها إبراهيم الخليل عليه السلام، وما زال مقامه قائمًا فيها على ما ذكر ياقوت.

وكلاهما صلوات الله عليهما وسلامه طهَّره الله من سفاح الجاهلية، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٦٠ بسلسلة ذهبيَّة (عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي بن حسين أن النبي صلى الله عليه وسلَّم قال: إنَّما خرجت من

نِكاحٍ، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم لم يُصبني من سفاح أهل الجاهليَّة شيءٌ، لم أخرج إلاّ من طُهْرٍ)، وقال الإمام علي عليه السلام في النهج ٥٠٠ (وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عَبْدُهُ ورسُولُهُ وسَيِّدُ عبادِهِ كُلَّما نَسَخَ اللهُ الخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ في خَيْرِهِما، لم يُسْهِم فيه عاهِرٌ ولا ضَرَبَ فيهِ فاجِرٌ).

وعليٌّ ابن سيِّد البطحاء، ولد في أوج المكانة التي احتلَّها أبو طالب بجدارة وسط البيت القرشي، ولابد أن نتساءل عن سرِّ ذلك العزِّ الذي تمتَّع به، فلم يكن أكبر أبناء عبد المطلب، وما كان أيضًا أكثرهم ثراء، بل لعلَّه كان من أفقرهم، إذ لم يكن من المهتمِّين بتجارة وإن تاجر مرَّات في ثلاثينيَّات عمره، ولعل آخر تجاراته كانت رفقة اليتيم المبارك، التي التقى فيها الراهب بحيرا وهو في طريقه إلى الشَّام على ما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/١٢١ الذي بشَّره وحذره بما يمكن أن يقع للنبي المنتظر من غدر وكيد، فعاد من حيث أتى، ولم يفكِّر بعدها بسفر أو تجارة خوفًا على ابن أخيه.

ويغلب على ظنِّي أنه وجد في التجارة ما يتعارض مع صفاته التي تنبذ الكذب وأساليب الغش والخداع التي يلجأ إليها كثير من التجَّار في تجاراتهم، وأظنُّه استكثر على نفسه أن يخوض بما يخوضون به من مساومات تنزع الهيبة والحياء، إن أمور البيت كانت عنده أكثر أهميَّة من التجارة وأسفارها، فترك كلَّ هذا لغيره، وانصرف إلى شؤون البيت العتيق وزوَّاره، ولابد أنه كان يتمتع بسؤدد استثنائي مكَّنه من احتلال مكان الصَّدارة في الوسط القرشي، ونال من الهيبة ما لم ينله أحد من ولد عبد المطَّلب، ولا أدلَّ على ذلك من وقوفه في وجه طغيان قريش في هجمتها على حبيبه المصطفى، وانحياز بني هاشم مسلمهم وغالبية وكفارهم بجانبه يوم قررت قريش مقاطعة بني هاشم،

تلك المقاطعة التي دامت ثلاث سنوات عانى فيها ذلك البيت ألوانًا من المتاعب النفسية والمادّية، ولكن الشيخ وقف بهيبته شامخًا أمام القطيعة وأصحابها، ويوم رحل رضوان الله عليه نالت قريش من الرسول وفعلت به الأفاعيل، وما كانت تستطيع بعض ذلك في حياته، وكأن ذلك الشيخ الوقور بهيبته هو النبع الذي كان يستمد منه البيت الهاشمي القوَّة والمنعة، ويوم ذهب ما عادت له تلك الهيبة والمنعة.

ودارت قبل ميلاد المرتضى عليه السلام وأثناءه وبعده حكايات، بعضها لا يراه العقل بعيدًا، وإن تقوَّل به المتقوِّلون، فليس كمثل عليٍّ يولد كل يوم، ولابد أن يحاط ميلاد مثل علي إن كان له مثيل على ما يصعب على التصديق في عاصف من الأهواء والتيَّارات والتأييد والشَّك والإنكار والحبِّ والكراهية والتطرُّف والاعتدال، ولا أجد ما يدعوني لذكرها، كي لا يتقوَّل المتقولون كما تقوَّلوا على غير كاتب من كتَّاب سيرته، فاتهموه بالتحيُّز والتعصُّب، وكاد بعضُهم إخراج بعضِهم من ملَّة الإسلام، فمن شاء نظر بعين الإنصاف في بحار المجلسي أو شرح نهج ابن أبي الحديد، أو في ترجمته عليه السلام في تاريخ دمشق لابن عساكر، أو في عشرات أخرى من كتب السير والتاريخ.

دفء بيت النبوَّة

يغلب على الظنِّ أن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من أوائل الوجوه التي اكتحلت بها عينا وليد الكعبة، ولعل ثاني حضن تمتع بدفئه بعد حضن والدته كان حضنه الشَّريف، إذ كان أبو طالب في سفر كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات، ولقد أجمع أصحاب السير على أن حصَّة تلك الطفولة من بيت النبوَّة أكثر من حصَّتها من بيت أبي طالب، ولعل بشارة سيِّد الكائنات بمولده لا تقل عن بشارة أبي طالب بوحيد أخيه عبد الله الذي حرم من رؤيته، فأراد الأخ الشقيق أن يعوِّضَ الوليدَ حنانَ الأبوةِ، ويجد فيه رائحة العزيز الذي اختطفته يد المنيَّة منه في غير موعده وهو بعيد عن الأهل هناك في يثرب، ولعل الإنسان في النبي الكريم وجد في ذلك الوليد تعويضًا عن الولد الذي ما قُدِّر له أن يبقى، ولأخ الذي ما قدَّره الله له أن يأتي، بل لعلَّ ما تنبَّأ به صلى الله عليه وآله وسلَّم في يمن مولده يوم ولد كان من أسباب الإيثار التي أحاطه به.

وإذا كانت محبَّة أبي طالب لليتيم تدخل من باب المعجزات فلأنها من الإيواء والدفء الذي هيَّأه الله سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى، ألم يقل في كتابه المبين ﴿ ووجدك يتيمًا فآوى ﴾، بل كان اليتيم المبارك يرى في عمِّه أبًا شفيقًا رقيق الحاشية لا يرفض لولده أي طلب، ولعله ما شعر في كنفه بيتم ولا أحس به، ولقد بادله حبًّا بحبٍّ وشفقة بمثلها، ولا أدلَّ على عمق تلك الصلة مما ذكره البلاذري في عهده ١/٩٣ من أن عبد المطَّلب حينما حضرته الوفاة جمع

بنيه وأوصاهم بحفيده واقترع بينهم لكفالته، ولكن المصطفى اختار عمَّه أبا طالب، ولم يكن لابن الثامنة أن يختار ذلك العم لو لم تربطه به محبة روحية ترجمها سلوك ذلك العم الذي (كان يحبه حبًا شديدًا لا يحبه ولدَه، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصبَّ به أبو طالب صبابة لم يَصَبَّ مثلها بشيء قط، وكان يخُصُّه بالطعام،... وكان لا يسافر سفرًا إلاّ كان معه فيه) كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/١١٩–١٢٠، ولا شكّ أن القيم التي تربَّى عليها اليتيم المبارك في كنف شيخ البطحاء منحته ألوانًا من التجارب في الحياة، وقوّت عوده، وصلّبته، فما هي إلاّ سنيَّات حتى أصبح الفتى وجه فتيان مكَّة صدقًا وأمانة وسلوكًا طيِّبًا بلا منازع، بل أصبح لصفاته تلك يشيرون إليه بالبنان، ويتحدَّثون عنه أحاديث كلُّها إعجاب وتقدير، ويوم حدثت محنة وضع الحجر في مكانه المناسب بعد بناء الكعبة لم تجد قريش من يُنَجِّيها منها إلاّ محمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كانت محبَّة الآباء يرثها الأبناء، فليس عجيبًا أن يرث الصادق الوفي الأمين من عمِّه محبَّة ولده وليد الكعبة الذي كانت إقامته ما بين حضني أبويه وحضن ابن عمه، فما أن بلغ السادسة حتى فارق بيت أبويه رضوان الله عليهما - على ما ذكر غير وحد من المؤرِّخين والمحدِّثين وكتاب السير منهم ابن أبي الحديد في نهجه ١/٢١ - إلى بيت ذلك المربي الكبير الذي ربَّاه بقيم السماء التي تربَّى عليها فأحسن تربيته.

ولقد عزا ذلك الانتقال جميع من كتب عن سيرته عليه السلام بلا استثناء إلى حكاية فاقة تعرض لها أبو طالب دفعت المصطفى إلى دعوة عمه العباس لتخفيف العبء عنه، وذلك بقيام العبَّاس بكفالة جعفر، وقيامه بكفالة علي،

ولكني أجد فيها نظرًا كثيرًا يدفعني للوقوف منها موقف التردد والحيرة، إذ لم يكن أبو طالب كثير العيال في مقياس ذلك الزمن، ولا في مقاييس الأزمنة التي تلته، فليس غير طالب وعقيل، وكلاهما يقوم بأود نفسه بعد أن تجاوزا العشرين، فقد ذكر غير مصدر أن عشر سنوات تفصل في ما بين ولد وآخر من ولد أبي طالب، وليس غير فاختة وتكنى أمّ هانئ، وجمانة، (أنساب الأشراف ٢/٢٩٥–٢٩٧ مروج الذهب ٢/٣٥٩–٣٦٠، الاستيعاب ٣/ ١٠٩٠)، وما أحوج أمهما إليهما، ويغلب على الظن أنهما قد تزوجتا قبل اليوم الذي انتقل فيه علي إلى بيت المصطفى سلام الله عليهما، ففاختة تزوجت أبا وهب هبيرة بن عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وخلّف عليها ابنًا وبنتًا، وهاجرت، ومات زوجها بنجران مُشْرِكًا كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٥٩، وجمانة تزوجت ابن عمها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهاجرت وماتت في المدينة في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٦٠ أيضًا، أما الباقين من أبناء أبي طالب فهما جعفر وعلي، أما جعفر فهو فتىً لعلّه قارب الخامسة عشرة يوم كان أخوه في السادسة، ولا أظن أن سيّد البطحاء يستطيع الاستغناء عنه في شؤونه الخاصّة يرسله إلى هنا وهناك، وأما علي، فهو ريحانة أبويه، فما أحوجهما إلى وقع خطواته وملاعب طفولته، ولعل من قارب السبعين يقدر مدى حاجة الآباء إلى طفل صغير تملأ ضحكاته أرجاء البيت، ويثير في لهوه وعبثه دفءًا وحنانًا ورغبة في استمرار الحياة، يضاف إلى هذا أن أقرب الأبناء إلى نفوس الآباء كما قيل: المسافر حتى يعود، والمريض حتى يشفى، والصّغير حتى يكبر.

والحكاية في السيرة ١/ ٣١٦–٣١٧ يرويها ابن إسحاق عن أبي الحجاج مجاهد بن جبير الذي قال: (كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له وأراده به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم للعبَّاس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: « يا عبَّاس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب النَّاس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفهما عنه » ، فقال العبَّاس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنَّا نريد أن نخفِّفَ عنك من عيالك حتى ينكشف عن النَّاس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً، فاصنعا ما شئتما. قال ابن هشام: ويقال: عقيلاً وطالبًا. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم عليًّا فضمَّه إليه، وأخذ العبَّاسُ جعفرًا فضمَّه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا، فاتبعه علي رضي الله عنه، وآمن به، وصدَّقه)، وفي رواية أبي الفرج في مقاتله ٤١ أن حمزة أخذ جعفرًا والعبَّاس أخذ طالبًا، وأخذ النبي عليًّا، والحكاية هي الحكاية، في أنساب البلاذري١/ ٣٤٦، وعنهما، وعن غيرهما في شرح النهج ١/٢١، ١٣/ ١٣٧ وهي هي في بحار الأنوار ٣٥/٣٤–٣٥ من غير مصدر، وكذا في غيره في كتب علماء أهل البيت.

وعلى الرغم من تكاثف المصادر على تلك الحكاية فإنه يخيَّل إليَّ أن أمرًا غير إملاق أبي طالب، وغير تعرض قريش لشديدةٍ، هو الذي دفع النَّبيَّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، إلى اتِّخاذ ابن عمِّه أخًا وولدًا من قبل، وزيرًا وصاحبًا ووصيًّا وخليفة من بعد، فقد رأيناه منذ ميلاده المبارك في

حجر المصطفى يضمُّه إلى صدره، ويشاطره فراشه فيمسه جسده الشريف، ويشم رائحته الزكية، وكان يمضغ الطعام بفمه، ويلقمه إيَّاه كما ذكر عليه السلام يوم قال برواية النهج ٤٦٩: (وضعني في حجره وأنا ولد يضمُّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسُّني جسده، ويشمُّني عرفه، وكان يمضغ الشي ثمَّ يُلْقِمُنيه)، ولا شكَّ أنَّ هذا الاهتمام الذي ذكره كان في سنتي الوليد الأولى والثانية، وقبل بلوغه السَّادسة، من هنا تبدو حكاية الكفالة بسبب فاقة أبي طالب رضوان الله عليه زمن تلك القاصمة غير مقنعة، إذ إنها لا تساعده على تحمل صعوباتها من ناحية، وتدفع بيته إلى قالة لا تليق به وبمنزلته في الوسط القرشي من ناحية أخرى، كما أن تكاليف الصبيين في اقتصاد ذلك الزمن لا تدخل في قائمة التكاليف الثقيلة التي لا يقوى عليها سيد البطحاء، ولاسيما أننا لا نستطيع أن نتخيل بيته خلوًا من الضيفان في كل يوم، أقول: لعل حمل بعير من تمر أو برٍّ أو شعير بين حين وآخر يخفف من وطأة تلك الأيَّام على أبي طالب ويساعده على تحملها، لا أن يؤخذ ولداه فيتعرَّض بيته إلى ما لا يقبله مثل أبي طالب رضوان الله عليه من همز البيت القرشي لمزه.

إن أمرًا آخر هو الذي دفع النبي المصطفى صلى الله عليه وآله إلى كفالة الوليد، قد يكون تدبيرًا ربانيًّا نلمحه في ما نقله الأصفهاني في مقاتله ٤١ وابن أبي الحديد في الشرح ٢١/١ عن النبي إذ قال بعد أن أخذ حمزة جعفرًا وأخذ العباس طالبًا: «قد اخترت - من اختاره الله لي عليكم -عليًّا»، فليس هو الذي اختار عليًّا، وإنما هو تدبير ربَّاني مقدَّر لهذا الصبي كي يأخذه صلى الله عليه وآله وسلَّم بما أخذه الله به من أدب وتربية جعلته الصَّادق الأمين قبل النبوَّة وبعدها، فكان أخوه أيضًا الصادق الأمين، ولقد أقسم أبو الحسنين في

غير مناسبة أن أبا الزهراء ما وجد عليه كذبة قطُّ، ولا عجلة في كلام، أو خطأً في فعل أو قول، ويخيل إليَّ أن عواطف المرتضى اتجاه أخيه كانت عواطف بنوة أكثر منها عواطف أخوَّة، فقد رأينا جميع ذكريات طفولته مرتبطة بصورة أو بأخرى بأخيه المصطفى صلوات الله عليهما، أما ذكريات الشباب والكهولة فلم تنفصل عنه إلى أن التحق به عليه السلام.

وقد يكون خليطًا من شعور بالامتنان اتجاه عمه، الذي تكفَّله صبيًّا وفتىً، وآثره على جميع أبنائه، واستمر في حمايته إلى آخر يوم في حياته، ولولاه ما استطاع الاستمرار بدعوته وسط طغيان قريش واستكبارها، فلم يشعر في بيته أو في كنفه بأيَّة غربة أو ضعف أو خوف على الرغم من كلِّ العقبات التي وضعتها قريش في طريقه، فرأى في كفالة أحد أبنائه بعض الوفاء بالدين الذي مازال عمُّه يطوِّقه به إلى أن رحل رضوان الله عليه.

ولا يبعد عن الظنِّ أيضًا أن يكون أمر انتقاله إلى بيت المصطفى شفقة من أبي طالب على ربيبه أن يكون بيته خلوًا من الصبيان وقد قارب الثلاثين أو تجاوزها، وقد أشارت إلى مثل هذا بعض الروايات.

أو هو شعور بالامتنان أيضًا اتجاه زوج أبي طالب وابنة عمِّه فاطمة بنت أسد بن هاشم (عهد الذهبي ٦٢١ وترجمته في تاريخ بن عساكر ١/٢٢-٢٤) أوَّل هاشمية تولد لهاشمي، وأوَّل هاشميَّةٍ تتزوج بهاشمي، المرأة التي افتتح بها ابن سعد في طبقاته ٢٢٢/٨ باب (تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش)، التي اتخذته ولدًا قبل أن يرزقها الله بالولد على ما ذكر المجلسي في بحاره ٣٩/٣٥-٤٠، وآثرته على أبنائها في كل شيء أثناء كفالته في بيت عمه، وكانت أول من بشَّر أبا طالب بمولده، - وقد أشرت إلى تفاصيل تلك

الفترة من حياة المصطفى في مقالة بعنوان (في أحضان الدفء) - وأسلمت بعد عشرة من المسلمين، وكانت أول امرأة بايعته، وذكر الكليني رواية في الكافي ١/ ٤٢٥ أنها أوَّل امرأة هاجرت من مكّة إلى المدينة مشيًا على قدميها، ولقد وجدها نعم الأم في اليتم الذي آواه الله به، وكان صلوات الله عليه يدعوها يا أماه كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/ ٢٠، والمجلسي في البحار ٣٥/ ٥٣، ويبدو أنها اختارت بيت عليٍّ من بين بيوت أولادها يوم هاجرت إلى المدينة، وكانت نعم العون أيضًا للزهراء يوم انتقلت إلى بيت ابن عمها عليهما السلام، إذ روى الذهبي في عهده ٦٢١ أنها كانت تشارك في جلب بعض ما يحتاجه البيت من خارجه، وكانت الزهراء تقوم بالطحن والعجن على ما ذكر الذهبي في عهده حين أراد تأكيد هجرتها ودفع الشك في أمر وفاتها في المدينة، ويوم أدركتها الوفاة أوصت له، ولم توص لأحد من أبنائها رضوان الله عليها كما ذكر الكليني في الكافي ١/ ٤٥٢ فكرَّمها النبي في حياتها ووفاتها (فصلّى عليها، ونزل في لحدها، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه) حتى قال لمن سأله من الصحابة عن صنعه: «إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنَّة، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر»، وذكر مثل هذا ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/ ٢٠، وابن شبَّة في كتابه تاريخ المدينة حين تحدَّث عن دفنها في البقيع، ولك أن تنظر أيضًا تفصيلات كثيرة عن رعايتها للمصطفى، وعن حياتها في بحار المجلسي ٣٥/ ٧٧ وما بعدها وما قبلها.

أو هو أمر آخر ستترجمه قابلات الأيام في إيمانه بدعوته، جهاده بين يديه، وحمل لوائه، ونشر دعوته.

أو هو الثقل الثاني الذي تكلّف به المرتضى ومن بعده أئمة أهل البيت من ذريته عليهمالسلام بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله أوجبت أن يتهيأ الوليد لذلك الدور كي يهيِّئ من بعده من يقوم به، فجعل منه كفءًا لسيدة نساء العالمين الزهراء البتول عليها السلام التي قدَّر الله أن تنحصرَ ذريَّة الرسول الكريم منها.

أو هي رغبة مشتركة من الزوج الوفي والزوجة المتفانية في حبِّ زوجها، وحبٍّ من يحبُّه، ولا أشكُ في أن خديجة الكبرى رضوان الله عليها مازالت تذكر موقف أبي طالب منها، فهو الذي أخذ بيد المصطفى إليها، وهو الذي رشَّحه لها كي يقوم على تجارتها، وهو الذي قام بخطبتها، وهو الذي تكفّل مهرها، فوجدت به ما لم تره عين أو تسمع به أذن من أمانة وصدق وإخلاص وبركة، كما أن أمَّه فاطمة بنت أسد ليست بغريبة عنها، فهي بمنزلة جدَّتها فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٨/٢٢٢ في أثناء ترجمتها أنها (ابنة عمِّ زائدة بن الأصمّ بن هرم بن رواحة جدِّ خديجة بنت خويلد)، كلٌّ هذا لابد أنه جعل من وليد البيت من أقرب الخلق إلى قلب خديجة رضوان الله عليها.

أو هي أشياء من كل ذلك هيَّأت لذلك الوليد أن يتربى في بيت النبوة كي ينهل من الكأس الربَّاني الذي شَرِبَ منه الرسول الكريم الذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه فقال في محكم كتابه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، فأدَّبه بادب الله، وحنا عليه حنوًا لا يلقاه وليدٌ من أبويه، وكان إعجاب الفتى بابن عمه لا حدود له إذ كان يتبعه على حدِّ قوله عليه السلام: اتِّباع الفصيل أثرَ أمِّه، وأشار في غير موضع إلى تلك العناية وذلك الحنوِّ، وما كان يأمره في طفولته بتِّباعه، وما كان ينهاه عنه، وأشار أيضًا إلى تحنث النبي كل عام في موضع لا يراه به

أحد سواه إذ قال كما ذكر في النّهج ٤٧٠ : (ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثرَ أمّه يرفع لي في كلّ يومٍ من أخلاقه عَلَمًا، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحِراءَ فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله، وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمُّ ريح النبّوة)، وحاشاه أن يكذب على الله ورسوله وهو الصِّدِّيق الأكبر، لقد كان ثالث اثنين، أو ثاني ثلاثة أقاموا الصّلاة أول مرّة في الإسلام كما ذكر ذلك كثير من أصحاب الحديث والسيِّرة. (ينظر على سبيل المثال لا الحصر سنن الترمذي رقم ٣٨١٧، سيرة ابن هشام ١/٣١٦ أسد الغابة ٥٨٩/٣، الاستيعاب ١٠٩٠/٣، عهد الذهبي ٦٢٤–٦٢٥).

ولقد كانت حياته في كنف أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله محلَّ غبطته وحبوره واعتزازه وجميل ذكرياته، وكان أيضًا محل عناية خديجة الكبرى رضوان الله عليها ومحبتها وغبطتها، كما روى المجلسي في بحاره ٣٥/٣٥، ولم أقف على موضع واحد أشار فيه إلى رعاية أبويه، في الوقت الذي أشار فيه مرّات ومرّات إلى رعاية ابن عمّه، وخاصّة بعد أن ملك عليه أقطار نفسه حتى ما عاد يفكر بأبويه، ولاسيما بعد معرفته بمنزلته في نفسيهما.

وإذا كانت فاطمة بنت أسد هي أول من بَشَّرَ أبا طالب بوحيد آمنة النبي المنتظر، فإن خديجة رأت في وليد الكعبة ولدًا حُرِمَتْ منه شاطرها سريرها مع الزوج الحبيب، فعاش في بيتها إلى أن رحلت إلى الرفيق الأعلى، بل شاركها في أيّام الدعوة الأولى الإيمان بها، ولم يكن معهما ثالث، وكان مع ابن عمه كظله، يتبعه إلى غار حراء ويتأمل قنوته فيه، ويشاركه تأمله ويعجب منه وبه، ولكنه لا يراه سلوكًا غريبًا، ولا يعترض عليه، ولا يسأله عن هذه الحال

التي لم تكن غاية في الغرابة عليه، ولعلّه سمع أن جدّه عبد المطّلب كان يتّبعها في شهر رمضان في المكان عينه كما ذكر البلاذري في أنسابه١/٩٢، ولعل غير عبد المطلب من آبائه كان يتّبعها أيضًا، ولا أستبعد أنه كان يستوضحه، ويسأله عما يجول في خاطره في ذلك المكان القصيّ، فصغير السّنّ إذا كان نابهًا لا يمكن إسكاته إذا رأى شيئًا يستدعي السؤال والاستفهام، بل إن نباهة الأطفال تعرف من كثرة أسئلتهم ونوعيتها، وكثيرًا ما تنبأ الناس عن مستقبل بعض الأطفال من خلال الأسئلة التي يسألونها.

وما أثر عن الصبي أنه كان يتحدث عن حالة التحنُّث تلك مع لداته أو مع غيرهم، ومن يتعمق في أحداث تلك الفترة من حياة النبي الكريم وأخيه صلوات الله وسلامه عليهما لابد أن يحسب أن المرتضى كان من غير لدات، بل من دون طفولة وعتها الذاكرة عن آخرين، ولعل مصداقًا على ذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٦٩ عن شيخه أبي جعفر الإسكافي حول رجولته في طفولته وصباه أثناء تعليقه على حديث إنذار العشيرة قال: (وهل يضع رسول الله يده في يده ويعطيه صفقة يمينه؛ بالأخوَّة والوصية والخلافة إلاّ وهو أهل لذلك، بالغ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه! وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه، ولم يلصق بأشكاله، ولم يُرَ مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقته، وكبعضهم في معرفته! وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته، فيقال: دعاه داعي الصِّبا وخاطر من خواطر الدنيا، وحملته الغِرَّة والحداثة على حضور لهوهم والدخول في حالهم...)، بل إن من يتابع حياته عليه السلام في أطوارها المختلفة سيلتفت إلى أمر غاية في الأهمية، وهو أنه لم يكن معنيًا بخلق

علاقات عامة لكسب مصالح دنيويَّة ضيِّقة أو غيرها، وكأنه ترك دنيا القوم وراء ظهره وما عاد يفكّر منذ تلك الطفولة المبكّرة إلاّ بحياة دنيويَّة أخرى يسودها عدل الله وقانونه، فلم يحسب حساب أحد إلاّ لصفوةٍ عرف فيها الإيمان الخالص بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرى آمنت برسالته بعد رحيل أخيه وشاركته أعباء حماية الإسلام وقيمه.

وأزعم أنك تصل معي إلى أن خليطًا من الإرادة الإلهية والعاطفة العارمة التي زرعها الله في نفس المصطفى صلى الله عليه وآله هو الذي دفعه إلى احتضان ذلك الوليد، وهي عاطفة قدرها الله، وهيَّأ لها الأسباب، ولو كان أمر فاقة كما رأى بعض المؤرخين وأصحاب السير لما دفعه إلى تلك المعاملة الاستثنائية التي قال عنها أبو الحسنين عليه السلام: (وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالقرابةِ القريبةِ، والمنزلةِ الخَصيصَةِ، وضعني في حِجْرِهِ وأنا ولدٌ يَضُمُّني إلى صدره، ويَكْنُفُني في فراشه، ويُمِسُّني جَسَدَهُ، ويُشِمُّني عَرْفَهُ، وكان يَمْضَغُ الشَّيء ثمَّ يُلْقِمْنِيه، وما وجد لي كَذْبَةً في قَوْلٍ، ولا خَطْلَةً في فِعْلٍ) كما ورد في النهج ٤٦٩، فأية فاقة تدفع إلى مثل تلك المعاملة التي مست شغاف قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، الذي أحبَّه حبًّا خاصًّا لم يشركه فيه غير البتول عليها السلام، وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٨٣ أن الفضل بن العباس سأل أباه عن ولد رسول الله الذكور أيهم كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أشدُّ حبًّا فقال: (علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: سألتك عن بنيه، فقال: إنه كان أحبَّ إليه من بنيه جميعًا وأراف، ما رأيناه زايله يومًا من الدهر منذ كان طفلاً، إلاّ أن يكون في سفر خديجة، وما رأينا آبًا أبرَّ بابن منه لعلي، ولا ابنًا

أطوع لأب من علي له)، إنه قدر الله وقضاؤه كتب لهذا العبد الصالح ما لم يكتب لأوصيائه من مجد الدارين، وحسن المنقلب.

ولو أخذت ببعض ما رواه ابن عساكر في ترجمته ١/١٣٣–١٥٣ من حكايات يصعب على العقل تخيلها حول قدم خلق النبي وأخيه ونورانيَّة خلقهما لهان عليك من بعد تصديق كلِّ الروايات عن إعجاز ولادته وما واكبها من قصص إعجازيَّة تتحيَّر فيها العقول، ولكنها ليست كثيرة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

ولا أشك في أنه لم يعرف من أصنام قريش التي هشَّمها أو شارك في تهشيمها - كما سيتبيَّن - إلاَّ تلك الصُّور الكالحة التي لا شكَّ أنه كان ينظر إليها باحتقار، ولعلَّ أخاه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كان ينقل إليه ما يخالجه من أحاسيس اتجاه تلك النصب البائسة، ويحدِّثه عن ربِّ جدِّه إبراهيم عليه السلام، الخالق العظيم الفرد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد، فآمن به قبل نزول الوحي بسنيَّات، فقد روي في كتاب أسد الغابة ٣/٥٨٩ عن سلمة بن كُهيل العرني الذي سمع عليًّا يقول: (لم أعلم أحدًا من هذه الأمَّة عبد الله قبلي، لقد عبدته قبل أن يعبده أحد منهم خمس سنين، أو سبع سنين)، وروى بعضهم أن المراد من قوله عليه السلام إسلامه قبل أن يبلغ مبلغ الرجال بتلك المدة التي وردت في قوله، ولعل ما يقرِّبُ من فهم إيمانه برب إبراهيم عليه السلام قبل البعثة ما روي عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حينما تعرض جبل حراء إلى زلزلة شعر الرسول جرَّاءها بتحرك الغار، وكان أخوه معه فقال: (اثبت حراء فما عليك إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد)، كما ذكر ابن عبد البرِّ في استيعابه ٣/١٠٩٩،

وصدق وهو الصَّادق الأمين، فالنبيُّ هو، والصدِّيق الشهيد أخوه صلوات الله وسلامه عليهما.

ويبدو أن الرسول الكريم أراد أن يكون أخاه القلم الذي يكتب به قرآنه، ويحرِّر له عهوده ومعاهداته ورسائله من بعد، فدفعه لتعلُّم الكتابة في بيئة يصعب العثور فيها على من يعرفها، بل ذكر ابن عبد ربه في عقده ٤/١٤٩ أنه يوم جاء الإسلام ليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنسانًا، أول السبعة عشر الذين ذكرهم علي عليه السلام، فتعلَّمها على الرغم من صعوبتها، وعسر الحصول على أدواتها، ولا أستبعد أنه تعلَّمها باتخاذ رمال الوادي قرطاسًا، ومن إصبعه قلمًا يكتب به، ولا يدرى من كان أستاذه فيها، ولا يستبعد أن يكون قد رأى ورقة بن نوفل يكتب، أو تعلَّم منه، وهو ابن عمِّ خديجة الذي حدثه المصطفى في ما يراه ويسمعه قبل نزول الوحي ويوم نزوله، أو رأى غيره يكتب فتعلَّمها من دون معلم.

وبسبب من تلك العناية الفائقة اندفع الصبي بعد أن شبَّ عن الطوق إلى الذوبان في محبَّة ابن عمه والإيمان برسالته، إيمان تدبُّر وعقل، إلى أن فارقه الفراق الأخير، واستمرَّ هو في الدفاع عنها إلى أن ذهب شهيدًا عليه السلام، تبعه كظلِّه، وائتمر بأمره، وحاكاه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وسلوكه الشريف، وتفانى في الدفاع عنه وعن دعوته، وقاد معارك الإيمان بشجاعة أسطورية قصمت ظهر الشرك، وبسيفه خاصَّة لم تقم له قائمة لا في الجزيرة ولا في غيرها.

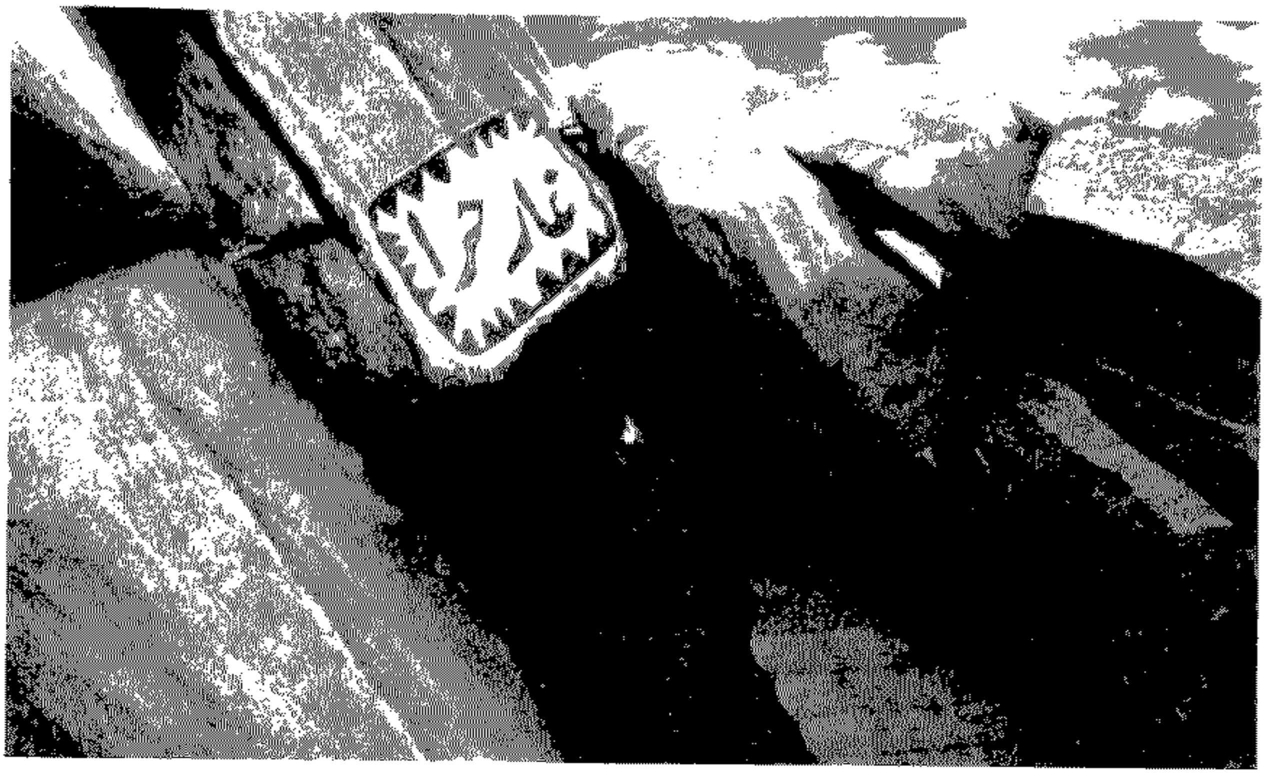

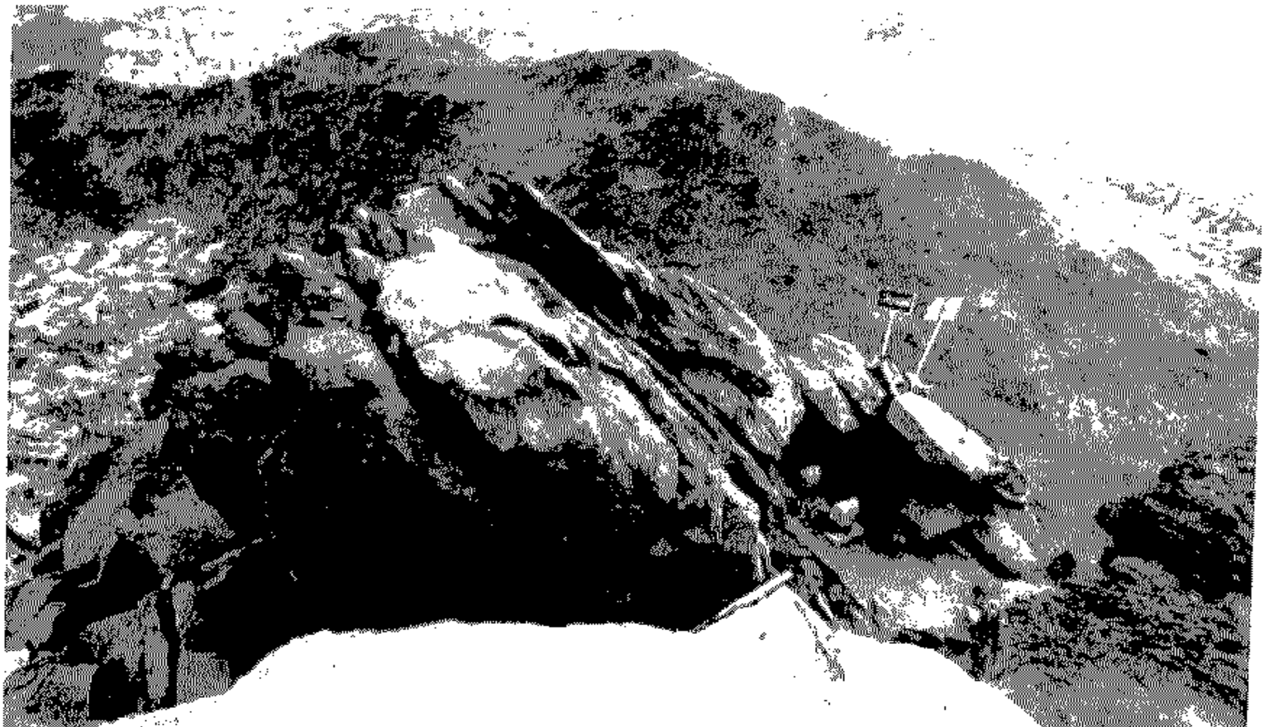

غار حراء

إمامة الله

في إسلام أبي السبطين ....

« لولا أنّي خاتم الأنبياءِ لكنتَ شريكًا في النبوَّة ، فإن لا تكنْ نبيًّا فإنك وصيٌّ نبيٍّ ووارثه ، بل أنت سيِّد الأوصياء وإمام الأتقياء».

لم يكن المرتضى عليه السلام أوَّل الفتيان إسلامًا كما رأى بعضهم تعصُّبًا أو بحسن نيَّة ، فما كان كغيره كافرًا كي يُسْلِمَ ، ولم يكن سواه فتىً أو راشدًا أو شيخًا كبيرًا مع النبيّ صلوات الله وسلامه عليه يوم بشَّره جبريل بدين المحبة والسلام ، وظنَّ بعضهم أنَّ إيمانه كان برغبة من الرسول فحسب ، أو انصياعًا لأمره ، ولو كان لرغب بدعوة غيره من الفتية كما دعاه ، وما كان لنبيٍّ أن يدعوَهم في وقت أحيطت به الدعوة بالسرية التامة فيعرِّضُها للخطر وهي في مهدها مهما كانت صلته بهم ، إذ كيف يستطيع ائتمانهم على أمْرٍ لم يأذن الله سبحانه بإشاعته بين الخلق إلا بعد ثلاث سنوات من نزول الوحي عليه كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/١٣١.

بل قل : إنها كانت وليدًا لم يفتح عينيه بعد ، ولم ير النور في ذلك الدامس ، فما أحوجه إلى الرِّعاية ، وإلى كثير من التدبُّرِ والوعي وبعد النظر ، فليس كلّ من التقاه صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق وإن كان من أقرب المقرَّبين يستطيع أن يدعوه لأمر لم تتضح أبعاده بعد في ذلك العاصف من إيمان القوم الراسخ بأصنامهم ، وقيم جاهليتهم ، وعصبيتهم التي لا تعرف

الحدود، ولو كان الأمر بهذا اليسر لدعا بقيَّة أبناء عمومته، أو من قاربه من أعمامه في العمر كحمزة والعبَّاس رضوان الله عليهما، ولكنَّ المرتضى كان بشرًا من نوع آخر في ذلك الجدب، كأخيه، ولا أصدق من قوله صلوات الله وسلامه عليه يوم قال على ما روى ابن عساكر في ترجمته بتاريخه ١/١٤١ بسلسلة ذهبيَّة عن موسى بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه: «خلقت أنا وهارون بن عمران ويحيى بن زكريا، وعلي بن أبي طالب من طينة واحدة»، وقوله لعليٍّ عليهما السلام في المصدر السابق ١/١٤٣ عن جابر بن عبد الله: (« الناس من شجر شتَّى، وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾)، وقد خرَّج الحديثين الشريفين محقِّقُ الكتاب في هامشه من مصادرة عدَّةٍ.

وما كان المرتضى في يقيني بحاجة إلى دعوة أو مصارحة، فهو على بيِّنة من الأمر قبل وقوعه كأخيه، فلقد سارا في الطريق عينه خطوة خطوة، وما انبهم عليه منه أوضحه له صلى الله عيه وآله وسلَّم، ولا أشكُّ طرفة عين، أنه كما استمع إلى رنَّة الشيطان استمع إلى رقَّة جبرائيل يبلِّغُ أخاه بما أمر الله به، ورأى بأمِّ عينية ارتعاشة جسده.

ويقيني ببعد نظرك وعمق معرفتك يقرِّب لي البعيد، ويسهِّل عليَّ العسير، فليس غريبًا ولا مستبعدًا حتى في زماننا هذا أن نسمع أو نرى عبقريات صغيرة في العمر ولكنها عجيبة في آفاق معرفتها في هذا البلد أو ذاك، وليس لأحدنا أن يسأل عن السبب فهي إرادة الله الذي له في خلقه شؤون، لذا فإني لا أشكُّ بأننا نتَّفق على أنه ليس كثيرًا على الله سبحانه وتعالى أن

يضع بين يدي رسوله هذا العبد الصالح، ويمنحه كل الصفات الخيِّرة والطاقات الخارقة التي امتاز بها، ويربِّيه بعين التربية التي تربَّى بها كي يكون خليلاً ووزيرًا وحاميًا ومدافعًا ووصيًّا وخليفة من بعد، إن فلتات العقل والعبقريَّة التي منحها الله لبعض خلقه على طول التاريخ أرتنا العجب العجاب من عباقرة لا يستطيع أن يطاولهم من قطع شأوًا طويلاً من العمر في التعلُّم بكلِّ الميادين، فلم يكون مثل عليٍّ كثيرًا على خاتم الأنبياء والرسل وهو في ذلك الماحل من الجدب الفكري والعقدي.

لقد منحه الله سبحانه وتعالى في ذلك العمر الشريف من الطاقات ما لم يمنحها لغيره من قريش أو من غيرهم، بل ما رأى أحد نور الوحي ولا شمَّ ريح النبوَّة غيره وغير خديجة رضوان الله عليها، ولا أدلَّ على ذلك من قوله سلام الله عليه، وقد رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٣٦: (ولقد سمعت رنَّة الشيطان - صوته - حين نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنَّة؟ فقال: « هذا الشيطان، قد أيسَ من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاَّ أنك لست بنبيٍّ، ولكنَّك لوزير، وإنك لعلى خير »)، وهي في النهج ٤٧٠ أيضًا بل ذكر في شرح نهجه ١٣/١٤٥ فوق هذا إذ قال: (وروي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: كان عليٌّ عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له صلى الله عليه وآله وسلَّم: « لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكًا في النبوَّة، فإن لا تكن نبيًّا فإنك وصيُّ نبيٍّ ووارثه، بل أنت سيِّد الأوصياء وإمام الأتقياء »)، وليس عجيبًا لمن قال فيه النبيُّ هذا أو مثل هذا أن يقول بعد رحيل الوحي وصاحبه: سلوني!.

وروى الشريف المرتضى في شافيه ٤/ ٢٢ حول إسلامه وأسبقيّته من أقواله عليه السلام: (اللهم إني لا أعرف عبدًا عبدك من هذه الأمّة قبلي غير نبيِّها صلى الله عليه وآله وسلم)، وقوله عليه السلام: (أنا أول من صلّى)، وقوله لّما (شاجره عثمان وقال له: أبو بكر وعمر خير منك فقال: أنا خير منك ومنهما عبدت الله قبلهما وبعدهما)، ويؤيد ذلك قول زيد بن أرقم الذي ورد في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ١٧٧ برقم ١٢٨: إن عليًّا أول من صلّى مع النبي صلوات الله عليهما.

ولا أشكُّ أن أحدًا ممن دخل الإيمان قلبه يشكُّ في أنَّ عليًّا عليه السلام أفضل الصدِّيقين بعد قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه ابن عساكر في ترجمته ١/ ٩٢ وغيره عن أبي ليلى: (« الصدِّيقون ثلاثة: حبيب النجّار مؤمن آل ياسين الذي قال: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾، وعلي بن أبي طالب، وهو أفضلهم»).

كان أوَّل الخلق إيمانًا، ولم يكن يوم آمن صبيًّا أو فتى، ولو كان على ما أرادوا لما وجبت عليه صلاة أو عبادة، إذ لم تجب على من في مثل سنّه يوم وجبت، ولكنه أقامها مع أخيه في تلك الوديان ولا ثالث معهما في كثير من الأحيان، وإن كان فليس غير خديجة رضوان الله تعالى عليها، وبسبب من سرِّيَّة الدعوة كان يصلّيها مع أخيه خفيةً من أعين الرقباء، ويوم رآه أبوه يصلّي لوحده مع ابن عمّه في أحد شعاب مكّة، لم يعجب ولم يستغرب، ولكنّه سأله عن ذلك الدين الذي هو عليه سؤال من تأخذه المفاجأة، وكأنه كان على موعد بذلك المعجز الذي أخبره به بحيرا الراهب قبل حين، فقال الفتى دونما خوف أو

موارية: (يا أبت آمنت بالله وبرسول الله، وصلّيت معه لله، واتّبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه يا ولدي لم يدعك إلاّ إلى خير، فالزمه ما استطعت)، كما ذكر ابن هشام في سيرته ١/٣١٧-٣١٨ والذهبي في عهده ٦٢٥، وقد فسَّر الخفية ابن إسحاق بسبب خوف من أبي طالب أن يراه، ولا أظن الأمر على ما فسَّرَ، إنما الخفية كانت بسبب عدم مجيء الوقت المناسب للإعلان عن الدعوة، كما أن ما رآه أبو طالب لم يكن بعيدًا عن ظنّه بابن أخيه، فمازال يتذكّر ما حدَّثه بحيرا الراهب عنه في حكاية نبوته التي ذكرها ابن سعد في طبقاته ١/١٢١ والبلاذري في أنسابه ١/١٠٦ وغيرهما، كما يتذكّر حكايات أخرى لابد أنه قد سمعها من أبيه عبد المطلب بشَّرت بنبوَّته قبل زمانها بعقود، بل يستشفُّ من رواية رواها البلاذري في أنسابه١/١٢٦-١٢٧ أن أبا طالب هو الذي دفع ابنه عليًّا للإيمان بما جاء به ابن عمِّه قال: (اتبع أبو طالب أثر النبي صلى الله عليه وسلّم وأثر علي، فوجدهما ورسول الله يصلي في شعب أبى دأب أو غيره، وعلي ينظر له، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: ما هذا الدين يا محمد؟ قال: « دين الله الذي بعثني به »، فدعاه إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان.فقال أبو طالب: أما دين آبائي، فإن نفسي غير مشايعة على تركه؛ وما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب؛ ولكن انظر الذي بُعِثتَ به فأتمم عليه، فوالله لا أسلمك ما كنت حيًّا حتى يتمّ الذي تريده. وقال لعلي: أما أنت يا بني، فما بك رغبة عن الدخول في ما دخل فيه ابن عمك. فاشتدَّ ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسُرَّ بقول أبي طالب).

وأنت لا تشعر أن الحوار كان مع فتى ابن سبع أو ثمان، أو ناف على العاشرة، أو تجاوزها، كما أن ردَّ أبي طالب لم يكن ردَّ مخالف أو معاند أو

متعصّب من سلوك ولده، وقد لا أشك أنه لم يكن يدين بديانة قريش ولا يعتقدها، وإذا صحَّت رواية تحنُّث عبد المطَّلب، وبأخذه حلقة الكعبة هو ونفر من قريش والدعاء إلى الله يستنصره على إبرهة وجنده كما ذكر ابن هشام في سيرته ١/ ٩٠، فلا يستبعد أن ولده الذي احتلَّ تلك المكانة في الوسط المكّي لم يكن هو وبعض القرشيين غيره يعتقدون بتلك الأصنام اعتقاد أهل مكّة ومن جاورهم من قبائل العرب، بل لعله رضوان الله عليه تحنَّث مع المتحنِّثين من قريش في غار حراء، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ١١٦ بسنده أن ابن عباس قال: (كانت قريش إذا دخل رمضان، خرج من يريد منها إلى حراء، فيقيم فيه شهرًا، ويطعم من يأتيه من المساكين، حتى إذا رأوا هلال شوَّال لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت أسبوعًا فكان رسول الله يفعل ذلك)، والمراد بالأسبوع هنا الطواف حول البيت سبع مرَّات، فليس بعيدًا أن يكون سيِّد البطحاء من ذلك النَّفر، ولقد ذكر الطبري في تاريخه ٢/ ٣٠٠ تحنُّث بعض القرشيين في حراء، وذكر أيضًا أن أبا طالب أشار لذلك في شطر بيت وهو قوله:

وراقٍ ليرقى في حِراءٍ ونازلِ

ولو أن التاريخ حفظ لنا ما ضَيَّعَ من أحداث لوقفنا على أشياء كثير تعدِّل من معوجِّ مساره، وتوضح ما انبهم منه.

واختلف في عمر عليٍّ عليه السلام يوم نزول الوحي، وطبيعيٌّ أن يقع الخلاف، فالتاريخ الهجري الذي أرَّخ حياة المسلمين في خلافة عمر بن الخطاب برأي الإمام ومشورته لم يحن بعد، والأمَّة في ذلك العصر ما كانت تهتمُّ بتاريخ ولادة أو وفاة، وإن اهتمَّت فإنها تؤرِّخ بقرينة حادثة معيَّنة لا

تغيب عن ضمير ذلك المجتمع واهتمامه، اجتماع من اجتماعاتهم المهمَّة، معركة من معاركهم، يوم من أيَّامهم، حدث من الأحداث الطبيعيَّة، كسيل من السيول، أو زلزلة أو بركان، أو ما شابه ذلك، بل إن أغلب أحداث التاريخ الإسلامي المهمة وقع الخلاف في تاريخ وقوعها، وللك عدم استثناء حدث منها، منذ ولادة المصطفى ورحيله، ومنذ خلافة الخلفاء ورحيلهم، ومنذ ولادة عظماء التاريخ وقادتهم ورحيلهم إلى زمن غير بعيد من عصرنا، ويندر أن تعثر على تاريخ حدثٍ تستطيع الاطمئنان إلى صحَّته، ولكنَّهم مع ذلك اهتموا من بعد بتواريخ مواليد عظمائهم، وبحثوا عنها من خلال قرائن وأخبار، وكان أبو الحسنين عليه السلام في مقدِّمة من دار النقاش حول عمره يوم آمن في جميع الكتب التي تعرَّضت لسيرة المصطفى صلوات الله عليه، فذكر ابن سعد في طبقاته ٢١/٣ روايات، منها أنه كان ابن عشر سنين، ومنها أنه ابن تسع، ومنها أنه دونهما، ومنها أنه ابن إحدى عشرة سنة، وقال أبو الفرج في مقاتله ٤١ (كانت سنه يوم أسلم إحدى عشرة سنة على أصح ما ورد من الأخبار في إسلامه)، وذكر البلاذري في أنسابه ٣٤٦/٢–٣٤٧ والذهبي في طبقاته ٧/١، وعهده ٦٢٤ أيضًا روايات لا تبتعد عن روايات ابن سعد فقال: (له سبع أو ثماني سنوات، وقيل: تسع سنين، وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن اثنتي عشرة، وقيل: ابن ثلاث عشرة، وقيل: وهو بُعَيْد ابن خمس عشرة)، وتابعه ابن عبد البر في استيعابه /١٠٩٣–١٠٩٤، والخطيب في تاريخه ١٣٤/١ في ذكرهما مثل تلك الروايات، ثمَّ جاء ابن عساكر فذكر في ترجمة المرتضى بتاريخه ١/ ٤٣–١١٢ ما يقارب الثلاثين رواية تذهب إلى أنه أوَّل القوم إيمانًا وصلاة، أو إلى أن خديجة رضوان الله

عليها سبقته إلى الإيمان، وبالروايات التي اختلفت في عمره الشريف عينها، ولكن المشهور أنه عليه السلام قد قارب العاشرة أو تعدَّاها يوم نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان عليه السلام سببًا في إسلام أخيه جعفر بن أبي طالب في بعض الروايات على الرغم من أنه يكبره بتسع سنين، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ٢٩٧/٢ أن (جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم مع أخيه علي عليه السلام وقد كان يسمع عليًّا يذمُّ عبادة الأوثان فوقع في نفسه ذمها فلما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل دعاءه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأن البعث حقٌّ).

وقسَّم أبو جعفر الإسكافي (ت ٢٤٠هـ) الروايات في إسلام أبي الحسن عليه السلام على خمسة أقسام، كما نقل عنه ابن أبي الحديد ١٦٢/١٣ في نقضه عثمانية الجاحظ هي:

- أسلم وله من العمر خمس عشرة سنة، والرواية عن خبَّاب بن الأرتّ، وقتادة عن الحسن.
- أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة، والرواية عن حذيفة بن اليمان، وجرير بن عبد الحميد.
- أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، والرواية فيه عن جعفر بن محمد عليه السلام.
- أسلم وهو ابن عشر سنين، والرواية فيه عن محمد بن إسحاق.
- أسلم وهو ابن تسع سنين، والرواية فيه عن الشعبي.

وروى قبل هذا أغلب الروايات التي وردت حول أوَّليَّة إسلامه بسندها ومصادرها، والتقديرات هي هي أو تقاربها عند ابن عساكر ٤٣/١-١١٢ في

ترجمته، وكان الطبري في تاريخه ٢/٣١٠-٣١٥ من قبل قد ذكر أيضًا أغلب الروايات حول إسلامه، وكلُّ هذه التواريخ تقرِّب ولا تقطع، إلا أنّها تؤكد حقيقة واحدة أنه عليه السلام أول القوم إيمانًا رسالة المصطفى صلوات الله عليه، وأصغرهم سنًّا يوم آمن وصلّى.

وعلى الرغم من كلِّ التقديرات التي ذكرت فإن ردَّ المرتضى على أبيه يوم سأله عن صلاته بجانب أخيه صلوات الله وسلامه عليهما لم يكن ردَّ من لا يدرك عواقب الأمور، لقد آمن برسوله عن بيِّنة ويقين، وصلّى لله بعد أن عرف الله، وكأن الله سبحانه قد منحه عمرًا غير عمره، تجاوز فيه الفتوة والشباب وناف على الكهولة، بل أشرف على الشيخوخة، بل كان ردُّ أبيه عليه ردَّ عارف بحقيقة عمر ولده، مدرك أهمية رسالة ابن أخيه عارف بها: (أما إنه يا ولدي لم يدعك إلاّ إلى خير فالزمه ما استطعت) كما جاء في السيرة ٣١٨/١، بل إن ابن الأثير روى في كتابه أسد الغابة ٥٩٠/٣ عن أبي أيوب الأنصاري قول رسول الله صلوات الله عليه: « لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليٍّ سبع سنين، وذاك أنه لم يصلِّ معي رجل غيره »، ولعلَّ ما يؤكد صحّة الخبر ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠٩٥/٣ عن حبَّة بن الجوين العرني قال: (سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول: لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمّة خمس سنين).

وروى ابن عبد البرِّ في استيعابه ١٠٩٠/٣ أيضًا بسند يرفعه إلى ابن عباس قال: (لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أوّل عربي وعجمي صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهو الذي كان لواؤه معه في كلِّ زحف، وهو الذي صبر معه يوم فرَّ عنه غيره، وهو الذي غسّله وأدخله قبره).

ولعل المراد من ذلك إيمانهما بدين إبراهيم عليه السلام قبل البعثة النبوية المباركة، إذ إن إرهاصاتها التي سبقت الوحي بعشر سنين أدركها الصبي يوم تمكّن من الإدراك كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣١٨/٤، بل إن جميع الروايات التي ذكرها أهل الحديث والتاريخ تؤكّد أنه عليه السلام لم يسبقه أحد إلى الإسلام، أو الإسلام والصلاة، ولعلّ إسلام خديجة رضوان الله عليها واكب إسلامه، ولعلّه حينما حدّثها عن الوحي حدَّث في الوقت عينه أخاه، أو أنه كان على بيِّنة من ذلك الحديث قبل وصول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى بيته، فما كان في حاجة إلى إشهار إسلام لأنه كان مؤمنًا بفطرته كأخيه.

وذكر الطبراني في أوائله روايتين بشأن إسلامه، فقال في واحدة إنه أول القوم إسلامًا، وقال في أخرى أن خديجة رضوان الله عليها قد سبقته إلى الإسلام، وجاء بعدها عليه السلام.

وعلى عادة مؤرخي ذلك الزمن يذكرون الرواية إذا لم يراودهم شك بسندها، وقد يذكرونها بلا مناقشة لمتنها أو سندها، أو التفات إلى روايات أخرى تناقض ما ذكروه سابقًا أو لاحقًا، فهذا ابن سعد يذكر رواية عن ابن عبّاس مفادها أن أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة علي، ثم يذكر أخرى عن شيخه محمد بن عمر ٢١/٣-٢٢ الذي قال: (وأصحابنا مجمعون أن أول أهل القبلة الذي استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم خديجة بنت خويلد، ثمَّ اختلف عندنا في ثلاثة نفر أيهم أسلم أوّلاً، في أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة، وما نجد إسلام علي صحيحًا إلا وهو ابن إحدى عشرة سنة) فلم يلتفت إلى التناقض بين الروايتين، ولا فضّل رواية على أخرى، بل إنه

ذكر في طبقاته ٨/١٧– ١٨ بسنده عن عفيف الكندي، أنه جاء في الجاهلية فنزل على العباس بن عبد المطَّلب، ولما استقبل الكعبة قائمًا (إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه إلى السماء فنظر ثم استقبل الكعبة قائمًا مستقبلها، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيرًا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة ... قال: فقلت: يا عباس إني أرى أمرًا عظيمًا، فقال العباس: أمر عظيم، هل تدري من هذا الشاب؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذا محمد بن عبد المطلب ابن أخي. هل تدري من هذا الغلام؟ قلت: لا ما أدري. قال: علي بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ابن أخي. هل تدري من هذه المرأة؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي هذا. إنَّ ابن أخي هذا الذي ترى حدَّثنا أن ربَّه ربّ السماوات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، فهو عليه، ولا والله ما علمت على ظهر الأرض كلّها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنَّيت بعدُ أني كنتُ رابعهم)، وتابعه الطبري في تاريخه ٢/٣١١ وابن الأثير في كامله ٢/٥٧ بذكر هذه الرواية.

ولا أشكُّ في أن ردَّ المأمون الذي سنأتي على ذكره خير رادع لرواية محمد بن عمر السَّابقة الذكر إن صحت عنه، إذ إن كلَّ رواية تذهب إلى أن أحدًا سبق المرتضى في الإيمان بدعوة سيِّد الكائنات هي نوع من اللغو الذي يصعب الأخذ به، ولعل الرواية كانت في الأصل على وجه آخر فدخلها ما دخل كثيرًا من الروايات من خلط وتصحيف وتحريف وإضافة، وكأنها في الأصل اختلاف في أوَّليَّة إسلام أبي بكر أو زيد أيهما سبق الآخر، أما الإمام فلا حاجة لإشهار إسلامه، لأنه كأخيه مسلم بفطرته، ولعل ما يؤيد هذا الاتجاه

ذهاب بعض الروايات إلى أنه أول من صلى مع النبي، أو أنه كان ثالث اثنين أي: بعد صلاة خديجة معه، وقد ذهب كثير من الناس على حد تعبير المسعودي في مروجه ٢/ ٢٨٣ إلى أنه (لم يشرك بالله شيئًا فيستأنف الإسلام، بل كان تابعًا للنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله مقتديًا به ويلغ وهو على ذلك، وأن الله عصمه وسدده ووفقه كعصمة نبيه)، وهو الصواب الذي لا شكّ فيه.

ويغلب على الظن أنه يوم كلّم جبريل النبي أحسّ الإمام بالأمر الجلل من تغيّر سحنة رسول الله بعد نزول الوحي عليه، فأخذته الرهبة التي أخذت أخاه صلوات الله وسلامه عليهما، ولعلّها عقدت لسانه فما عاد يستطيع التفكير أو السؤال، ولا شكّ أنه أوّل من شمّ رائحة النبوّة في رسول الله، ورآها في وجهه، وأحسّ بها في رعشة يديه، وانتفاضة جسده بعد خروجه من الغار، فلا يستبعد أنه كان ساعة نزول الوحي بانتظاره خارج الغار أو معه فيه، ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم تسنّد عليه وهو في تلك الحال إلى أن وصلا الدّار لما يستفاد من النّص السابق، ولا أدلّ على قطع ما تقوّله المتقوّلون من قوله عليه السلام في أنه أول القوم إيمانًا برسالة خاتم الأنبياء قوله الذي ورد في النهج ٤٧٠: (ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله، وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمُّ ريح النُّبوَّة)، وأكّد أولية إيمانه برسالة أخيه أيضًا من طرق عدّة ابن عبد البر في استيعابه ٣/ ١٠٩٠–١٠٩٦، وابن الأثير في أسده ٣/ ٥٩٠–٥٩١، وكامله ٢/ ٥٧، وذكر الترمذي في سننه رواية برقم ٣٨١٢ عن مسلم المُلائي أن أنس بن مالك قال: (استُنْبِئ النبي صلى الله عليه وسلّم يوم

الاثنين وصلّى عليٌّ يوم الثلاثاء)، وعلق عليها بقوله: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث مسلم الأعور، ومسلم الأعور ليس عندهم بذاك القوي)، لأنه كان يقدم عليًا على عثمان كما ذكر المظفر في إفصاحه ٤/٢٦ ولكن الترمذي عاد فنفى استغرابه بقوله: (وقد روي هذا الحديث عن مسلم عن حَبَّة عن علي نحو هذا)، ولعلَّ مردَّ استغراب الترمذي رأى كما هو الواقع أن الإمام تابع أخاه عليهما السلام من ساعة إعلامه بخبر الوحي، أو بسبب روايته عن مسلم، ولكن الرواية عن حبَّة تَوَثَّقَتْ عنده من طريق آخر.

وإذا كان الترمذي قد علّق على ما روي عن شعبة عن أبي بَلْج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس في أن (أوَّل من صلَّى علي) بقوله: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه من حديث شعبة عن أبي بِلْج إلا من حديث محمد بن حُمَيْد، وأبو بلج اسمه يحيى بن أبي سُلَيم، فلا يستطيع عاقل أن يأخذ باستغرابه بعد قول ما قاله أبو الحسن عليه السلام، فقوله الفصل، إلاّ إذا كان المراد منه أن خديجة رضوان الله عليها كانت أول من صلّى، ولا يستطيع باحث مهما بلغ به التعصُّب أن يأخذ أيضًا بما نقله الترمذي في سننه رقم ٣٨١٧ ص ٣٠٥ عن بعض أهل العلم في أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق، وأسلم علي وهو غلام ابن ثماني سنين، وأول من أسلم من النِّساء خديجة، فإذا كان غلامًا بزعم بعض أهل العلم، فأي غلام كان حينما اختاره الله سبحانه وتعالى لهذا الدور!

ولم يكتف الترمذي بما نقله عن بعض أهل العلم، وإنما روى رواية أخرى رقمها ٣٨١٨ ص ٣٠٦ عن أبي حمزة عن رجل من الأنصار عن زيد بن أرقم قال: (أول من أسلم علي)، وعلق عليها بقوله: (قال عمرو بن مرَّة فذكرت

ذلك لإبراهيم النخعي فأنكره وقال: أول من أسلم أبو بكر الصديق). وليس إنكار النخعي بحجَّة بعد ذلك السيل من الروايات الموثقة التي ذكرناها، بل إن الطبري في تاريخه بعد إيراده الروايات التي ذكرت أوَّلية إسلام أبي بكر في تاريخه ٢/٣١٤–٣١٦ ذكر أن آخرين أسلموا قبله، وحدَّث أن ابن حميد قال: (حدثنا كنانة بن جبلة عن إبراهيم بن طهمان عن الحجَّاج بن الحجَّاج عن قتادة عن سالم بن أبي الجَعْد عن محمد بن سعد قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أوَّلكم إسلامًا؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين)، ويبدو أن الترمذي لم يأخذ بإنكار النخعي أيضًا، إذ علَّق بقوله: (هذا حديث حسن صحيح وأبو حمزة اسمه طلحة بن يزيد)، وعلى كلٍّ حال فإني لا أشكُّ بنزاهة الترمذي وأمانته وتحرُّزه في نقل الأحاديث، ولكن ما حدث من إحن وفتن وتطرف وطائفيَّة وعداوة وكراهية لعلي عليه السلام خاصَّة، ولبنيه وشيعته عامَّة، في حياته وأثناء حكمه وبعد استشهاده، في عصر بني أميَّة، وفي العصر العباسي، وفي غيرهما شارك مشاركة كبيرة في الإساءة لأهل البيت عليهم السلام، وفي محاولة طمس سيرتهم، وطمس ما ورد عنهم من أخبار صحيحة النسبة، كما أساء لعلماء شيعتهم، فراويهم مهما كان فهو ضعيف، أو مجهول، أو متروك، أو محترق، أو كذَّاب، أو وضَّاع، أو ساقط، أو لا يساوي فلسًا أو غيرها من مصطلحات أهل الجرح والتعديل، بل إن الإساءة أصبحت عامَّة فغاب كثير من الصحيح، واختلط كثير من غيره به، وكاد بعض المنحول ينزل منزلة الصحيح، وأنت حينما تقرأ بعض ما ذكره البلاذري في أنسابه ١/١٢٥– ١٢٧ مثلاً حول أسبقية إسلام علي عليه السلام تستطيع استنتاج صحة ما ذكرناه، من مثل قوله: (قال الواقدي: رأى علي النبي صلى الله عليه وسلم

تصلي معه خديجة فقال: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: يا علي، هذا دين الله الذي اصطفاه واختاره، وأنا أدعوك إلى الله وحده، وأن تذر اللات والعزى فإنهما لا ينفعان ولا يضرَّان. فقال علي: ما سمعت بهذا الدين إلى اليوم، وأنا أستأمر أبي فيه. فكره النبي ﷺ أن يفشي ذلك قبل استعلان أمره. فقال: يا علي، إن فعلتَ ما قلت لك، وإلاَّ فاكتم ما رأيت. فمضى ليلته، ثم غدا على رسول الله فقال له: أعد عليَّ ما قلت، فأعاده، فأسلم، ومكث يأتي رسول الله ﷺ فيصلي معه على خوف من أبي طالب، وكان هو وزيد بن حارثة يلزمان رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى الكعبة أول النهار ويصلي صلاة الضحى، وكانت تلك الصلاة لا تنكرها قريش، وكان إذا صلى سائر اليوم بعد ذلك قعد علي أو زيد يرصد له، وأنَّ أبا طالب فقد عليًّا، فقالت له فاطمة بنت أسد أمه: قد رأيته يلزم محمدًا، وأنا أخاف أن يأتيك من قبل محمد في أمر ابنك ما لا تطيقه. فقال: ما كان ابني ليفتات علي بأمر. واتبع أبو طالب أثر النبي ﷺ وأثر علي، فوجدهما ورسول الله يصلي العصر في شعب أبي دأب أو غيره، وعلي ينظر له، فقال لرسول الله: ما هذا الدين يا محمد؟ قال: دين الله الذي بعثني به، فدعاه إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان، فقال أبو طالب: أما دين آبائي، فإن نفسي غير مشايعة على تركه؛ وما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب؛ ولكن انظر الذي بُعِثتَ به فأتمم عليه، فوالله لا أسلمك ما كنت حيًّا حتى يتم الذي تريد. وقال لعلي: أما أنت يا بني، فما بك رغبة عن الدخول في ما دخل فيه ابن عمك. فاشتدَّ ظهر رسول الله ﷺ، وسُرَّ بقول أبي طالب. وأتى أبو طالب منزله، فقالت له امرأته: أين ابنك؟ قال: وما تصنعين به؟ قالت: أخبرتني مولاتي أنها رأته مع محمد وهما يصليان

في شعب بأجياد؛ أفترى ابنك قد صبأ؟ قال أبو طالب: اسكتي، ودعي عنك هذا، فهو والله أحق من آزر ابن عمه. ولولا نفسي لا تطاوعني على ترك دين عبد المطلب لاتبعت محمدًا، فإنه الحليم الأمين الطاهر. فسكتت. ويلغ قريشًا فراعهم وكبر عليهم)، ثم قال بدون فاصل نقلاً عن الواقدي أيضًا: (صلى علي عليه السلام وله إحدى عشرة سنة، وذلك الثبت، ويقال: إنه صلى ابن عشر، ويقال: ابن تسع، ويقال: ابن سبع). وتلاحظ أن الخبر بمجمله يوحي بجملة من الأمور، منها طبيعة الحوار الذي دار بين رسول الله وأخيه صلوات الله وسلامه عليهما (أنا أدعوك أن تذر اللات والعزى فإنهما لا ينفعان ولا يضرَّان)، فهل كان عليه السلام متمسكًا باللات والعزى أو غيرهما من أصنام قريش؟!!، ومعلوم أنه عليه السلام يوم آمن كان على الفطرة التي ولد بها، لذا قال عليه السلام يوم شعر بدنوِّ أجله: أما البراءة مني فلا تتبرأوا فإني ولدت على الفطرة، فهل من قال مثل ذلك يقول؟: (ما سمعت بهذا الدين إلى اليوم، وأنا أستأمر أبي فيه)، ولا أدري كيف تكون إجابته بهذه الصورة التي نقلها البلاذري عن الواقدي؟ فكيف يسمع بدين لا يعرفه أحد غير رسول الله، وإن شئت فقل: وغير خديجة رضوان الله عليها، إن أية إجابة غير التي نقلها البلاذري تبدو أكثر إقناعًا.

ومنها صلاته على خوفٍ من أبيه، ولا أظن فتى ربَّاه رسول الله على مكارم الأخلاق يسلك سلوكًا يخاف فيه من أبيه أو من غيره، ولا أظن أيضًا أن النبي حينما صلى كان خائفًا من أقرب الناس إليه وهو عمه أبو طالب.

ومنها قلق فاطمة على ولدها بسبب خروجه مع ابن عمه، وخوفها عليه أن يأتي أباه ما لا طاقة له به بسبب تلك الرفقة، وكأنه غريب عنه، لم يتربَّ

في بيته، ومتى كان يخرج عليٌّ مع غيره، بل متى فارقه مذ عرفه، بل إن في لهجة فاطمة ما يدعو إلى ريبتها برسول الله، وخوفها من سلوكه على ولدها، والثابت عند أتباع مذهب أهل البيت أنها أول امرأة بايعت رسول الله من النساء، ووثق ذلك ابن أبي الحديد في الشرح ٢٠/١ وغيره، ولقد ذكرها ابن سعد في طبقاته ٢٢٢/٨ في أول النساء المسلمات المبايعات من قريش وغيرهم، كما أن حديثها هذا يتعارض مع كل أخبار علاقتها رضوان الله عليها بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها أن الدعوة كانت معروفة في الوسط القرشي كما يبدو من السياق، فهي تقول حينما سألته عن ابنه: (أخبرتني مولاتي أنها رأته مع محمد وهما يصليان في شعب بأجياد)؛ ومعنى هذا أن الدعوة معروفة، فأين سرّيتها التي تحدَّثت عنها جميع كتب الحديث والسيرة والتاريخ، ومنها قولها: (أفترى ابنك صبأ)، وهذا يعني أنه قد ترك دين آبائه وأجداده، وكأنه كان على دينهم من قبل، ثم تلحظ التناقض الظاهر في الحديث المنقول على لسان أبي طالب، فهو يأمر ولده باتباع دين محمد، ويحثه على الدخول في ما دخل فيه، بل يقول لابن أخيه: (ولكن انظر الذي بعثت به فأتمم عليه، فوالله لا أسلمك ما كنت حيًّا حتى يتم ما تريد)، ويقول لزوجته: (لولا أن نفسي لا تطاوعني على ترك دين عبد المطلب لاتَّبعت محمدًا، فإنه الحليم الأمين الطاهر)، ثم تختم الرواية بسكوت فاطمة، وتبلغ قريش بالخبر فيروعها ويكبر عليها، فأين السريَّة في الدعوة التي بقيت لا تعرف طريق العلن ثلاث سنين على ما حدث الواقدي نفسه في ما رواه البلاذري في أنسابه ١٣١/١!! إذا كانت الدعوة قد بلغت قريشًا، في الوقت الذي ما زاد فيه عدد التابعين لها على اثنين خديجة وعلي.

وإذا كان ابن عبد البر في استيعابه ١٠٩٥/٣ تابع الترمذي في رواية مسلم الملائي عن أنس بن مالك التي ذكر فيها يوم نبوَّة المصطفى، ويوم إسلام المرتضى عليهما السلام ولم يعترض عليها، فإن لخطيب البغدادي في تاريخه ١/ ١٣٤ أكد أوليَّة إسلام الإمام عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهم السلام، وحدد عمره الشريف بروايته هذه بسبع سنوات.

وذهب المسعودي في مروجه ٢٨٣/٢ إلى تنازع الناس في تبعية الإمام لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، (فذهب كثير من الناس إلى أنه لم يشرك بالله شيئًا فيستأنف الإسلام، بل كان تابعًا للنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله مقتديًا به، وبلغ وهو على ذلك، وأن الله عصمه وسدَّده ووفقه لتبعيته لنبيه عليه السلام؛ لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات، بل مختارين قادرين، فاختارا طاعة الرب، وموافقة أمره، واجتناب منهياته).

ولقد صدق أيضًا العباس عم النبي رضوان الله عليه يوم أقسم لصاحبه عفيف فقال: (والله ما أعلم على وجه الأرض كلِّها أحدًا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة).

(ومنهم من رأى أنه أول من آمن، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عزَّ وجل: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، وكان بدؤه بعلي إذ كان أقرب الناس إليه، وأتبعهم له، ومنهم من رأى غير ما وصفنا)؛ ولا شك أن ما ذهب إليه كثير من الناس كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/ ٢٨٣ إلى أنه لم يشرك بالله شيئًا فيستأنف الإسلام هو الواقع الذي لا مراء فيه، نعم كان مقتديًا بأخيه المصطفى في جميع أفعاله، وأن الله عصمه وسدده

ووفّقه كما قال، والنص في نسخة أخرى من المروج كما ذكر محققه محمد محي الدين عبد الحميد على الصورة الآتية (وأن الله عصمه وسدده ووفقه كعصمته لنبيه)، وعلّق محقق المروج بقوله: (وهو أدق وأظهر). بل إن هذه العصمة لازمته إلى أن ذهب إلى جوار ربه، ولم يقل بهذا مؤرخ أو راوٍ بعينه، وإنما كادت تتفق عليه جميع الأقلام التي تناولت سيرته من كلِّ المذاهب الإسلامية، عصمة في القول والفعل، وعصمة في الجهاد والعمل، وعصمة في معرفة الحياة بكلِّ أبعادها والزهد فيها، وعصمة في الإيمان الذي لا حدود له بالله ورسوله، وعصمة في عدله وحلمه وقضائه ورأفته وسماحته، وعصمة في صدقه مع الله ورسوله ومع خلقه، وعلّلَ بن أبي الحديد في شرح النهج ٣١٨/٤ الفطرة في ما عللها به (أنه ولد عليه السلام لثلاثين عامًا مضت من عام الفيل، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه ﷺ مكث قبل الرسالة سنين عشرًا يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاصًا لرسالته عليه السلام فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته ﷺ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولي لتربيته مولود في أيّام كأيّام النبوّة)، وذكر أيضًا أنه (ويمكن أن يفسَّر بأنه عليه السلام أراد بالفطرة العِصمة؛ وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحًا؛ ولا كان كافرًا طرفة عين قط، ولا مخطئًا ولا غالطًا في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين، وهذا تفسير الإماميّة)، فخلد في الدارين عَلَمًا شامخًا لا يدانيه أحد في كلِّ ما نزّه الله أنبياءه ورسله من عظائم الأمور وصغائرها، وسيبقى أمير المؤمنين عليه السلام ينبوع الحقِّ الذي ينهل منه كلُّ داعٍ إليه، متمسك بأطرافه. وإذا كنّا أطلنا الوقوف على ما لا يدعو إلى جدالٍ أو نقاش، فلأننا لم نرد جلاء حقيقة غائبة عن الأذهان، وإنما

أردنا من خلال ذلك استعراض الأحداث بكلِّ تفاصيلها التي وردت عند القدماء، وفي الوقت ذاته نستفيد عبرة وموعظة في أن الإنسان قادر على ترويض نفسه إن وفّقه الله وامتلك إرادة قوية للسيطرة عليها، وإنه إذا كان قويَّ الإيمان عميقه يستطيع ليَّ الدنيا، بالطريقة التي يشاء بدون أن تأخذ منه قلامة ظفر، وهكذا كان علي عليه السلام.

وليس الشّيعة كما يدَّعي بعض المغرضين لوحدهم الذين يذهبون إلى تفضيله على غيره بعد رسول الله، وإنما هناك عشرات بل مئات من الصحابة والتابعين، بل قل: آلافًا منهم فضّلوه على غيره، ذكر ابن عبد البرّ في استيعابه ١٠٩٠/٣ في معرض حديثه عن قدم إسلامه فقال: (وروى - عن سلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وخبّاب، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم - أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من أسلم، وفضّله هؤلاء على غيره)، وإذا كان كلّ هؤلاء قد فضّلوه، فما قيمة عدم تفضيله عند آلاف الطلقاء الذين ناصبوه العداوة والبغضاء.

ولعلَّ خير ما تقرأه في هذا الباب ما جاء في كتاب العثمانيَّة للجاحظ وما جاء في نقضها لأبي جعفر الإسكافي، وقد نقل الكتابين ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤٨/١٣–٢٠٣، وإيَّاك أن تظنَّ أن أبا جعفر هذا من شيوخ الإماميَّة، أو من المعتقدين بمذهبهم، فهو يقول فيها، كما جاء في المصدر السابق ١٩٠/١٣(إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقَهم، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومة، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصّحابة على علي بن أبي طالب)، ولم أشأ أن أنقل لك الرسالتين على الرغم من أهميتهما لمن يكتب عن الإمام، لأني لست بصدد الدفاع عنه، أو

بصدد الحديث عن فضله، بعد أن فضَّله الله ورسوله على جميع الخلق، أما ما ذكرته، وما سأذكره فإن الغرض منه التنويه بعظمة هذا العبد الصالح، وأسباب احتلاله تلك المكانة الشامخة بين المسلمين خاصَّة وبين عمالقة الفكر الإنساني عامَّة، كي نصل في النهاية إلى أنه عليه السلام رجل الإسلام بلا منازع، وأننا سنبقى في حاجة إلى معرفة نهجه معرفة حقيقيَّةً للاقتداء به وبمسيرته التي بهرت الخلق منذ يوم الله ذاك.

ولك في حديث المأمون مع إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل ومن معه من الفقهاء في فضل عليٍّ على غيره بعد رسول الله صلوات الله عليهما الذي ذكره ابن عبد ربه في عقده ٥/٩٠–٩٨ خير توضيح لأهمية سبقه وسأذكرها كما وردت فيه:

قال المأمون: يا إسحاق، (أيُّ الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله؟ قلت: الإخلاص بالشَّهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: اقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ❁ أولئك المقرَّبون ﴾ إنما عنى من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحدًا سبق عليًّا إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين إن عليًّا أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم. قال: أخبرني أيهما أسلم قبل؟ ثمَّ أناظرك من بعده في الحداثة والكمال. قلت: عليٌّ أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة. فقال: نعم، فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهامًا من الله؟ قال: فأطرقت، فقال لي: يا إسحاق، لا تقل إلهامًا فتقدمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى. قلت: أجل، بل دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا إسحاق، فهل يخلو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلّف ذلك من نفسه؟ قال: فأطرقت. فقال: يا إسحاق، لا تنسب رسول الله إلى التكلُّف، فإن الله يقول: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾.قلت: أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله. قال: فهل من صفة الجبَّار جلَّ ذكره أن يكلِّف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم؟ قلت: أعوذ بالله! فقال: أفَتَراه في قياس قولك يا إسحاق إن عليًّا أسلم صبيًّا لا يجوز عليه الحكم، وقد كُلِّف رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء الصبيان إلى ما لا يطيقونه، فهو يدعوهم الساعة ويرتدُّون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء، ولا يجوز عليهم حكم الرسول صلى الله ليه وسلم، أترى هذا جائزًا أن تنسب إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قلت: أعوذ بالله. قال: يا إسحاق، فأراك إنما قصدت لفضيلة فضَّل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا على هذا الخلق أبانه بها منهم ليعرف مكانه وفضله، ولو كان الله تبارك وتعالى أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا عليًّا!!....).

وليس بغريب بعد كل ذلك أن يكون عليه السلام المؤتمن على سرِّ أخيه ورسالته، العارف بأحكامها وقضائها، ولا أدل على ذلك من إجابته حينما قيل له: (ما لك أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا؟ فقال: إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكتُّ ابتدأني) كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/ ٣٣٨، والبلاذري في أنسابه ٢/٣٥١، وكان ابن عباس يقول: (إذا حدثنا ثقة عن علي بفُتيا لا نعدوها)، وهي في طبقات ابن سعد٢/٣٣٨ بسنده أيضًا.

ومن غريب ما قرأته في موضوع أسبقية إسلامه عليه السلام قول الذهبي في طبقات قرائه ١/٧ : (كان أسبق السابقين الأولين إلى التوحيد، لم يسبقه أحد إلا خديجة)، ثم قال بعد هذا بلا فاصل: (واختلف فيه، وفي أبي بكر، أيهما أسلم أول، ولكن إسلام الصدِّيق أعظم اعتبارًا وأكمل، فرضي الله عنهما)، ولست أدري كيف اتَّفق كلامه ذاك مع هذا، وأيَّ اعتبار سوغ له، قول ما قال، بعد قوله أيضًا: (ومناقب أبي الحسن رضي الله تعالى عنه جمّة، قد أفردتها في مصنَّف سمَّيته: فتح المطالب في سيرة علي بن أبي طالب) كما ذكر في طبقاته ١/٨.

إسلام جعفر وأبي ذرّ

لم ينحصر دور المرتضى بمرافقة المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما في حِلّه وترحاله فحسب، وإنما كان يقوم بدور آخر لا يقلُّ أهميَّة عن أدواره الأخرى، وهي إقناع من يرى فيه الخير باعتناق الإسلام، وقد رأيناه في رواية كيف أقنع أخاه جعفرًا، وهو أكبر منه بدخول الإسلام، فما كان منه يوم أمره أبوه بوصل جناح ابن عمِّه يوم رآه يصلّي مع المرتضى إلا أن لبَّى الطلب بلا تردُّدٍ أو مناقشة.

وستلحظ حين تقرأ حكاية إسلام أبي ذرٍّ الغفاري رضوان الله تعالى عليه التي رواها البخاري وفصَّل الحديث فيها، وفي رواياتها ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري ٧/١٣٢كيف أنه لمح في الرجل الذي جاء مكّة يلتمس رسول الله وهو لا يعرفه رغبة في اعتناق الإسلام، فاصطحبه سلام الله عليه ثلاثة أيّام لم يسأله فيها عن أمره، ولمّا كان اليوم الثالث سأله عن الذي أقدمه إلى مكّة، ولمّا استوثق أبو ذرٍّ من صاحبه حدَّثه برغبته في لقاء رسول الله صلى

الله عليه وآله للتأكُّد من نبوَّته، فاصطحبه إلى رسول الله، فلمَّا سمع منه ما سمع أسلم من ساعته، ويبدو أن أبا ذرٍّ لم يكن على شرك يوم أسلم كما توحي بعض روايات الفتح، وطلب منه النبيُّ أن يعود إلى قومه حتى يأتيه أمره، ولكنَّه أقسم أن يصرخ بشهادته في البيت وسط قريش، فخرج وأتى المسجد وصرخ بأعلى صوته بالشهادة، فما كان من القوم إلا أن أشبعوه ضربًا ولكمًا، ولولا أن العباس بن عبد المطَّلب أكبَّ عليه في تلك الساعة لقتلوه، فقد خوَّفهم على تجارتهم التي تمرُّ في طريقها إلى الشام على غفار، ولم ينته الغفاريُّ المؤمن، وإنما عاود الكرَّة ثانية في اليوم الثاني وكان منهم ما كان، وكان من العبَّاس ما كان، ولك أن تراها في قصص العرب ١/١٩٣ وقد نقلها المؤلفون من كتاب التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي.

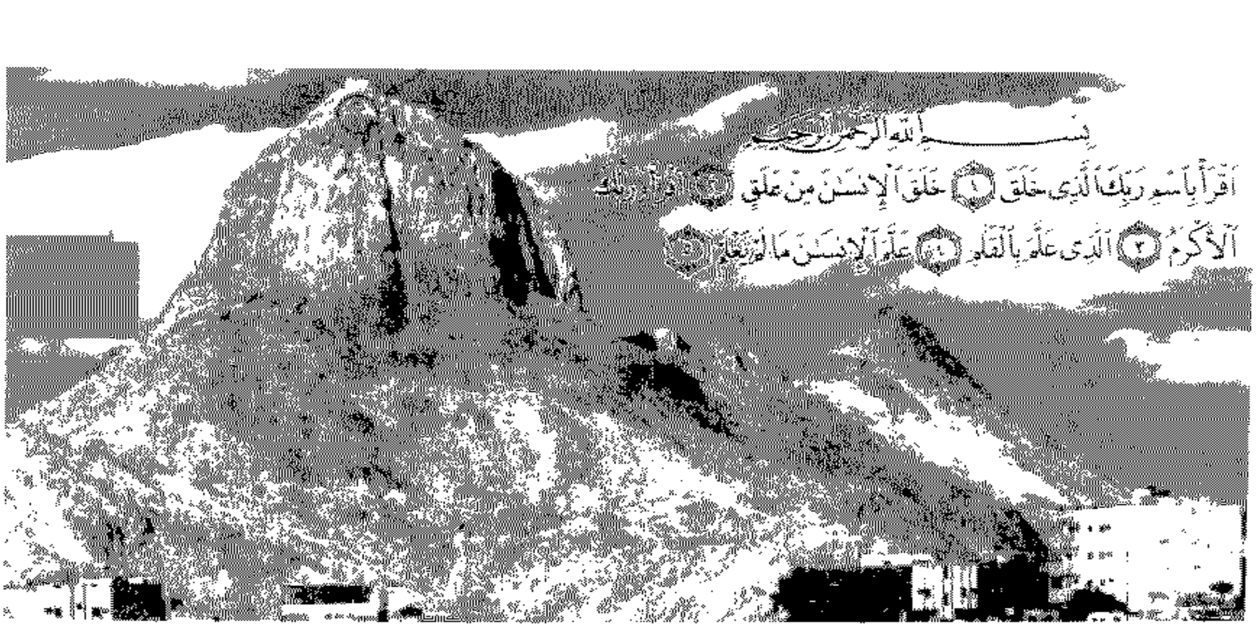

جبل النور ويقع في أعلاه غار حراء

سنوات الحصار وأيام الحزن

لم يكن أبو طالب رضوان الله عليه من أصحاب المال أو الثراء، وما كان أكبر ولد عبد المطلب، ولكنه كان أوسعهم جاهًا وأكثرهم هيبة وسط البيت القرشي، ولعل الله سبحانه وتعالى منحه تلك الهيبة والمكانة ببركة اليتيم المبارك الذي تكفَّله، وببركة البيت الذي نذر عمره لخدمته وخدمة حجَّاجه، ولكنَّه في أخريات أيَّامه وهن العظم منه، وأنهكه المرض وثقل عليه.

ويبدو أن دائرة المؤمنين برسالة سيِّد الكائنات صلى الله عليه وسلَّم بدأت بالاتساع يومًا بعد آخر، وما أن أشرفت السنة الخامسة من البعثة المباركة على الأفول حتى شعرت الفئة الباغية بالخطر يتهدَّد مصالحها، بسبب كثرة من انتمى إلى الإسلام من الملأ المكيّ، ورأت أن تجتمع بأبي طالب كي يحسم الأمر في ما بينها وبين ابن أخيه قبل استفحال أمره بزعمهم، ومشوا إليه يتقدَّمهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بنَ هشام، وأميَّة بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، وغيرهم من رؤوس قريش، بل قل: من رؤوس بني أميَّة وقالوا له: (إنك منَّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوَّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منَّا، وخذ لنا منه، ليكفَّ عنَّا ونكفَّ عنه، وليدعنا ودينَنا، وندعه ودينه)، ولا شك أن هذه الفئة يوم جاءت كانت على بيِّنة أن سند الإسلام قد يذهب عما قريب، ولو كان الإسلام في مثل ضعفه بداية الدعوة لما فكروا بذلك العرض، بل لعلهم وجدوها فرصة للقضاء على المصطفى ودعوته، وعلى كل حال فإن أبا طالب بعث إلى ابن أخيه، فلما جاءه

قال له بمسمع من الملأ: (يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا عم، كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم »، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه »، فصفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب، ثم قال بعضهم لبعض: إنَّه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثمَّ تفرقوا، فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططًا)، ذكر ذلك ابن هشام في سيرته ٢/٣١-٣٢، كما ذكره غيره من أرباب السير، ولا أظنك تستنتج من قسم أبي طالب أنه كان على دين أبي جهل ورفقته من أعداء الإسلام، ولا أظنك تعتقد أن أبا طالب قد التقى في معتقده مع تلك الزمرة الخبيثة في يوم من الأيام.

وذهبت محاولات الملأ القرشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أدراج الرياح من ناحية، ومع أبي طالب رضوان الله عليه من ناحية أخرى، وعقدوا العزم على قتل رسول الله، وما أن وصل ما ائتمروا عليه إلى مسامع أبي طالب حتى خاطب ابن أخيه بقوله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أغيَّب في التراب دفينا
ودعوتني وزعمت أنك ناصح   ولقد صدقت وكنت ثمَّ أمينا
وعرضت دينًا قد علمت بأنه   من خير أديان البرية دينا

وشعرت قريش أن قتل النبي لم يعد في مقدورها بعد ما أعلن أبو طالب موقفه منه، فقرَّرت مقاطعة بني هاشم ومن والاهم، وكتبت صحيفتها الظالمة

بقلم منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٣٠٥/١، وجاء فيها (ألاّ يبايعوا أحدًا من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتى يدفعوا لهم محمدًا فيقتلوه. وتعاقدوا على ذلك وتعاهدوا، وختموا على الصحيفة بثمانين خاتمًا)، وذكر اليعقوبي أيضًا: (ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ابن عبد مناف في الشعب الذي يقال له شعب بني هاشم بعد ست سنين من مبعثه، فأقام ومعه جميع بني هاشم وبني المطلب في الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، وصاروا إلى حدِّ الضرِّ والفاقة)، وقد أوجز الإمام عليه السلام وصف تلك الأيام بقوله الذي أورده ابن أبي الحديد في شرح النهج١٣/ ١٧٥: (فتعاقدوا ألاّ يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرنا إلى جبل وعر؛ مؤمننا يرجوا الثواب، وكافرنا يحامي عن الأصل؛ ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المرَّة والميرة، فكانوا يتوقعون الموت جوعًا، صباحًا ومساء؛ لا يرون وجهًا ولا فرجًا، قد اضمحلَّ عزمهم، وانقطع رجاؤهم)، وكان له في تلك الأيام التي واكبها من الخوف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما واكبها دور وأيّ دور، ومن الحرص على توفير المؤن لأصحاب الشعب ما وقاهم غائلة الموت جوعًا، ومن تعريض نفسه إلى الهلكة ما يثير العجب العجاب، ويعود الفضل في معرفة تلك الأدوار بالنسبة لي إلى عثمانية الجاحظ ونقضها وقد أوردهما ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ١٧٥ الذي ذكر ما دفع به شيخه أبو جعفر حجة الجاحظ في قوله: إن عليًّا عليه السلام كان في مكّة (رافهٌ وادع، وليس

بمطلوب ولا طالب، وليس لأنه لم يكن في طبعه الشهامة والنجدة، وفي غريزته البسالة والشجاعة، ولكنه لم يكن قد تمت أداته، ولا استكملت آلته، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يغمصون ذا الحداثة، ويزدرون بذي الصبا والغرارة، إلى أن يلحق بالرجال، ويخرج من طبع الأطفال)، قال أبو جعفر: (أما القول فممكن، والدعوى سهلة؛ سيما على مثل الجاحظ، فإنه ليس على لسانه وعقله من دينه رقيب؛ وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزرٌ وقوله لغوٌ، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو؛ يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده؛ ليس له من نفسه واعظ، ولا لدعواه حدٌّ قائم، وإلاَّ فكيف تجاسر على القول بأنَّ عليًّا حينئذ لم يكن مطلوبًا ولا طالبًا؛ وقد بيَّنّا بالأخبار الصحيحة، والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغًا كاملاً منابذًا بلسانه وقلبه لمشركي قريش، ثقيلاً على قلوبهم، وهو المخصوص بالحصار دون أبي بكر بالحصار بالشعب؛ وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الظلمات؛ المتجرِّع لغُصَصِ المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما، والمصطلي لكل مكروه، والشريك لنبيِّه في كلِّ أذى؛ قد نهض بالحِملِ الثقيل، وبالأمر الجليل؛ ومَنِ الذي كان يخرجُ ليلاً من الشِّعب على هيئة السارق، يخفي نفسه، ويضائل شخصه؛ حتى يأتي إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش، كمطعم بن عدي وغيره؛ فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح؛ وهو على أشد خوف من أعدائهم، كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دمه ...).

ولك أن تقرأ صفحات كلها في مجد عليٍّ من خلال عثمانية الجاحظ ونقضها في كتاب ابن أبي الحديد المذكور.

وفي سنوات الحصار أيضًا
إنذار العشيرة ووسام الوصاية

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

لعل كثيرًا من الهواجس كانت تنتاب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم في ذلك الجدب، وأثناء الحصار الذي فرض عليه وعلى أهل بيته بشعب أبي طالب، إذ لم يكن الإيمان بالأمر السهل على أمة غارقة في جاهليتها، ليس للعقل أي مجال في معتقداتها التي توارثتها عقودًا طويلة لا يحصيها إلا الله، ولا شكّ أنه كان يعاني عناءً ما بعده عناء من هول ما سبّبه من أذى ذوي القربى لأهله وأسرته، ولعلّه كان يقاسي من حصارين أحلاهما أشدُّ مرارةً من العلقم، حصار الجهل الذي أحاط به إحاطة السوار بالمعصم، ولم يترك له أيّ بصيص من نور للعقل كي ينفذ منه، والحصار الذي فرض على ذويه.

وفي خلال السنة السادسة أو السابعة من عمر دعوته وبينما هو غارق بالذي هو فيه وجد نفسه صلوات الله عليه وجهًا لوجه أمام أمر سماويٍّ في غاية الصعوبة ولا مناص من تنفيذه، لقد وصل البلاغ بإنذار عشيرته الأقربين ودعوتهم إلى الإيمان، والأمر واضح لا لبس فيه ولا يحتمل التأخير ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ❖ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ❖ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وبسبب من هول وقعه عليه لم يستطع تحمله، فهو على يقين بأن من لم يستجب له من أهله لن يستجيبَ له اليوم مهما

حاول، فمكث في بيته شهرًا لا يخرج منه على ما ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ١٣٤ - ١٣٧، ولا شكَّ أنه كان يشعر في أيَّام الحصار بكثير من الحرج بسبب مقاطعة قريش، ولعلَّ مشركي بني هاشم وبني المطَّلب كان لهم موقف آخر تمنعهم العصبيَّة من التصريح به، والحياء من أبي طالب من اتِّخاذه.

ولم يكن أمر الإنذار بهين عليه بعد سُنَيَّاتٍ مرَّت على نزول الوحي، كان يتلمس الطريق فيها بسرِّية في طرقات مكَّة وشعابها، مرَّة يدعو من يأمن جانبه، ويتوسَّم فيه الخير للإيمان بما أنزل عليه بكل تؤدة وأناة، ومرَّة يلتقي حجَّاج البيت فيحدِّثهم عن الدين الجديد بحكمة وعقلانيَّة بعيدًا عن أنظار قريش وغطرستها، ثم بعلنيَّة ليس فيها مقاومة للعدوان الذي كان يشنُّ عليه وعلى أصحابه وخاصة المستضعفين منهم.

ويوم يئست قريش من عدوله عن دعوته، وعدم استطاعتها إسكاته بكلِّ وسائل الترغيب والترهيب، ورأت أن بني هاشم لن تسلِّمه بسبب موقف أبي طالب منه تعاهدت على مقاطعتهم إلاَّ أن يترك المصطفى دعوته أو يرفعون الحماية عنه، فقاطعتهم، وقاطعت بني المطَّلب الذين التحقوا بأبناء عمومتهم من الهاشميين، ولا شك أن الفرع لأمويٍّ كان صاحب الراية في يوم المقاطعة ذاك، لقديم عداوته بني هاشم، فمازال يتذكَّر جلاء أميَّة بن عبد شمس من مكَّة إلى بلاد الشام عشر سنين بعد أن نافر هاشمًا بن عبد مناف، ويذكر أيضًا ما وقع من منافرة بين عبد المطلب، وبين حرب بن أميَّة بن عبد شمس أيضًا يوم ألَّب حَرْبٌ بعض الفتيان على قتل يهوديٍّ كان في جوار عبد المطلب، فلم يتركه عبد المطَّلب إلاَّ بعد أن نافره، وأجبره على دفع مئة ناقة لابن عم اليهودي المقتول، وحكايات من هذا النوع عن قديم عداوة بني أميَّة لبني

هاشم، ثمَّ لبني عبد المطَّلب تجدها مبثوثة في كتب السيرة والأنساب، ولك أن تقرأ بعضها في أنساب البلاذري ١/٦٨، ٨١ وكامل ابن الأثير ٢/١٥ - ١٧ ، وتقرأ فيهما أيضًا حكايات عن أحلاف كان بعضها بسبب قديم تلك العداوة، كحلف الفضول الذي شهده النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم في دار عبد الله بن جدعان، وقال عنه بعد حين: «لو دُعيت به في الإسلام لأجبت»، وقد استمرَّ ذكره وتأثيره عشرات السنين، ولقد هدَّد أبو عبد الله الحسين به يوم ظلمه الوليد بن عتبة والي المدينة لعمِّه معاوية حقًّا، فقال له عليه السلام مهدِّدًا: (أقسم بالله لتنصفنِّي أو لآخذنَّ سيفي ثم لأقومنَّ في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمَّ لأدعونَّ بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير، وكان حاضرًا: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبته حتى يُنْصف من حقّه أو نموت، وبلغ المِسْور بن مخرمة الزُّهري فقال مثل ذلك، وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك، فلمَّا بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضي)، وكان دافع ذلك الحلف عدم إقرار ظالمٍ على ظلمه، ولم يشترك فيه بنو أميَّة، وإن شئت أن تستزيد فلك معينًا في فصل عقده الحسين بحر العلوم حول الموضوع في كتابه الثورة الحسينية ١/٢٢—٥٠.

ويبدو أن عمَّاته رضوان الله عليهنَّ، كنَّ قد دخلن الإسلام، ولعلَّ إيمان بعضهنَّ كان على حذر وسرِّية، فلما رأين النبيَّ لا يخرج من بيته ذهبن لزيارته للاطمئنان على صحته، ولما سألنه أخبرهُنَّ بأن الله سبحانه وتعالى أمره بما أمره به، فنصحنه باستثناء عمه عبد العُزَّى يردن به أبا لهب إذا قرَّر دعوة عشيرته وإنذارها، إذ إنه سيفسد عليه ما يريد كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٦١، وروى الطبري في تاريخه ٢/٣١٩ عن عبد الله بن عباس عن المرتضى أن النبيَّ

صلوات الله وسلامه عليهما دعاه وقال له : (« إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعًا، وعلمت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرَى منهم ما أكره، فَصَمَتُّ عليه حتى جاءني جبريل فقال: يا محمد، إنك إلاّ تفعلْ ما تؤمر به يعذِّبك ربك؛ فاصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل عليه رَحْلَ -كذا، وفي شرح النهج رجل - شاة، واملأ لنا عُسًّا من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلِّمهم، وأبلِّغهم ما أُمِرْتُ به»، ففعلتُ ما أمرني به، ثم دعوتهم له؛ وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب؛ فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به ... ثم قال: « خذوا باسم الله »، فأكل القوم حتى مالهم بشيء حاجة، وما أرى إلاّ موضع أيديهم، وأيم لله الذي نفس علي بيده؛ إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال: « اسقِ القوم »، فجئتهم بذلك العُسّ، فشربوا منه حتى رووا منه جميعًا، وأيم الله إنْ كان الرجل منهم ليشربَ مثله، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكلمهم بدَره أبو لهب إلى الكلام، فقال: لَهَدَّما سحركم صاحبكم! فتفرَّق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فقال: « الغد يا علي؛ إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فَعُدَّ لنا من الطعام بمثل ما صنعت بالأمس، ثم اجمعهم لي ».قال: ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقرَّبته لهم ... ثم تكلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم أن شابًا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي

ووصيِّي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعًا، وقلت؛ وإني لأحدثهم سنًّا، وأرمصهم عينًا، وأعظمهم بطنًا، وأحمشهم ساقًا أنا يا نبيَّ الله، أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي، ثم قال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع)، والرواية هي الرواية نقلاً عن الطبري بسنده عن ابن عباس في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب لابن عساكر ١/١٠٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٣/١٤٥، ولها في الشرح ١٣/١٦٩ صورة أخرى، وهي: (..فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده، وقال: أنا أنصرك على ما جئت به، وأوازرك، وأبايعك، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان، ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية، ومنه الطاعة، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة: هذا أخي ووصيِّي وخليفتي من بعدي)، وقد وردت هذه الرواية عند ابن ابي الحديد في معرض ردِّ شيخه أبي جعفر الإسكافي على الجاحظ في عثمانيته الذي قلل من شأن أسبقيَّة إسلام علي عليه السلام، ورواها عن الإمام أيضًا ابن الأثير في كامله ٢/٦٢-٦٣، وهي عنه عليه السلام في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٤٤٦ برقم ٣٤٥ مع اختلاف بسيط فيها، إذ جاء في خاتمتها: (قال: فلم يقم إليه أحد. قال: فقمت وكنت أصغر القوم. قال فقال: اجلس ثم قال: ثلاث مرَّات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي)، وللرواية في ترجمته عليه السلام لابن عساكر ١ /٩٧- ١٠٢ روايات تختلف في خاتمتها فيه وتلتقي في معناها العام أولها: («من يؤازرني على ما أنا عليه ويتابعني على أن يكون أخي وله الجنَّة؟» فقلت أنا يا رسول الله - وإني لأحدثهم سنًّا وأحمشهم ساقًا - فسكت القوم ثم قالوا:

يا أبا طالب ألا ترى ابنك؟ قال: دعوه فلن يألو من ابن عمّه خيرًا)، وثانيها: («فأيكم يتابعني على أن يكون أخي وصاحبي» فقمت إليه - وكنت أصغر القوم سنًّا - قال: فقال: اجلس. وفعل ثلاث مرَّات كذلك، وأنا في كلِّ ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي)، والثالثة: (قال: «أيكم يقضي ديني ويكون خليفتي ووصيِّي من بعدي؟» ... فقلت: أنا يا رسول الله قال: «أنت يا علي انت يا علي»)، ورابعة: (قال: «إنَّ ربِّي أمرني أن أدعوكم، فأيكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم؟»، فأحجم القوم عنها جميعًا - وإنِّي لأحدثهم سنًّا - فقلت: أنا يا نبيَّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: «هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعليٍّ وتطيع)، وغيرها، وللرواية في مسند أحمد برقم ٢٦٩ صورة أخرى لا تتناسب مع حكاية الإنذار، ولا مع شدَّة تردُّد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا مع سياق الآية الكريمة، روى بسنده عن شريك عن الأعمش عن عباد (عن علي رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قال: جمع النبي أهل بيته، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا، قال: فقال لهم: « من يضمن عنِّي ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنَّة، ويكون خليفتي في أهلي»، فقال رجل لم يسمِّه شريك: يا رسول الله أنت كنت بحرًا من يقوم بهذا، قال: ثم قال الآخر، قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي رضي الله عنه أنا)، وللحديث رواية أخرى في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٣١٠ برقم ٢٣٢ عن عباد بن عبد الله الأسدي ليس فيها (يا رسول الله أنت كنت بحرًا من يقوم

بهذا، قال: ثم قال الآخر..)، ولا يخفى عليك مدى التشويه الذي لحق الرواية حتى كأنها تبدو لأمر لا علاقة له بالآية ولا بالإنذار من قريب ولا من بعيد، فما علاقة الإنذار بكل هذا؟!.

أما رواية الطبري التي سبق ذكرها فقد ذكرها كاظم الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى ١٦٣-١٦٥، وخرّجها من مصادر نافت على الأربعين.

ولرواية الإنذار التي وردت في تاريخ الطبري وشرح النهج روايات، بعضها يلتقي مع رواية الطبري في معناها العام، ولكن لم يرد فيها اسم المرتضى، كرواية البلاذري في أنسابه ١/١٣٤-١٣٥ التي يظهر فيها أبو طالب ناصرًا ومعاونًا ومؤيدًا قال: (ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني لا أجد نفسي تطوع لي فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه، وتكلّم القوم كلامًا ليّنًا، غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب، هذه والله السوءة؛ خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يده غيركم؛ فإن اسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتِلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا)، وأشار البلاذري أيضًا في حديث نقله عن ابن عباس لحكاية يوم الدار وذكر أنه صلوات الله وسلامه عليه قال لعليٍّ عليه السلام: «أنت وليي في الدنيا والآخرة»، وتابعه في ذكر الرواية الذهبي في عهده ٦٣٦ وابن الأثير في كامله ٢/٦١.

ووقف محمد صادق الصدر في كتابه حياة أمير المؤمنين ٨٤ وقفة طيبة مع جملة عدم مطاوعة نفس أبي طالب للدين الجديد، فناقشها، ورأى أنها ليست من كلام أبي طالب، وإنما هي من وضع الرواة.

ويعضهم يذكر لقصة الإنذار حكاية أخرى أيضًا رواها البلاذري في أنسابه ١/١٣٦–١٣٧ عن عكرمة عن ابن عباس، ورواها بالسند نفسه مع بعض التغيير ابن سعد في طبقاته ١/٢٠٠ مفادها أن النبي يوم أمر بإنذار الأقربين من عشيرته جلس على الصفا فقال: « يآل فهر» ، فجاءه من سمع كلامه ممن كان بمكّة من بني فهر، فقال أبو لهب: هذه فهر عندك. فقال: «يآل غالب»، فرجع بنو محارب والحارث ابنا فهر، فقال: «يآل لؤي بن غالب»، فرجع بنو تيم بن غالب، وهو الأدرم، فقال: « يآل كعب»، فرجع بنو عامر بن لؤي، فقال: «يآل مرَّة بن كعب»»، فرجع بنو عدي وسهم وجمح، فقال: «يآل كلاب»، فرجعت بنو مخزوم وبنو تيم بن مرة، فقال: «يآل قصي»، فرجعت بنو زهرة، فقال: «يآل عبد مناف»، فرجع بنو عبد الدار وبنو أسد بن عبد العزى، فقال له أبو لهب: هذه عبد مناف، فقال ﷺ: « أدعوكم إلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإني عبده ورسوله أضمن لكم الجنَّة». فقال أبو لهب: ألهذا دعوتنا؟ تبًّا لك، فأنزل الله عزَّ وجل ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، السورة)، وذكر قريبًا من هذا الطبري في تاريخه ٢/٣١٩، وابن الأثير في كامله ٢/٦٠، وهي حكاية يمكن النظر فيها، ولكن ليس بالصورة التي وردت، إذ لا يستبعد وقوف الرسول صلوات الله وسلامه على الصفا بعد إنذار بني هاشم لإنذار بقيّة عشيرته، وهو أمر لا يحتاج إلى كلّ ذلك العرض المسرحي الذي قدَّمته الرواية لنا، فلو وقف النبيُّ على الصَّفا، لرآه كلُّ من في البيت وما حوله، ومجرَّد وقوفه عليه صلوات الله وسلامه عليه للإعلان عن أمر ستجتمع قريش من حوله، ويبدو أن تكرار الإنذار الذي استمع إليه أبو لهب من قبل واستهزأ به، دفعه

هذه المرّة إلى الدعاء على النبيّ فقال له: تبًّا لك، فكان عقابه أن نزلت سورة المسد بحقّه.

ونقل محمد صادق الصدر في كتابه حياة أمير المؤمنين ٨٣ رواية البلاذري التي سبقت الإشارة فيها إلى موقف أبي طالب من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم عن ابن الأثير في تاريخه ٦١/٢ وعقّبَ عليها بقوله: (وأنت ترى البون الشاسع بين الكلامين، فكلام أبي لهب كله تهديد ووعيد، وكله تثبيط لعزم النبي الأمر الذي ألجأ الرسول إلى اتخاذ الصمت في ذلك المجلس، أما كلام شيخ الأباطح رضوان الله عليه فقد كان مشجّعًا له صلى الله عليه وآله وسلّم غاية التشجيع، وهو طافح بالعطف والحنان والحب والإخلاص، والنجدة والشهامة، إنه يقبل نصيحته، ويصدق حديثه، ويسارع إلى ما يحب، ثم هو فوق ذلك يحوطه ويمنعه، ويذبّ عنه ما بقي على قيد الحياة، ويطلب منه أن يمضي لما أمر به، وما أمر إلاّ بالإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده، والذي جاء به الرسول مبشرًا ونذيرًا، وإذا تدبر القارئ الكريم كلمات أبي طالب، وعرف الهدف الذي تستهدفه جزم من غير شك أن الجملة التي تقول: - غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب - ليست من كلامه في شيء، وإنما هي من وضع الرواة، فإن الذي يقول: امضِ لما أمرت به، ويقول له: غير أني أسرعهم إلى ما تحب لا يفوه بمثل هذه العبارة أبدًا، إذ إنها لا تلتئم مع تصديقه لحديثه، كما أنها تتنافى كل المنافاة مع المسارعة إلى ما يحب، وهذا ظاهر لمن عرف أساليب الكلام).

وذكر أيضًا رواية ابن أبي الحديد بشأن التبليغ وأخوة الإمام ووزارته ووصايته وخلافته عن الطبري وابن الأثير في تاريخهما، وذكر في الهامش

مصادر كثيرة للرواية المذكورة. وعلّق عليها بما يناسبها من حديث عن عظمة الوصي ومكانته السامية.

وروى الطبري في تاريخه ٣٢١/٢ بسنده عن ربيعة بن ناجد رواية أخرى لا تبتعد كثيرًا عن روايته التي سبق ذكرها، وتسندها في الوقت ذاته، وهي: (إن رجلاً قال لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين: بم ورثت ابن عمك دون عمك؟ فقال علي عليه السلام: هاؤم ! ثلاث مرّات، حتى اشرأبَّ الناس ونشروا آذانهم، ثم قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو دعا رسول الله بني عبد المطلب منهم رهطه، كلهم يأكل الجَذَعة، ويشرب الفِرْقَ - مكيال يكال به اللبن -، فصنع مُدًّا من طعام، حتى أكلوا وشبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمسَّ، قال: ثم دعا بغُمَرٍ، فشربوا ورووا، وبقي الشراب كأنه لم يمسَّ ولم يشربوا، قال: ثم قال: « يا بني عبد المطلب، إني بُعثتُ إليكم خاصة، وإلى الناس بعامَّة، وقد رأيتم من هذا الأمر ما قد رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟»، فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه - وكنت من أصغر القوم - فقال: « اجلس »، ثم قال ذلك ثلاث مرَّات، كل ذلك أقوم إليه، فيقول: « اجلس » ؛ حتى كان في الثالثة، فضرب بيده على يدي، قال: فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي)، والرواية عند ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤٦/١٣ عن الطبري أيضًا، وقد ذهب ابن عبد ربّه في عقده ٢٨٧/٤ إلى أن الشيعة سمت المرتضى الوصيّ بسبب قوله صلوات الله عليه « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي».

وليس بغريب أن ينحصر طلب تحضير الطعام والشَّراب، ودعوة العشيرة في الروايات التي ذكرت اسم المرتضى بالمرتضى، فالنبيُّ صلوات الله وسلامه

عليه كان على بيّنة من موقف عشيرته منه، ولولا أمر الله سبحانه وتعالى الذي أراد إيقاع الحجّة على الأقربين من رسول الله، لما دعاهم، ويبدو أنه أراد حصر كلّ إجراءات المناسبة بعليٍّ عليه السلام كي يكون الوزير والأخ، والوصي والخليفة من بعد بدون أن تكون لا للأقربين ولا للأبعدين حجّة عليه.

ويبدو أن بعض الصحابة كان يهمهم معرفة وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٢٩ برقم ١٧٦ عن أنس بن مالك أنه قال: (قلنا لسلمان: سل النبي من وصيّك؟ فقال له سلمان: يا رسول الله من وصيّك؟ فقال: يا سلمان من كان وصي موسى؟ فقال: يوشع بن نون. قال: فإن وصيّي ووارثي، يقضي ديني، وينجز موعدي علي بن أبي طالب).

وقد وقف السيِّد عبد الحسين شرف الدين في كتابه المراجعات وقفة طيِّبة من حديث الدار، وخصَّه بالمبحث الثاني من الكتاب ١٢٣–١٣٠، وذكر جملة من مصادره، وناقشه مناقشة واعية جديرة بالمراجعة أيضًا.

واستشهد أيضًا في المراجعة ١٠٨ في مبحث الاحتجاج بالوصيَّة ٢٩٦–٣٠٤ ببعض ما جاء حول الوصيَّة من شعر من القرن الأوَّل الهجري حتى القرن الرابع، فبدأ بعبد الله بن عباس الذي قال:

وصي رسول الله من دون أهله   وفارسه إن قيل هل من منازل

وانتقل إلى ما قاله آل عبد المطَّلب وهم عنده المغيرة بن الحارث بن عبد المطَّلب، وعبد الله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، ثم نقل بعض ما قاله شعراء المهاجرين والأنصار من الصحابة وأبنائهم، ثم انتقل الى غيرهم من الشعراء، وختم بأبي الطيِّب المتنبِّي الذي قال:

وتركت مدحي للوصيِّ تعمُّدًا إذ كان نورًا مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشَّيء قام بنفسه وصفات نور الشمس تذهب باطلا

وكان الدكتور حازم الحلّي قد خرَّج بيتي المتنبي من شرح البرقوقي وأشار إليهما في كتابه النبي وآله في الشعر العربي.

ولم ينحصر حديث الوصيَّة والأخوَّة والوراثة والخلافة بيوم الدار عند ابن عساكر في أثناء ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/١٢٣–١٣١ وإنما تعدَّاه إلى مناسبات أخرى ذكرها في روايات مختلفة عن ابن عباس، وعن أبي ذرٍّ، وعن سلمان، وعن أنس، وعن معاذ بن جبل.

من أيام الحزن

ويبدو أنَّ شمس أيَّام الدفء التي كان ينعم بها الحبيب المصطفى شارفت على الغروب، بعد أن أكمل أبو طالب دوره وقارب على الرحيل إلى جوار ربِّه.

وكان النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه يجد الاطمئنان والسكينة في كنف خديجة رضوان الله عليها حينما يعود إلى بيته، ولكنَّ إقامتها معه لم تدم طويلاً، فرحلت، وبرحيلها تركت صدعًا في نفسه الشريفة لم يندمل، وفراغًا لم تستطع واحدة من نسائه أن تحتلَّه، ودفنها بالحجون بعد أن نزل في قبرها، ولقد روى البلاذري في أنسابه ٢/٤١ ما كانت تُحَدِّثُ به عائشة عن شدَّة تعلق رسول الله بذكرى أم الزهراء رضوان الله عليها، ومما رواه قولها: (ما غرت على امرأة من نساء النبي صلى الله عليه وسلَّم غيرتي على خديجة وإن كنت بعدها، لما أسمع من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إياها) وقالت: (ولقد سمعته يقول: «كانت خديجة خير نساء العالمين») لأنها على ما

ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٩ عن ابن إسحاق: (كانت وزير صدق على الإسلام، يسكن إليها)، بل لازمته محبتها، ومافتئ يذكرها بكل ومودة، ويشيد بسيرتها في كل مناسبة، وقد روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤٧٨ برقم ٣٧٣ عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم قال: « حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»، وذكر في رواية أخرى برقم ٣٧٤ عن عائشة قالت: (سيدات أهل الجنَّة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله، وخديجة بنت خويلد، وآسية امرأة فرعون - وقال يعقوب أحد رواة الخبر - ابنة مزاحم).

وقبل أن يفيق النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم من تلك الصَّدمة المروِّعة فارقه أبو طالب، وكان فراقه بعد رحيلها رضوان الله عليهما بثلاثة آيَّام أو بخمسة أو بخمسة وعشرين يومًا أو بشهر وخمسة آيَّام، على ما ذكره البلاذري في أنسابه ١/ ٢٧٣ وغيره، وذكر في ٢/ ٢٨٩ أنه مات في السنة العاشرة من المبعث، وهو ابن بضع وثمانين سنة، ودفن بمكة في الحجون، وقارب كل هذا ما ذكره ابن الأثير في كامله ٢/ ٩٠-٩١، وذكر اليعقوبي في تاريخه ١/ ٣٥٤ أن أبا طالب توفي وله ست وثمانون سنة، وقيل: بل تسعون سنة، ولعلَّ ما هوَّن على النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ذلك الفراق الأليم أنه وجد بعض العوض في أم أبيها الزهراء البتول، يغترف من طفولتها الدفء والحنان، ويرى في وجهها الحب الذي رحل، وفي أخيه المرتضى عليهما السلام، يجد فيه صدق العون، وعظيم الإيمان، وخالص المودَّة.

حول إيمان أبي طالب

وعجيب أن يميل ابن سعد إلى عدم إيمان أبي طالب، فيذكر روايات من مثل أن جعفر وعلي لم يرثا أبا طالب لأن المسلم لا يرث الكافر، والرواية المذكورة ينكرها أتباع مذهب أهل البيت، لأن المسلم عندهم يرث الكافر ولا يرث الكافر المسلم، كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/٢٦٥، ثم ماذا يملك أبو طالب من حطام الدنيا، وقد خرج لتوِّه من حصار دام سنوات، كما أن المعروف أنه لم يكن ذا مال كثير كبعض أخوته.

ومن مثل ما نسب إلى رسول الله صلوات الله عليه يوم سئل عن الذي جناه أبو طالب من كلِّ الكفالة والرعاية والحماية التي قدَّمها له فقال: «نعم وهو في ضحضاح من النار، ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار»، فلماذا يكون في الدرك الأسفل من النار! وإذا كان في ذلك الدرك فأين سيكون من مثل أبي لهب وأبي جهل والزمرة التي قطف رأسها عمُّه وأخوه عليهما السلام، بل الرواية في أنساب البلاذري ٢/٢٩٠ أشد قسوة وإيلامًا وهي «كان في درك من النار فأخرج من أجلي فجعل في ضحضاح من النار، له نعلان من نار يغلي منهما دماغه»، وزاد أخرى نسبها لابن عباس وهي أن رسول الله قال: «أهون الناس عذابًا يوم القيامة أبو طالب، وأنه لمنتعل نعلين من النار يغلي منهما دماغه». ولا أظن قرشيًّا أو غيره لم يسئ لرسول الله يكون في ذلك الدرك من النار!!، وقيل: إن راوية حديث الضحضاح من طريق رجل واحد عرف ببغضه لبني هاشم عامة ولعليٍّ خاصَّة وهو المغيرة بن شعبة، كما ذكر ابن أبي الحديد في الشرح ١٣/٢٦٦.

وروى ابن سعد في طبقاته ١/١٢٤ عن (ناجية بن كعب عن علي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إنَّ عمك الشيخ الضال قد مات،

يعني أباه، قال: اذهب فواره، ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى تأتني، فأتيته فقلت له، فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما عُرّض بهن من شيء)، وغيرها فيه، وخبر وفاة أبي طالب في رواية في أنساب البلاذري ٢٨٨/٢ لا يبتعد كثيرًا عن رواية ابن سعد ففيها: (أتى علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأخبره بموته فقال: واره، فقال: علي: أنا أواريه وهو كافر؟ قال: فمن يواريه إذًا؟ فلما واراه أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغتسل، وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى جنازته «وصلتك رحم»)، ولست أدري لماذا يكلّف النبي أصغر أبناء أبي طالب بدفنه بتلك الطريقة العجيبة، وكأنه يدفن جناية يريد أن يواريها بعيدًا عن أهلها، وعن أعين الرقباء وليس سيد البطحاء، ثمّ كيف يكلّف عليٌّ مع وجود أخوة أبي طالب حمزة والعباس وأبي لهب، ووجود أبنائه الكبار طالب وعقيل وجعفر، بل كيف ساغ في عرف ذلك الزمن أن يكون الأمر في دفنه رضوان الله عليه لابن أخيه وليس لأبنائه الكبار، أو لأخوته، وإذا كان الميت بتلك المنزلة التي تحدثت الروايات عنها في قومه وفي غيرهم، فهل يمكن أن يدفن بتلك الطريقة التي تذكرها الرواية؟ أن يقوم أصغر أبنائه بموارانه، وكأنه جنازة مجهولة في طريق، أو كأن الأمر أريد له أن يتمّ خلسة كما ينبئ الخبر؟!!!، حاشا لسيّد البطحاء وكبير مكّة أن يدفن بتلك الطريقة التي لا تشين بني هاشم خاصّة، وإنما تشين قريشًا عامّة، ويراودني يقين أن هذا الخبر قد لا يكون صدر عن ناجية بن كعب ولا عن غيره، وإنما دُسَّ دسًّا نكاية بالإمام وأهل بيته عليهم السلام حتى وإن كان ذلك من خلال الإساءة إلى أبي طالب سند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وسند دعوته، أو أن يكون الخبر قد حُرِّف كل هذا

التحريف كي يتماشى مع سيرة الفئة الضالة ونهجها في الإساءة إلى الإمام بأية طريقة من الطرق، أو أن يكون ناجية هذا من المنحرفين عنه، وما أكثرهم، وقد أشرت إلى مثل تلك الروايات في فصل خاص من فصول البحث، ولخبر رحيل أبي طالب في شرح النهج ٢٧١/١٣ رواية أخرى تلتقي مع رواية البلاذري، ولكن تختلف عنها في التوجيه، وهي فيه: (جاء علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فآذنه بموته، فتوجَّع عظيمًا وحزن شديدًا، ثم قال له: امض فتولَّ غسله، فإذا رفعته على سريره فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو محمول على رؤوس الناس، فقال: وَصَلَتْك رحم يا عمّ، وجُزِيتَ خيرًا! فلقد ربّيتَ وكَفَلْت صغيرًا، ونصرتَ وآزرتَ كبيرًا، ثم تَبِعَه إلى حفرته، فوقف عليه، فقال: أما والله لأستغفرنَّ لك ولأشفعَنَّ فيك شفاعة يعجب لها الثقلان)، والثقلان: الجنُّ والإنس، ولك أن تلحظ الفرق بين الروايتين، ويعزِّز صحة رواية ابن أبي الحديد ما ذكره اليعقوبي في تاريخه ٣٥٤/١ -٣٥٥ حيث قال: (ولما قيل لرسول الله إنَّ أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه، واشتدَّ له جزعه، ثم دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: «يا عم، ربيت صغيرًا، وكفلت يتيمًا، ونصرت كبيرًا، فجزاك الله عنِّي خيرًا،» ومشى بين يدي سريره، وجعل يعرضه ويقول: «وصلتك رحم وجزيت خيرًا»، وقال: «اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعًا»؛ يعني مصيبة خديجة وأبي طالب، وروي عنه أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ وعدني في أربعة: في أبي وأمِّي وعمِّي وأخ كان لي في الجاهلية»)، فأين هذا من رواية النعلين والضحضاح؟!!

وذكر ابن سعد في طبقاته ١/١٢٣ والبلاذري في أنسابه ٢/٢٨٩ آيات من الذكر الحكيم ذكر بعض مفسريها أنها نزلت توثيقًا لشرك أبي طالب، منها أن سعيد بن المسيب قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أبا طالب إلى كلمة الإخلاص في مرضه فقال: إني لأكره أن تقول قريش: إني قلتها جزعًا عند الموت ورددتها في صحتي. ودعا بني هاشم فأمرهم باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته والمنع عن ضيمه فنزلت فيه: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ ﴾، ونقل عن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال: نزلت في أبي طالب ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاء ﴾). بل عجيب أن يذكر ابن سعد كلَّ تلك الروايات عن الضَّحضاح وغيره، ويروي أيضًا في طبقاته عينها ١/١٢٤—١٢٥ بسنده عن العباس قال: (يا رسول الله أترجو لأبي طالب؟ «قال: كلَّ خير أرجو من ربِّي»).

ولا أدري كيف يكون الإيمان بعد كلِّ ما روي من أشعار عن أبي طالب صحَّت نسبتها إليه كلُّها إيمان بالله وبرسوله من مثل ما رواه ابن هشام في سيرته ١/٤٤١:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمَّدًا نبيًّا كموسى خطَّ في أوَّل الكتب
وأن عليه في العباد محبَّة ولا خير ممن خصَّه الله بالحب

ومن مثل ما رواه ابن هشام في سيرته ١/٤٧٢ والبلاذري في أنسابه ٢/٢٩١ حول نقض الصحيفة التي قاطعت بها قريش بني هاشم:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزِّقت وأنْ كل ما لم يرضه الله مُفْسَد
تراوحها إفك وسحر مجمع ولم يُلفَ سحر آخر الدهر يصعد

ومن مثل ما رواه البلاذري في أنسابه ٢/ ٢٩١ :

منعنا الرسول رسول المليك ببيض تلألأ مثل البروق
أذبُّ وأحمي رسول الإله حماية عمٍّ عليه شفيق

ومن مثل ما رواه ابن الأثير في كامله ٢/ ٩٠ بشأن صحيفة المقاطعة التي أخبر جبريل رسول الله بأن الأرضة قد أكلتها ولم تبق منها غير اسم الله فأخبر عمَّه أبا طالب بذلك فقال :

وقد كان في أمر الصَّحيفة عبرة متى يُخَبَّرْ غائب القوم يَعجَب
محا الله منهم كفرَهم وعقوقهم وما نقموا من ناطق الحقِّ مُعْرِب
فأصبحَ ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يختلِق ما ليس بالحقِّ يكذب

وإذا كانت بعض روايات أصحاب السير والأخبار تذهب إلى أنه رحل قبل أن يؤمن بدين ابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلَّم، فإن ما روي عنه من أخبار وأشعار موثَّقة النسبة له، وما روته المصادر السابقة عينها من مواقف في نصرة النبي ودينه، وما روي عن المصطفى من أحاديث تؤكد غير ذلك، وعجيب أن يكون كافرًا من يقول في خطبة نكاح خديجة: (الحمد لله الذي جعلنا من ذريَّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا، وبيتًا محجوبًا، وجعلنا الحكَّام على الناس...وما أحببتم من الصَّداق فعليّ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطبٌ جليل)، قالوا -كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج - (أفتراه يعلم نبأه الشائع وخطبه الجليل، ثمَّ يعانده ويكذِّبه، وهو من أولي الألباب! هذا غير سائغ في المعقول)، (وإذا كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الدعوة إلى الإسلام، وإذا كان عليٌّ عليه السلام رافع راية الإسلام، فجدير بأبي طالب أن يدعوه التاريخ: حادي ركب الإسلام،

وشراع سفينته في مسيرته الهادفة إلى حيث شاطئ الأمن والإيمان واليقين والاطمئنان) كما قال الحسين آل بحر العلوم في كتابه الثورة الحسينية ١/١٦٧ ، وعجيب أن يقول متقوّل بعدم إيمانه رضوان الله عليه بعد أمره ولده بطاعة أمر ابن أخيه سيد الخلق ، وأن يلزمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وطلبه من ولده جعفر رضوان الله عليه أن يصل جناح أخيه في الصلاة بعد أن رآهما يصلّيان في موقف آخر ، كما ذكر المجلسي في بحاره ٣٥/٦٨ نقلاً عن أمالي الصدوق وعن أبي هلال العسكري في كتابه الأوائل ، ولك بما ورد في كتاب (إيمان أبي طالب) لشمس الدين الموسوي ، وما ذكره الحسين آل بحر العلوم في كتابه الثورة الحسينية ١/١٣٥–١٦٧ خير ردٌّ على تقوّل المتقوّلين.

ولنا أيضًا في ما ذكره عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه علي إمام المتّقين ٢٣ خير تعليل يمكن النظر فيه إذ قال: (ثم إن أبا طالب وابنه جعفرًا أتيا النبيَّ عليه الصلاة والسلام في داره ، فوجداه يتعبّد ، وعن يمينه عليٌّ ، فقال أبو طالب لابنه جعفر: صِل جناح ابن عمّك فصلّى عن يساره ، على أن أبا طالب كتم إسلامه ، ولكيلا يصطدم بشراسة الملأ من قريش الذين كانوا يرون في الدين الجديد خطرًا كبيرًا لا لأنه يخرجهم عمّا ألفوه ، وعمّا وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأوثان فحسب ، بل لأنه سيفسد عليهم أمر الكعبة والتجارة ... ولم يعد أبو طالب يتعبّد للأصنام وللأوثان ، وإن ظلَّ على كتمان إسلامه ، ولكنّه بسط حمايته على ابن أخيه محمد).

ولرواية إسلام جعفر بن أبي طالب قصّة في شرح النهج ١٣/١٨٥–١٨٦ يرويها فيه شيخه أبو جعفر وهي: (روي أن أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وسلم يومًا ، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه ، فخرج ومعه ابنه

جعفر يطلبان النبي صلى الله عليه وسلم، فوجده قائمًا في بعض شعاب مكّة يصلّي، وعلي عليه السلام معه عن يمينه، فلما رآهما أبو طالب، قال لجعفر: صِل جناح ابن عمِّك، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وسلم، فلمَّا صاروا ثلاثة تقدَّم رسول الله وتأخَّر الأخوان، فبكى أبو طالب، وقال:

إنَّ عليًّا وجعفرًا ثقتي ... عند مُلِمِّ الخطوب والنُّوَبِ
لا تخْذُلا وانصرا ابن عمِّكما ... أخي لأمِّي من بينهم وأبي
والله لا أخذُلُ النبيَّ ولا ... يخذُله من بنيّ ذو حسبِ

فتذكر الرواة أن جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم).

ولعلَّ خير ما يقال في صدق إيمانه رضوان الله عليه ما رواه المجلسي في بحاره ٧٢/٣٥ ، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٦٦/١٣ بسندهما عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إذ قال: (مثل أبي طالب مثل أهل الكهف حين أسرُّو الإيمان وأظهروا الشرك، فأتاهم الله أجرهم مرتين)، ولا يبعد لو أن أبا طالب قد أشهر إسلامه وأظهره لما استطاع أن يجد فيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم القوة والمنعة والهيبة التي وجدها فيه وسط البيت القرشي.

وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٦٣/١٣-٢٧٦ روايات عدَّة كلّها توثّق إيمانه رضوانُ الله عليه، منها قول النبي صلوات الله وسلامه عليه الذي رواه المرتضى: « قال لي جبريل: إن الله مشفِّعك في ستَّة: بطنٍ حملتك، آمنة بنت وهب، وصُلْبٍ أنزلك؛ عبد الله بن عبد المطلب، حجرٍ كفلك؛ أبي طالب، وبيت آواك؛ عبد المطّلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يا

رسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخيًّا يطعم لطعام، ويجود بالنوال - وثدْي أرضعتك؛ حليمة بنت أبي ذؤيب »، ومنها ما روي عن محمد الباقر عليه السلام (أنه سئل عمَّا يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من النار؛ فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفّة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفّة الأخرى لرجح إيمانه، ثم قال: ألم تعلموا أن أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام كان يأمر أن يُحَجَّ عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثمَّ أوصى في وصيَّته بالحجِّ عنهم)، ومنها ما روي عن علي بن الحسين عليه السلام حين سئل فقال: (واعجبا! إن الله تعالى نهى رسوله أن يقرَّ مُسْلِمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات)، وروايات أخرى كثيرة ذكرها لك أن تعود إليها.

الجوار الدنس

اشتدَّ الحصار على المصطفى صلوات الله عليه في مكّة بعد رحيل أبي طالب وخديجة رضوان الله عليهما، كما سبق القول، وحلَّ عام الحزن عليه في ذي القعدة أو النصف من شوال سنة عشر من المبعث المبارك كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٢٩–٣٣، والبلاذري في أنسابه ١/٢٧٢–٢٧٣ وقد تحمله بالصبر الذي عرف به عند نزول البلايا، وكان رحيلهما بعد أعوام المقاطعة الثلاثة التي فرضتها قريش على بني هاشم وبني المطلب الذين انحازوا بجانب أبي طالب في شِعْبِهِ، المسلم منهم والمشرك باستثناء أبي لهب، وبرحيل السَّند الذي كان يلوذ به من هجير قريش وعدوانها، ورحيل خديجة، حلَّ عام الحزن عليه صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أحدثك عن وقعه على نفسه الشريفة المرهفة الإحساس، ففوق المصاب الجلل الذي وقع عليه كالصاعقة،

هان على قريش أيّما هوان، إذ كشَّرت عن أنيابها كما لم تكشِّرها من قبل، وأشهرت حربها في وجهه، وأعدَّت العدَّة لوأد دعوته، والقضاء عليه وعليها، ولعل في ما ذكره ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٩ عن ابن إسحاق خير دليل على بشاعة الظروف التي مرَّ بها، قال ابن إسحاق: (فلمَّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه التراب.... ولمَّا نثر ذلك السَّفيه ذلك التراب دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول لها: لا تبك يا بنيَّة، فإن الله مانع أباك، ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب)، وليس هذا فحسب، وإنما وصل الأمر بأبي جهل ومن تابعه إلى إلقاء رَفَثِ جزورٍ عليه وهو ساجد بين يدي الله سبحانه وتعالى، فما كان من الزهراء البتول إلاَّ أن دفعت عن أبيها بزجر ذلك الجوار الدنس بما يستحقه على قدر استطاعتها سلام الله عليها وعلى أبيها وذريَّتها الطاهرة، وأماطت ذلك الأذى عنه كما روى البلاذري في أنسابه ١/ ١٤١.

ولا شك أن شعور قريش باستفحال أمر الدعوة وخطورتها على كيانها، دفعها إلى شنِّ حربها الضارية عليه وعلى أصحابه، وخاصَّة الضعفاء نهم، فعاملتهم بكلِّ قسوة وعدوانيَّة، وما كان بإمكانهم تحمل ذلك لعدوان والسكوت عليه على الرغم من ضعفهم لولا أمر الرسول بالصبر وتحمل الأذى.

وتشاء إرادة الله أن يكون منزله صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتهاء الحصار في أسوأ جوار إذ أحاطت به عصابة ناصبته العداوة والبغضاء، كأبي

لهب، والحكم بن العاص بن أميَّة، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن الحمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، وجميع من دخل من الباقين من هذا الجوار الدَّنس في الإسلام من بعد، دخله وأنفه راغم، وكان وبالاً على الإسلام والمسلمين بعد رحيل رسول الله، ولقد وجدت تلك العصابة في رحيل أبى طالب مناسبة لإيذاء النبي في كلِّ مناسبة، وكان أحدهم في ما ذكر ابن هشام في سيرته ٢٨/٢ عن ابن إسحاق (يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته - قدر من حجارة - إذا نصبت له، حتى اتَّخذ رسول الله حجرًا يستتر به منهم إذا صلَّى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى - كما حدّثني عمر بن عبد الله بن عروة عن عروة - يخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقف به على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أيّ جوار هذا، ثمَّ يلقيه في الطريق)، وذكر هذا الإيذاء وغيره أيضًا البلاذري في أنسابه ١/١٤٧-١٧٦.

البحث عن الناصر

وكان لابدَّ لدين الله الخاتم من ناصر كي ينتشر، بعد أن سدَّت الفئة الباغية الطرقات في وجه النبيِّ بمكَّة، وسامت صحابته صلى الله عليه وآله وسلم ألوان العذاب، واضطرت فريقًا كبيرًا منهم للهجرة إلى الحبشة بأمره، وكان من بين من هاجروا جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولا شكَّ أنَّ هجرته ما كانت بسبب موقف قريش منه، وإنما لأنه قُدِّر له أن يقوم من بعد هناك في حضرة النجاشي بدور يدفع به مكر ابن العاص رسول قريش إلى ملك الحبشة.

وقرر النبيُّ الهجرة إلى بعض القبائل أيضًا لعلَّه يجد ذلك النَّاصر الذي يبحث عنه بعد رحيل سيِّد البطحاء، ولاشكَّ أن قراره كان بأمر من الله تعالى

الذي لابد أن يهيئ السبل لنشر دينه الحنيف، ومما يؤيد هذا ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه ٣٢٧/٤ من أن الله أوحى إليه صلى الله عليه وآله وسلّم عقب وفاة أبي طالب بالخروج من مكّة.

خرج منها أول ما خرج رفقة أخيه المرتضى إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قيس عيلان، ولكنه لم يستطع تحقيق ما كان يأمل، وعاد إلى مكّة بعد عشرة أيّام، ثمَّ خرج إلى بني شيبان وبرفقته علي وأبي بكر، وغابوا عن مكة ثلاثة وعشرين يومًا، ثمَّ خرج إلى ربيعة، برفقة علي وأبي بكر أيضًا، ولكن هذه الرحلة كسابقاتها لم تأتِ بشيء أيضًا كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النَّهج ٤/ ٣٢٦–٣٢٧، ثم خرج إلى منازل كندة، وأتى كلبًا وبني حنيفة، فلم يستجب له أحد على ما ذكر البلاذري في أنسابه ٢٧٣/٢–٢٧٤ وابن هشام في سيرته ٣٨/٢ –٣٩، وذكر ابن سعد في طبقاته ٢١٦/١–٢١٧: (فكان من سمي لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومُرَّة، وحنيفة، وسُليم، وعبس، وبنو نضر، وبنو البكاء، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد).

ثمَّ هاجر إلى بني ثقيف في الطائف لوحده على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٢ /٣٤–٣٦، والطبري في تاريخه ٣٤٥/٢، وهو الراجح، وبرفقته علي وزيد بن حارثة وقيل: برفقة زيد لوحده كما روى المجلسي في بحاره ٢٢/١٩، وغاب عن مكّة عشرة أيّام في رواية، وأربعين يومًا في أخرى، وحكاية ما أصابه فيها صلوات الله وسلامه عليه ليست بخافية على أحد من الناظرين في سيرته، فبدلاً من أن يجد فيهم ناصرًا لدعوته، استقبلته ثقيف أسوأ استقبال، وأوجعته ضربًا وحصبًا،

فشعر بمدى ضعفه وهوانه، ويكفي أن نتصوَّر حزنه وقنوطه في هجرته هذه من خلال جلوسه في ظلّ شجرة وقد وجَّه وجهه صلى الله عليه وآله وسلّم بالدعاء إلى خالقه فقال على ما روى الطبري في تاريخه ٣٤٥/٢: «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهَّمني أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبُك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لكن لك العتبى حتى ترضى، ولا حول لا قوَّة إلاَّ بك».

وعاد إلى مكَّة بعد أن دخل في جوار مطعم بن عدي كما ذكر البلاذري في أنسابه ١٧٣/١–٢٧٤، والطبري في تاريخه ٣٤٨/٢ وهو مؤمن بأن الله ناصره لا محالة.

وعاود الكرَّة في مكَّة، وبدأ بعرض دعوته على القبائل الوافدة إليها بلا كلل أو ملل، يبحث بينهم عن الناصر، وسمع صلى الله عليه وآله وسلّم بقدوم أبي الحيسر أنس بن رافع في رهط من الأوس فيهم إياس بن معاذ، وهو غلام صغير، يطمعون بالتحالف مع قريش ضد أبناء عمومتهم من الخزرج، فذهب إليهم وعرض عليهم خيرًا مما جاءوا لأجله وهو الإسلام، وتلا عليهم ما تيسر من الذكر الحكيم، فمسَّ قوله شغاف قلب الفتى الصغير إياس، فقال لهم: هذا والله خير مما جئتم له، ولكن أبا الحيسر أخذ حفنة من التراب ضرب بها وجه إياس فقام رسول الله صلوات الله عليه، وانصرف الرهط إلى يثرب، وتقرأ هذا وغيره في سيرة ابن هشام ٤٥/٢، وأنساب البلاذري ٢٧٤/١–٢٧٦.

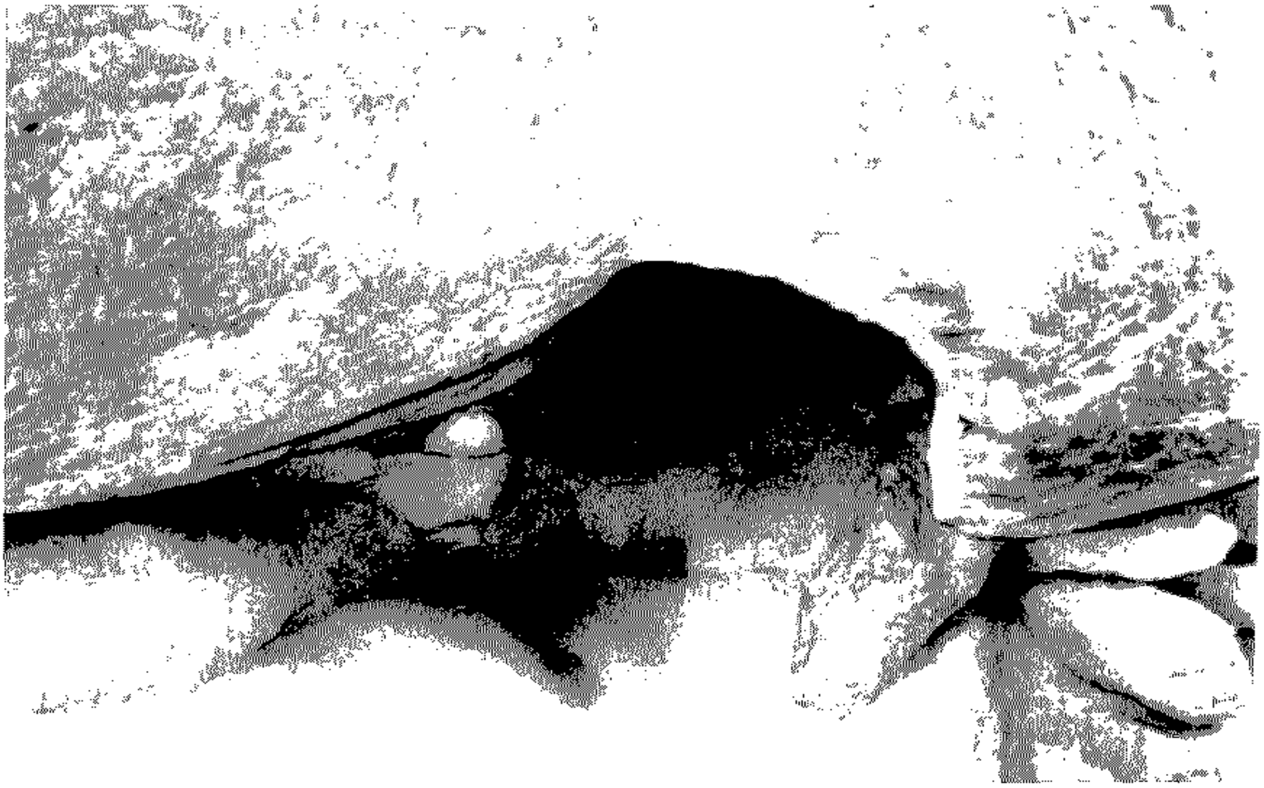

غار جبل ثور من داخله وخارجه

الطريق إلى المدينة

﴿ ومن النَّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾

(بخٍ بخٍ ! من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله عزَّ وجلَّ به الملائكة)

(جبريل)

بيعة العقبة الأولى والثانية

بدأت أخبار دعوة المصطفى صلى الله عليه وآله بالانتشار في جزيرة العرب، ولعلّها وصلت إلى جميع أقطارها، إذ لابد أن القبائل التي التقاها النبي وإن لم تؤمن بدعوته فإنها نقلت أخبارها إلى الأنحاء التي جاءت منها، يضاف إلى هذا فإن الجمع الذي هاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه مازالت أخباره تتنقّل بطريقة أو بأخرى بين القبائل، وكان وعد الله حقًّا، فقد خرج النبيُّ الكريم في الموسم يدعو القبائل إلى الإسلام، وشاء قدره أن يلتقي نفرًا من الخزرج بعضهم من بني النجّار.

ولا أشكُّ في أن الخؤولة التي ربطته بهم سهَّلت عليه هذه المرَّة أمر عرض دعوته عليهم، فهم يعرفون جدَّه هاشمًا لأن الميمونة من زوجاته التي كرمها الله بعبد المطلب ابنتهم، وهو ابن أختهم، وقد تزوَّج عبد المطّلب فيهم أيضًا كما أنهم يعرفون ابنه عبد الله الذي مات بينهم، ودفن في بيوتهم، ويعرفون أمَّهُ آمنة أيضًا فقد نزلت ضيفة كريمة عليهم حينما قدمت لزيارة قبر زوجها عبد الله، وهذا وحيدها سبق أن رأوه وله من العمر ست سنوات، كما ذكر ابن هشام في سيرته ١/ ٢٢٠، والبلاذري في أنسابه ١/ ٧١–٧٣، فالتقوه لقاء

حسنًا لابد أنه كان يعجُّ بالذكريات، وأحاديث وشائج الرحم، لذا فإنه حينما عرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم ما تيسر من القرآن، أنعموا النظر بدعوته، ولعلَّ ما ساعد أيضًا على قبولها، أن التوحيد لم يكن غريبًا عليهم بسبب معايشتهم اليهود في المدينة، كما أن دعوته لم تكن بغريبة عليهم، فقد تجاوزت مكة إلى غيرها كما سبق القول، ولا أشك في أن المرتضى كان برفقته حينما التقى صلوات الله وسلامه عليهما ذلك النَّفر، فقد رأيناه برفقته في غير مناسبة من قبل، فالفتى الذي لم يتجاوز الحلم يوم نزول الوحي، تجاوزه اليوم، وأصبح يضجُّ حيوية وشبابًا وحرصًا على نشر دين الله.

كان النفر النجَّاري يتكون من امرأة ورجلين هم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، وعفراء بنت عبيد، أما الباقون فهم رافع بن مالك، وقيل: عامر بن الأزرق، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله وجميعهم من الخزرج كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٤٥–٤٧، والبلاذري في أنسابه ١/٢٧٦.

وعادت تلك الطليعة إلى يثرب، كلها غبطة وسعادة، وشاء القدر أن يشيع خبر دين الله الخاتم بين الأوس والخزرج ببركة ذلك النفر وعمق إيمانه، وبدأت قناعتهم تزداد به يومًا بعد آخر، ولاسيما بعد أن وجدوا أنفسهم في حاجة إلى منقذ من ذلك الوضع الذي كانوا عليه، فقد أكلت الحرب في ما بينهم الأخضر واليابس، ولعل وجود الكتابيين بين ظهرانيهم قرَّب إلى نفوسهم أمر دعوة المصطفى، (حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم)، وقد سمِّيت تلك البيعة ببيعة النساء بسبب وجود

عفراء بنت عبيد بين المبايعين، ولأن الرسول لم يشترط عليهم قتالاً لأنه لم يفرض بعد كما في السيرة ٢/ ٤٧، والأنساب ١/ ٢٧٥-٢٧٦، والبحار ١٩/ ٢٥، وعند عودتهم أرسل معهم النبيّ الصحابي الشهيد مصعب بن عمير رضوان الله عليه كي يقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، فنزل على أسعد بن زرارة، وبدأت الدعوة في الانتشار بيثرب شيئًا فشيئًا، وما إن مرَّ عام على ذهاب مصعب إليها حتى عاد إلى مكّة رفقة ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من مسلمي يثرب خرجوا مع حجَّاج قومهم من المشركين، وكان وعد الله بنصرة دينه ونبيه حقًّا، وفي أوسط أيّام التشريق -أي بعد يوم النحر - تسلَّل الجمع خفية من أعين الرقباء للقاء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالعقبة، فكانت بيعة العقبة الثَّانية، وقد شهدها من الأوس أحد عشر رجلاً، أما بقيَّة الثلاثة والسبعين رجلاً والمرأتين فمن الخزرج، بينهم من أخواله بني النجَّار أحد عشر رجلاً، ولا شكَّ أن هذه البيعة هي أعظم حدث في تاريخ الإسلام.

ويلفت النظر الدكتور سهيل زكار في هامش الصفحتين ٢٧٧-٢٧٨ من الجزء الأول من كتاب أنساب البلاذري الذي قام بتحقيقه ونشره إلى أمر في غاية الأهميَّة، وهو اختفاء دور الإمام علي وغيره من الصحابة في بيعة العقبة الثانية من كتب السيرة ورواتها بدءًا من ابن إسحاق إلى غيره ممن اهتم بها في العصر العباسي، وبروز دورٍ للعباس بن عبد المطلب فيها فيحضرها ويتولى اعتقادها بالعهد والميثاق على الرغم من عدم دخوله الإسلام بعد.

وأنت تذهب إلى ما ذهب إليه حينما تتأمَّل ما ورد في سيرة ابن هشام ٢/ ٥٨، وأنساب البلاذري ١/ ٢٧٧، بل إن ابن هشام يذكر أن وجه الركب اليثربي البراء بن معرور الذي جاء إلى مكة ليحضر بيعة العقبة الثانية حينما

سأل عن النَّبِي ولم يكن قد رآه من قبل قيل له ولصاحبه كعب بن مالك: (إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس إلى جانبه) أي: إلى جنب العباس، أما ابن سعد في طبقاته ١/٢٢١ فيقول: (ثم وعدهم مِنًى وسط أيام التشريق ليلة النَّفَر الأول إذا هدأت الرِّجْل أن يوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدروا من منًى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم، وأمرهم أن لا ينبهوا نائمًا ولا ينتظروا غائبًا، قال: فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان وقد سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد غيره).

ورأى الدكتور سهيل أن السبب في إظهار دور للعباس في كتب السيرة يعود إلى أن كتَّابها عملوا على تلطيف موقف العباس وتحسينه أولاً (ثم تفاعلوا مع عقيدة الوصاية عند الشيعة، بجعل الوصاية بيد العباس بعد وفاة أبي طالب، ولحسن حظ المؤرخ وصلتنا أوراق من مغازي وهب بن منبه، التي كتبت في عصر عمر بن عبد العزيز في اليمن، وعثر على هذه الأوراق ضمن ما عثر عليه من أوراق البردي العربية في مصر)، وقد ذكر ابن منبه أن النبي صلى الله عليه وآله جاء إلى العقبة ومعه علي بن أبي طالب وأبو بكر وعمر، وبعد وصوله بقليل والشروع بالتباحث مع القوم وصل العباس وصاح: (من هذا المتكلم محمد أنت؟ قال: نعم، قال: فمن هؤلاء؟ قال: أخوالي وأخوالك الأوس والخزرج قد آمنوا بالله ورسوله)، وهنا انظم العباس إلى الاجتماع وخاطب الأوس والخزرج بقوله: (يا معاشر بني قيلة إن هذا محمد ابن أخي، أحب الناس إلي وأكرمهم علي) ثم أخبرهم بأنه لا يؤمن بما جاء به ابن أخيه، وفي الوقت نفسه يخشى عليه الخذلان في المدينة، وحين شعر الجميع أنه يريد تثبيط

همة الرسول، والحيلولة دون الاتفاق على الهجرة إلى المدينة قام أسعد بن زرارة فقال: (يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ائذن لي أجيبه غير مخشن صدرك، ولا متعرض بيننا مما كره إلاّ لتصديق إيماننا بك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجيبوه وابسطوا ألسنتكم غير مقصرين ولا متهيبين. فقام أسعد بن زرارة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله جعل لكل دعوة سبيلاً، إن شدة وإن لين، وإنك دعوتنا يا رسول الله ونحن في دار عزة ومنعة لا يستطيع أن يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه، وأجبناك إلى ذلك، ودعوتنا إلى ترك ديننا ودين آبائنا فأجبناك إلى ذلك، وفي ذلك عداوة العرب والعجم والناس كافة، وتلك رؤية صعبة لا يقوم بها إلاّ من عزم ربه له على الرشد، ودعوتنا إلى معاداة العرب والعجم وأجبناك إلى ذلك، ثم أقبل على العباس فقال: أيها المعترض لنا دون رسول الله، فقد صدقناه وكذبته، وآمنا به واتبعناه وأبيت ذلك، وأما قولك: إنه أحب الناس إليك، فنحن له أشد حبًّا، قطعنا فيه القريب والبعيد، وكرهت ذلك، وأما قولك إنك لا تصدقه بما يقول، فإن الله لا يذله بذلك، ولا يعزك به) وبعد هذا تمت البيعة.

طور الرسالة الجديد

من هنا بدأت الرسالة تأخذ طورًا جديدًا بعد بيعة العقبة الثانية التي حضرها المرتضى من بين من حضر، وعاهد اليثربيون النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم عهدهم الذي وضع أسس الدعوة على طريق الانتشار والنَّجاح، فكانت يسرًا بعد مرحلة كلُّها عسر.

وبدأ صحابته يأخذون طريقهم إلى يثرب هربًا بدينهم من قريش وطغيانها، فتسرَّبوا من بين أصابعها وهي لا تشعر، وما إن شعرت حتى بدأت

بسدِّ الطرقات وتضييقها عليه وعلى صحبه، وسامت بعضهم سوء العذاب، ولكنَّ صحابته رضوان الله عليهم استطاعوا الإفلات من ذلك الحصار متتابعين، ولم يبق في مكَّة مع رسول الله من أحد إلا من حبسته قريش، وإلاّ عليٌّ عليه السلام وأبو بكر، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٩٩، أما أبو بكر فقد طلب الرفقة منه إلى مهجرهما فوافق صلوات الله عليه، وقيل: لمّا علم بخروجه من أخيه المرتضى التحق به، أما ابن هشام فقد ذكر في سيرته ٢/١٠٠ أن أبا بكر كان (كثيرًا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا، فيطمع أبو بكر أن يكونه)، وذكر البلاذري في أنسابه ١/٣٠٦ (وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وأبو بكر رضي الله تعالى عنهما، وليس معهم غيرهم، وأراد أبو بكر الهجرة، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه عليه).

ولعل جنون قريش ازداد بسبب شعورهم بالخطر الذي يتهددهم من هجرة صحابته صلى الله عليه وآله وسلم، وما إن شعرت بقرب هجرته حتى أعدَّت عدَّتها لقتله.

شيطان الفئة الباغية في دار الندوة

وائتمر الشيطان بالفئة الباغية في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقرر أمرًا إلاّ فيها، وقرَّرت بعد أخذ ورد، اختيار فتى من كلِّ قبيلة، يقومون بقتل النبيِّ كي يضيعَ دمه بين القبائل، ولم تكن نيَّتهم بغائبة عنه صلوات الله وسلامه عليه، فقد أتاه جبريل عليه السلام، وطلب منه عدم المبيت في فراشه، وأنزل عليه قرآنًا يبشره فيه أن مكر الله قد غلب

مكر تلك الفئة فقال في محكم كتابه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾، وخرج الرسول من داره والنفر المؤتمر في الباب ينتظر الفرصة كي يضربه ضربة رجل واحد وفيهم أبو جهل، فأخذ حفنةً من تراب نثرها على رؤوسهم، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ يس ❁ والقرآن الحكيم ❁ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ❁ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، وخرج ولم يشعر به أحد كما ذكر ابن هشام في السيرة ١٠٢/٢–١٠٣ وغيره.

وذكر اليعقوبي في تاريخه ٣٥٨/١ أنه خرج مع أبي بكر، أما أحمد في مسنده فذكر في باب مناقبه عليه السلام برقم ٢٦٢ عن ابن عباس أنه: (..جاء أبو بكر وعلي نائم قال: وأبو بكر يحسب أنه نبي الله قال: فقال: يا نبي، فقال له علي: إن النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار)، وبقيا فيه ثلاث ليالٍ، بانتظار يأس قريش من العثور عليهما، التي بعثت من يقصُّ خبرهم، وأثرهم، ويوم انتهوا إلى الغار، وجدوا أن العنكبوت قد بنى نسيجه على واجهته، وأن الحمامة وضعت بيضها على عتبته، فعادوا خائبين، إلاَّ أن الأمل لم يفارقها، وجعلت لمن جاء بهما أو قتلهما مئة بعير.

وكان خروجه صلوات الله وسلامه عليه ليلة الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الأول، على راحلة اشتراها من أبي بكر، وقيل: استأجر أو اشترى عليٌّ عليه السلام راحلتين كما سيأتي، وقالا يوم الثلاثاء بقديد، ووصلا قباء حين اشتدَّ ضحى يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على ما ذكر ابن هشام في سيرته ١٠٧/٢–١١٤ والبلاذري في أنسابه ٣٠٨/١،

وتابعهما الطبري في تاريخه ١١٤/٢، وذكر اليعقوبي في تاريخه ٤١/٢ أنه (قدم المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول، وقيل: يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت منه).

أما علي عليه السلام فقد كان على بينة بخطوات الرسول صلوات الله وسلامه عليه كلّها، ولمّا أعلمه بالأمر الإلهي بعدم المبيت في بيته، أمره بلبس بردته والنوم في فراشه، فلبّى بلا تردد أو خوف، وما أكبر فرحته حينما أعلمه المصطفى أن قريشًا لن تنال منه، وأن الله منجيه من كيدهم، وما أعظم فرحة المرتضى بأمر أخيه وبالوسام الذي طوّقه به.

ولا نشك في أن الفتى ذلك اليوم ما عاد صَبِيًّا ابن العشر سنوات كما رأيناه يمشي بظلّ رسول الله في حِلّهِ وترحاله دائم التطلع إليه فيراه شامخًا كشموخ جبال مكّة بل يتعدّاها إلى أفق السماء، لقد جاوز العشرين تلك الليلة أو قاربها تكاد الفتوّة تتفجّر من جوانبه، ولا يكاد يرى من الدنيا إلاّ دعوة أخيه التي ملكت عليه أقطار نفسه وحرمته من كلّ ما يتعلّق بالطفولة والمراهقة من لهو ولعب، ولا أشك في أن الرسول لو ترك له الزمام على غاربه تلك الفترة لفعل الأفاعيل بمن يحاول الاعتداء على النبيّ، وسط مصادر القوّة التي أحاطت به والفتوّة التي تلبّسته.

ومما رواه ابن الأثير في أسده ٥٩٩/٣ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم قال له: («اتّشح ببردي الحضرمي الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى»، ففعل ذلك، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختارا كلاهما الحياة، فأوحى الله عزّ وجل

إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب ؟! آخيت بينه وبين نبيِّي محمد، فبات على فراشه، يفدِّيه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوِّه. فنزلا ، فكان جبريل عند رأس علي ، وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخٍ بخٍ ! من مثلك يا ابن أبي طلب يباهي الله عزَّ وجلَّ به الملائكة! فأنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله، وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾)، وروى قبله قريبًا من هذا اليعقوبي في تاريخه ١/٣٥٨، وروى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/١٥٤ بسنده عن ابن عباس: (أنام رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليًّا على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره عليٌّ أنه قد انطلق، فأتبعه أبو بكر، وكانت قريش تنظر عليًّا وجعلوا يرمونه فلمَّا أصبحوا إذا هم بعليٍّ فقالوا أين محمد؟ قال: لا علم لي به. فقالوا قد أنكرنا تضوُّرك، كنَّا نرمي محمَّدًا فلا يتضوَّرُ، وأنت تتضوَّر، وفيه نزلت هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾)، أما اليعقوبي فذكر في تاريخه ١/٣٥٩ أنهم لمَّا وجدوا عليًّا في فراشه سألوه عن ابن عمِّه فقال لهم: (قلتم له أخرُجْ، عنَّا فخرج عنكم).

توسد عليٌّ الفراش ولا أظنه نام ليلته تلك، بسببٍ من خوفه وقلقه على أخيه المصطفى، وبسبب الحجارة التي كان يرمى بها، وبسبب دوافع زهو الفتوَّة التي غمرته، وهو يلبي لرسول الله أمرًا لابد أن يكون القائم به في شجاعة عليٍّ كي ينفِّذه، فهو الموت، ولكن أي موت!!! ، ولا أشكُّ أنه حين

ودَّع أخاه، وهو في طريقه إلى المجهول ودَّعه بابتسامة كلُّها امتنان وقلق، امتنان لأنه اختاره لهذه المهمة، وقلق من المجهول الذي خرج إليه الرسول.

أما النفر الذي ترصَّد النَّبي صلى الله عليه وآله وسلَّم، وهم غالبيَّة الوجوه الكالحة التي ناصبته العداوة والبغضاء، كأبي جهل، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأميَّة بن خلف، وابن الغليطة، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبي لهب، وأبي بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجَّاج، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٢٢٩، وستعلم من بعد كم قطف المرتضى من تلك الرؤوس في معركة بدر، فكان ينظر إلى ذلك النائم في البردة فيظنه هو، و(يقال: إنهم رموه وهم يظنون أنه نبي الله فلمَّا قام، تركوه وسألوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أنه لا علم له به)، وقيل: إنهم أشبعوه ضربًا ولكمًا، وحبسوه ساعة من الزمان ثم أطلقوه، كما روى ابن الأثير في كامله ٢/١٠٣ والمجلسي في بحاره ١٩/٣٨، ولاشك أنهم ما أطلقوه، وما اكتفوا بحبسه لو كان نومه في فراش المصطفى وفي بيته غريبًا عليهم، فهو بيته أيضًا، ولاسيما أنه لم يعرف له بيت غيره في مكَّة من قبل ومن بعد.

وذكر المسعودي في مروجه ٢/٢٨٥ أن المرتضى قد استأجر للنبي إبلاً كي يهاجر عليها إلى يثرب، وروى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/١٥٤ بسنده عن أبي رافع الذي قال: (إن عليًّا كان يجهِّز النبيّ صلى الله عليه وسلّم حين كان بالغار، ويأتيه بالطعام، واستأجر ثلاث رواحل للنبي صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر، ودليلهم ابن أريقط).

واحتسبت ليلة نومه عليه السلام في فراش أخيه من مواقفه الخالدات في نصرة نبيِّه، رشحه هو وغيره من المواقف التي تصعب على الإحصاء عند بعض

الفقهاء من غير الشيّعة أن يكون خير خلق الله بعد رسول الله، وأحقّهم في خلافته، من ذلك ما جاء في احتجاج المأمون على الفقهاء في فضله عليه السلام، فقد نقل ابن عبد ربه في عقده ٥/٩٠–٩٨ أن إسحاق بن إبراهيم قال: قلت للمأمون بحضور حشد من الفقهاء: (إن لأبي بكر فضلاً، قال: أجل، لولا أن له فضلاً لما قيل إن عليًّا أفضلُ منه، فما فضله الذي قصدت إليه الساعة؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، فنسبه إلى صُحْبَتِهِ. قال: يا إسحاق، أمَا إنِي لا أحملك على الوعر من طريقك، إني وجدت الله تعالى نسب إلى صُحبة من رضيَه ورَضِيَ عنه كافرًا، وهو قوله: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ❖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾. قلت: إن ذلك صاحب كان كافرًا، وأبو بكر مؤمن. قال: فإذا جاز أن ينسب إلى صُحبة من رضيه كافرًا جاز أن ينسب إلى صُحبة نبيّه مؤمنًا، وليس بأفضل المؤمنين ولا الثّاني ولا الثّالث، قلت: يا أمير المؤمنين، إن قدر الآية عظيم، إن الله يقول: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ قال: يا إسحاق، تأبى الآن إلا أن أخرجك إلى الاستقصاء عليك، أخبرني عن حزن أبي بكر، أكان رِضًى أم سخطًا؟ قلت: إن أبا بكر إنما حزن من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفًا عليه، وغمًّا أن يصل إلى رسول الله شيء من المكروه. قال: ليس هذا جوابي، إنما كان جوابي أن تقول: رضًى أم سخط؟ قلت: بلى رضًى لله. قال: فكأن الله جلّ ذكره بعث إلينا رسولاً ينهى عن رضى الله عزّ وجلّ وعن طاعته؟ قلت: أعوذ بالله. قال: أو ليس قد زعمت أن حزن أبي بكر رضًى لله؟ قلت: بلى. قال:

أوَلم تجد أن القرآن يشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: « لا تحزن » نهيًا له عن الحزن؟ قلت: أعوذ بالله. قال: يا إسحاق، إن مذهبي الرفقُ بك لعلَّ الله يردُّك إلى الحق، ويعدل بك عن الباطل لكثرة ما تستعيذ به. وحدِّثني عن قول الله: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ من عنى بذلك: رسول الله أم أبا بكر؟ قلت: بل رسول الله. قال: صدقت).

ركب الفواطم

وليس من الطبيعي أيضًا أن يُتْرَك المرتضى هكذا ثلاثة أيَّام على أشهر الروايات يتنقَّل بين أحياء مكَّة وأزقَّتها يؤدي ما أوصاه رسول الله أن يؤديه من أمانات إلى أهلها كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٢١٦–٢١٧، وابن عساكر في ترجمته بتاريخه ١/١٥١–١٥٢ وغيرهما بدون أن يعترضه معترض، وليس من المعقول أيضًا أن يخرج بالركب النبوي العلوي النِّسوي بدون أن يتصدَّى له الملأ القرشي ويحبسه، لا شكَّ أن الذي فلَّ من عزيمتهم هو إفلات النبي صلى الله عليه وآله من بين أيديهم، وانشغالهم بالبحث عنه، كما أن التحرُّش بالمرتضى عليه السلام أو التفكير بقتله لابد له من اجتماع جديد في دار الندوة كالاجتماع الذي سبق ليلة هجرة الرسول، ولعلَّه أضيف عامل جديد إلى الأمر، فما عاد أمر قتله أو اغتياله يعني بني هاشم فحسب، وإنما يعني القوَّة الجديدة التي أصبحت تنتظرهم هناك في المدينة.

ولا أشك في أنَّ غيره سيفكر ألف مرة قبل أن يقوم بتلك المهمة الصعبة، بعد أن امتلأت قريش حقدًا وغضبًا على إفلات رسول الله من بين أيديهم، ولكنَّ الفتى الذي كلِّف بتلك المهمة لم يكن كبقيَّة الفتيان، فقد امتلأ شجاعة وإيمانًا حتى ما بات يفكر بخوف أو وجل.

وتقف على روايات في ما يخص هجرته تحتاج إلى كثير من التأمل لصعوبة قبولها مثل رواية وردت في أنساب البلاذري ٣١٧/١ ذكر فيها أن النبيّ صلوات الله عليه وجَّه أبا رافع إلى مكَّة رفقة زيد بن الحارثة كي يحملا فاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة إذ كيف يصحب أبو رافع وزيد هذا النفر مع وجود المرتضى وأمه وابنة عمه الزبير ، ثم كيف ستسمح قريش لأبي رافع وزيد بن حارثة أن يدخلا مكَّة ويخرجا منها أحياء بعد أن خرجا منها خفية ، ثم كيف ستسمح لهما برفقة أسرة عدوها ، كما أن الرحلة من المدينة إلى مكَّة والعودة منها إلى المدينة تستغرق نصف شهر للمتعجِّل في الأقل ، وهو زمن لا يتفق مع الزمن الذي ذكروه عن انتظار النبي في قباء قبل دخوله يثرب ، لا شك أن مثل هذه الروايات أريد منها تقليل شأن رحلة المرتضى عليه السلام تلك ، ولا أشك في أمانة البلاذري ، ولا في أمانة غيره من المؤرخين الذين لم يعرف لهم موقف عداوة أو كراهية للمرتضى أو لذريَّته ، ولكنَّ الروايات رويت ، ثمَّ شوِّهت ، ولها من يوثقها ، ويأخذ بها ، وكان المؤرخون الذين جاءوا من بعد يرصُّونها رصًّا بلا فحص أو تمحيص في كثير من الأحيان.

وأستبعد أن يكون الرسول قد كتب إلى أخيه يأمره بالمسير إليه كما ذكر اليوسفي في موسوعته ٧٤٦/١ نقلاً عن الطوسي في أماليه ٨٤/٢ ، أو يبعث أبا رافع إلى مكَّة كما ذكر البلاذري ، وقد تكون الفرصة لم تسنح لأبي رافع كي يهاجر فبقي بمكَّة رفقة أمِّه مع بعض الضعفاء يوم هاجر صلى الله عليه وآله ، إذ إنه خرج لأربع خلون من ربيع الأول ، ووصل قباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر نفسه كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٣٣/٢ ، والواقدي في مغازيه ٢/١ فكيف تسنَّى لمبعوثه أن يصل إلى مكَّة ويبلِّغ المرتضى

بسرعة القدوم، فيصل عليه السلام قباء في النصف من ربيع الأول كما روى ابن سعد!؟

وعلى أساس رواية هجرة المصطفى في الرابع من شهر ربيع الأول، تكون هجرة المرتضى في السابع منه، لأنَّ الروايات تكاد تجمع على أن هجرته عليه السلام كانت بعد ثلاثة أيَّام من هجرة أخيه سلام الله عليهما، ويكون تاريخ وصوله في منتصف ربيع الأول مناسبًا لتاريخ وصول النبي إلى قباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور، أي أنَّ الفرق بين وصولهما كان ثلاثة أيَّام، وهو أمر يبدو أكثر قبولاً وانسجامًا مع غالبية الروايات..

وذكر ابن هشام في سيرته ٣١/٤ رواية لم أقف عليها في غيره من المصادر التي رجعت إليها تقول: (وكان العبَّاس بن عبد المطَّلب حمل فاطمة، وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من مكَّة يريد بهما المدينة، فنخس - هيَّج الراحلة فألقت بهما إلى الأرض - بهما الحويرث بن نقيذ فرمى بهما إلى الأرض)، ولا يُستَشَفُّ من النصِّ أكان ذلك قبل هجرة النبي أم بعدها، ولا يستشفُّ منه أيضًا تمام رحلة العبَّاس إلى المدينة بابنتي النبي أو عودته بهما إلى مكَّة بزعم الرواية، وإذا صحَّت أو صحَّ جانب منها، فلعلَّه خرج بالركب بانتظار ابن أخيه عليه السلام، والحويرث هذا ممن كان يؤذي النبي بمكَّة، ويبدو أن النبي صلوات الله عليه قد أهدر دمه فلمَّا كان الفتح قتله أبو الحسن سلام الله عليه كما ورد في السيرة ٣٢/٤، وكامل ابن الأثير ٢٥٠/٢، ولكنَّ اليعقوبي ذكر في تاريخه ٤١/٢ رواية تفسِّر الخلط الذي وقع فيه ابن هشام، وتبيِّن أن الأمر لا يتعلَّق بفاطمة وأمِّ كلثوم، وإنما يتعلَّق بزينب بنت النبي التي كانت في الطائف حين هاجر رسول الله صلى الله عله وآله وسلَّم، قال: (قدم العباس بن عبد المطلب

بزينب بنت رسول الله، وكانت بالطائف حين هاجر رسول الله عند أبي العاص بن بشر بن دهمان الثقفي، ثم رجع العباس إلى مكّة).

ولكي تنسجم رواية ابن الأثير في أسده ٣/٥٩١–٥٩٢ الذي ذهب إلى هجرة المرتضى صحبة الفواطم إلى المدينة، لابد أن نأخذ أيضًا بجانب مما أورده المجلسي في بحاره ١٩/٦٤–٦٧، من هجرة بقيَّة النسوة والمستضعفين مع عليٍّ عليه السلام، وهي رواية تنسجم مع جانب من رواية البلاذري وتصوبها فقد ذكر المجلسي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم كتب إلى عليٍّ كتابًا يأمره فيه بالمسير إلى المدينة، وكان رسوله إليه أبا واقد الليثي، وهو أمر استبعدنا حدوثه إذا أخذنا بتاريخ وصول المرتضى إلى قباء، وهو النصف من ربيع الأوَّل، ويقرب إلى الظن أن المصطفى قد اتَّفق مع أخيه على أن تكون هجرته في أقرب الآجال بعد أن ينتهي مما كُلِّف به، وقد أنهى مهمَّته في ثلاثة أيَّام بمكّة ما كان يختفي فيها كما روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/ ١٥٥، فخرج رفقة فاطمة بنت رسول الله، وأمه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطَّلب، وتبعهم أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو واقد إن كانا قد عادا إلى مكّة بحسب رواية المجلسي، أو كانا فيها، ولا يمنع أيضًا أن يكون العباس في وداع الظعائن ذلك اليوم.

وتقف على رواية في ترجمته عليه السلام في تاريخ ابن عساكر ١/١٥٤ اقتطعنا لك قسمها الأول في ما سبق، ولكنَّ الغموض يكتنف القسم الأخير منها إذ قال راويها أبو رافع: (وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلّم عليًّا أن يلحقه بالمدينة، فخرج عليٌّ في طلبه بعدما أخرج إليه {فكان يمشي} من الليل ويكمن بالنهار)، ويبدو أن المحقّق اجتهد في ملء السقط الذي حدث في

النسخة المعتمدة في التحقيق، فأضاف إليه (فكان يمشي)، وقال في الحاشية (ما بين المعقوفات كان بياضًا في النسخة الظاهرية، وأخذناه من مصححة الطباطبائي)، والنصُّ بصورته المذكورة لا ينجلي غموضه، ولكنه يقرب إلى الاستقامة إذا وضعناه بالصورة التي رواها ابن الأثير في أسده٣/٥٩١—٥٩٢ : (فخرج عليٌّ في طلبه بعدما أخرج معه أهله يمشي في الليل ويكمن بالنهار)، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أمره (أن يقيم بعده بمكّة أيّامًا حتى يؤدي عنه أمانة الودائع والوصايا التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم ثم يلحقه بأهله)، ومما يوثِّق هجرة الزهراء عليها السلام رفقة ابن عمِّها المرتضى، ما ذكره اليعقوبي في تاريخه ٤١/٢ إذ قال: (وقدم علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله، وذلك قبل نكاحه إياها).، ولم تكن الزهراء بغريبة عنه، وما كان غريبًا عنها، فكل طفولتها كانت معه، ولا شكَّ أن أوَّل فتًى انطبعت صورته بمخيلتها هي صورته.

وما إن قارب الركب موضعًا يسمَّى ضجنان حتى أدركه الطلب سبعة فوارس ثامنهم مولى الحارث بن أميَّة يدعى جناحًا، فطلب المرتضى من واقد وأيمن أن ينيخا الإبل، ثم أنزل النسوة، وما إن وصل الطَّلب حتى امتشق حسامه، ودار حوار انتهى بمجالدة لم يصمد فيها الطلب القرشي طويلاً أمام سيف المرتضى وقوَّة ساعده، فانصرف مخذولا، وواصل الركب مسيرته، ولحق به في ضجنان نفر من المستضعفين فيهم أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، كما ذكر اليوسفي في موسوعته ٧٤٦/١—٧٤٩ نقلاً عن أمالي الطوسي والبحار ومناقب آل أبي طالب، والتحق المرتضى بأخيه الذي كان بانتظاره بقباء في بيت كلثوم بن الهدم. كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٢/٣

والبلاذري في أنسابه ١/ ٣١٢ وابن هشام في سيرته ٢/ ١٠٥–١٢٤ ، والطبري في تاريخه ٢/ ٣٨١ وابن الأثير في أسده ٣/ ٥٩١–٥٩٢ ، وكان ابن سعد في طبقاته ١/ ٢٣٣ قد ذكر روايتين في تاريخ وصول النبي إلى قباء ، تذهب الأولى إلى أنه وصلها صلى الله عليه وآله وسلم لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، وهو تاريخ لا ينسجم مع تاريخ وصول المرتضى إلى قباء في منتصف ربيع الأول كما ذكر ابن سعد وغيره ، إذ ليس من المعقول أن يتأخَّر عن اللحاق به اثني عشر يومًا ، في الوقت الذي خرج من مكّة بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم بثلاثة أيّام كما ورد في روايات موعد هجرته عليه السلام ، وقد ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ٢ الرواية التي تذهب إلى أن وصول المصطفى كان لليلتين خلتا منه ، ولكنه استبعدها وقال : (والثابت لاثنتي عشرة).

أما الرواية الثانية التي ذكرها ابن سعد فتذهب إلى أن المصطفى وصل قباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وهي منسجمة مع تاريخ وصول المرتضى في النصف من ربيع الأول الذي ذكره ابن سعد في طبقاته ٣/ ٢٢ أيضًا. ولا شكّ أنّ رواية المجلسي في بحاره ١٩/ ١٠٦ التي تذهب إلى أنه وصل بعد النبي بخمسة عشر يومًا تبتعد عن المعقول إذا أخذنا بالتاريخ الذي ذكرناه سابقًا ، ونقل اليوسفي في موسوعته ١/ ٧٥٠ عن مصباح الطوسي أن هجرة النبيّ من مكّة كانت في أوّل ليلة من ربيع الأول ، وكانت ليلة الخميس ، وفي الرابع منه خرج من الغار متوجهًا إلى المدينة ، ونقل عن روضة الكافي أن وصوله إليها كان لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

ولم يكن مسيره عليه السلام من مكّة إلى قباء بهيّن عليه، فقد قطع غالب الرحلة الطويلة على تلك الرمضاء المحرقة مشيًا وهرولة وركضًا على قدميه، ولم يلتفت إلى الدم الذي كان يسيل منهما، ولا للألم الشديد الذي كان يعانيه في مراحل الرحلة الأخيرة، إذ كان شوقه للقاء المصطفى يفوق الوصف، ولا يدرى كيف استطاع قطع آخر مراحل الطريق، لأنه حينما وصل إلى قباء لم تحمله قدماه للسلام على أخيه صلوات الله وسلامه عليه، ولقد أوجز ابن الأثير في أسده ٣/٥٩١–٥٩٢ الحديث عن هذه الرحلة بخبر رواه عن أبي رافع فقال: (وخلّفه النبي صلى الله عليه وسلّم - يعني خلّف عليًّا - يخرج إليه بأهله، وأمره أن يؤدي عنه أمانته ووصاياه من كان يوصي إليه، وما كان يؤتمن عليه من مال، فأدى علي أمانته كلّها، وأمره أن يضطجع على فراشه ليلة خرج، وقال: إن قريشًا لم يفقدوني ما رأوك، ... وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يلحقه بالمدينة، فخرج علي في طلبه بعدما أخرج إليه أهله يمشي الليل ويكمن النهار، حتى قدم المدينة، فلمّا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قدومه قال: ادعوا لي عليًّا. قيل: يا رسول الله، لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فلمّا رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دمًا، فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في يديه، ومسح بهما رجليه، ودعا له بالعافية، فلم يشتكهما حتى استشهد رضي الله تعالى عنه)، وتكاد تكون هذه الرواية هي الرواية عينها التي ذكرها ابن عساكر، وأشار محققها إلى وقوع بياض في النسخة المخطوطة التي اعتمد عليها في

التحقيق، ولك أن تنظر في البحار ١٩/ ٦٩ أيضًا، وموسوعة اليوسفي الغروي ١/ ٧٤٦–٧٥١ ففيهما تفصيلات كثيرة عن هذه الرحلة.

مصادر قوّة الإمام الخارقة

من الصعب أن نقف على أسباب قوّة أبي الحسنين عليه السلام الخارقة التي عرف بها، إلاّ أن نربطها بإعجاز ربّاني، فمعروف أن ولد الرجل في شيخوخته يلقى من رعاية أبويه ما لا يلقاه غيره من الأطفال الذين يولدون في مقتبل حياة أبويهما، وقد يصابُ ببعض العلل التي لا يقوى على الصمود أمامها طويلاً، وفي مثل طفولة المرتضى التي ابتعد فيها عن كنف أبويه كان من المحتمل أيضًا أن يصاب ببعض العلل النفسيَّة التي قد تؤثر على سلوكه وقوّته بسبب انتقاله من دفء إلى آخر، والطفل الذي ينتقل من كنف أبويه ويتكفّله غيرهما من أقاربه غالبًا ما يحاط برعاية تفوق الحد الذي تستدعيه التربية الرزينة، وفي مثل حالة وليد البيت، كان من المتوقع أن يحاط بأنواع من الرعاية بسبب عمق محبة المصطفى وزوجته له ولأبيه، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، والذي حدث هو العكس، ويبدو أن النبي صلوات الله عليه أخذه منذ اليوم الأول بما أخذ نفسه به، وأدَّبه بالأدب الربّاني الذي تأدّب به.

يضاف إلى هذا أمر في غاية الأهمية لم يلتفت إليه أحد ممن كتب عنه عليه السلام في ما أعلم، فهو آخر أبناء أبي طالب، وقد حملت به فاطمة رضوان الله عليها وقد جاوز أبوه الستين من عمره، ولعله قارب السبعين، وهو آخر أبنائها، وعلى تقدير أغلب رواة سيرته يكون عمرها يوم أنجبته جاوز الأربعين بكثير، بل لعلها كانت في خمسينيات عمرها. فقد ذهب بعضهم إلى أن ما بين ولد وآخر أنجبته فاطمة بنت أسد عشر سنوات، ولاشك أن ما ذهبوا إليه كان بسبب طول المدة بين ولادة وأخرى، وليس على اليقين والتدقيق، أو

بسبب ولادتها البنات بين الأولاد مع تباعد في زمان ولاداتها، وعلى كل حال فقد كان المرتضى آخرهم، ولعل أمر ولادته عليه السلام في سنِّها المتأخرة تلك هو الذي أشاع بأن نساء بني هاشم يتأخر طمثهن إلى الخمسين أو إلى ما بعدها، ومن الممكن أن ينجبن في تلك السن المتأخرة، وامرأة تلد في تلك السن يمكن أن يتعرَّض وليدها في الغالب إلى الضعف والمرض.

وإذا كان آخر العنقود قد رأى النور في بيت أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم، فإنه رآه في أوج المكانة التي كان يحتلها أبوه في الوسط القرشي، ولعلّه أراد أن يتمثّله بسبب ما كان يرى ويسمع عنه، ولعل ذلك ملأه رجولة وأنفة وعزة وتواضعًا منذ طفولته المبكّرة، ويراودني يقين أيضًا أن المجد التَّليد الذي ورثه عن جده قصي ومَن جاء بعده في تلك الشجرة المباركة التي تصدَّرت كلَّ عزّ مكة وشموخها، أثّرَ فيه أطيب تأثير، وأمدَّه بقوَّة روحيَّة وجسديَّة، جعلت منه خلاصة لكل القيم السامية التي تحلّت بها شجرته تلك التي عرفنا فيها من مخايل الفروسيَّة وصفاتها الحميدة ما عرفنا.

ولا شكَّ أن كثرة الذهاب والإياب في طفولته إلى غار حراء أثناء اعتكاف أخيه، أما للاطمئنان عليه كي يخفف من قلقِ خديجة وقلق عمِّه، وأما لنقل الزاد إليه دفعته إلى رياضة كانت تكملة للبناء الروحي الذي أحيط به وتمتع به. ولا تستطيع أن تقدر ما كابده الصبي من تعب في طريق ذهابه وإيابه إلى الغار إلا إذا وفّقك الله لزيارة ذلك المكان المقدَّس، فهو يبتعد عن البيت فراسخ معدودات من واد إلى سفح جبل، ثم يليه طريق غاية في الوعورة إلى قمة جبل النور، ولا أشك في أن الوصول إليه يحتاج إلى ساعات من المشي أصعبه لا يسمح بركض ولا هرولة، أمدَّ كل ذلك عضلاته بقوة حديدية في فتوته

وشبابه وكهولته وأعتاب الشيخوخة التي وصل إليها لم تعرفها عضلات القرشيين من الفتية والشباب والكهول، فالحركة القليلة هي حال القوم، والخمول بسبب شدة الحرارة وندرة الظل هي سمتهم، إذ لا شجر يظلهم ولا بناء في الغالب يحتويهم.

واستمدَّ القوَّة من مصادر أخرى، فهو يرى أباه يتربَّع على عرش المجد القرشي، ويرى أعمامه حمزة والعبَّاس وأبا لهب ملء أندية قريش ومجالسها، ولا أشك أنه لولا عناية المصطفى الاستثنائية به التي اتَّسمت بحكمة عالية في التربية لاندفع في وجه طغيان قريش لا يلوي على شيء زمن فتُوَّته تلك، ولاسيما بعد رحيل أبيه وتعرُّض المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى كثير من المضايقات التي لابدَّ أنها لم تكن بعيدة عن سمعه وبصره، ولكنه كبح اندفاع تلك الفتوَّة بعزيمة هائلة بسبب توجيه النبي، والتزامه التام عليه السلام بأوامره ونواهيه، وهي قدرة يصعب على غيره من الفتيان الشجعان الصمود أمامها، لذا فإن تلك التربية أمدَّته بعزائم شاركت في بنائه الجسدي والروحي ذلك البناء الذي أسهبت في وصفه كتب السيرة، وهذا التكوين وتلك العزيمة شاركا في تمكينه من قطع غالب المسافة أثناء هجرته رفقة بيت النبوَّة من مكَّة إلى المدينة مشيًا وهرولة وركضًا حتى تمزَّقت قدماه وسالت الدماء منهما بحيث ما كان يقوى على السير خطوة واحدة بعد وصوله كي يسلِّم على أخيه، ولمَّا نظر إليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما وهو على تلك الحال بكى ومسح قدميه بيده الشريفة فما أحسَّ بعد ذلك بألم فيهما، ولعلَّ ما يمكن تخيله في صفاته الجسدية تلك الأيَّام أنه لم يكن كبير البطن، ولا أصلع الرأس، كما أصبح في أخريات كهولته، بل كان فتًى ممتلئًا حيوية وشبابًا،

أسدًا مكتنزًا في جسد إنسان، وما نأخذه من أوصاف أصحاب السير في أخريات حياته لمرحلة شبابه يبيِّن أنه كان ربعة ضخم مشاشة المنكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد، ضخم عضلة الذراع والسَّاق، دقيق مستدقِّهما، كما يستشفُّ ذلك مما ذكره ابن سعد في طبقاته ٣/٢٩. وإذا كان الذهبي في عهده ٦٢٤ قد روى بزعم رواته عن الباقر عليه السلام بأنه (آدم شديد الأدمة، ثقيل العينين، عظيمهما، وهو إلى القصر أقرب)، فإنَّ ابن عبد البر في استيعابه ١١٢٣/٣ قال في وصفه: (وأحسن ما رأيت في صفة علي رضي الله عنه أنه كان ربعة من الرجال إلى القصر ما هو، أدعج العينين، حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر حسنًا، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفين عتَدًا أغيد، كأن عنقه إبريق فضَّة، أصلع ليس في رأسه شعر إلاَّ في خلفه، كبير اللحية، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يتبيَّن عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجًا، إذا مشى تكفَّأ، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفَّسَ، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد، وإذا مشى للحرب هرول، ثبت الجنان، قويٌّ شجاع، منصور على من لاقاه). وإذا كان ربعة أقرب إلى القصر، فهو قصر محبَّب، لأنه في بيئة شاع فيها الطول، وقد منحه حسن وجهه وطول رقبته الذي وصف بأنه كإبريق فضَّة مع دعج عينيه وهو شدَّة سواد سوادهما، وشدة بياض بياضهما وسعتهما بِشْرًا لم يفارقه ووسامة ميَّزته بين لداته. ولقد أجمل العقاد في عبقرية الإمام ٨ ما ذكره القدماء عن شجاعته بقوله: (وتدلُّ أخباره كما تدلُّ صفاته على قوَّة جسديَّة بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والافات، فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل

فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفّس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدًا إلاّ صرعه، ولم يبارز أحدًا إلاّ قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلاّ رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشدّاء، ويصيح الصّيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان). ومما روي عن عجيب شجاعته أن درعه عليه السلام صدرًا لا ظهر لها، (فقيل له في ذلك. فقال: إذا استمكن عدُوّي من ظهري فلا يُبْقي)، كما روى ابن عبد ربه في عقده ١/١٩٩، وذهب عليه السلام ولم يستمكن فارس من ظهره أو صدره، ولا سنحت له فرصة، وإنما استمكن ابن ملجم من رأسه غيلة وغدرًا.

أمّا بناء جسده فيدعو إلى الحيرة والتأمل، وخاصّة ميله إلى السُّمْنَةِ، فطعامه جشب يابس ليس فيه غير التمر وخبز الشعير في الغالب، ولطالما طوى على الجوع أيّامًا، وهو على الرغم من تلك البدانة وصف بأنه إذا مشى إلى الحرب هرول عليه السلام، ولقد لقّبه رسول الله صلوات الله عليه بلقب الأنزع البطين فقال: « يا علي، إن الله قد غفر لأهلك ولشيعتك ومحبي شيعتك ومحبي محبي شيعتك، فأبشر فإنك الأنزع البطين: منزوع من الشرك بطين من العلم» كما روى المجلسي في بحاره ٣٥/٥٢، والحديث عن الإمام الرضا عله السلام في صحيفته ٦٣.

من يثرب إلى المدينة

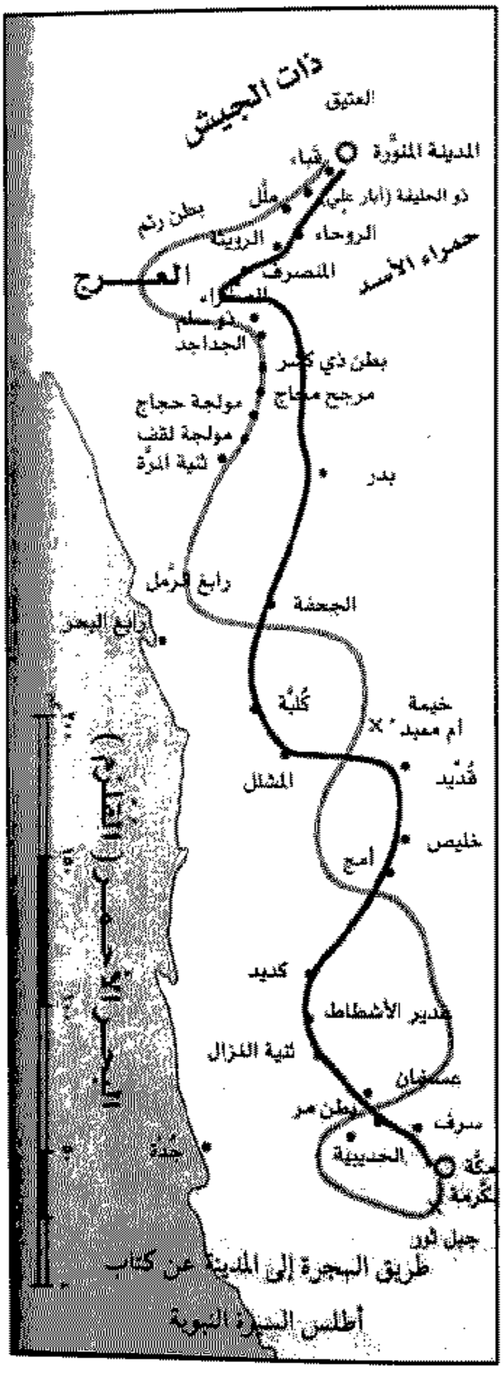

طريق الهجرة إلى المدينة عن كتاب أطلس السيرة النبوية

كانت الأيّام التي هاجر بها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم شديدة الحرّ جافّة قاسية محفوفة بالمخاطر والأهوال، وعلى الرغم من أنّ المؤرخين تحدّثوا عن المحطّات التي توقّف فيها أثناء الطريق، فإنهم لم يشيروا إلى الاحتياطات التي اتخذها صلى الله عليه وآله بعد أن غادر أطراف مكّة.

وحينما علمت يثرب بهجرته خرجت إلى قباء بانتظار قدومه، وكانت تتشوّف الطّريق كلّ يوم منذ انبلاج الفجر حتى غياب قرص الشمس، تتنقّل من فيء إلى آخر هربًا من حرارة ذلك الصيف اللّافح، وحينما يستقيم عمود الشمس تضطر إلى العودة إلى البيوت من شدّة هجيرها، وما إن ينكسر قائمها حتى تعود إلى ما كانت عليه، وصادف وصوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قباء قريب قائم ظهيرة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، في وقت انصراف القوم إلى بيوتهم، فرآه أحد يهود المدينة في ظلّ نخلة مع صاحبه، فصاح بأعلى صوته لإعلام اليثربيين بالأمر الجلل الذي

ينتظرونه، فخرجوا لاستقباله عن بكرة أبيهم بفرح وسرور لا مثيل لهما نسوا فيه الحرَّ والهجير، ولم يكن ابن هشام في سيرته ١١٥/٢ وحده الذي ذكر ذلك وإنما ذهب إليه غيره من الإخباريين كالواقدي في مغازيه ٢/١ وتابعهما البلاذري في أنسابه ٣١٠/١ وابن سعد في طبقاته ٢٣٣/١، الذي ذكر مع الواقدي رواية أخرى تذهب إلى أن وصوله إلى قباء صلوات الله وسلامه عليه كان لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوَّل، وهي رواية لا تنسجم مع وصول المرتضى عليه السلام في منتصف ذلك الشهر كما أسلفنا، ولم يأخذ بها الواقدي ولا ابن سعد، وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٧٥٠/١ رواية عن روضة الكافي والبحار بسندها عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام توثِّق وصول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في التاريخ الذي ذكره ابن هشام ومن تابعه.

وأقام بقباء أيَّامًا نزل فيها في بيت الصحابي الجليل كلثوم بن الهدم رضوان الله تعالى عليه، بانتظار وصول أخيه وأهل بيته، فلما وصل عليٌّ عليه السلام نزل معه كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢١٦/٢ والطبري في تاريخه ٣٨٢/٢، وغيرهما، وبسبب ضيق بيت ابن الهدم كان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يستقبل أنصاره في بيت سعد بن خثيمة الذي لم يكن متزوِّجًا بعد، لذا سُمِّيَ بيته ببيت العزَّاب كما ذكرت المصادر السابقة، وأسس فيها مسجده المعروف باسمها، وخرج منها في يوم الخميس، وقيل خرج منها قبيل صلاة الجمعة التي أدركته صلوات الله عليه، في وادي رانوناء فصلاَّها به، فكانت أول جمعة يصلِّيها في مدينته، بل هي أول صلاة جمعة تصلَّى في الإسلام.

دار كلثوم بن الهدم وقد أزيلت عن كتاب الكوكب الدري

ولقد يسَّر عليه العزيز الحكيم تحديد مكان إقامته في المدينة يوم دخلها، وذلك بتركه إلى ناقته العضباء تختار المكان الذي تَبْرُكُ فيه ليكون سكنًا له ولعائلته، لأن كلٌ من في يثرب من المسلمين يرغب بسكن الرسول صلى الله عليه وآله في بيته أو بجواره، وأيّ تمييز لرهط أو بيت على آخر سيؤدي إلى بلبلة أو قالة تؤثر حتمًا على الأمر الذي هاجر من أجله.

وانطلقت يقودها آمرها، وجاءه أهل المدينة من كلٍّ حدب وصوب كلٌّ يطمع أن يكون سَكَنَهُ في بيته، ولكنَّه صلى الله عليه وآله قال لهم: إن الأمر متروك لها فهي مأمورة، حتى إذا مرَّت بدار بني عدي بن النجَّار - وهم أهل جدَّته لأبيه سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب - اعترضه نفر منهم، فقالوا: يا رسول الله، هلم إلى أخوالك، ولعلّه كان يرغب بالنزول عندهم، فما زال يتذكّر تلك الرحلة التي رافق فيها والدته رضوان الله عليها لزيارة قبر أبيه، ولعلّهم كانوا على يقين أنه سيختار مسكنه وسط بيوتهم، ولعلّهم أعدوا العدَّة لهذا الأمر قبل وصوله صلوات الله عليه، ولكنه اعتذر لهم كما اعتذر لغيرهم بخبر الناقة المأمورة، وشاء قدر الله أن يكرّم أبا أيوب الأنصاري خالد بن زيد رضوان الله تعالى عليه إذ بركت الناقة أمام داره، فاحتمل الرجل المبارك متاع النبي ووضعه في بيته، ولا أشكُّ في أن تلك المناسبة كانت أعظم مناسبات ذلك البيت إلى أن رحل ذلك الصحابي الجليل إلى جوار ربِّه، وقد بقي بيت أبي أيوب مشمولاً برعاية المسلمين لوقت قريب إلى أن تمَّ هدمه وإدخاله ضمن المسجد النبوي الشريف، فما أعظم فرحته بتلك الكرامة التي خصَّه الله بها، فلم يكن من أغنياء بني النجَّار، ولا من ساداتها، وما أعظم فرحة أمه العمياء بهذا الضيف المبارك الذي حلَّ بينهم حينما علمت به، وما

أشوقها لرؤيته، ولكن كيف تراه، وقد فقدت نعمة الإبصار، وكأن الله أراد أن يتم نعمته عليها إذ قيل: إن المصطفى مسح عينيها بيده الشريفة فعاد إليها بصرها، ولا شكّ أنّ عودته من معجزاته صلوات الله وسلامه عليه في المدينة.

ولم يكن النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم لوحده الذي نزل على هذا الصحابي الجليل، وإنما رافقه المرتضى عليه السلام أيضًا، وبقي معه في داره إلى أن اقترب موعد زواجه بالزهراء عليها السلام، فطلب منه المصطفى أن ينتقل إلى دار خاصّة به، وشاء قدر الله أيضًا أن يكرم أبا أيوب هذا العبد الصالح الذي كان من صحابة النبيِّ المقربين أن يكون من بعد أقرب صحابة أخيه، وذراعه في حروبه ضد الفئة الباغية، يتحدث عن مآثره وأوسمته في كلِّ مناسبة، ولم يفارقه إلى أن ارتحل المرتضى شهيدًا سلام الله عليه، وكتب لهذا العبد الصالح من بعد أن يكون قبره في عاصمة الدولة العثمانية استنبول، ويكون مزاره فيها من أكبر المزارات، ومازال مسجده فيها من أكثر المساجد التركيَّة ازدحامًا بالمصلّين.

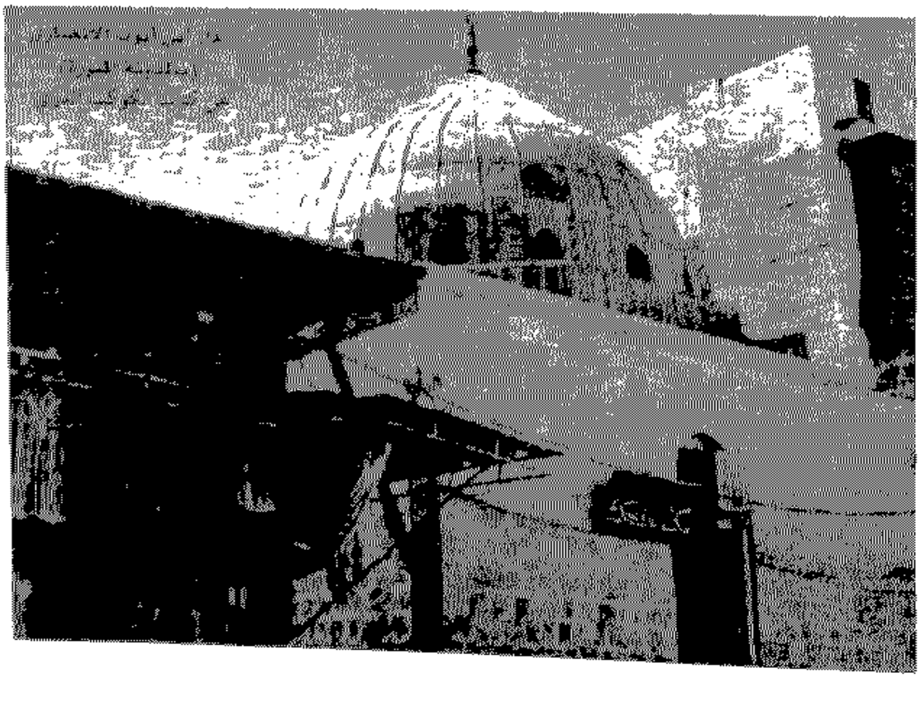

مسجد رسول الله

كان بجوار بيت أبي أيوب مِرْبَدٌ طوله مائة ذراع في مثلها لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما من أيتام المدينة، يقوم على رعايتهما الصحابيُّ معاذ بن عفراء، فسأل النبيُّ عنهما، وعن إمكانية شرائه منهما، ثم دعاهما النبي، وأعلمهما بنيَّته، فأعربا عن رغبتهما بهبته له، ولكنه اشتراه منهما بعشرة دنانير، وقُدِّر لذلك المِربَدِ أن يباركه الله ويكون ثاني أقدس البقاع عند المسلمين، إذ تأسس مسجده عليه صلى الله عليه وآله وسلَّم، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٢٣٩، وبقي النبيُّ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر إلى أن اكتمل بناء مسجده ومساكن أسرته كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ١١٧– ١٢٠، والبلاذري في أنسابه ١/٣١٤–٣١٥ وغيرهما.

وشارك المصطفى صلى الله عليه وآله المهاجرين والأنصار ببنائه، وانبرى أحد الصحابة حينما رأى النبي يعمل معهم فقال:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منّا العمل المُضلَّلُ

واندفع المسلمون في البناء بجدٍّ ونشاط، ويبدو أن بعضهم لم يرق له العمل في ذلك الهجير فاستثقلوه، أو أن نعرة الجاهلية بطبقيَّتها مازالت ترافقهم، فحمَّلوا عمار بن ياسر ما لا يطيق حمله، فاشتكاهم إلى النبيّ، وقال له: (يا رسول الله، قتلوني يحملون علي ما لا يحملون)، فنفض النبُّي فروته بيده الشريفة وقال: « ويح ابن سميَّة، ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية » وقد ذكر هذه الحادثة ابن هشام في سيرته ٢/١٢١، أما ابن سعد فقد روى في طبقاته ١/٢١٤ أن أبا التيَّاح قال: (حدثني ابن أبي الهذيل أن عمَّارًا كان رجلاً ضابطًا، وكان يحمل حجرين حجرين، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «ويْهًا ابنَ سميَّةَ تقتُلُك الفِئَةُ الباغيةُ»، ولعلَّ دمعة ترقرقت في عينيه، وهو يرى نهاية ابن أول شهيدين في الإسلام وكأنّه صلوات الله وسلامه عليه تشوّف ما ستؤول إليه الأحداث بعد حين وذلك بانقسام صحابته على معسكرات، فئة تبغي فتتنكّر للحقّ، وأخرى تدافع عنه حتى الشهادة، وثالثة ترى الباطل ولا تنتصر للحقّ، ورابعة تنشغل ببريق الدنيا فلا تنتصر لحقّ ولا لباطل، فيعصر الندم بعضها ولكن بعد فوات الأوان.

بل إن المرتضى الذي نهل من ينبوع المصطفى الصافي كثيرًا ما تشوَّفها من بعد، وأخبر عنها، ومن بين ما نقله المبرد عنه في هذا المجال في كامله ٣٩٥/١ قوله عليه السلام: (يأتي على الناس زمان، لا يُقَرَّب فيه إلاّ الماحِل - الواشي - ولا يُظَرَّف فيه إلاّ الفاجر، ولا يُضَعَّف فيه إلاّ المنصف، يتَّخذون الفيء مغنمًا والصَّدقة مغرمًا، وصلة الرحم منًّا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون سلطان النساء، ومشاورة الإماء، وإمارة الصبيان)، بل تقف في نهجه ٣٥٥ عليه السلام على خطبة تدلل على مدى صدقه يوم كان يقول للقوم: سلوني، فقد أوضح فيها ما سيجري على الإسلام والمسلمين من بعده فقال: (وإنَّه سيأتي عليكُم من بعدي زَمَانٌ ليس فِيه شَيْءٌ أخْفَى من الحقِّ، ولا أظْهَرَ من الباطلِ، ولا أكْثَرَ من الكَذِبِ على الله ورسولِهِ!! وليس عندَ أهلِ ذلكَ الزَّمان سِلْعةٌ أبْوَرَ من الكِتابِ إذا تُلِيَ حقَّ تِلاوتِهِ، ولا أنْفَقَ مِنهُ إذا حُرِّفَ عن مواضِعِهِ، ولا في البلاد شيءٌ أنْكَرَ من المعْروفِ ولا أعرَفَ من المنكَرِ ...).

ويبدو أن سرور المرتضى بوسام عمار الذي جهر به النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه بين المهاجرين والأنصار كان كبيرًا، وإن كان قد سمعه غير مرَّة،

فقد بُشِّر به عمار قبل اليوم كما روى ابن سعد في طبقاته ٣/١٤٧-٢٤٩، وكيف لا يفرح لعمَّار وهو صاحبه الذي لم يفترق عنه، إلى أن قتلته الفئة الباغية في حرب صفّين، ومن عجيب فعلها في ما رواه البلاذري في أنسابه ١/ ١٩٢ أنهم فصلوا رأسه عن جسده، وجاءوا به إلى معاوية (فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: لتطب نفس كل واحد منكما لصاحبه برأس عمار، فإني سمعت رسول صلى الله عليه وسلّم يقول: « تقتل عمارًا الفئة الباغية»، فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص فقال: ألا تثني عنا مجنونك هذا، فَلِمَ يقاتل معنا إذًا؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرني بطاعة أبي، فأنا معكم، ولست أقاتل).

ويبدو أن بعض المشاركين في البناء ما كانوا يبذلون جهدًا حقيقيًا فيه، بل إن بعضهم كان يبتعد حتى عن الغبار الذي يثار، لذا ارتجز علي عليه السلام:

لا يستوي من يعمر المساجدا　　يدأب فيها قائمًا وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عمَّار ورتجز بها، فأغاض رجزه أحد المهاجرين، وهدده بضربه بعصاه (فغضب رسول الله هذه المرَّة وقال: « مالهم ولعمَّار، يدعوهم إلى الجنَّة، ويدعونه إلى النَّار، إن عمار جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه »)، وكان عمار رضوان الله عليه أول من بنى مسجدًا في داره كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/١٢٢، وابن سعد في طبقاته ٣/ ٢٥٠، وكأن النبي أراد أن يشير إلى أن دولة الإسلام لا تقوم على عنصر أو عرق أو لون، أو على تمايز قبيلة على أخرى، أو بيت على آخر، أو على فقر أو ثراء، وإنما تقوم على قيم العدل والمساواة والسابقة والإخلاص لله ورسوله،

وليس بين القوم كعمّار، فمازالت حكاية استشهاد أبويه، وموقف الفئة التي بغت عليه من القرشيين يتردد صداها بين المسلمين. ولا يستبعد أن ذلك الموقف شكّل أوليّات تحزُّب القرشيين وانقسامهم بصورة أو بأخرى إلى فريقين.

ولم يكن مسجده صلى الله عليه وآله دار عبادة يؤدي فيه المسلمون صلواتهم فحسب، وإنما اتّخذه مقر حكم لإدارة أمور الدعوة والقضاء والحرب واستقبال الوفود، واستمرَّ يقوم بدوره مقرَّ عبادة وحكم، لحين انتقال العاصمة إلى الكوفة، ولا نريد الإغراق بالتفاصيل لأنها ليست من صلب موضوعنا، ولا يوجد ما يمنع من الإلماح إليها أحيانًا بسبب تأثيرها على مسيرة المرتضى في حياة أخيه وبعد رحيله صلوات الله وسلامه عليهما.

المؤاخاة

وانشغل المصطفى بترتيب أمور أصحابه، وعلاقتهم في ما بينهم، فليس من السهل أن تجمع بين مجموعتين من بيئتين مختلفتين، بيئة تقترب من المجتمع البدوي لندرة الزراعة فيه، وأخرى من مجتمع زراعي، بيئة فقدت كلَّ شيء بعد أن هربت بدينها، وأخرى تستقبلها، وغالبيتها لا تملك ما يفيض عن حاجتها، بل إن البيئة التي هاجرت، بعضها من أبناء الطبقتين الثرية والمتوسطة الثراء، وبعضها من الفقراء وأبنائهم، ومن عبيد القوم الذين حرَّرهم المسلمون بإمكاناتهم المتواضعة، ومهما كانت الدوافع الدينيَّة قويَّة فلابد أن تفعل الأقاويل فيها فعلتها من بعد، ولاسيما أن مجتمع المدينة فيه من لم يتمكن الإسلام بقيمه من نفوسهم، وفيه من المنافقين الذين تؤيدهم المجاميع اليهودية التي أحست بخطر الدين الجديد على مصالحهم وعلى دياناتهم، ولقد ظهرت هذه النوازع التي كادت تهدم ما تمناه النبي لمجتمع المدينة

وغيره من مودة ورحمة وتآلف وتعاون، وأنت تقرأ كثيرًا من هذا الخطر في ما فعله المنافقون بالمدينة من خلال ما نزل فيهم من قرآن، ومن خلال ما ذكره الواقدي، وابن هشام وغيرهما، ولك أن تقف على سبيل المثال لا الحصر في مغازي الواقدي ٢/٤١٥–٤٢١ على ما كاد يحدثه ابن سلول وجماعته من المنافقين من فتنة كادت تعصف بالمجتمع المدني الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحكمته وطول أناته.

وحرصًا منه على إشاعة المحبة بين المسلمين، وعلى تخفيف لواعج الإحساس بالغربة على المهاجرين خاصّة، وتخفيف حملهم على الأنصار أيضًا آخى بينهم، وكان قد آخى بين المهاجرين في مكّة قبل الهجرة، وذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ١٣١–١٣٤ والبلاذري في أنسابه ١/٣١٨–٣١٩ وغيرهما أسماء المتآخين، ويوم آخى بين المهاجرين في مكة (قال لعلي بن أبي طالب: « أنت أخي» كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/٣١٨ ، وذكر ابن هشام في سيرته ٢/١٣٠ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما آخى بين المهاجرين والأنصار (أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: « هذا أخي » ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين). وكأن هذه المؤاخاة هي امتداد لمؤاخاته يوم أنذر عشيرته فأراد توثيقها وتأكيدها في المدينة كي لا تفسّر في قابلات الأيّام على أن وزارة الإمام وخلافته ومؤاخاته هي حصرًا على أهل بيته عليهم السلام، أو أنها ولاية محبة واحترام لا غير كما ذهب بعضهم.

وقد أكد هذه المؤاخاة الترمذي في المناقب ٢٠ عن ابن عمر إذ قال: إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال له بعد المؤاخاة بين المهاجرين

والأنصار: « أنت أخي في الدنيا والآخرة »، كما أكدها النسائي في سننه وغيره، وتقف في أمر مؤاخاته مع النبيّ على رواية في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٣٣٨ برقم ٢٥٥ تبيِّن لك مدى مكانة هذا العبد الصالح عند الله ورسوله، فكانت فرحته عليه السلام غامرة بهذا الوسام الجديد الذي اتشّح به، ولا يراودني شكٌّ في أن هذا الإخاء لم يكن برغبة من النبيٍّ صلى الله عليه وآله فحسب، وإنما هو أمر سماويٌّ يمهد لأدوار أخرى لابد أن يضطلع بها المرتضى من بعد، وقد أكد هذا الإخاء في مناسبة أخرى سنأتي على ذكرها تفصيلاً في معرض ذكر أوسمته، ولعل هذا الوسام من أكثر أوسمة المرتضى دورانًا في كتب الحديث ومباحث الفقهاء، ومناقشات أقطاب المذاهب الإسلامية، لاختلاف وجهات نظرهم في تفسيره.

معاهدة المدينة

ونظَّمَ النبيُّ علاقة المسلمين بيهود المدينة وما جاورها بوثيقة أمر بكتابتها، أقرَّ فيها اليهود على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ولا شكَّ أن تلك الوثيقة كانت أول نص وفق قيم الإسلام السمحة حكمت علاقة المسلمين ونظَّمت مسيرتهم بمن جاورهم من الكتابيين، وقد روى ابن هشام تلك الوثيقة بكاملها في سيرته ٢/١٢٥–١٣٠، ولعلَّها أول وثيقة كتبت في الإسلام، إذ لم أقف على ما يشير إلى كتابة وثيقتي العقبتين، ويغلب على الظن أن عليَّ بن أبي طالب عليه السلام هو الذي قام بكتابتها، وكان الشيخ اليوسفي الغروي قد أشار في موسوعته ٢/٦٠ إلى هذا، وإن لم يصرِّح.

وعلى الرغم من وضع المصطفى صلوات الله عليه الأسس التي قام عليها التعايش في ما بين المهاجرين والأنصار، وفي ما بينهم وبين جيرانهم من

اليهود، بعد أن استقرَّ به المقام، فإن الحال لم يرق لا ليهود المدينة ولا لمن والاهم من المنافقين، فناصبوه العداوة والبغضاء، ونافقوا ما شاء لهم النفاق، وقد ذكر ابن إسحاق طائفة كبيرة منهم ومن أحبارهم كحيي بن أخطب، وسلام بن مشكم، والربيع بن الربيع، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف، والحجاج بن عمرو، وأبي رافع الأعور، ، وعبد الله بن صورى الأعور، وجارية بن عامر، ووديعة بن ثابت، وأبي حبيبة بن الأزعر، وثعلبة بن حاطب، ونبتل بن الحارث، ومربع بن قيضى، وحاطب بن أميَّة بن رافع، والضحَّاك بن ثابت، وعبد الله بن أبي سلول، والحارث بن عمرو، وزوى بن الحارث، وفي المنافقين من اليهود وغيرهم من منافقي الأوس والخزرج نزل صدر من سورة البقرة.

وبمرور الوقت اكتشف غير واحد من نصارى المدينة ويهودها صدق دعوة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهديها فآمن بعضهم بها مثل صرمة بن أبي أنس، وعبد الله بن سلام وأهل بيته، وخالدة بنت الحارث، ومخريق الذي التحق برسول الله في معركة أحد، وأوصى بأمواله للنبي إن استشهد كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/١٤٢–٢٣٦.

رايات الإسلام تغادر المدينة

كادت تمرُّ سنة بأشهرها على المهاجرين مليئة بمشاعر الغربة والحزن والقلق على فرقة مدينتهم وأحبتهم ونهب أموالهم وبيوتهم، وعدوان قريش عليهم، وما مرَّ على الباقين من أهلهم فيها من ظلم وجور، ولا شك أن العيش لم يكن بهيِّن عليهم في كنف إخوانهم بالمدينة في أجواء الإحساس بالظلم، والبعد عن مدينتهم التي حرموا من عبق تربتها، ومساكنهم التي اضطروا لهجرها على الرغم من مبدأ المؤاخاة الذي أحلَّه الرسول الكريم، وعلى الرغم من فرحة المدنيين به.

ولعلَّ ما زاد من تدفق تلك الأحاسيس الموجعة في نفوسهم طبيعة مناخ المدينة، فقد أصيب كثير من المهاجرين بحمَّى سُمِّيت باسمها، لاقى منها غالبيتهم الأمرَّين، ولكن الله نجَّاهم من تبعاتها، لذا كان النبي مشغولاً فيها بهمومهم، وبمشكلاتهم في المجتمع الجديد، وبأمور الدعوة، وبالقيم التي ينبغي أن تتأصَّل في النفوس، وكان كثير من صحابته يتحرَّقون للقاء قريش بعدما فعلت بهم ما فعلت، ولكنَّه صلوات الله وسلامه عليه كان بانتظار وصول أمر السماء بالقصاص.

وجاء الأمر، فقد أنزل الله على رسوله المصطفى في محكم كتابه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ◆ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ❁ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾.

وما إن حلَّ صفر من السنة الثانية لهجرته المباركة حتى بدأت رايات الإسلام تغادر المدينة ترصَّد الطرقات للنيل من قريش وتجارتها، فكانت غزوة ودَّان أولى الغزوات، وودَّان قرية ما بين المدينة ومكَّة، وتسمى أيضًا بغزوة **الأبواء** على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٤٠، والبلاذري في عهده ١/ ٣٤٣–٣٤٤ وفيها تعاهد النبيُّ مع سيِّد بني ضمرة مخشي بن عمرو الضمري على أن لا يغزوهم ولا يغزونه، وألاَّ يعينوا عليه أحدًا، فعاد إلى المدينة، وأقام فيها بقيَّة صفر، وصدرًا من ربيع الأول.

وشكّل صلى الله عليه وآله وسلّم قبلها سريتين لاعترض عير قريش، إحداهما بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب وهي أولى سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ٩ شارك فيها ثلاثون رجلا من المهاجرين والأنصار على روايته، ولم يشارك النصار فيها على رواية ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٤٧، وقد غادرت المدينة في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من هجرته المباركة، وكادت حين وصلت سيف البحر تصطدم بجمع أبي جهل وهو في ثلاثمائة راكب من أهل مكَّة لولا سعاية بن عمرو الذي سبق ذكر تحالف النبي معه، وكان أيضًا حليفًا لقريش، فعاد حمزة رضوان الله عليه إلى المدينة، أما الثانية فكانت بقيادة ابن عمّه عبيدة بن الحارث بن عبد المطَّلب شارك فيها ستون مهاجرًا أو ثمانون على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٤٠ وليس فيها أحد من الأنصار، فغادرت إلى موضع رابغ، وهو على عشرة أميال من الجحفة

باتجاه قديد في شهر شوال في بداية الشهر التاسع من هجرته صلى الله عليه وآله وسلم، فسار منها إلى ماء بالحجاز بأسفل ثنيَّة المرة، فلقي فيها جمعًا في مائتي رجل من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فناوشهم سعد بن أبي وقّاص بسهامه، وأصاب جمع أبي سفيان الخوف فانهزموا مرعوبين كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١١ إلا أنَّ عبيدة لم يحاول اللحاق بهم على الرغم من رغبة سعد في متابعتهم، وإن صحَّت الرواية فلعلَّ الهدف من السريتين كان ترويع قريش وكسر شوكتها، وإظهار قوَّة المسلمين ومنعتهم، ولم يشارك المرتضى في السريتين المذكورتين، لأنه إذا خرج في سريَّة لابد أن يكون قائدًا لها، أو أن يكون تحت لواء المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما.

وفي شهر ربيع الأول خرج الرسول في غزوة يريد قريشًا، وخلَّف على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، فبلغ موضعًا يسمى بواط في نواحي رضوى سميت الغزوة باسمه، ولم يلق فيها كيدًا ورجع منه إلى المدينة على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٢٥١.

أشقى الناس رجلين قاتل أبي تراب

ثم جاءت **غزوة العشيرة**، وكانت في جمادى الآخرة بعد مرور ستة عشر شهرًا من هجرته، كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/٢ وفيها بشَّر الصَّادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلَّم أخاه بالشَّهادة من بعد، كما وشَّحه فيها بلقب أبي تراب على أصح الروايات بشأن هذا اللقب في ما أحسب، فقد نقل ابن هشام في سيرته ٢/٢٥٢-٢٥٣ عن ابن إسحاق عن عمَّار بن ياسر قال: (كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وأقام بها رأينا بها أناسًا من بني مدلج يعملون في عين لهم وفي

نخل، فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان، هل لك في أن نأتي هؤلاء القوم، فننظر كيف يعملون؟ قال: قلت: إن شئت، قال: فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صور من النخل، وفي دقعاء من التراب، فنمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يحركنا برجله وقد تَتَرَّبنا من تلك الدَّقعاء - أرض لا نبات فيها - التي نمنا فيها، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لعلي بن أبي طالب: « ما لك يا أبا تراب » لما يرى عليه من التراب ثم قال: « ألا أحدثكما بأشقى النَّاس رجلين ؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: « أحيمر ثمود الذي عقر النَّاقة، والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع يده على قرنه - حتى يبل منها هذه، وأخذ بلحيته »)، وروى البلاذري المناسبة والوسام في أنسابه ٣٤٥/٢ بسنده أيضًا، واكتفى ابن سعد برواية الوسام وحكايته في طبقاته ١٠/٢، ورواه بمناسبته وسنده أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٩٠ برقم ٢٩٧ أما الغزوة فسمَّاها **غزوة ذي العشيرة**. وقد التفت الجاحظ في بيانه ٢٠٤/٣ إلى المعنى الدقيق الذي أراده النبي صلى الله عليه وآله من وسامه هذا فقال: (وذكر الله آدم الذي هو أصل البشر فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ولذلك كنَّى النبي عليه السلام عليًّا أبا تراب، قالوا: وكانت أحبُّ الكنى إليه)، ومعنى هذا أن مكانته عند الله لا تقلُّ عن مكانة آدم وعيسى عليهما السلام.

ولعلَّ التفاتة عليٍّ عليه السلام تلك تريك مدى حرصه على تعلُّم ما يخدم المجتمع أكثر من اهتمامه بالحرب والاستعداد لها، فالزراعة هي المصدر الأساس لحياة الناس، والنخلة فيها هي العماد، وغالبيَّة الأرض تسقى من

مياه العيون، ولابد لها من رعاية لا تتأتّى إلاّ بخبرة يعرفها من اختصّ بها، وأظنك قد وقفت في نهجه وشرحه على كثير من الأمور العملية التي أدهشت الباحثين في عمق معرفته، ثم سريَّة سعد بن أبي وقّاص، ثم غزوة بدر **الأولى**، التي رجع منها رسول الله إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان، ثم أرسل عبد الله بن جحش في سريَّة شاركه فيها ثمانية من المهاجرين، وكانت في أخريات الأشهر الحرم، وزوَّده بكتاب أمره بعدم فتحة على ما ذكر ابن هشام في السيرة ٢/٢٥٥-٢٦٠ إلا بعد يومين، وكان أمره فيه أن ينزل مكانًا يسمَّى نخلة بين مكَّة والطَّائف لترصُّد قريش ومعرفة أخبارهم، وفي نخلة مرَّت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي وغيره، فتشاور الصحابة في أمرهم، وكان ذلك في آخر يوم من رجب، واستقرَّ رأيهم على قتالهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وغنموا العير، وبعد تقسيمها وإخراج الخمس منها رجع ابن جحش وأصحابه بالخمس وبالأسيرين إلى المدينة، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، فأحزن قوله من شارك بتلك السَّرية وآلمهم، وقد فرَّج عنهم ذلك الكرب ما أنزله الله على رسوله من قرآن يجوِّز لهم الحرب في الشهر الحرام، وهو قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾، (أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من

قتل من قتلتم...)، فقبض رسول الله العير والأسيرين، وكانت تلك أول غنيمة غنمها المسلمون، وكان عمرو بن الحضرمي أول قتيل قتلوه، ولم يصب أحد من المسلمين بمكروه في تلك السرايا والغزوات، وكانت كلها موجَّهة ضد قريش وتجارتها، كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/٢، و ابن هشام في سيرته ٢/٢٣٩–٢٦٠، والبلاذري في أنسابه ١/٣٤٣–٣٤٤.

الطريق إلى كبرى معارك الإسلام

علم النبي الكريم بعودة أبي سفيان من الشام في قافلة موقَّرة بأموال قريش وتجارتها، وفيها ما يزيد على ثلاثين رجلاً منهم، فندب المسلمين إليهم وقال: « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُنْفِلُكُمُها »، فخفَّ بعضهم، وثقل آخرون بحجَّة أو بأخرى، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بعث اثنين من أصحابه قبل خروجه بعشر ليال لتزويده باخبار قافلة قريش القادمة من الشام، وحين دنا أبو سفيان من الحجاز سمع بخبر الاستنفار، فأخذ حذره، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة لإخبار أهلها كي ينفروا إلى أموالهم، فأجمعوا أمرهم وتجهزوا للحرب، بين مندفع لها كعقبة بن أبي معيط، وبين متردد في الاشتراك بها كأمية بن خلف، وزاد من تبلبلهم تذكرهم ما كان بينهم وبين بني بكر من ثار، وخوفهم من اغتنام البكريين الفرصة للغارة على المتخلفين بمكة أو إتيانهم من خلفهم، وذكر ابن إسحاق أن الشيطان تبدَّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: أنا أجيركم، فخرجوا مسرعين، ولم يبق من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس.

واستطاع أبو سفيان أن ينجو بالقافلة فأرسل إلى قريش من يعلمهم بنجاة عيرهم ويطلب منهم العودة من حيث خرجوا، إلاّ أن أبا جهل أقسم على عدم العودة حتى يَرِدَ بدرًا - وفيها كان يعقد موسم من مواسم العرب وسوق يجتمعون به كل عام - ويقيم عليه ثلاثًا، فينحر ويطعم ويسقي الخمر ويسمع القيان كي تسمع العرب بمسيرهم وجمعهم فتزداد هيبة قريش بينهم، وقد أدى ذلك إلى زيادة تبلبل الجيش القرشي، إذ لم يعد من مسوغ لخروجهم، فاعترض الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، وكان مطاعًا فيهم، فخاطبهم بقوله: إن الله قد نجّى أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، ولا حاجة لكم في الخروج، وطلب منهم العودة فأطاعوه، وعادوا من حيث أتوا.

وذكر ابن هشام في سيرته ٢/٢٦٦–٢٦٧ أنه كانت بين طالب بن أبي طالب وبعض قريش محاورة، يبدو أنه طلب منهم فيها العودة إلى مكّة لانتفاء سبب خروجهم، فقالوا: (والله لقد عرفنا يا بني هاشم وإن خرجتم معنا أن هواكم لمع محمد)، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع. ولم يذهب بعيدًا من أقسم، فما خرج فيها هاشمي رغبة بالخروج، ولكنهم خرجوا راغمين بسبب موقف قريش منهم، وقد انقطعت أخبار طالب بعد معركة بدر، وذكر البلاذري في أنسابه ١/ ٣٦٦ (وكان طالب قد شهد بدرًا، ثم انصرف راجعًا فلم يسمع له بذكر مع قريش)، وقد أسر في معركة بدر عقيل بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/١٣٨والبلاذري في أنسابه ١/٣٦٠ وانظر أيضًا الإصابة ٣/٥١١، وسير أعلام النبلاء ١/٢١٨، وذكر اليوسفي الغروي في موسوعته ٢/١٣٢ أن أبا اليسر هو الذي أسرهما.

ويبدو أن نفرًا غير قليل من وجوه الجيش القرشي كان مترددًا في المشاركة بتلك الحرب، فقد ذكر ابن إسحاق أنهم حينما اطمأن بهم المقام ببدر بعثوا عمير بن وهب الجمحي ليقدر لهم عدد المشاركين في جيش المسلمين، فجال جولة ونظر هنا وهناك للتأكد من عدم وجود كمين أو مدد لهم، وعاد فأخبرهم أن عددهم لا يزيد على الثلاثمائة كثيرًا ولا ينقص كثيرًا ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، فلما سمع حكيم بن حزام ذلك أتى عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا لوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر، قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلت، فأت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - ثم قام خطيبًا فقال: (يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون)، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢٨٢/٢، ولكن أبا جهل اتهم عتبة بالخوف على ابنه الذي كان في جيش المسلمين، ولم يكتف بذلك، وإنما بعث إلى عامر بن الحضرمي وقال له: هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم واطلب ذمتك وعهدك لأخيك، فقام عامر وصرخ واعمراه واعمراه، وبذا أفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فاجتمع القوم على الحرب والشر كما ورد في سيرة ابن هشام ٢٧٧/٢، ٢٨١–٢٨٣، وأنساب البلاذري ٣٤٧/١–٣٤٩.
وبحجّة مقتل عمرو هذا أصر أبو جهل على الاصطدام بجيش المسلمين في آبار

بدر على الرغم من أن غالبية الوجه القرشي رأت أن تعود إلى مكّة، وكان عتبة في مقدِّمة من اقترح تلك العودة بعد نجاة قافلة أبي سفيان.

وسبق أن أشرنا إلى أن عَمْرًا قتل في الاشتباك الذي حدث أثناء لقاء سرية عبد الله بن جحش بعير قريش التي كان عمرو بن الحضرمي هذا فيها.

تلك كانت وضعيَّة جيش الشرك، ليس له قيادة حكيمة موحَّدة الكلمة تبصِّره بوحشيَّة العدوان فتعود به من حيث أتى، ولا بعواقب الهزيمة التي كانت تحوم فوقه بسبب تململ المقاتلين الذين لا يملكون دافعًا حقيقيًّا للقتال.

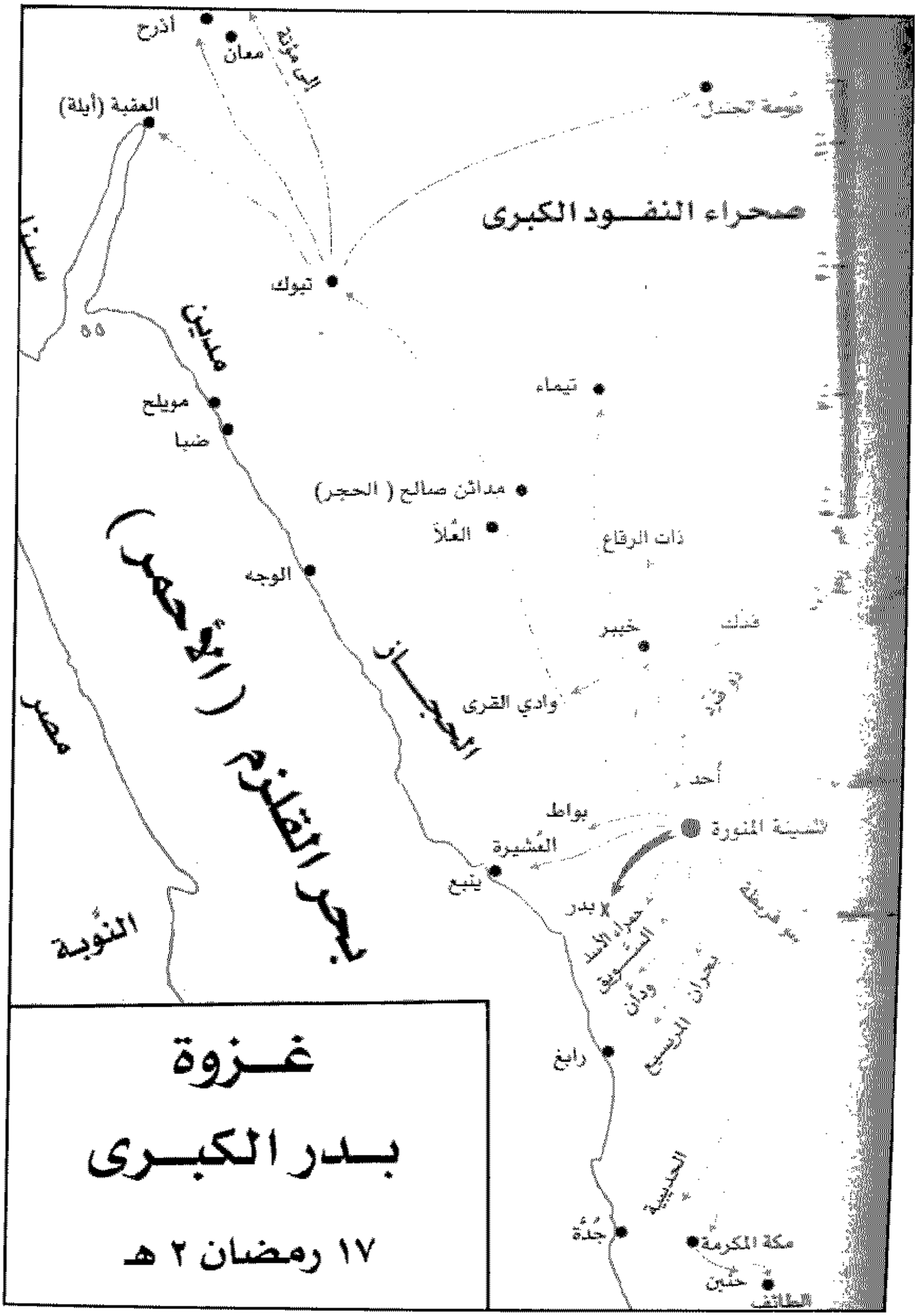

غزوة بدرالكبرى عن كتاب أطلس السيرة النبوية

بدر كبرى معارك الإسلام
ودور المرتضى فيها

العقاب في يمين عليٍّ

ازدحم التَّاريخ الإسلامي بأخبار أدوار المرتضى عليه السلام في معارك الإسلام الكبرى التي فرضت على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الحروب التي فرضت عليه أثناء خلافته، وكانت وبالاً على الأمة لا في عصره فحسب، وإنما في كل العصور التي تلتها، إذ لم تمنحه الفئة الباغية وقتًا كافيًا لتثبيت قواعد الحكومة الإسلامية على أسس قيم دعوة خاتم الرسل العظيمة التي عرف الإمام أبعادها كما لم يعرفها أحد من الصَّحابة أو من تلاهم بسبب تربيته في حضن الرسول الذي خصَّه بوقت لم يخصَّ أحدًا من صحبه أو أهل بيته بمثله، إذ كان يجيبه إذا سأله، وكان يبتدره إذا تأخر عن سؤاله، كما قال عليه السلام في غير مناسبة، وهو صاحب الأذن الواعية التي ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلام أصبحت أذنه يوم نزل عليه قوله تعالى: «وتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»، لذا كان على بيِّنة من طريقه الحقِّ الذي سلكه، في حروبه بقيادة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم، أو ضدَّ الفئة الباغية التي لم تنتصر عليه بقتال، وإنما انتصرت بالغدر والخديعة والجهل والعصبيَّة، وذهبت، ولم تكسب من عدوانها وغدرها غير خزي الدهر، وعار الأبد، ولعنة التاريخ، بعدما كلَّفت الأمَّة ما كلَّفتها، وحرمتها من أعظم فرصة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وويل لها يوم ينادي المنادي ﴿ ألا لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ ﴾.

ولم يشهد عصره ولا العصور التي تلته شخصيَّة بشجاعته، وفروسيته بكل قيمها النبيلة، وأفعالها الحميدة، ولم تسجِّل معارك الإسلام من المآثر ما سجَّلته له، وكانت الأوسمة التي انهالت عليه من الرسول الكريم في حروبه موضع غبطة صحابته ومحبيه واعتزازهم وفخرهم، وموضع حسد مبغضيه وشانئيه، ولقد تحاشى مبارزته صناديد العرب، إذ كان الموت الزؤام أو الفضيحة نصيب كل من بارزه أو صارعه، وما كان يجهز على فارس منحه ظهره أو كشف له عن عورته، وكان أميرًا في شجاعته وحربه، وقد بلغت منه تلك القيم مبلغًا بحيث كان يوصي أولاده بعدم طلب المبارزة لأن طَلَبَها بغيٌ كما ورد في أحد وصاياه لولده الحسن الزكي عليهما السلام، فإن طُلِبُوا إليها فعليهم الاستجابة، وكانت قوَّته الهائلة مضرب المثل، فما صارع أحدًا إلاَّ صرعه، وما اشتبك في مبارزة أو قتال مع أحد إلاَّ كان الموت من نصيب من بارزه، وكان الشعبي يقول على ما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٦٣/٢: (كان علي أشجع الناس تقرُّ له العرب بذلك)، وقد استشهد العقاد في كتابه العبقرية ٨ بعد ذكر صفاته الجسدية وقوَّته الهائلة بقول أخت عمرو بن عبد ودٌ الذي قالته على سبيل التأسِّي بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته أبدًا ما دمت في الأبد
لكنَّ قاتله من لا نظير له ... وكان يدعى أبوه بيضة البلد

لتوثيق مدى شجاعته وعظمتها.

وإذا أردنا أن نمسك الخيط من أوَّله بشأن جهاده، فلابد أن نبدأ مع تلك الحروب من أولها، وأولها وأهمُّها معركة الإسلام الكبرى بدر.

واختُلِفَ في موعد خروج المصطفى صلوات الله عليه وسلامه إلى هذه الغزوة، فذهب ابن إسحاق إلى أنه كان في ليال مضت من شهر رمضان،

وذهب ابن هشام إلى أن خروجه من المدينة كان في يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان كما جاء في السيرة ٢/٢٦٩، وأما على رواية الواقدي في مغازيه ١/٢٣ والبلاذري في أنسابه ١/٣٤٤ فقد كان خروجه منها في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين، واستعمل عليها ابن أم مكتوم، ثم رد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة كي ينوب عنه فيها، أما ابن سعد فذكر في طبقاته ٢/١٢ أن خروجه كان (يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهرًا من مُهاجره)، وروى أبو الفرج في أغانيه ٤/١٨٠ عن غير ابن إسحاق أن خروجه كان لثلاث ليال خلون من شهر رمضان المعظم، والله أعلم.

أما الواقعة فروى ابن هشام في سيرته ٢/٢٨٦ عن ابن إسحاق كما حدَّثه الإمام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام أنها كانت يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان، وتابعه الطبري فروى بسنده في تاريخه ٢/٤٢٠ عن الحسن عن أبيه عليهما السلام أنها (كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان، لسبع عشرة من رمضان)، وذكر رواية أخرى في تاريخه ٢/٤٤٦ بسنده عن علي بن الحسين أكثر دقّةً من سابقتها فقال: (كانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان).

ويبدو أنه في ليلتها كانت حاجة إلى الماء، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: « من يستقي لنا من الماء؟»، وليس غريبًا أن يحجم جيش المسلمين عن إجابة الطلب في تلك الليلة خوفًا من جيش المشركين، روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٣٥ برقم ١٧٣ بسنده (فقام علي فاحتضن قربة ثم أتى بئرًا بعيدة القعر مظلمة، فانحدر فيها فأوحى الله عزَّ وجل إلى جبرئيل وميكائيل

وإسرافيل تأهَّبوا لنصر محمد عليه السلام وحزبه، فهبطوا من السماء لهم لغط يذعر من سمعه، فلمَّا حاذوا البئر سلّموا عليه من عند آخرهم إكرامًا وتبجيلاً) ورواه أيضًا ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/٣٦٠.

لواء رسول الله

وذكر ابن إسحاق أن النبي دفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وقال ابن هشام في سيرته ٢/٢٦٩: إنه كان أسود اللون، وكانت أمامه (رايتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العُقاب، والأخرى مع رجل من الأنصار). وقد ذكر غير مصدر منها ابن سعد في طبقاته ٣/٢٣ عن قتادة (أن علي بن أبي طالب كان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وفي كلّ مشهد)، وتابعه البلاذري في أنسابه ٢/٣٤٦ فقال: (كان صاحب اللواء ببدر) وذكر ابن سعد في طبقاته ٣/٢٥ أيضًا أن مالك بن دينار قال لسعيد بن جبير: (من كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إنك لرِخْو اللّبَبِ. فقال لي معبد الجهني: أنا أخبرك، كان يحملها في المسير ابن ميسرة العبسي، فإذا كان القتال أخذها علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، ولكنه قبل كلّ هذا قال في طبقاته ٢/ ١٤ (وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الأعظم مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن مُعاذ)، وروى أبو الفرج في أغانيه ٤/١٨٠ عن غير ابن إسحاق أن عليًّا عليه السلام كان صاحب راية رسول الله، وأن سعد بن عبادة كان صاحب راية الأنصار، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣١٧ أن ابن عباس قال: (دفع النبيُّ صلى الله عليه وسلم الراية يوم بدر إلى عليٍّ وهو ابن عشرين سنة)، وذكر ابن عساكر في ترجمته

عليه السلام ١/١٩٥–١٦٠ روايات عدَّة كلها توثِّق أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم دفع الراية له في واقعة بدر، وأنها كانت معه في غيرها من المواقع. ولا يمنع أن يكون في جيش المسلمين في هذه الواقعة وفي غيرها أكثر من راية بحسب المجموعات أو القبائل المشاركة، بينها راية خاصَّة برسول الله، وهي بالتأكيد مع علي، أما اللواء فالمصادر شبه مجمعة أنه كان مع عليٍّ في جميع الغزات، وقد يكون مع مصعب بن عمير في هذه الواقعة لأنه من بني عبد الدار أصحاب اللواء، فلمَّا استشهد رضوان الله عليه في غزوة أحد، كان اللواء مع علي؛ في أحد وفي غيرها من غزواته صلوات الله وسلامه عليهما، ولم يقل بغير ذلك أحدٌ من أصحاب المغازي والسير.

فرسان الجيشين وعدتهما

لم يكن جيش المسلمين يومئذ كامل العدَّة والعدد كجيش قريش، وليس فيه من وسائط النقل سوى سبعين بعيرًا لا غير أمر رسول الله أصحابه بالتناوب عليها، وشاركه جمله صلوات الله عليه علي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وطلبا منه المشي بجانبه لتجنيبه متاعب الرحلة فأجابهما بدرس من دروس التربية الإسلامية الكبرى «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٢٦٩–٢٧٠ المتن والحاشية، واعتقب حمزة بن عبد المطَّلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله بعيرًا، وروى ابن سعد في طبقاته ٣/٤٨ أن أنسة من مولَّدي السَّراة ويكنَّى أبا السَّرح استُشهد بمعركة بدر في إحدى الروايات، وقيل غير ذلك، واعتقب أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف بعيرًا كما ورد في السيرة أيضًا، أما البلاذري فقد ذكر في أنسابه ١/٣٤٦ أنه (كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن

أبي طالب وزيد بن حارثة بعير، وكان بين حمزة ومرثد بن أبي مرثد حليفه، وأبي كبشة بعير).

ولم تكن في جيش النبي من الخيل سوى فرس لمرثد، وأخرى للمقداد بن عمرو البهراني، وثالثة للزبير بن العوام على ما ذكر ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٤٤، أما البلاذري فقال في أنسابه ١/٣٤٦: إنه لم تكن فيه إلاّ فرسان، واحدة لم يختلف عليها، وهي فرس المقداد، وأخرى اختلف في صاحبها ما بين الزبير ومرثد، أما الطبري في تاريخه ٢/٤٢٧ فروى بسنده عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: (ما كان فينا فارس يوم بدر غير مقداد بن الأسود).

أما جيش المشركين فقد كانت فيه مئة فرس عليها مئة من الفرسان بدروعهم، غنم منها المسلمون ثلاثين في هذه الواقعة، وكان معهم من الإبل سبعمائة بعير كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/٣٤٧.

وإذا كنت على يقين من عدم انحيازك في قراءة النصوص التاريخية فإنك ستصل إلى تصور يؤشر لك الطريق الذي ستسير عليه الأحداث بسبب هذه المعركة خاصّة، والمعارك التي ستليها، وعلاقتها بمجريات الأمور التي أعقبت انتقال النبي الكريم صلى الله عليه وآله اسلم إلى الرفيق الأعلى، وستستطيع تقدير مدى إيمان المرتضى عليه السلام بدين الله، وحرصه على تحقيق النصر في معارك الإسلام، إذ إن النصر الحاسم في أيٍّ منها سيكون نصرًا لأحد الفريقين، لذا كان جهاده فيها استثناء في تاريخ حروب المسلمين بكل المواقع.

وكان لهذه المعركة خاصة أيضًا أثرها البالغ في مسيرة الإمام السياسية، إذ تحزّب غالبية البيت القرشي المسلم بعد سكون غبارها بصورة أو بأخرى ضدَّه، أما قريش الفتح، فغالبيتهم العظمى لم تكن معه، بل ناصبته العداوة

والبغضاء حتى بعد رحيله عليه السلام، وقد قُدِّر للفرع الأموي منها أن ينتقم منه، ومن بيت النبوَّة ذلك الانتقام البشع الذي اتَّصف بكلِّ أنواع الخسَّة والدناءة والبعد عن أخلاق الفرسان النجباء، ولكن تلك ذكرى علي، وذلك قبره وقبور أهل بيته عليهم السلام، وذلك تراث بني أميَّة كلُّهُ خزي وعار، وويلهم من يوم آتٍ يستقبلون فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي رقابهم كل تلك الدماء الزكيَّة من أهل بيته.

ونظرًا لكثرة من قتل في واقعة بدر من وجوه قريش بسيف الإمام ممن تربطهم وشائج القرابة القريبة بكثير من المهاجرين، فقد انحازت غالبيتهم ضده في كل الأطوار أيضًا، ولا شك أن النبيَّ كان على بيِّنة لما ستبيِّته قريش لوليِّه، فحاول جاهدًا أن يحيطه بعشرات الأوسمة التي لا أشك في أن تدخلاً إلهيًّا دفعه لتوشيحه بها لتشهد عليهم يوم الحشر الأكبر، بالإضافة إلى عواطفه الجيَّاشة اتجاه ابن عمِّه وسنده وذراعه الأيمن، وأزعم أنه كان على بيِّنة ويقين من أنه أصبح من المستحيل أن تختاره قريش لخلافة المسلمين من بعده على الرغم من حقِّ الأمَّة في أن يكون هو وأهل بيته عليهم السلام قادتها لأنهم يمثلون الثقل الثَّاني للإسلام، وأزعم أن ذلك كان طبيعيًّا، وخلافه ضدَّ نواميس النفس البشرية وطبيعتها الميَّالة إلى الانحياز.

ولا أدلَّ على انحياز البيت القرشي المهاجر ما ذكره البلاذري في أنسابه ٢/ ١٣٢، فما زال أبو سفيان سيد قريش وشيخها في نظر أبي بكر على الرغم من كلِّ ما فعله بالمسلمين وبرسول الله، وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه قَبِلَ إسلامه فإنه لم يقبله شيخًا لقريش وسيدًا لها، وإنما قبله كبقية الطلقاء منها، وسترى من بعد مدى سرور أبي سفيان يوم انهزم جيش المسلمين في معركة

حنين، ولكن الله خيَّب ظنه ونصر رسوله فيها، قال البلاذري: حدثنا عمر بن شبة بسنده عن عائذ بن عمرو المزني قال: (كان بلال، وصهيب، وسلمان جلوسًا، فمرَّ بهم أبو سفيان بن حرب. فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها بعد! فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها؟ ثم انطلق أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: «يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم أئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، فأتاهم أبو بكر، فقال: يا أخوتي لعلكم غضبتم؟ فقالوا: يغفر الله لك يا أبا بكر)، وإذا صدقت الرواية فإنها تخبرك أن الإسلام وهو في عنفوان قوَّة الإيمان عند كبار الصَّحابة في حياة المصطفى لم يستطع نزع مشاعر الطبقيَّة من النفوس، فالرفقة التي تعرَّضت بالقول لشيخ قريش وسيِّدها أبي سفيان جميعهم من العبيد الذين حرَّرهم الإسلام، ولم يشفع الإسلام بكلِّ قيمه في تنحية أبي سفيان عن مكانته.

استشهاد المأمون بدور المرتضى في معركة بدر

ولقد رأى المأمون يوم احتج على الفقهاء أن عليًّا عليه السلام (خير خلق الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وأولى الناس بالخلافة)، ومن بين ما احتجَّ به دوره في معركة بدر مقارنة بدور غيره من الصَّحابة عامة، ورأى أنه قد فضل جميع المسلمين بها، ولا يختلف اثنان من المنصفين في أن ما ذهب إليه المأمون هو الحق جاء في كتاب العقد لفريد ٥/٩٣ :

قال المأمون: (أي الأعمال كانت أفضل بعد السبق إلى الإسلام).

قال إسحاق: (قلت: الجهاد في سبيل الله).

قال المأمون: (صدقت، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجد لعلي في الجهاد؟).

قلت: (في أي وقت؟).

قال: (في أي الأوقات شئت؟)

قلت: (بدر).

قال: (لا أريد غيرها، فهل تجد لأحد إلا دون ما تجد لعلي يوم بدر، أخبرني كم قتلى بدر؟)

قلت: (نيِّف وستون رجلاً من المشركين)

قال: (فكم قتل علي وحده؟)

قلت: (لا ادري).

قال: (ثلاثة وعشرين أو اثنين وعشرين، والأربعون لسائر الناس).

قلت: (يا أمير المؤمنين، كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عريشه).

قال: (يصنع ماذا؟)

قلت: (يُدَبِّرُ).

قال: (ويحك! يدبِّر دون رسول الله أو معه شريكًا أم افتقارًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأيه؟ أي الثلاث أحب إليك)؟

قلت: (أعوذ بالله أن يدبِّر أبو بكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يكون معه شريكًا أو أن يكون برسول الله افتقار إلى رأيه).

قال: (فما الفضيلة بالعريش إذا كان الأمر كذلك؟ أليس من ضرب بسيفه بين يدي رسول الله أفضل ممن هو جالس؟)

قلت: (يا أمير المؤمنين، كل الجيش كان مجاهدًا.)

قال: (صدقت، كلٌّ مجاهد، ولكن الضارب بالسيف المحامي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الجالس أفضل من الجالس، أما قرأت في

كتاب الله : ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾)، قلت : (وكان أبو بكر وعمر مجاهدين).

قال : (فهل كان لأبي بكر وعمر فضل على من لم يشهد ذلك المشهد؟)

قلت : (نعم).

قال : (فكذلك سبق الباذل نفسه فضْل أبي بكر وعمر).

قلت : (أجل).

وجه الجيش القرشي، وما فعله المرتضى به

ثمَّة عامل نفسيٌّ أهمله المؤرخون ولم يحسبوا أي حساب له، لابد أنه كان ينتاب أبا الحسنين عليه السلام وهو في طريقه إلى تلك المعركة المصيريَّة، فقد مرَّت أشهر على عقد إملاكه، وهو بانتظار الدخول بزوجته، ولعلَّه فكَّر أن دخوله أصبح قاب قوسين أو أدنى وليس في طريق تمامه إلاَّ عودة المصطفى صلوات الله وسلامه من غزوته هذه، لا شكَّ أن أيَّ شابٍّ قارب العشرين أو تجاوزها يمر بتلك الظروف من المستحيل أن يندفع بالصورة التي اندفع بها المرتضى، واندفاعه ذاك خير دليل على مدى تفانيه وتضحيته في سبيل تحقيق ما آمن به، إذ سما الإيمان عنده فوق كلِّ رغبات النفس وغرائزها .

وما إن اقترب الرسول صلوات الله وسلامه عليه من آبار بدر حتى أرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوَّام وسعد بن أبي وقَّاص إليها، فوجدوا عليها ساقيين من سقاة قريش هما أسلم غلام بني الحجاج، وعريض غلام بني العاص فتمكَّنوا منهما وجاءوا بهما إلى الرسول، فأخبراه بأن مكمن

القوم ليس ببعيد عن جيشه وراء أحد الكثبان، ولما سألهما عن عدتهم قالا: لا ندري، فقال لهما: كم ينحرون كلَّ يوم؟ فقالا يومًا تسعًا ويومًا عشرًا فقدَّرهم ما بين التسعمائة والألف، ثمَّ سألهم عن أشراف القوم الذين صحبوا الجيش فقالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأميَّة بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

تلك كانت قيادة الجيش القرشي، بل قل غالبية الوجه القرشي الكالح الذي ناصب هو ونسله رسول الله صلى الله عليه وآله العداوة والبغضاء، ومن بعده إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم ينج منها في هذه الواقعة، إلاَّ سهيل بن عمرو الذي نجَّاه الأسر، وعمرو بن عبد ود الذي عاد بصعوبة شديدة إلى مكَّة بسبب ما أصيب فيها من جراح، وحكيم بن حزام الذي حكى عن هذه الواقعة من بعد وهول ما مرَّ بهم فيها، وقد نجَّاه الهرب بصعوبة أيضًا، وحكايات ذكرها الواقدي في مغازيه ١/٥٦ -٨٩،.

وعلى رواية ابن هشام والبلاذري فإن ثلاثة من تلك الوجوه سقطوا صرعى بسيوف الأنصار، وهم أبو البختري الذي لم يكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه راغبًا بقتله، فقد روى ابن سعد في طبقاته ٢/٢٣ أن العيزار بن حريث قال: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى يوم بدر ألا إنه ليس لأحد من القوم عندي مِنَّةٌ إلاَّ لأبي البَخْتَري، فمن كان قد أخذه فليُخَلِّ سبيله) لأنه لم يؤذه بمكَّة، ولم يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن سعى لنقض صحيفة

المقاطعة كما ذكر الطبري في تاريخه ٢/ ٤٥٠، والحارث بن عامر، وأبو جهل الذي احتزَّ رأسه عبد الله بن مسعود وفيه رمق، أما أميَّة بن خلف فقد ذكر ابن هشام أن غير واحد شارك في قتله من بينهم بلال، وأمَّا الثمانية الباقون فأربعة منهم قتلهم علي عليه السلام، أما الأربعة الباقون فهم أما من صرعى سيف عليٍّ أو أن حمزة سيد الشهداء شاركه بقتلهم على ما سيتبين لك من الإحصاء الذي ذكره ابن إسحاق، وغيره من أصحاب السير، وسنأتي على ذكره، وأما من نجا من طليعة قريش فقد نجّاه الفرار أو عاد بجراح منها، كابن ودٌ الذي جندله الإمام من بعد في غزوة الأحزاب، وهكذا تلاحظ أن المهاجرين من قريش لم يشترك أيٌّ منهم في قتل أيّ وجه من تلك الوجوه، وإن العبء الأكبر في اجتثاثها كان على عليٍّ بالدرجة الأولى وعلى عمّه حمزة سيد الشهداء بالدرجة الثانية، بل لا يمكن أن يقاس دور حمزة رضوان الله عليه على الرغم من أهميَّته بدور ابن أخيه عليه السلام، ويمكن أن يقال أيضًا: إنها معركة بني هاشم ضد قريش، فقد افتتحها الرسول الكريم بأخيه وعمه وابن عمّه، وقد ارتضتهم قريش ورأتهم أكفاء لهم، وكان أوَّل الغيث قطف ثلاثة رؤوس من فرسان قريش ووجوهها مبارزة وهم عتبة والوليد وشيبة.

بقيَّة قتلى المشركين

أما بقيَّة قتلى قريش، فقد شارك الإمام في حصد غالبيَّتهم، وشارك نفر يسير من المهاجرين وفي مقدمتهم حمزة سيد الشهداء وعمار بن ياسر رضوان الله عليهما، وهو ليس من قريش في حصد بعض الرؤوس، أما بقية قتلاهم فقد سقطوا بسيوف الأنصار، وكان أحدها شفرة على رقابهم سيف أبي اليسر وسيف أبي دجانة على ما روى ابن هشام والبلاذري وغيرهما.

وعلى عادة القوم زمن الفروسيَّة فإن الشجعان الذين يعرضون أنفسهم للمبارزة أو لطلبها يعلّمون رؤوسهم بعلامة يُعْرَفُون بها، وهكذا فعل عليٌّ عليه السلام، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٣/٢٣ والواقدي في مغازيه ١/٧٦ أنه كان معلّمًا يوم بدر بصوفة بيضاء.

كان عليه السلام في أوج حيويَّة الشباب في تلك المعركة القاصمة، فقد بلغ العشرين فيها أو تجاوزها على ما ذكر ابن عساكر في ترجمته ١/١٥٩ وكان سيفه يطحن القوم فيها طحنًا يمنة ويسرة، ولقد روى مصعب بن سعد أن سعدًا قال كما روى ابن الأثير في أسده ٣/٥٩٣ بسنده: (لقد رأيته - يعني عليًّا - يخطِرُ بالسيف هام المشركين يقول:

سَنَحْنَحَ الليل كأنّي جِنِّي)

والرجز بروايات مختلفة كلُها تدور حول خِفّته ويقظته، في ذلك اليوم العصيب، والرجز ينسب أيضًا إلى أبي جهل بن هشام في بعض المصادر.

ولا شكَّ أن الجيش الذي مني بتلك الهزيمة الساحقة لم يفقد سبعين قتيلاً وسبعين أسيرًا فحسب، وإنما فعلت به سيوف المسلمين أفاعيلها، فأصيب غالبيَّتهم بجراح منعت بعضهم من المشاركة في معركة أحد.

وكان النصر المبين بسيف علي

وكيف تغفر قريش لبني هاشم عامَّة ولعلي خاصَّة قتله صناديدهم في هذه الواقعة، لقد قتل بسيفه لوحده نصف قتلى قريش من المشركين، وقتل جيش المسلمين مع الملائكة النصف الآخر على حدِّ تعبير ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/٢٨، وأنت إذا استعرضت أسماء قتلى المشركين ستقف على أمر

يدعو إلى مزيد من التأمل، وهم على رواية الواقدي وابن إسحاق وابن هشام والبلاذري وغيرهم:

١- مسعود بن أبي أميَّة بن المغيرة، قال الواقدي في مغازيه ١/١٥٠: قتله علي، وكذا قال ابن إسحاق كما ورد في السيرة ٢/٣٨٩، وتابعه البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، والصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/٧٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤.

٢- العاص بن منبه بن الحجاج: قال الواقدي في مغازيه ١/١٥٢ وابن هشام في السيرة ٢/٣٩١، والبلاذري في أنسابه ١/١٦٣، ٣٦٠، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٥: قتله علي بن أبي طالب، ووثّق مقتله بسيف عليٍّ عليه السلام ابن الأثير في كامله، وقال: هو صاحب ذي الفقار، وقال: وقيل صاحبه نبيه.، وقد ذكر حسَّان بن ثابت بعد معركة أحد قتل عليّ العاص هذا في ردِّه على أبي سفيان فقال:

غداة دعا العاصي عليًّا فراعه بضربةِ عَضْبٍ بلَّه بخضيبِ

كما ذكر الطبري في تاريخه ٢/٥٣٤.

٣- الوليد بن عتبة: قتله علي بن أبي طالب كما ورد في المغازي ١/١٤٨ والسيرة ٢/٣٨٦، عن ابن إسحاق، ومعارف ابن قتيبة ١٦٥ وأنساب البلاذري ١/٣٥٦،٤، وتاريخ الطبري ٢/٤٤٥، وشرح النهج ١٤/٣٦٣.

٤- العاص بن سعيد بن العاص بن أمية: قتله عليّ كما قال الواقدي في مغازيه ١/٩٢، ١٤٨ وابن إسحاق، في السيرة ٢/٣٠١، ٣٨٦، وابن قتيبة في معارفه ١٥٦ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٥، والصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/٧٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٣ عن الواقدي.

٥- النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف: قال ابن إسحاق برواية ابن هشام في السيرة ٢/٣١٢، ٣٨٧: قتله علي صبرًا، وكذا قال الواقدي في مغازيه ١/١٤٩ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٧،٦، والطبري في تاريخه ٢/٤٥٩، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٣، وأبو الفرج في أغانيه ١/٢٣، وتابعهم ابن الأثير في كامله ٢/١٣٠، وقد خصَّه البلاذري في أنسابه ١/١٨٥- ١٦٠ بترجمة لأنه كان من أشد قريش إيذاء لرسول الله صلوات الله عليه، وتابعه ابن الأثير بذكرها في كامله ٢/٧٣.

٦- عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة بن عائذ: قتله عليّ كما قال ابن هشام في السيرة ٢/٣٨٩، وإلى ذلك أيضًا ذهب البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، وأكّده الواقدي في مغازيه ١/٨٦، ١٥٠ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤، ولكنهما سمياه عبد الله بن أبي رفاعة، وذكر الواقدي أن بني مخزوم حرصًا منهم على حياة أبي الحكم الذي سمّاه النبي أبا جهل ألبسوا عبد الله لأمته، ، وقد ظنّه عليٌّ أبا جهل حين قتله.

٧- حاجب بن السائب بن عويمر: قتله عليّ كما قال ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٩١والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٩ ولكنه قال: إن اسمه جابر، وكذا قال الواقدي في مغازيه ١/١٥١ ولكنه سماه حاجزًا، ولاشك أن الاختلاف في الاسم سببه خطأ طباعي أو سهو من المحققين.

٨- نوفل بن خويلد بن أسد، قتله علي، وهو من شياطين قريش، وهو الذي قرن بين أبي بكر وطلحة بن عبيد الله في حبل حين أسلما، كما جاء في مغازي ١/١٤٩ والسيرة ١/٣٥٤، ٢/٣٨٧ عن ابن إسحاق، والمعارف ١٥٦، والأنساب ١/٣٥٧، وسبل الهدى والرشاد ٤/٧٦، وشرح النهج ١٤/٣٦٣.

٩- عامر بن عبد الله قال ابن إسحاق: قتله علي، كما في السيرة ٢/٣٨٦، والمعارف ١٥٦، وذكر البلاذري في أنسابه ١/٣٥٦ أنه ابن عبيد الله، وذكر هو والواقدي في مغازيه ١/١٤٨ أن قاتله علي، ولكنهما قالا: ويقال: سعد بن معاذ الأنصاري، وكذا ورد في شرح النهج١٤/٣٦٣.

١٠- أبو قيس بن الوليد بن المغيرة: قال الواقدي في مغازيه ١/١٥٠ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٩: إن قاتله علي، وإلى ذلك ذهب الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/٧٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤، أما ابن هشام في السيرة ٢/٣٨٩ فذكر عن ابن إسحاق أن قاتله حمزة، قال: ويقال: علي بن أبي طالب.

١١- نبيه بن الحجاج بن عامر: قال الواقدي في مغازيه ١/١٥١ والبلاذري في أنسابه ١/ ١٦٣- ٣٦٠ قتله علي بن أبي طالب وقال: كان هو وأخوه من أكثر الناس عداوة وإيذاء لرسول الله فدعا عليهما صلى الله عليه وآله وسلّم فأذاقهما الله شر عملهما في الدارين بسيف علي، ووافقهما ابن أبي الحديد على ما ذهبا إليه، ولكن ابن هشام: قال: قتله حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبي وقاص اشتركا فيه، وقال ابن الأثير في كامله ٢/٧٤: إن نبيه أو منبِّه صاحب ذي الفقار، وأيًّا كان صاحبه فقد قتله المرتضى عليه السلام.

١٢- حرملة بن عمرو: قال الواقدي في مغازيه ١/١٥٠: قتله علي، وقال توثيقًا لروايته: وأصحابنا جميعًا على ذلك، وقال أيضًا في ١/٨٧ أن بني مخزوم ألبسوا حرملة هذا لامة أبي جهل فقتله عليٌّ أيضًا كما قتل من قبل عبد الله بن المنذر بن رفاعة الذي ألبسوه لامة أبي جهل، وأكّد مقتله بسيف علي أيضًا البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، ولكن ابن هشام قال في سيرته

٣٨٩/٢: قتله خارجة بن زيد من الخزرج، قال: ويقال: بل علي بن أبي طالب.

١٣– الحارث بن زمعة بن الأسود: قال البلاذري في أنسابه ٣٥٧/١: إن قاتله علي عليه السلام، وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٣/١٤، وابن الأثير في كامله ٧٥/٢، ولكن ابن هشام في السيرة ٣٨٧/٢ ذكر عن ابن إسحاق أن قاتله عمار بن ياسر، وكان الواقدي في مغازيه ١٢٣/١ قد ذكر أنه ممن قتل في معركة بدر، ولكني لم أقف عليه في قائمة قتلى معركة بدر التي ذكرها، ولم أقف على اسم قاتله فيها أيضًا.

١٤– عقبة بن أبي معيط، قال ابن هشام : قتله علي بن أبي طالب صبرًا، كما جاء السيرة ٢ /٣١٣،٣٨٦، وكذا أكّد ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٩/٧ على لسان خالد ولد عقبة في حديثه مع الإمام بعد مقتل عثمان، ولكنه نقل في ٣٦٣/١٤ عن الواقدي أن الذي قتله صبرًا عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وذكر نقلاً عن البلاذري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بصلبه، فكان أول مصلوب في الإسلام، ونقل بن هشام في السيرة ٣٨٦/٢ عن ابن إسحاق أن الذي قتله بأمر الرسول صلى الله عليه وآله صبرًا هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وكذا ذكر الواقدي في مغازيه ١٤٨/١ والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٥٥، ١٦٧ وكان من أشد الناس إيذاء للنبيّ.

١٥– عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم: قال الواقدي في مغازيه ١٤٩/١: قتله علي عليه السلام، وتابعه الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٧٦/٤، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٤/١٤ ولكنّ ابن هشام

في سيرته ٣٨٨/٢، قال: قتله عليٌّ ويقال: قتله عبد الرحمن بن عوف، أما البلاذري في أنسابه ٣٥٧/١ فقد ذكر أن قاتله علي، وقال: وقيل: صهيب.

١٦- حنظلة بن أبي سفيان: قال الواقدي في مغازيه ١٤٧/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٥/١ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/ ٣٦٣، وابن الأثير في كامله ١٢٨/٢، أما ابن هشام فذكر في سيرته ٣٨٥/٢ أن قاتله زيد بن حارثة، قال: ويقال: اشترك فيه حمزة وعلي وزيد، ومما يوثق مصرعه بسيف المرتضى ما ورد على لسانه عليه السلام في رسالة بعثها إلى معاوية، وهي في النهج ٦٦٣ إذ قال فيها: (وعندي السيف الذي أعضضته بجدك وخالك وأخيك في مقام واحد).

١٧- يزيد بن عبد الله من بني تميم: وقد اختلف في قاتله، فذكر البلاذري في أنسابه ٣٥٩/١ أن قاتله علي بن أبي طالب وذكر ابن هشام في سيرته ٣٨٨/٢ أن الذي قتله عمار بن ياسر. وقال الواقدي في مغازيه: ١٥٠/١: قتله عمار بن ياسر، ويقال: علي بن أبي طالب، واسمه عنده يزيد بن تميم التميمي.

١٨- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: قال ابن هشام في سيرته ٣٨٦/٢: اشترك في قتله حمزة وعلي، ونقل عن ابن إسحاق أن الذي قتله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكذا قال ابن قتيبة في معارفه ١٥٧، وجاء في المغازي ١٤٨/١ وأنساب البلاذري ١٧١/١: قاتله حمزة بن عبد المطلب، وكذا جاء في شرح النهج ٣٦٣/١٤، وهو المشهور، ولعلَّ أمره اختلط بمصرع شيبة الآتي ذكره، وذكر الطبري في تاريخه ٤٤٥/٢ أن الذي بارزه عبيدة بن الحارث، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، إي جرحه جراحة لم يقم منها، وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه.

١٩– عقيل بن الأسود بن المطلب: قال الواقدي في مغازيه ١/١٤٨–١٤٩ وابن هشام في سيرته ٢/٣٨٧: قتله حمزة وعلي اشتركا في قتله، ولكن الواقدي عاد وقال: وحدَّثني أبو معشر قال: قتله علي وحده، أما البلاذري في أنسابه ١/٣٥٧ فأكد ما ذكره ابن هشام، ولكنه قال: ويقال: إن الذي قتله هو علي وحده، أما ابن أبي الحديد فقال في شرح النهج ١٤/٣٦٣: قتله علي وحمزة شركا في قتله، ونقل عن الواقدي أن الذي قتله علي بن أبي طالب وحده، وقيل: قتله أبو داود المازني وحده.

٢٠– طعيمة بن عدي بن نوفل: قال الواقدي في مغازيه ١/١٤٨: قتله حمزة، وذكر ابن هشام في سيرته ٢/٣٨٦ أن الذي قتله علي، قال: ويقال: حمزة، وقال البلاذري في أنسابه ١/٣٥٦ قتله حمزة صبرًا، أما ابن أبي الحديد في شرحه النهج ١٤/٣٦٣ فقال: قتله حمزة في رواية الواقدي، وقتله علي في رواية محمد بن إسحاق، وقال: وروى البلاذري أيضًا، أن طعيمة بن عدي أخذ أسيرًا يوم بدر، فقتله النبي صلى الله عليه وسلم صبرًا بيد حمزة، وروى في ١٣/٣٢٠ عن الواقدي أنه قال: (وكان عليٌّ عليه السلام يحدِّث، فيقول: إني يومئذ بعد ما متع النهار -ارتفع -، ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم، خرجت في إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خيثمة، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة، والمشرك مقنَّع في الحديد، وكان فارسًا، فاقتحم عن فرسه، فعرفني وهو معلِّم، فناداني: هلمَّ يا ابن أبي طالب إلى البراز! فعطفت إلى البراز، فعطفت عليه، فانحطَّ إليَّ مقبلاً، وكنت رجلاً قصيرًا، فانحططت راجعًا لكي ينزل إليَّ، وكرهت أن يعلوني، فقال: يا ابن أبي طالب فررت!

فقلت: قريبًا مفرُّ ابن الشتراء، فلمَّا استقرَّت قدماي وثبتُّ أقبل، فاتقيتُ فلمَّا دنا منِّي ضربني بالدَّرقة، فوقع سيفه، فلحجَ - لزم - فأضربه على عاتقه وهو دارع، فارتعش، ولقد قطَّ سيفي درعه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا بريق سيفٍ من ورائي، فطأطأت رأسي، ويقع السيف، فأطنَّ قِحف رأسه بالبيضة، وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فالتفتُّ من ورائي، فإذا هو حمزة عمِّي، والمقتول طعيمة بن عدي... وفي رواية الشيعة قتله علي بن أبي طالب، شجره بالرمح، فقال له: والله لا تخاصمنا في الله بعد اليوم أبدًا، وهكذا روى محمد بن إسحاق).

٢١– أوس بن المعبر بن لوذان: قال ابن هشام في السيرة ٣٩٢/٢ قتله علي بن أبي طالب، ويقال: قتله الحصين بن الحارث بن عبد المطلب وعثمان بن مظعون اشتركا فيه ، وذكر البلاذري في أنسابه ٣٦٠/١ أن قاتله عثمان بن مظعون وعلي جميعًا، ويقال: عثمان وحده، وجاء في مغازيه ١٥١/١ وشرح النهج ٣٦٥/١٤ أن قاتله علي عليه السلام، وعثمان بن مظعون شركا فيه، إلا أن الواقدي سمَّاه أوس بن المغير، ونقل أيضًا عن عائشة بنت قدامة: قتله عثمان بن مظعون، وذكر الخلاف ابن قتيبة في معارفه ١٥٦

٢٢– زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد: قال ابن هشام: قتله ثابت بن الجذع، وقال: ويقال: اشترك فيه حمزة وعلي وثابت، كما ذكر في السيرة ٣٨٩/٢، ولكن البلاذري ذكر في أنسابه ٣٥٧/١ أن قاتله أبو دجانة، قال: ويقال ثابت بن الجذع، وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٣/١٤، وذكر ابن الأثير في كامله ٧٤/٢–٧٥ أن ممن قتل في بدر الأسود بن المطَّلب بن أسد بن عبد العزَّى، وكان ممن يؤذي رسول

الله أشدَّ الإيذاء فدعا عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ففقد بصره، وقتل ابنه معه ببدر كافرًا (قتله أبو دجانة، وقُتِلَ ابن ابنه الحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علي، وقيل: هو الحارث بن الأسود، والأول أصح).

٢٣- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة: قال ابن إسحاق: قتله علي بن أبي طالب، أما ابن هشام فقال في السيرة ٣٨٩/٢: يقال: إن قاتله عمار بن ياسر، أما الواقدي في مغازيه ١٥٠/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٩/١ فذكرا أن قاتله حمزة، وقالا: ويقال: قتله الحباب بن المنذر، وإلى هذا ذهب ابن أبي الحديد أيضًا في شرح النهج ٣٦٤/١٤.

٢٤- مُنَبِّهُ بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم: قتله أبو اليسر أخو بني سلمة كما ذكر ابن هشام في السيرة ٣٩١/٢، وإلى ذلك ذهب الواقدي في مغازيه ١٥١/١ والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٦٠،١٦٣، ولكنهما قالا أيضًا: ويقال: علي، ويقال: أبو أسيد الساعدي، أما ابن أبي الحديد فقال في شرح النهج ٣٦٥/١٤ : قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقال: وقيل: قتله أبو أسيد الساعدي، أما ابن الأثير في كامله ٧٣/٢ فذكر أن الذي قتله هو علي، وقال: وكان منبّه ممن يؤذي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقال في كامله ١٣٦/٢أيضًا بشأن ذي الفقار: (كان لمنبه بن الحجّاج، وقيل كان للعاص بن منبّه، قتله علي صبرًا، وأخذ سيفه ذا الفقار، فكان للنبي صلّى الله عليه وسلّم، فوهبه لعلي).

٢٥- أبو العاص بن قيس بن عدي: قال الواقدي في مغازيه ١٥٢/١: وحدَّثني أبو معشر عن أصحابه، قالوا: قتله علي عليه السلام، ولكنه ذكر

أيضًا أن الذي قتله أبو دجانة، وقال: (وحدثني أبو معشر عن أصحابه قالوا: قتله علي عليه السلام. وحدثني حفص بن عمر بن عبد الله بن جبير مولى علي عليه السلام بذلك)، وإلى ذلك ذهب ابن هشام في سيرته ٣٩١/٢: ولكنه قال: ويقال: قتله النعمان بن مالك القوقلي، ويقال: أبو دجانة، وقال البلاذري في أنسابه ٣٦٠/١: قتله أبو دجانة وقال: ويقال: علي عليه السلام، أما ابن أبي الحديد فقد قال في ٣٦٥/١٤ : قتله أبو دجانة.

٢٦– شيبة بن ربيعة بن عبد شمس: قال ابن هشام في سيرته ٣٨٦/٢ عن ابن إسحاق: قتله حمزة، وكذا قال ابن قتيبة في معارفه ١٦٥ الطبري في تاريخه ٤٤٥/٢، وجاء في المغازي ١٤٨/١ والأنساب ١/ ١٧٢، ٣٥٦ أن الذي قتله عبيدة بن الحارث، وذفف عليه حمزة وعلي عليهما السلام، أما ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٣/١٤ فقال: اشترك في قتله عبيدة وحمزة وعلي.

٢٧– زيد بن مليص: قال الواقدي في مغازيه ١٤٩/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٧/١: إن قاتله علي بن أبي طالب، وقالا: ويقال: بلال، وإلى ما ذهبا إليه ذهب ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٤/١٤، أما ابن هشام في سيرته ٣٨٨/٢ فقال: قتله بلال، ويقال: قتله المقداد بن عمرو.

٢٨– عويمر بن السائب بن عويمر: اختلف ابن هشام والبلاذري في قاتله، فذكر البلاذري في أنسابه ٣٥٩/١ أن قاتله علي، وذكر ابن هشام في سيرته ٢ /٣٩١ أنه النعمان بن مالك القوقلي.

٢٩– معاوية بن عامر: قال ابن هشام في سيرته ٣٩٢/٢ قتله علي بن علي بن أبي طالب، قال: ويقال: قتله عكاشة بن محصن، وهو عند البلاذري في أنسابه ٣٦٠/١ معاوية بن عبد قيس، وقال: قتله عكاشة بن محصن، وكذا

هو اسمه وقاتله في شرح النهج ٣٦٥/١٤، ولعلهما شخصيَّتان، أو أن محقق السيرة وقع في سهو، والله أعلم.

٣٠- الأسود بن عبد الأسد: ذكر الواقدي في مغازيه ١٥١/١ وابن هشام في سيرته ٣٩١/٢ عن ابن إسحاق: والبلاذري في أنسابه ٣٥٥/١، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٤/١٤ أن قاتله حمزة رضوان الله عليه.

٣١- عامر بن الحضرمي: ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ١٤٧ والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٥٥ أن قاتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وكذا قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٣/١٤ عن الواقدي، ولكن ابن هشام في سيرته ٢/ ٣٨٦ قال: إن قاتله عمار بن ياسر.

٣٢- علي بن أمية بن خلف: قال الواقدي في مغازيه ١٥١/١ وابن إسحاق كما في السيرة ٣٩١/٢: قتله عمار، وإلى ذلك ذهب البلاذري في أنسابه ١/ ٣٦٠، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٥/١٤.

٣٣- أبو مسافع الأشعري: قال ابن هشام في سيرته ٣٨٩/٢ والواقدي في مغازيه ١٥٠/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٩/١ قتله أبو دجانة الساعدي.

٣٤- معبد بن وهب: قال الواقدي في مغازيه ١٥٢/١ والبلاذري في أنسابه ٣٦٠/١ وابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٥/١٤ قتله أبو دجانة، وقال ابن هشام في سيرته ٣٩٢/٢: قتله خالد وإياس ابنا البكير.

٣٥- عاصم بن أبي عوف بن ضُبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم: ذكر ابن هشام في سيرته ٣٩١/٢ أن قاتله أبو اليسر أخو بني سلمة، وقال الواقدي في مغازيه ١٥٢/١ والبلاذري في أنسابه ٣٦٠/١ : قتله أبو دجانة، وإلى ذلك

ذهب أيضًا ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٥/١٤، ولكنه سماه عاصًا ، ولعله سهو طباعي.

٣٦- العاص بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب: قال الواقدي في مغازيه ١٥٠/١ وابن إسحاق على ما روى ابن هشام في سيرته ٣٨٨/٢: قتله عمر بن الخطاب، وإلى ذلك ذهب ابن قتيبة في معارفه ١٥٦ والبلاذري في أنسابه ٣٥٩/١ أيضًا، أما ابن أبي الحديد فقال في شرح النهج ٣٦٤/١٤ : قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمي، وهو خطأ، لأن ابن يزيد هذا هو حليف لهم، قتله عمار بن ياسر، وقيل علي عليه السلام.

٣٧- عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية: جاء في المغازي ١٤٨/١، والسيرة ٣٨٦/٢ عن ابن إسحاق، وأنساب البلاذري ٣٥٥/١، ومعارف ابن قتيبة ١٥٧ وشرح النهج ٣٦٣/١٤: قتله الزبير بن العوام.

٣٨- السائب بن أبي السائب بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: ذكره ابن إسحاق، ولم يذكر قاتله، ولكن ابن هشام قال في سيرته ٣٩٠/٢: إنه أسلم وحسن إسلامه، وقال أيضًا: إن غير ابن إسحاق ذكر أن الذي قتله الزبير بن العوام، أما الواقدي في مغازيه ١٥١/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٩/٢ وابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٤/١٤ فقد ذكروا أن قاتله الزبير.

٣٩- الحارث بن الحضرمي: قال الواقدي في مغازيه ١٤٧/١ والبلاذري في أنسابه ٣٥٥/١ قتله عمار بن ياسر، وإلى ذلك ذهب أيضًا ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٣/١٤ عن الواقدي، ولكن ابن هشام قال في سيرته ٣٨٦/٢: قتله النعمان بن عصر.

٤٠- عمير بن أبي عمير: قال الواقدي في مغازيه ١/١٤٨ وابن هشام في سيرته ٢/٣٨٦ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٥، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٣ عن الواقدي: قتله سالم مولى أبي حذيفة.

٤١- ابن عمير: وقد ذكره الواقدي، كما ذكر موليين له في مغازيه ١/١٤٨ ولكنه لم يذكر من قتلهم، ولم يذكر ابن هشام قاتل ابن عمير في سيرته ٢/٣٨٦، ولا البلاذري في أنسابه ١/٣٥٥، ولا ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٣، وقال: لم يذكر الواقدي قاتله.

٤٢- الحارث بن عامر بن نوفل: قتله خبيب بن إساف، كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٤٨ وابن هشام في سيرته ٢/٣٨٦ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٦، وابن أبي الحديد في شرحه النهج ١٤/٣٦٣ ولكنه قال: هو بن نوفل.

٤٣- أبو البختري، وهو العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى: قتله المجذر بن ذياد البلوي كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٤٩ وابن هشام في سيرته ٢/٣٨٧ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٧ والطبري في تاريخه ٢/٤٥٠، وقال الواقدي والبلاذري أيضًا: ويقال: أبو داود المازني من الأنصار، ويقال: أبو يسر، أما ابن أبي الحديد فقال في شرح النهج ١٤/٣٦٣: قتله المجذر بن زياد، وقيل: قتله أبو اليسر، وذكر الطبري أن المجذّر أعلمه أن النبي نهى عن قتله، وكان معه زميل يقال له: جُنادة بن مليحة، فأصرَّ أبو البخريّ أن يترك زميله أيضًا، فنازله المجذّر وقتله، أما جنادة فلم يذكر اسمه بين القتلى، ولعلَّ الفرصة تهيَّأت له فاستطاع الفرار.

٤٤- عثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب: قتله صهيب بن سنان كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٤٩ وابن هشام في السيرة ٢/٣٨٨

وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤، ولم يذكره البلاذري، ونص ابن أبي الحديد على أن البلاذري لم يذكره.

٤٥– أبو جهل بن هشام واسمه عمرو: ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح فقطع رجله، وضرب ابنه عكرمة يد معاذ فطرحها، ثم ضربه معوذ بن عفراء، وتركه وبه رمق ثم احتز رأسه عبد الله بن مسعود حين أمر رسول الله أن يلتمس في القتلى كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٤٩ وابن هشام في سيرته ٢/٣٨٨ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٧–٣٥٨، ولكنه لم يسمِّ معوذ بن عفراء بينهم، وإنما قال: أحد بني عفراء، وذكر من شارك بقتله أيضًا ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤.

٤٦– عمرو بن سفيان: قتله يزيد بن رقيش كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٥١ وابن هشام في سيرته ٢/٣٩١، والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٥٩، وهو في شرح النهج عمر بن شيبان، وقال ابن أبي الحديد: قتله يزيد بن قيس.

٤٧– جابر بن سفيان: قتله أبو بردة بن نيار كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ١٥١ وابن هشام في سيرته ٢/٣٩١ والبلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، غير أن الواقدي والبلاذري سمَّياه جبَّارًا.

٤٨– رفاعة بن أبي رافع بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم: قتله سعد بن الربيع كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/٣٨٩ والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٥٩.

٤٩– المنذر بن أبي رفاعة بن عائذ: قتله معن بن عدي بن الجد بن العجلان كما قال ابن هشام في سيرته ٢/٣٨٩ والبلاذري في أنسابه ١/ ٣٩٥، ولكنه سماه أبا المنذر، وكذا قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤.

٥٠– أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح: روى ابن هشام في سيرته ٢/٣٩٢ عن ابن إسحاق أن قاتله رجل من الأنصار من بني مازن، ولكنه ذكر أيضًا أنه يقال: قتله معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وخبيب بن إساف اشتركوا في قتله، وقال البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩ قتله خبيب بن إساف، وبلال، ويقال: قتله رفاعة بن رافع، وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/ ٣٦٥: قتله خبيب بن يساف وبلال شركا فيه، وذكر أن الواقدي قال: وكان معاذ بن رفاعة بن رافع يقول: بل قتله أبو رفاعة بن رافع، وانظر مغازي الواقدي ١/١٥١.

قال ابن إسحاق: فجميع من أحصى لنا من قتلى قريش يوم بدر خمسون رجلاً كما نقل عنه ابن هشام في السيرة ٢/٣٨٥–٣٩٢.

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة عن أبي عمرو رواية عن ابن عباس وسعيد بن المسيب أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلاً، والأسرى كذلك، وروي أن عليًّا عليه السلام قد أسر عمرو بن أبي سفيان الذي صار في سهم النبي بالقرعة، وقد أطلقه رسول الله من بعد بغير فداء كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٣٩.

وذكر ابن هشام في سيرته ٢/٣٩٣ -٣٩٤ قتلى آخرين من المشركين وبعض قاتليهم، وأهمل ذكر قاتلي آخرين، وهم:

– وهب بن الحارث.

– عامر بن زيد.

– عقبة بن زيد من بني أسد بن عبد العزى.

– عمير مولى لهم.

ـ عقبة بن زيد بن مليص.

ـ عبيد بن سليط حليف لهم من قيس.

ـ مالك بن عبد الله بن عثمان من بني تيم بن مرة، وذكر أنه مات في الأسر.

ـ حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم: قتله سعد بن أبي وقاص كما ذكر في المصدر السابق ٢/٣٩٣.

ـ هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة: قتله صهيب بن سنان كما قال في المصدر السابق ٢/٣٩٤.

ـ زهير بن أبي رفاعة: قتله أبو أسيد بن مالك، كما ذكر في المصدر السابق ٢/ ٣٩٤ أيضًا، وتابعه البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، والواقدي في مغازيه ١/١٥٠ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤.

ـ السائب بن أبي رفاعة: قتله عبد الرحمن بن عوف كما ذكر في السيرة ٢/٣٩٤، وكذا ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٥٠ البلاذري في أنسابه ١/٣٥٩، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٦٤

ـ عائذ بن السائب بن عويمر: أسر ثم افتدى فمات من جراحة جرحه إياها حمزة بن عبد المطلب كما ذكر في السيرة ٢/٣٩٤.

ـ عمير حليف لهم من طي.

ـ جبار حليف لهم من القارة: كما ذكر في المصدر السابق، ولكن ابن أبي الحديد ذكر جبار بن سفيان، أخو عمرو بن سفيان، وقال: قتله بُردة بن نِيار.

ـ سبرة بن مالك من بني جمح حليف لهم.

ـ الحارث بن منبه بن الحجاج: قتله صهيب بن سنان كما ذكر في المصدر السابق.

— عامر بن أبي عوف بن ضبيرة: قال ابن هشام في المصدر السابق: قتله عبد الله بن سلمة العجلاني، ويقال: أبو دجانة.

وذكر غير ابن هشام

- عمرو بن الحضرمي: قال البلاذري في ٣٦٠/١: قتله كعب بن زيد النجاري، ثم قال: والثبت أنه قتل في سرية ابن جحش، وقد سبق ذكر حكايته.

— عويمر بن عائذ بن عمران: قتله النعمان بن أبي مالك كما قال الواقدي في مغازيه ١٥١/١ أما ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٦٥/١٤ فسماه عويمر بن عمرو بن عائذ.

وورد في مغازي الواقدي ١٥٠/١ وشرح النهج أيضا في ٣٦٤/١٤ أن أميَّة بن عائذ بن رفاعة بن أبي رفاعة، قتله سعد بن الربيع.

وذكر الواقدي في مغازيه ١٤٨/١أن أبا دجانة في سند أو ثابت بن الجِذع في سند آخر قتل ربيعة بن الأسود.

وذكر في مغازيه ١٤٨/١ أيضًا أن علي بن أبي طالب عليه السلام قتل الحارث بن ربيعة، وذكر في مغازيه ١٥٠/١ أيضًا أن معن بن عدي العجلاني قتل أبا المنذر بن أبي رفاعة.

وتلاحظ على قائمة قتلى قريش في واقعة بدر الكبرى برواية الواقدي وابن إسحاق، وابن هشام والبلاذري وغيرهم أن من قتل فيها بسيف الإمام علي عليه السلام لوحده عشرة لا ينازعه فيهم أحد في المصادر التي سبق ذكرها وهم:

١— مسعود بن أمية، ٢— والعاص بن منبه، ٣— والوليد بن عقبة ٤— والنضر بن الحارث، ٥— وحاجب بن السائب، ٦— العاص بن سعيد

٧– عبد الله بن المنذر ٨– عقبة بن أبي معيط ٩– نوفل بن خويلد ١٠– عامر بن عبد الله.

واختلفت المصادر في تسعة عشر قتيلاً منهم، فكان الإمام إما أن يكون هو القاتل في مصدر، ويكون غيره هو القاتل في مصدر آخر من مصادر أهل الحديث والسيرة ، أو يكون هو وغيره اشتركا في القتل وعلى الصورة الآتية :

١– حرملة بن عمرو ، أما الواقدي فقال: قتله علي، وقال أيضًا: أصحابنا جميعًا على ذلك، وإلى ذلك ذهب البلاذري أيضًا فقال: إن قاتله علي، ولكنَّ ابن هشام قال: إن قاتله خارجة بن زيد.

٢– يزيد بن عبد الله، ذكر البلاذري أن قاتله علي، وخالفه ابن هشام فذكر أن قاتله عمار بن ياسر.

٣– نبيه بن الحجاج ، قال الواقدي والبلاذري: إن قاتله علي، وخالفهما ابن هشام فذكر أن قاتله حمزة وسعد.

٤– الحارث بن زمعة، ذكر البلاذري أن قاتله علي وخالفه ابن هشام فقال: قتله عمار.

٥– حنظلة بن أبي سفيان، ذكر البلاذري أن قاتله علي، ولكن ابن هشام قال: قاتله زيد بن الحارثة، وقال: يقال: اشترك في قتله حمزة وعلي، والثابت أن قاتله هو علي عليه السلام كما سبق ذكر ذلك.

٦– عمير بن عثمان، ذكر الواقدي والصالحي وابن أبي الحديد أن قاتله عليّ، وأيدهما ابن هشام فقال: إن قاتله علي، ولكنه عاد وقال: ويقال عبد الرحمن بن عوف، وأيدهما البلاذري فذكر أن قاتله علي، ولكنه قال: ويقال: صهيب.

٧- عويمر بن السائب، قال الصالحي: قتله علي، وذهب إلى ذلك البلاذري أيضًا، ولكنه قال: وقيل: صهيب، أما ابن هشام فذهب إلى أن قاتله النعمان بن مالك،..

٨- أبو قيس بن الفاكهه: قال البلاذري: قاتله علي. ووافقه ابن هشام، ولكنه قال: ويقال: حمزة، واختلفت أيضًا ما بين علي وغيره في الأسماء الآتية من قتلى قريش:

١- عتبة بن ربيعة، قال ابن إسحاق: قتله عبيدة بن الحارث، وقال ابن هشام: اشترك في قتله حمزة وعلي، ولكن البلاذري قال: قتله حمزة.

٢- طعيمة بن عدي، ذكر ابن إسحاق أن قاتله علي، ويقال حمزة، أما البلاذري فقال: قتله حمزة صبرًا.

٣- أوس بن المعبر، ذكر ابن هشام أن قاتله علي، ويقال الحصين، وقال البلاذري: قاتله عثمان بن مظعون وعلي، ويقال: عثمان وحده.

٤- أبو قيس بن الفاكه، ذكر ابن إسحاق أن قاتله علي، ولكن ابن هشام قال: إن قاتله عمار بن ياسر، أما البلاذري فقال: إن قاتله حمزة، ويقال: الحباب بن المنذر.

٥- أبو العاص بن قيس، ذكر ابن هشام أن قاتله علي، قال: ويقال: النعمان بن مالك، ويقال: أبو دجانة

٦- شيبة بن ربيعة، ذكر ابن هشام أن قاتله حمزة، أما البلاذري فذكر أن قاتله عبيدة بن الحارث، وذفف عليه حمزة وعلي، وهو المشهور.

٧- معاوية بن عامر، ذكر ابن هشام أن قاتله علي، قال: ويقال: عكاشة بن محصن، أما البلاذري فقال: إن قاتله عكاشة بن محصن.

٨- عقيل بن الأسود، ذكر ابن هشام أن قاتله علي وحمزة، أما البلاذري فقال: قتله حمزة وعلي، ولكنه قال أيضًا: ويقال: إن قاتله علي.

٩- زمعة بن الأسود، ذكر ابن هشام أن قاتله ثابت بن الجذع، ويقال: اشترك فيه حمزة وعلي وثابت، أما البلاذري فقال: قتله أبو دجانة، ويقال: ثابت.

١٠- منبه بن الحجاج، ذكر ابن هشام أن قاتله أبو اليسر، أما البلاذري فقال: قتله أبو اليسر، ويقال: علي، ويقال: أبو أسيد الساعدي.

١١- زيد بن مليص، ذكر ابن هشام أن قاتله بلال، أما البلاذري فقال: إن قاتله علي، ويقال: بلال.

وقال الواقدي في مغازيه ١٥٢/١ بعد أن ذكر قتلى بدر من المشركين: (فجميع من يحصى قتله تسعة وأربعون رجلاً، منهم من قتله أمير المؤمنين علي عليه السلام وشرك في قتله اثنان وعشرون رجلاً).

تلك كانت روايات أهل الحديث، أما رواية الشيخ المفيد، وهو من علماء شيعة أهل البيت فقد ذكر في الإرشاد ٧١ -٧٢ أن المرتضى قتل خمسة وثلاثين رجلاً هم العاص بن سعيد، وطعيمة بن عدي بن نوفل، ونوفل بن خويلد، وزمعة بن الأسود، والحارث بن زمعة، وعمير بن عثمان عم طلحة بن عبيد الله، وأخوي طلحة عثمان ومالك، وقيس بن الفاكهة بن المغيرة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن مخزوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعة، ومنبه بن الحجاج السهمي، والعاص بن كلدة، وأبو العاص بن قيس بن عدي، ومعاوية بن أبي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، ومسعود بن آمنة بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن مليص، وعاصم بن

أبي عوف، وسعيد بن وهب، ومعاوية بن عامر، وعبد الله بن جميل، والسائب بن مالك، وأبو الحكم الأخنس، وهشام أبي أمية بن المغيرة.

وإذا كادت كتب السيرة والتاريخ تتفق على ذكر خمسين قتيلاً من مشركي قريش، فإن هذه الأسماء تمثل الوجه القرشي المشرك، أي أنها تمثّل قادة الجيش وفرسانه بدليل أن الهزيمة الماحقة حلّت به بعد مصرع طليعته، كما أن تلك المصادر التي أحصت القتلى أهملت تمام ذكر من جرح فيها باستثناء عمرو بن عبد ودّ، ولعلّها أهملت أيضًا ذكر كثير ممن شارك في القتال من أحلاف قريش وعبيدهم، ولا أشك في أن جرحى سيف عليٍّ كانوا بالعشرات إن لم يكونوا بالمئات، لذا فإنه عليه السلام خرج من تلك المعركة الفاصلة في تاريخ الإسلام وهو مسربل حتى قدميه بأغلب حقد قريش وكراهيتها وثأرها، بل إن ثأر الشرك كلّه الذي حمله على كاهله الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ورثه المرتضى عليه السلام، وكان عليه بعد رحيله أن يدفع هو وأبناؤه ومن ناصرهم كامل دياته بل لعلَّ ما تركته تلك المعركة من كراهية في نفوس كثير من المهاجرين القرشيين لا يقل عن حقد المشركين من قريش عليه، وهي طبيعة النفس الإنسانيّة مهما بلغت من الصفاء والإيمان.

ويمكن أن نلاحظ الأمر بعينه في جميع المعارك التي دارت بين قريش وبين المسلمين، إذ إن مشاركة المهاجرين من القرشيين فيها كانت شكليّة، فخرجت سيوفهم منها نظيفة ليس فيها ما يعكّر علاقة بين المهاجرين من قريش وبين أبناء عمومتهم بعد الفتح.

ويسبب من ذلك الدور الذي اضطلع به المرتضى بجانب رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، كان صبره عجيبًا، وكانت محنته لا توصف، وكانت عزيمته لا تلين، ولكنَّ تكريمه من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله كان عظيمًا أيضًا تناسب مع تلك التضحية وذلك الفداء، كان تكريمًا له في الدارين، وكان تكريمًا لصحابته ومحبِّيه.

ولقد كان ثأر قريش، وجميع من كَلَمَهم سيفُ الإسلام كبيرًا جدًّا، بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله سلم، وكانت محنة الإمام بهم ويعداوتهم لا توصف، ولقد ظنوا أنهم أخذوا بثأرهم منه ومن أهل بيته، وفاتهم أن الخاسر الأكبر من هذه العداوة هم من عاداه أولاً، والمسلمون على مرِّ الحقب والأزمان، أما علي فقد فاز بالقدح المعلّى..

وإذا أعدنا النظر في القائمة السابقة ثانية، سنلاحظ أن سيفين من سيوف المهاجرين كان لهما أثر فاعل في المعركة، هما سيفا حمزة وعمار، أما حمزة رضوان الله عليه فهو عمُّ رسول الله، ويسبب من دوره ذلك تآمرت الفئة الباغية عليه فقتلته غيلة وغدرًا بطريقة تبتعد تمامًا عن كلِّ قيم المحاربين الشرفاء وأفعالهم، وأما عمار فهو ابن أول شهيدين في الإسلام ذهبا بسيف ظلم قريش الشرك ويطشها وجبروتها، وأوَّل من بُشِّر بالشهادة بعد صاحبه الإمام رضوان الله تعالى عليهما، ولم يكن من قريش، ولقد لازم صاحبه ولم يفترق عنه إلى أن ذهب حميدًا إلى الرفيق الأعلى، وكان وجوده بجانب صاحبه توكيدًا على أن الفئة الأخرى هي الباغية على الإسلام والمسلمين، وستبقى اللعنة الدائمة تلاحقها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أما سيوف الشخصيات البارزة من المهاجرين، التي تسلمت الحكم من بعد فإن مشاركتها في هذه الحرب وفي غيرها من حروب النبي مع قريش خاصة ومع غيرها من القبائل كانت هامشيَّة بل تكاد تكون معدومة، فمشاركة عمر بن الخطاب قد انحصرت بقتله العاص بن هشام بن المغيرة خاله في هذه المعركة، وتعرض للهزيمة مرتين، مرَّة في معركة أحد، وأخرى في معركة الخندق، واختُلِف في الثالثة في معركة حنين، أما عثمان بن عفان فلم يشارك في معركة بدر، وكانت هزيمته عجيبة في معركة أحد، وله مواقف يحتسبها له الفرع الأموي من قريش خاصة سنذكر بعضها في موضعها.

وعلى الرغم من أن الزبير يعدُّ في بني هاشم، فهو ابن عمَّة رسول الله وكان ومن أشدِّ المنحازين لخلافة المرتضى في يوم السقيفة وفي يوم الشورى، ولعلَّ الذي باعده عنه من بعد موقف ولده عبد الله، وقد انحصرت مشاركته في هذه المعركة بقتله عبيدة بن العاص.

وأما سعد بن أبي وقاص فقد قتل حذيفة بن المغيرة، ولعلَّه لم يقتله مواجهة بسيف، وإنما قتله بسهم، إذ عرف بمهارته في رشق السهام، وقيل: إنه اشترك مع حمزة في قتل نبيه بن الحجاج، بل قيل: إن نبيهًا هذا قتله علي بن أبي طالب أيضًا.

أما عبد الرحمن بن عوف فقد ذكر ابن هشام أنه قتل السائب بن أبي رفاعة، وقد اختلف في قاتل عمير بن عثمان، والمشهور أن قاتله علي بن أبي طالب، كما ذكرت ذلك أغلب كتب السيرة والمغازي، ولكن رواية ذهبت إلى أن قاتله عبد الرحمن بن عوف، وأخرى ذهبت إلى أن قاتله: صهيب.

أما أبو بكر الصديق فلم يشارك في قتل أحد لا في هذه المعركة، ولا في غيرها، وكان خلال هذه المعركة مع النبي في عريشه كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٨٥، ولم يكن قد طلب منه صلى الله عليه وآله وسلم الدخول معه فيه، وإنما هو الذي دخل فلم يمنعه كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ٣٥٠، والطبري في تاريخه ٢/ ٤٤٧، وعجيب أن يقول البلاذري: (واتخذ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم عريش من جريد، فدخله وأبو بكر رضي الله تعالى عنه، فكانا يتشاوران فيه)، وقد ناقش المأمون من بعد قضية التشاور هذه في احتجاجه الذي أوردناه فأبطله، ومعروف أن سيف أبي بكر خرج نظيفًا من جميع معارك الإسلام، على أن أحدًا من المنصفين لا يستطيع إنكار دوره بجانب رسول الله في قدم إسلامه وتصديقه النبي وهجرته معه، ولكن المنصف أيضًا لا يستطيع المقارنة بين دوره ودور عليٍّ، أما بقية المهاجرين من القرشيين فإن مشاركتهم فيها تكاد لا تذكر.

وسجّل ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٩١-٢٩٢ لعمر بن الخطاب بالإضافة إلى قتله خاله العاص بن هشام، حكاية مفادها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهًا»، فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك عمك!! والله لئن لقيته لألقمنّه السيف، قال: فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله

صلى الله عليه وسلم بأبي حفص: « أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدًا). وهو موقف على الرغم من أهميَّته، لأن توجيه رسول الله خطابه لعمر بن الخطاب دليل على منزلته ومكانته منه من ناحية، ومن المهاجرين من ناحية أخرى، ولكن موقفه ذاك كان يمكن أن يقفه أي فرد من الصحابة لو كان خطاب النبيّ موجهًا إليه، وبالإضافة إلى هذا فإن الرواية يشوبها شيء من القلق، فخطاب أبي حذيفة فيها كان موجَّهًا إلى رسول الله وجهًا لوجه، ولكنه فجأة ينتقل الحديث إلى ضمير الغائب (قال: فبلغت رسول الله)، والله أعلم بالصواب، ومن الأمور اللافتة للنظر أننا نقف لعمر بن الخطّاب على مواقف في غير مناسبة يتبرَّع فيها بقتل هذا أو ذاك في مجلس النبيّ، أذكر منها غير هذا على سبيل المثال موقفه من الرجل الأسود الذي اعترض على تقسيم النبي غنائم خيبر الذي ذكره المبرد في كامله ١١٠٨/٣، والرجل المضطرب الخلق الذي اعترض على تقسيم النبي الذهب الذي بعثه علي عليه السلام من اليمن، وقد ذكره المبرد في كامله ١١٠٩/٣ أيضًا، ولكننا لا نقف على مثلها في مواقع الجلاد الحقيقيَّة، وسجَّل ابن هشام في سيرته ٣٠١/٢ لعمر أيضًا موقفًا آخر في خلافته اعتذر فيه لسعيد بن العاص، إذ قال له: (إني أراك كأن في نفسك شيئًا، أراك تظن أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحدت عنه وقصد له ابن عمِّه علي فقتله)، وروق

الثور: قرنه، وهي إشارة إلى قوَّته، وكأنما قتل المشركين كان في حاجة إلى الاعتذار، أو لإخبار، وللرواية رواية أخرى في شرح النهج ٣١٩/١٣ لا أودُّ التعليق عليها، ولك أن ترى فيها ما ترى، قال: (ونقلت من غير كتاب الواقدي أن عثمان بن عفان، وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيّام خلافته، فجلس سعيد بن العاص حجرة -ناحية - فنظر إليه عمر، فقال: مالي أراك مُعْرِضًا كأني قتلت أباك! إني لم أقتله، ولكنه قتله أبو الحسن! وكان علي عليه السلام حاضرًا، فقال: اللهمَّ غَفْرًا! ذهب الشرك بما فيه، ومحا الإسلام ما قبله؛ فلماذا تهاج القلوب! فسكت عمر، وقال سعيد: لقد قتله كفء كريم، وهو أحبُّ إليَّ من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف).

ومن المواقف التي ذكرها ابن إسحاق في السيرة ٢٩٤/٢ -٢٩٥، وتابعه ابن الأثير في كامله ١٢٧/٢ حكاية عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: مررت بأمية بن خلف وهو واقف مع ابنه علي بن أمية آخذ بيده (ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قال: قلت نعم، وطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده ويد ابنه ثم خرجت أمشي بهما، ولقيني بلال وكان أمية يعذبه بمكة فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أبأسيري؟ قال: لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أتسمع يا ابن السوداء؟ قال: لا نجوت إن نجا... فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيري)، وذكر قريبًا من هذا أيضًا البلاذري في أنسابه ٢١٦/١ والطبري في تاريخه ٤٥١/٢—٤٥٣، ويلاحظ مدى اهتمام عبد الرحمن بالأدرع ثم بالأسيرين من أجل الفداء كما

ذكر، ويلاحظ أيضًا أن بلالاً مازال في نظر عبد الرحمن ابن السوداء، وهكذا تستطيع أن تلمس أن الإسلام الذي ساوى بين أبناء البيض والسود وأمهّاتهم، مازال في نظر واحد من أكابر الصحابة سبّة لا يمحوها إسلام ولا سابقة.

ولقد وقفت على نصٌ في استيعاب بن عبد البرّ ١١٠١/٣ رواه بسنده عن رفاعة بن رافع عن أبيه، أنقله لك كي تقف عليه سويَّة من بعد قال: (أقبلنا من بدر ففقدنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقالوا: يا رسول الله، فقدناك! فقال: « إن أبا الحسن وجد مغَصًا في بطنه فتخلّفت عليه»)، ولا أستبعد أنك تدرك سبب مغصه عليه السلام، فهو ليس من تخمة بالتأكيد فما عرفها في حياته، ولعلّي أدركه معك، فهو أمّا من شدَّة الجوع، وكثيرًا ما اشتكى آلام بطنه بسببه، وأما من طعام تناوله، وما أقسى الطعام الذي كان يتناوله حتى بعد أن ضربة اللعين عبد الرحمن بن ملجم على أم رأسه، وأما من بردٍ أصابه عليه السلام، وقد كانت الواقعة في الشتاء في ما أحسب، وأنت تعرف لباسه، ولعلَّ ما يؤكد ذلك قوله الذي رواه أحمد في فضائله ٥٠ برقم ٢٢ عن محمد بن كعب القرظي، وتابعه الذهبي بسنده في عهده ٦٣٦، وابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٤٥١/٢: (لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّي لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإنَّ صدقة مالي لتبلغ اليوم أربعين ألفًا)، والقول المذكور أخرجه أحمد في مسنده، وابن الأثير بسنده في أسده ٥٩٨/٣ وإيَّاك أن تظنَّ أنه خلّف ذلك المال فقد تصدَّق به جميعه في حياته، وخرج ولم يترك إلا سبعمائة درهم

كما قال الحسن عليه السلام ادَّخرها لخادم يشتريه لعياله كما ذكر الذهبي في عهده ٦٥٢ ، وروي أنّه خلّف أقلّ من هذا بكثير سنأتي من بعد على ذكره.

وحاشا لله أن أروم من وراء كلّ هذا الانتقاص من منزلة أحد من الصحابة رضوان الله تعالى عنهم، فهم أعلام الإسلام بلا شك، وأعمدته التي شاركت مشاركة فاعلة في نشره داخل الجزيرة وخارجها، ولهم فضلهم الذي لا ينتقص، ولكن النصوص التاريخية لا تسمح بمقارنة دورهم بأي وجه من الوجوه بدور عليٍّ، لقد خرج ابن أبي طالب من هذه المعركة ولم يفكر بسلب أو غنيمة، بل لم يخرج منها بغير جراحه التي توشح بها، ويوم عاد بعد كل الرؤوس التي قطفها في تلك المعركة، ويوم أراد الدخول بالزهراء عليها السلام لم يجد ما يقدمه لها في ليلة الزفاف غير جراحه التي لمّا تندمل بعد من حصاد تلك المعركة، ولم يربط في باب دارها فرسًا من الأفراس التي غنمت، ولا أدخل عليها سلبًا من أسلاب من قتلهم، ولا امتاز أو ميَّزَ نفسه على أحد، بل ما لمحته ممتطيًا فرسًا يقاتل عليها، لا في معركة أحد، ولا في معركة الخندق، ولا في غيرهما من حروب الإسلام الكبرى تحت راية رسول الله.

ويوم طلبت الفئة القرشية الباغية المبارزة في هذه المعركة، تحرَّك الأنصار أوَّل من تحرك في جيش المسلمين، ولم يتحرك المرتضى من مكانه، وأزعم أنه كان يرمق أخاه المصطفى بعين قلقة خوفًا من أن يتجاوزه إلى غيره، ولعل تلك الفئة ما كانت تحسب لعليٍّ حسابه، فترك الفرصة لغيره، ولكنَّ أحدًا لم يبادر، بل لم نجد في تلك المعركة الضارية من مبادر غير البيت الهاشمي ممثلاً بحمزة وعلي وعبيدة، فقد لبَّى ذلك النفر عليه السلام طلب رسول الله فور صدوره، أما علي فكان الوليد بن عتبة من حصَّته، وأما حمزة فكان عتبة بن

ربيعة من حصّته، وأما عبيدة فكان شيبة بن ربيعة من حصّته، أما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما، وأما عبيدة وصاحبه فقد اختلفا ضربتين، فسارع حمزة وعليّ، فلم يمهلا عتبة، وحملا أخاهما عبيدة إلى أصحابه، فذهب شهيدًا من بعد رضوان الله عليه.

ولا يختلف اثنان ممن كتب في السيرة عن هذه معركة أنها الفاصلة في تاريخ الإسلام، بل إن الإسلام الذي تأسس بعد اجتماع بيعة العقبة الثانية قامت دعائمه شامخة بعد الانتصار في هذه المعركة، ومن الصعب أن نقدر قيامه لولا هذين الحدثين العظيمين في تاريخه، وإذا كان اجتماع العقبة الثانية قد حضره ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فإن جيش المسلمين الذي توقف في آبار بدر جاوز الثلاثمائة بثلاثة عشر رجلاً يزيدون أو ينقصون، ولم يشهدها بعضهم، ولكن الرسول ضرب لهم بسهم فيها، واحتسب لهم ثواب من شارك فيها.

أما عدد من شارك فيها من المهاجرين فثلاثة وثمانون رجلاً، وأما البقيَّة فمن الأنصار، واحد وستون رجلاً من الأوس، ومائة وسبعون رجلاً من الخزرج كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٨٤/٢، واستشهد فيها أربعة عشر رجلاً من الصحابة كما ذكر الواقدي في مغازيه ١٥٥/١ ستة منهم من المهاجرين بينهم اثنان من مواليهم، أمَّا البقيَّة فمن الأنصار.

وعلى الرغم من كل ما كتب عنها، فإن المنصف يقول: إنها كانت فاصلة بسيف المرتضى بالدرجة الأولى، وأنها كانت سببًا مباشرًا في تكوُّن حزبين داخل البيت الإسلامي منذ ذلك الوقت، بل داخل البيت القرشي الذي تحكَّم بالخلافة من بعد، وتلاحظ أشياء كثيرة تلفت النظر في سيرة المرتضى من خلال هذه المعركة، منها ما يتعلق باصطفاف غالبية المهاجرين من قريش فيها

الذي أشر مستقبل العلاقة بينه وبين المهاجرين من بدريي قريش وغيرهم، ولعل أكبر تساؤل يثار هو عن كيفية تحقيقه ذلك النصر إذ إنه :

١- لم يكن من المقاتلين المعروفين الذين يتمتعون بخبرة عسكرية، من وجهة نظر الجيشين، لأنه لم يشارك من قبل في حرب معروفة بسيف أو رمح أو غيرهما، ولم أقف على نص يشير من قريب أو بعيد إلى مشاركة تضع اسمه بين صناديد قريش ومحاربيهم وشجعانهم قبل معركة بدر، إلاّ ما قرأناه عن فعلته بالنَّفر الذي اعترض طريقه أثناء هجرته مع الفواطم إلى المدينة.

٢- لم أقف على نص من النصوص يشير إلى تدربه على الفروسية وفنونها الحربية، بل لم أقف على نص يشير إلى امتطائه فرسًا من قبل.

٣- لم أقف على نص يشير إلى دخوله في مصارعة أو مشادّة بالأيدي مع أحد من قريش تلفت النظر إلى قوّته الجسدية، باستثناء ما ذكرته بعض المصادر عن موقفه من بعض من كانت تغريه قريش من الصبيان بإيذاء الرسول، فكان عليه السلام يشبعهم قرصًا وضربًا فيهربون باكين إلى أهليهم.

٤- ولم يكن طعامه ذلك الطعام الذي يشارك في بناء جسد مكتنز يمكن أن تبنيه الرياضة بناء فيه قوّة وجلادة.

ولكني أشرت في غير هذا الموضع إلى بعض مصادر قوّته الهائلة عليه السلام، ورأيته يوم جمع النبي الأقربين من عشيرته يتحدّاهم بالإعلان عن نصرة النبي وتأييده والإيمان بدعوته، وكان موقفه مثار تندر مشركيهم وتفكههم، وفي الوقت ذاته كان محل إيمان الرسول بصدق لهجة ذلك الفتى وقوة عزيمته وبعد نظره وحكمته، فاتخذه أخًا ووزيرًا ووصيًا وخليفة.

ورأيته أيضًا يملك من قوّة العزيمة ما ينبئ عن قوّة خارقة تحدّت قريشًا تحدّيًا سافرًا لاشك أنها لم تتعرض لمثله من قبل، ولكن مرَّت عليها مرورًا غريبًا بلا شرح أو تعليل، لقد تركه أخاه ليلة هجرته في فراشه يوم ائتمرت قريش على قتله صلى الله عليه وآله في القصَّة المعروفة، وهو أمر يحتاج إلى قوَّة جنان وشجاعة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما تعداه، إلى موقف قريش منه، بعد أن ساعد النبي على الخروج من مكة بتلك الطريقة، وبقي بعده ثلاثة أيام أو أكثر في ما أظن، يدور في أروقة مكّة دونما خوف يؤدي ما أمره الرسول أن يؤديه من أمانات، ثم بعدها يجمع الفواطم لوحده ويخرج أمام الملأ القرشي دونما حماية من أحد أو مساعدة، إذ إن أغلب من يمكن أن يقدم له العون أو الحماية غادر مكّة إلى يثرب، أما من بقي منهم فلا حول له ولا قوة.

ولا أريد غمط حق أحد من البدريين رضوان الله تعالى عليهم، فقد خلّدهم التاريخ على صفحاته، ومازالوا من رموز الإسلام التي لا تُطاول، وإذا شئت المفاضلة فإن ذلك يعني أن كل من شارك فيها استحق الفضل، ولكنهم يتفاضلون فيها أيضًا، كما يتفاضلون بمواقفهم الذاتية من بعد.

وعلى رواية ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/ ٢٨ فإن من قتل في (معركة بدر الكبرى سبعون من المشركين قتل علي نصفهم، وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر، وإذا رجعت إلى مغازي محمد بن عمر الواقدي وتاريخ الأشراف لأحمد بن جابر البلاذري وغيرهما علمت صحة ذلك)، وعجيب أن يقول محمود شاكر في كتابه علي بن أبي طالب ٤٩—٥٠: (وعُرِفَ عليٌّ من يوم بدر بقُوَّته وشَجاعتِهِ، وكان قد قارب الرابعة والعشرين من العمر، وقد قتل يومذاك ثمانية من المشركين، وأسر عمرو بن

أبي سفيان)، ولا أدري على أي مصدر اعتمد، وقبل عودة الجيش المظفر إلى المدينة سبقه البشير إليها، وفي شوال من تلك السنة بعث النبيُّ سالم بن عمير الأنصاري إلى أبي عَفَك وهو من بني عمرو بن عوف، وكان شيخًا كبيرًا يحرِّض الناس على النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل إليه سالم، وهو نائم بمنزله في بني عمرو بن عوف، فقتله كما قال البلاذري في أنسابه ١/٤٨٠، وذكر أيضًا (وقال قوم: أتاه علي بن أبي طالب، وهو نائم على فراشه فقتله). ولا شك أن ما ذكروه يبتعد عن واقع عليٍّ عليه السلام لأنه ليس من طبعه.

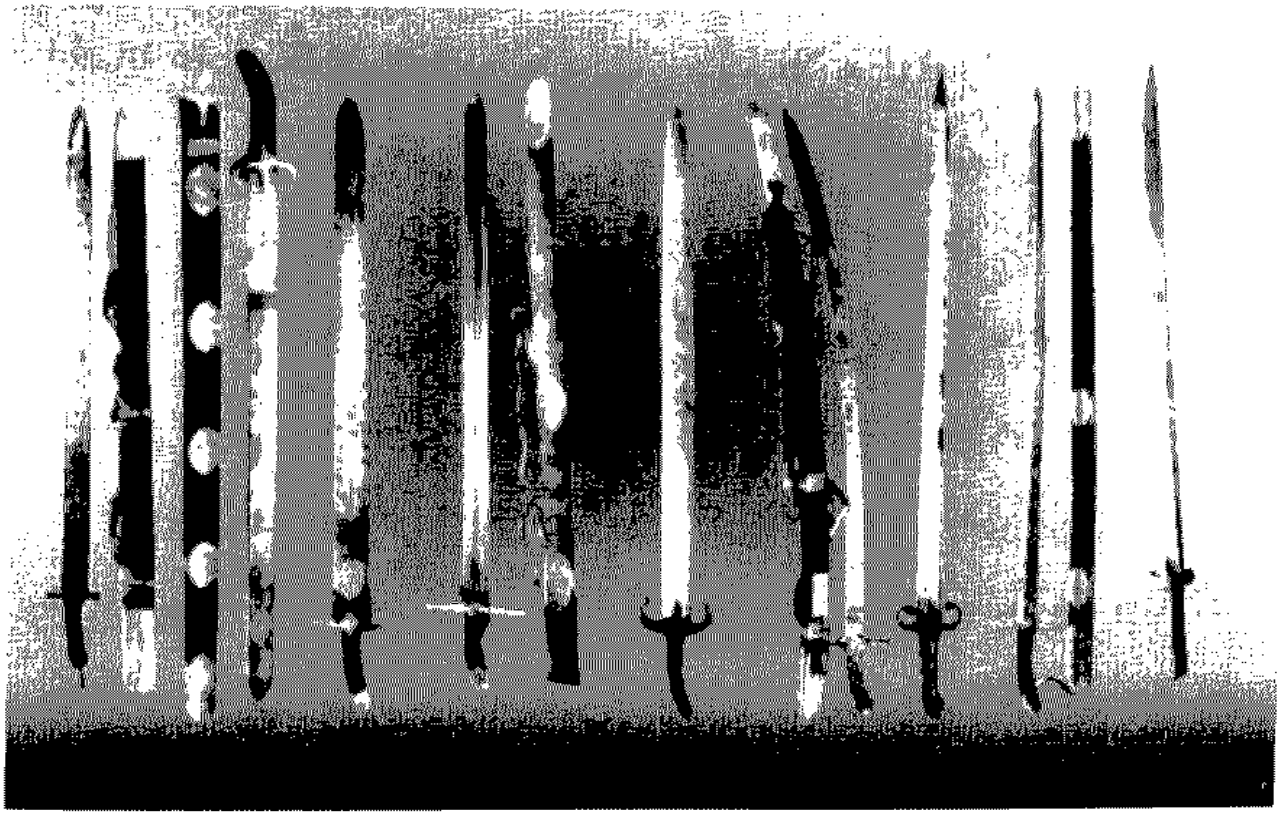

سيوف النبي عن كتاب الكوكب الدري، وقد آلت إلى الإمام، وغالبيتها في متحف طب قبي سراي باسطنبول

الطريق إلى معركة أحد

على الرغم من الأحزان التي طرقت أبواب بعض المهاجرين والأنصار بسبب النفر الذي استشهد منهم في معركة بدر الكبرى، فإن البشير دخل إليها يحمل إليهم أخبار أكاليل الغار التي تزينت بها رؤوس المسلمين بذلك النصر المبين، ويسبب من حلاوة النصر، وإيمان القوم بأن من استشهد منهم ذهب إلى النعيم الدائم في جنان الله، فإن الوجيعة باستشهاد ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار لم تكن بذلك الإيلام بسبب فرحتهم بالحدث الذي هزَّ الجزيرة العربية وزلزل كيان الشرك، فمرَّت ولم تترك أثرًا كبيرًا في النفوس في ما أحسب، وزاد من بهجة القوم وسرورهم زفاف الزَّهراء إلى بيت عليٍّ عليهما السلام في يوم احتفت به ملائكة السماء قبل احتفائهم به، وقد شاركناهم فرحتهم بذلك اليوم العظيم في كتاب خاص بعنوان (الزهراء في بيت علي).

وبقيت حكايات النصر، وبطولات من استشهد من الصَّحابة رضوان الله عليهم حديث مجالس القوم أثناء إقامتهم التي لم تدم طويلاً في المدينة، إذ إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه سرعان ما خرج منها في غزوة على رأس ثلاثة وعشرين شهرًا من هجرته، ودامت خمسة عشر يومًا كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٨٢ أراد بها بني سليم، فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر، فأقام ثلاثًا، ولم يلق كيدًا، وأصاب مغنمًا، وكان لواؤه فيها مع المرتضى عليه السلام كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/١٣٩.

ولا شكَّ أن الهدف من وراء غزواته وسراياه بعد معركة بدر كان لتعزيز النَّصر، ونشر هيبة الإسلام بين القبائل العربيَّة، ودفعها للتفكير باعتناقه.

أجواء ما قبل المعركة

أما مكَّة فلم تستطع النوم بعد تلك الوقعة التي قصمت ظهرها، وكانت صفعة لم تكن قد حسبت لها مثل ذلك الحساب الرهيب، ولا شكَّ أنها بعد أن وصل جيشها المدحور لم تستقر على حال بسبب ما أصابها من حزن وانكسار وهزيمة، وما عادت تفكر بغير الانتقام والثأر، وأقسم أبو سفيان أن لا يمسَّ رأسه ماء جنابة حتى يغزوَ محمدًا بزعمه، وينتقم للدماء النَّجسة التي سالت على بطائح بدر، وللأجساد التي احتواها ذلك القليب فخرج بمائتي راكب من قريش كي يبرَّ بيمينه، ولمَّا وصل المدينة رأى أن يقصد يهودها كي يعرف أخبارها، فترك جماعته وقصد تحت جنح الظلام حصن حيي بن أخطب فطرق بابه، إلا أنه لم يستجب له، فانصرف إلى سلام بن مشكم سيِّد بني النضير، فاستقبله وضيَّفه وقصَّ عليه أخبار المدينة، ثمَّ خرج وبعث رجالاً من قريش إلى ناحية منها يقال لها العريض، فأحرقوا بعض نخيلها، وقتلوا رجلين، وقفلوا راجعين بسرعة بعد أن تخفَّفوا من السُّويق الذي كانوا يحملونه لطعامهم خوفًا من بلوغ خبر فعلتهم هذه إلى المدينة، وما إن شاعت حتى خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وراءهم فتعقَّبهم إلى أن وصل إلى موضع يقال له: **قرقرة الكدر**.

ويبدو أنه حينما علم ببعد المسافة التي تفصل بينه وبينهم آثر العودة إلى المدينة، وبسبب عثور المسلمين على السُّوَيق الذي تركه أبو سفيان وأصحابه سُمِّيت هذه الغزوة **بغزوة السُّويق**.

وبعد عودته صلوات الله عليه لم يستقرّ بالمدينة طويلاً أيضًا، فكان ما بين غزوة أو تجهيز لسريّة، فكانت غزوة ذي أمر، تلتها غزوة الفرع، ولم يلق فيهما كيدًا، وجهّز زيد بن حارثة أيضًا في سريّة إلى القردة من مياه نجد، وقد أصاب فيها شيئًا من عير قريش التي غيّرت طريقها الذي كانت تسلكه إلى الشام خوفًا من المسلمين، ولم يكن وراء ذلك النشاط بالدرجة الأولى غير الإعلام عن العقيدة الجديدة وأهدافها وقيمها، وتنامي قوتها، وبثّ الرعب والخوف في نفوس القرشيين خاصّة في ما أحسب.

ويبدو أن بني قينقاع من يهود المدينة لم يسرّهم ما حقّقه المسلمون من نصر في معركة بدر، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فجمعهم، وحذّرهم، وعرض عليهم الإسلام، ولكنهم لم ينتهوا، إذ اعتدى أحدهم بعد حين على امرأة مسلمة فكشف عن عورتها في السوق، وجعل منها أضحوكة لقومه، فوثب عليه رجل من المسلمين فقتله، وشدّت اليهود عليه فقتلوه، فكانت هذه الحادثة بمثابة القشة التي قصمت ظهر ذلك العهد الذي كان بينه وبينهم.

وكان لابد من تأمين المدينة خطرهم، فحاصرهم إلى أن نزلوا على حكمه، وتدخّل رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول، فطلب منه الإحسان إلى مواليه بطريقة آذت النبيّ صلوات الله عليه، فاستجاب إلى ما أراد، على الرغم من شديد غضبه عليه كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/١٧٦ -١٨٠.

ولم تقف الأحداث مع اليهود عند هذا الحدّ، وإنما سافر كعب بن الأشرف أحد شعرائهم إلى مكّة لتحريض قريش ومواساتها، فبكى بشعره أصحاب القليب، ولمّا عاد أخذ يشبب بنساء المسلمين، مما دفع الرسول

الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى هدر دمه، فتعاون على قتله نفر من المسلمين.

وكثرت دسائس اليهود، ومؤامراتهم، وكان لابد من الاصطدام بهم، إلاّ أن وقت الاصطدام لم يحن بعد، فأخبار استعداد قريش للثأر تصل إلى رسول الله أولاً بأول، ولابد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يحسب حساب هجومهم على المدينة في أيّ وقت.

استعدادات قريش

أما قريش فقد أعدَّت العدَّة لهذه الحرب، وتداعت في ما بينها، ووجوه القوم الذين كانوا ما بين أخذ وردٌ في معركة بدر توحَّدت كلمتهم، وأثرياؤها الذين شحُّوا في معركة الهزيمة تبرعوا بسخاء لمعركة الثأر الفاصلة، واندفع شعراؤهم وخطباؤهم إلى تحريض من والى قريش على نصرتها والخروج معها، وما إن اكتملت عدَّتها وعددها، والتحق بها من التحق من قبائل كنانة وأهل تهامة وأحابيش مكّة، وبعض اليثربيين الذين تركوا المدينة بعد الهجرة، تحرَّك جيشها بقيادة عدوّ الإسلام الأول أبي سفيان، وحلّت محلَّ جوقة القيان والمغنيات اللاتي رافقن جيش عتبة وأبي جهل جوقةٌ كبيرة من وجوه نساء مكّة هذه المرَّة، تُحَمِّسُهُ على القتال وتثير حفيظته، ولاسيما صاحبات الثأر منهنَّ، كهند بنت عتبة، وأم الحكيم بنت الحارث بن هشام، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وبزَّة بنت مسعود بن عمير الثقفية، وريطة بنت منبه بن الحجاج، وسلافة بنت سعد وغيرهنَّ كثيرات، وكلٌ منهن قد فقدت زوجًا أو أبًا أو أخًا أوابنً أو عمًّا أو خالاً أو غيرهم من الأعزَّة والأقارب، وحاول أبو سفيان بما عرف به من كيد ودهاء

إثارة حميَّة بني عبد الدَّار أصحاب اللواء للاستبسال في الحرب، والثَّبات فيها، لأن سقوط اللواء يعني الهزيمة، أو المشارفة عليها، لذا فإن من يحمله لابد أن يكون من أقوى المقاتلين وأشجعهم وأكثرهم بأسًا وقدرة على الصمود حينما يستحرُّ الجلاد.

وكان جلّ هم قريش التمكُّن من رسول الله وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم والانتقام منهم، فالثأر الأكبر يقع على كاهلهم، بل قل برقبة المصطفى وأخيه وعمِّه عليهم السلام، إذ إن جلَّ قتلاهم في معركة بدر كان بسيوف أهل بيته، وبسبب من صعوبة الوصول إلى ذلك الهدف دعا جبير بن مطعم وهو أحد وجوه قريش غلامه وحشيًا، وكان ماهرًا بقذف الحربة على طريقة الأحباش، ووعده بالعتق إن تمكّن من حمزة رضوان الله عليه ثأرًا بعمِّه طعيمة بن عدي، وتوهينًا لجيش المسلمين، وذلك بحرمانهم من فارس معلَّم لا يشقُّ له غبار، ووعدته هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بمال كثير إن استطاع شفاء حرِّ قلبها بقتل حمزة أو علي رضوان الله تعالى عليهما، فوعدهما بحمزة لعلمه أنه لا يكترث بأحد في الحرب ولا يحذر من أحد ولا يلتفت إلى ورائه إن استعرت، ولك أن تطَّلع على تفاصيل استعدادات قريش لهذه المعركة في المصادر التي سنشير إليها لاحقًا أثناء العرض.

بل إن شاعرهم أسيد بن أبي أناس بن زُنَيم عيَّر قريشًا بما فعله المرتضى عليه السلام الذي أذاق كهولهم وفتيانهم الموت بسيفه، وقتلهم قتلاً لا يبقي ولا يذر، وقد روى ابن الأثير بسنده في أسده ٥٩٣/٣ أن أسيدًا قال:

في كلِّ مَجْمَع غايةٍ أخزاكمُ جَذَعٌ أَبَرُّ على المذاكي القُرَّحِ

لله دَرُّكُمُ أَلَمَّا تُنْكِرُوا قد يُنْكِرُ الحيُّ الكريمُ ويستَحِي
ها ابنُ فاطمةَ الذي أفناكُمُ ذَبْحًا وقِتْلة قِعْصَةٍ لم تُذْبَح
أين الكهولُ؟ وأين كلُّ دَعامةٍ في المُعْضِلات؟ وأين زَيْنُ الأبطح
أفناهم قَصْعًا وضربًا يفْري بالسيف يعمل حدَّه لم يُصْفَح

هكذا كان جيش قريش، وتلك كانت عزيمتهم بعد ذلك المصاب الجلل، وسارت جموعهم في ثلاثة آلاف تحملها الإبل، ومعها مائتان من الخيل الجياد جنَّبوها لساعة المعركة، ولما قاربت المدينة في يوم الجمعة نزلت على (عينين في جبل ببطن السَّبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة).

استعدادات المسلمين

وكانت المدينة على حذر أيضًا، تعدُّ العدَّة لذلك اليوم، وكانت عيونها تخبِّر الرسول بكلِّ تحركات قريش، بل إن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان على بيِّنة من عدَّة جيش عدوِّه وعدده، إذ تسلَّم رسالة من عمِّه العبَّاس ينبئه فيها بما أعدَّته قريش لذلك اليوم، بل إن عيونه كانت في رفقة جيشها منذ وصوله العقيق، ويبدو أن قريشًا ما عادت تطمئن لبني هاشم، فلم تشرك أحدًا منهم في صولتهم هذه.

وفي يوم السبت للنصف من شوَّال من السنة الثانية للهجرة المباركة كانت واقعة أحد كما روى ابن هشام في سيرته ٣/٦٥ عن ابن إسحاق، والواقدي في مغازيه ١/١٩٩.

وقبيل صلاة الجمعة حدَّث النبي صلوات الله وسلامه عليه صحابته رضوان الله عليهم برؤيا رآها في ليلته تلك فقال: «إني رأيت والله خيرًا رأيت

بقرًا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة »، فأوّلَ البقرَ بجمعٍ من صحابته يستشهدون، وبالثَّلْم في سيفه برجلٍ من أهل بيته يفجع بشهادته، وطلب مشورة صحابته بشأن خطة الدفاع عن المدينة، وكيفيَّة صدِّ العدوان عنها، وكثيرًا ما كان يستشيرهم في الأمور التي ليس فيها وحي أو قرآن، ولا شكَّ أن غالبيَّتهم طلبت منه الخروج للقاء عدوِّهم، ولاسيما بعد تجربتهم السابقة معه في معركة بدر، ولكن الرسول اقترح عليهم التَّحصُّن بالمدينة، كي تكون درعًا وحصنًا لهم، ووافقه على رأيه بعض صحابته، وتابعه فيه عبد الله بن أبي سلول، ولكن جمعًا منهم ممن شارك في معركة بدر أو لم يشارك رأوا مواجهة جيش الشرك خارجها، ومن بينهم حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه كما قيل، كي لا يُتَّهم المسلمون بالجبن أو الضَّعف، وأصرَّ ابن سلول على رأيه، وبسبب كثرة اللغط والأخذ والردِّ، قرَّر النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم الخروج، فقام فدخل بيته ولبس لامة حربه بعد أن فرغ من صلاتي الجمعة والعصر، أما المرتضى فعلى عادته ما كان يعترض على أخيه، أو يبدي رأيًا، أو يكون له رأي يخالف رأيه، أو يجتهد بوجوده.

وندم الجمع الذي ألح على النبي بالخروج، وشعروا بخطئهم، واعتذروا منه وتركوا الأمر له، ولكنه قال: « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ». ولعلَّ ذلك الأخذ والردَّ الذي شارك فيه وجوه الصحابة، وترهيب سعد بن معاذ وأسيد بن خضير الصحابة بسبب أخذهم على يد النبيِّ، وهو لا ينطق عن الهوى ، بل إن عدم تقديرهم الأمور حقَّ قدرها بالجدِّ الذي خرجوا فيه يوم خروجهم إلى واقعة بدر، واعتمادهم على النصر

الذي تحقق فيها، كان من أسباب فشل المسلمين في تلك المعركة، وقد عزا ابن أبي الحديد ذلك الفشل إليها، وقال: (فمن تأمّل أحوال المسلمين في هذه الغزاة... علم أنه لا انتصار لهم على العدوّ أصلاً، فإن النصر معروف بالعزم والجدّ والبصيرة في الحرب، واتفاق الكلمة، ومن تأمل أيضًا هذه الأحوال علم أنها ضدّ الأحوال التي كانت في غزوة بدر).

وتستطيع أن تقف على تفصيلات كثيرة حول واقعة أحد إن شئت في السيرة ٣/ ٣–١٤٧ والمغازي ١/ ٣٣٤ وما بعدها وطبقات ابن سعد ٢/ ٣٦– ٤٨ وأنساب الأشراف ١/ ٣٨١–٤١٠ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٩٩–٥٣٣، وشرح نهج البلاغة ١٤/ ٣٧٤–٤١٢، وغيرها من كتب السير والتاريخ.

سيف المرتضى في واقعة أحد

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

(جبرائيل)

لم تكن معركة بدر بهيِّنة الوقع على قريش كما سبق القول، فقد كانت القاصمة على الرغم من النصر الذي حقَّقته في معركة أحد، ولقد كانت معركة أحدٍ طالع سعد على المسلمين أيضًا على الرغم من جراحاتها العميقة، فما هي إلاَّ سنيَّات حتى عمَّ الإسلام الجزيرة العربية وتعدَّاها بعد عقود إلى المشرقين.

وبالمقاييس الإنسانيَّة فإن نصر بدر لم يكن وقعه بهيِّن على بعض القرشيين من الصَّحابة أيضًا، فالقيم الاجتماعية التي يتربَّى عليها الإنسان من الصعب على قيم العقيدة أن تلغيها، والأمر عينه يمكن أن يقال بشأن عواطف صلات الرحم، فالقتلى كما أسلفنا هم الأخ والأب والعمُّ والخال وأبناؤهم، وعلى الرغم من الهدف السامي الذي دارت المعركة بسببه، فإن فرسانها يعيشون بينهم، ويلتقون بهم صباح مساء، ولا شك أن ذلك ولَّدَ في داخلهم ضغائن يصعب التحرر منها أو نسيانها، أو تجاوزها، لذا لم تكن مهمَّة الرسول الكريم بهيِّنة وسط كلِّ تلك الأجواء، وقد استطاع صلوات الله وسلامه عليه احتواءها بقيم ربَّانية وخلق إسلاميٍّ أدَّبه ربُّه عليه، إلا أن نارها التي خبت لم تنطفئ، وإن خبت فإلى حين، إذ إنها مازالت تحت الرماد مشحونة بأنواع العواطف الجيَّاشة التي ما أن تخبو حتى تشبَّ ثانية في أيَّة مناسبة أو لأيِّ محرِّك يحرِّكها، ولقد تركت كراهية وحقدًا استمرًّا يتأججان بين الجوانح عقودًا بل قرونًا.

وكانت أمَّةٌ من شباب المدينة التي تخلّفت عن واقعة بدر تتحرَّق شوقًا للمشاركة بأيَّة معركة، ظنًّا منها أن النصر لا محالة حاصل بدون رويَّة وعدَّة، ولعلَّ بعضهم أحسَّ بوخز الضمير لعدم المشاركة في معركة بدر، فاضطر إلى الاعتذار بسبب أو بآخر، ولعلَّ فتيان أسر الشهداء وشبابهم وكهولهم كانت تهلّل وتكبِّر وتتمنى أن تشارك أعزتها في مواكب الزفاف إلى الجنَّة أو إلى الثأر لأعزتهم، ومثلهم أمَّة من المسلمين الذين آمنوا بالله واليوم الآخر تتمنى تلك الميتة التي وعد الله من يكتبها له جنان الخلد.

ولا شكَّ أن ذلك الرعيل الأوَّل يوم آمن آمن عن قناعة وعقيدة لا ريب فيها، وبسبب من عقيدته تلك ضحَّى بكلِّ شيء، ومازلنا نقرأ حكايات عن أنواع العذاب الذي تحمَّله لا لشيء إلاَّ بسبب تخلّيه عن ديانة الجاهلية، وإيمانه بالدين الجديد، ولكن ذلك الإيمان لم يستطع القضاء على قيم الولاء الأسري والقبلي والطبقي والاجتماعي عند غالبيتهم، ولا أدلَّ على ذلك من أن الجيوش كانت تجيَّش في الغالب بحسب القبائل، وقد مُصِّرت الأمصار بحسب هذا المبدأ أيضًا.

موقف ابن سلول وأثره في نفوس المقاتلين

اتَّجه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم بجيشه نحو أحد، وما إن سار شوطًا حتى قرَّر ابن سلول العودة بأصحابه من حيث جاء، وهم يمثّلون ثلث الجيش، وأصر على فعلته تلك لأن النبيَّ أطاع الناس وعصاه، وحاول عبد الله بن عمرو بن حرام وهو من وجوه الأنصار وأحد كبار الصحابة، ثنيه وأصحابه عن قرارهم، ولكن بدون جدوى، ولعلَّ في هذا التصرُّف خير دليل على الصراع القائم بين الولاء للعقيدة والولاء لقيم القبيلة وأحكامها،

فجماعة ابن سلول التي انحازت معه لا شكّ أنَّ قسمًا غير قليل منها كان صادقًا في إيمانه يوم أسلم، ولكنَّ العصبيَّة هي التي انتصرت في نفوسهم، ولابد أن تلك الفعلة تركت أثرها في جيش النبيّ وأضعفت عزيمته، بحيث أن نفرًا من الأنصار اقترح عليه الاستعانة بحلفائهم من اليهود، ولكنه أعرب عن عدم الحاجة إليهم، إذ لم يشأ الاستعانة على الكفر بمثله على حدِّ تعبير ابن سعد، ومضى في سبعمائة من أصحابه للقاء جيش كامل العدَّة والعدد وموحَّد الكلمة في ثلاثة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل.

وما إن وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد حتى نزل صلى الله عليه وآله وسلّم على سفحه في ربوة منه، وجعله خلف ظهره، وكانت خطته تلك في غاية الإحكام، إذ حفظ فيها جيشه من الالتفاف عليه من الخلف، وطلب من صحابته رضوان الله عليهم عدم البدء بالقتال حتى يأمرهم به، وأمَّرَ عبد الله بن جبير على خمسين رجلاً من الرماة، وطلب منهم حماية ظهر المسلمين، وعدم ترك أماكنهم فوق الجبل مهما كانت الأسباب.

تعبئة الجيشين

ذكر ابن عساكر في ترجمة الإمام عليه السلام بتاريخه ١/١٥٩–٢٠١ روايات كثيرة كلها توثّق أنَّ راية رسول الله كانت بيد عليٍّ في جميع غزواته صلوات الله وسلامه عليه، ولا يمنع أن تكون في جيش المسلمين أثناء غزواته رايات عدَّة، واحدة للمهاجرين، وأخرى للأنصار، وثالثة لرسول الله، رأيناها بيد المرتضى في معركة بدر وكانت تسمى العقاب، ولا يستبعد أيضًا أن تكون فيه رايات أخرى بحسب القبائل المشاركة في الجيش، بالإضافة إلى

اللواء، وعين الأمر كان في جيش قريش أو في الجيوش الأخرى التي التحم بها جيش المسلمين في الوقائع المختلفة.

وذكر ابن هشام أنه دفع اللواء إلى الصحابي الجليل مصعب بن عمير، وهو من بني عبد الدار أصحاب اللواء، أما ابن سعد في طبقاته ٣٨/٢-٣٩ فقال: إنه (دعا بثلاثة أرماح فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حُضير، ودفع لواء الخزرج إلى حباب بن المنذر، ويقال: إلى سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقال: إلى مصعب بن عمير)، وإلى ذلك ذهب الواقدي في مغازيه ٢١٥/١ وتابعه ابن أبي الحديد في شرحه النهج ٣٧٥/١٤، ويبدو من رواية ذكرها البلاذري في أنسابه ٣٨٧/١، ونقلها عنه ابن أبي الحديد في شرحه ٣٧٩/١٤ أن اللواء كان مع عليٍّ عليه السلام، فلمَّا علم أن لواء قريش مع بني عبد الدار أخذه منه ودفعه إلى مصعب بن عمير، ونقل الطبري في تاريخه ٥١٦/٢ وأبو الفرج في أغانيه ١٨٨/١٥ عن ابن إسحاق أن الرسول صلى الله عليه وآله أعطى اللواء إلى علي عليه السلام بعد استشهاد مصعب بن عمير رضوان الله عليه، وتابعهما في ذلك ابن الأثير في كامله ١٥٦/٢.

أما قريش فقد تعبَّأت بثلاثة آلاف مقاتل، بينهم سبعمائة دارع، ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير كما سبق القول، وشارك معهم ما يقارب الخمسين رجلاً - في إحدى الروايات - من الأوس يتقدَّمهم أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الذي فارق المدينة مع من فارقها بعد هجرة النبيِّ إليها، وقد وعد القرشيين بالتحاق قومه به وأن أحدًا منهم لن يتخلَّف عن نجدته حال وصوله إلى يثرب، وكان يلقَّب في الجاهلية بالراهب، ولكن النبيَّ صلى الله

عليه وآله وسلّم سماه بالفاسق بعد التحاقه بركب المشركين في مكّة، وما إن أعلن عن اسمه عند وصوله أحد حتى قالوا له: (لا أنعم الله لك عينًا يا فاسق) كما روى ابن هشام في السيرة ٣/٣-١٥، ويبدو أنه كان سببًا لبدء الحرب بين الفريقين كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/٤٠.

على أبواب النصر

كان على ميمنة جيش الشرك خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وحينما تدانى الجيشان، صاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء وكبش الكتيبة: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب سلام الله عليه فالتقيا بين الصَّفين فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع، وتركه وبه رمق ولم يجهز عليه إذ استقبله بعورته، ولم يكتف بذلك وإنما سأله بالرحم التي تربطه به عدم قتله، غير أن تلك الضربة الهائلة لم تتركه طويلاً إذ سرعان ما فارق الحياة، فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بذلك وكبَّر، وكبَّر المسلمون معه، كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه ٢/٥٠٩-٥١٠، وابن الأثير في كامله ٢/١٥٢، وهي ليست المرَّة الأولى التي لا يجهز فيها أبو الحسن عليه السلام على مبارز استقبله بعورته، إذ كان يتمتع بحياء وخلق رفيع يمنعانه من الإجهاز على عدوٍّ يحتمي منه بها، بل كان يأمر جيشه بعدم الإجهاز على أي رجل يحتمي بها في الحروب التي قادها.

وقد أشاد بتلك الضربة المزلزلة، وبما فعله المرتضى بجيش قريش الحجاج بن علاط السلمي في أبيات مدحه بها ذكرها ابن هشام في سيرته ٣/١٢٧، رواية عن أبي عبيدة:

لله أي مُذَبّبٍ عن حرمة ... أعني ابن فاطمة المُعمَّ المُخوِلا

سبقت يداك له بعاجل طعنة　　　تركت طُلَيْحةَ للجبينِ مُجَدَّلا
وشددت شدَّة باسلٍ فكشفتَهم　　　بالجر إذ يهوون أخْولَ أخولا

ثمَّ حمل لواء المشركين عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة بن عبد المطَّلب رضوان الله عليه -في رواية - فضربه ضربة هائلة بسيفه على كاهله فقطع يده وكتفه حتى بدت رئته، ورجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج.

وشدُّوا على كتائب المشركين، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/٤٠-٤١ والواقدي في مغازيه ١/٢٥٥ وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٨١، وذكر الطبري في تاريخه ٢/٥١٣: (واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس، وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين، فأنزل الله عزَّ وجلَّ نصره، فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم، وكانت الهزيمة لا شكَّ فيها).

ولقد سُجِّلت في تلك المعركة الضَّارية بطولات تحدَّثت عنها كتب السيرة بإسهاب، شارك فيها نفر من المهاجرين والأنصار، وكاد النصر يكون حليف المسلمين، لولا انكشاف ظهورهم بسبب ترك الرماة أماكنهم طمعًا بالغنائم، وقد روى ابن إسحاق عن الزبير بن العوَّام أنه قال: (والله لقد رأيتني أنظر إلى هند بنت عتبة وصواحبها مشمِّرات هوارب ما دون أخذهنَّ قليل ولا كثير إذ مالت الرماة من العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلُّو ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم)، وذكر كثيرًا من هذا ابن هشام في السيرة ٣/٢٨ وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٨٠.

انسحاب جيش المسلمين

وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم تحت راية الأنصار عند اشتداد القتال، وطلب من أخيه أن يتقدّم باللواء، وما إن شعر خالد بن الوليد بترك الرماة أماكنهم حتى التفّ من الخلف، فكرّ المنهزمون من جديد، وأصبح جيش المسلمين هدفًا سائغًا لجيش الشرك بعد أن أصبح بين المطرقة والسندان، وصمد سيد الشهداء حمزة رضوان الله عليه صمودًا أسطوريًا سيبقى من أحاديث التاريخ حول شجاعة البيت الهاشمي وفروسيّتهم، ولولا ما عرف به من عدم الالتفات في الحرب إلى ما ورائه لما استطاعت حربة وحشي التمكّن منه، فسقط ذلك الجبل الأشم بطعنة الغدر التي هيّأتها له قريش قبل يومه، وكانت فرصة لهند بنت عتبة احتفت فيها بالتمثيل بجسده أبشع تمثيل كان مثالاً لحكايات الحقد والانتقام من بعد، كما مثّلت هي وصويحباتها بقتلى المسلمين، أما ما فعلته بحمزة رضوان الله عليه فقد شقّت بطنه وأخذت قطعة من كبده فلاكتها ثمّ لفظتها، وجدعت أنفه وأذنيه، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٥٦/٣ -٦١، ولا أحدثك عن غضب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وحزنه بسبب تمثيل المشركين بجسد عمه خاصّة وبقية صحابته من الشهداء عامّة، حتى قال: «لأن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم»، وثنّى المقاتلون من صحابته على قسمه، ولكن الله أنزل قرآنًا نهى فيه عن المثلة فعفا النبيّ ونهى عنها، وصلّى على الشهداء وتمّ دفنهم رضوان الله عليهم في مكانهم.

وكانت فجيعة الزهراء ووالدها وبعلها صلوات الله وسلامه عليهم لا توصف، ولقد بكته أحرّ البكاء، ولعلّ حزنها عليه رافقها إلى أن رحلت

عليها السلام، وكانت تكثر من زيارته كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/٢٩٠، ٣١٣، بل إن الحاكم في مستدركه ١/٣٧٧ ذكر أنها (كانت تزور قبره كلَّ جمعة فتصلّي وتبكي عنده)، والتحق به الصَّحابي الجليل مصعب بن عمير رضوان الله عليه، بعد أن قاتل قتالاً مستميتًا، وسجِّلت لقزمان - وهو من منافقي المدينة، ولكنه اندفع إلى المعركة بعد أن عيَّرته النساء على تخلفه - ولأبي دجانة، وعاصم وغيرهم من فرسان الأنصار مواقف في الجهاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم تبقى خالدة خلود سيرته المباركة، ولكن جيش المسلمين بعد تلك الدَّهشة التي أصيب بها لم يستطع الثَّبات، فانهزم لا يلوي على شيء، ودافع عن النبيّ من ثبت معه دفاعًا مستميتًا كما ذكر ابن هشام في السيرة ٣/١٦–٢٣ وغيره.

ونقل أبو الفرج في أغانيه ١٥/١٨٨ أنه لمَّا استشهد مصعب بن عمير رضوان الله تعالى عليه (أعطى رسول الله صلى عليه وسلَّم اللواء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام).

وانسحب جيش المسلمين بصعوبة شديدة إلى أعلى الجبل، وأنقذت النبيَّ الجماعة التي ثبتت معه، وهي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، بل هي الإمام سلام الله عليه وحده في إحدى الروايات، وهي حصرًا في أبي دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت وطلحة بن عبيد الله ونسيبة بنت كعب، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم، فحملته من كبوته بسبب الجراح التي أصيب بها إلى أعلى الجبل كما ذكر ابن هشام في السيرة ٣/٢٢–٩٧.

بل إن أبا جعفر الإسكافي ذكر في نقض العثمانية التي نقلها ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٩١، ٢٠٣ أن جمهور الرواة يروون (أنه لم يبق مع

النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ علي وطلحة والزبير، وأبو دجانة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم من أثبت سادسًا، وهو المقداد بن عمرو، وروى يحيى بن سلمة بن كهيل قال: قلت لأبي كم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد؟ فقال: اثنان، قلت: من هما؟ قال: علي وأبو دجانة).

ولا شك أنه في غمرة تلك الدهشة المروعة التي أصيب بها جيش المسلمين، بسبب الالتفاف، والإعلان عن استشهاد النبيّ صلوات الله وسلامه عليه، ومصرع حمزة سيد الشهداء، يكون من الصعب تقدير غير فرار جميع المسلمين، ومن السهل أن نقدّر أنه لم يكن في ساعة النّازلة عدد كبير من صحابته رضوان الله عليهم بجانبه فغالبيتهم كان مشتبكًا في قتال مع المشركين، أو منهزمًا لا يلوي على شيء، وعلى هذا الأساس نستطيع تفسير اختلاف الروايات التي ذكرتها كتب السيرة بشأن من ثبت مع رسول الله ومن تنحّى عنه، ثمّ ثاب إليه من بعد أو لم يثب.

وروى ابن هشام في سيرته ٣١/٣ أن أبا سعيد الخدري قال: (إن عتبة بن أبي وقّاص رمى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ فكسر رباعيَّته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن شهاب الزهري شجَّه في جبهته، وإن ابن قمئة جرح وجنته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري الدم عن

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ ازدرده فقال رسول الله: «من مسَّ دمه دمي لم تصبه النَّار»).

ودارت حكايات وقصص وروايات حول من ثبت ومن انهزم من المسلمين، وحول من شارك فيها مشاركة فاعلة، وحول من لم يشارك وكان في طليعة المنهزمين، ورأيت توثيق الأحداث من مصادر تحظى بقبول جمهور المسلمين، وإن كان لي موقف من رواياتها وأخبارها سواء أكان ذلك في هذه الواقعة أم في غيرها، على أن ما يهمني منها الأخبار التي تتعلّق بأبي الحسنين ودوره، ولابد أن أتعرض لغيره لإبراز الفرق بين الدورين إذا اضطرتني سيرته عليه السلام لذلك.

فمما ذكره الواقدي في مغازيه ٢٥٦/١ على لسان المرتضى عليه السلام قوله: (لقد رأيتني يومئذ وإني لأذُبُّهم في ناحية، وإن أبا دجانة لفي ناحية يذُبُّ طائفة منهم، وأن سعد بن أبي وقّاص يذبُّ طائفة منهم، حتى فرَّج الله ذلك كله. ولقد رأيتني وانفردَتْ منهم يومئذ فِرقة خشناءُ فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخلتُ وسْطها بالسيف فضربت به واشتملوا عليَّ حتى أفضيتُ إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية حتى رجعت من حيث جئت، ولكن الأجل استأخر ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً).

وذكر أيضًا في ٢٧٩/١ أن الإمام عليه السلام قال: (لما كان يوم أحد وجال الناس تلك الجولة أقبل أمية بن أبي حُذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنَّع في الحديد، ما يُرى منه إلاّ عيناه، وهو يقول: يوم بيوم بدر. فيعترض له رجل من المسلمين فيقتله أمية. قال علي عليه السلام: وأصمد له فأضربه بالسيف على هامته - وعليه بيضة وتحت البيضة مِغْفَر - فنبا سيفي، وكنت رجلاً

قصيرًا. ويضربني بسيفه فأتّقي بالدَّرَقة، فلحِجَ سيفه فأضربه، وكانت درعه مُشمَّرة، فأقطع رجليه، ووقع فجعل يعالج سيفه حتى خلَّصه من الدرقة، وجعل يناوشني وهو بارك على ركبتيه، حتى نظرت إلى فتْق تحت إبطه فأخشُّ بالسيف فيه، فمال ومات وانصرفت عنه).

وذكر في مغازيه ١/ ٢٨٣ أيضًا أن الرسول صلى الله عليه وآله سأل إن كان لأحد علم بذكوان بن عبد قيس؟ (قال علي عليه السلام: أنا رأيت يا رسول الله، فارسًا يركض في أثره حتى لحقه وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ! فحمل عليه بفرسه، وذكوان راجلٌ، فضربه وهو يقول: خذها وأنا ابن عِلاج! فأهويت إليه وهو فارس، فضربت رجله بالسيف حتى قطعتها عن نصف الفخذ، ثم طرحته من فرسه فذففت عليه، وإذا هو أبو الحكم بن الأخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي).

وذكر ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣٢: (وكان علي ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يوم أحدٍ حين انهزم الناس، وبايعه على الموت)، وبايعه على الموت بين يديه في تلك الساعة أيضًا كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ٣٨٩ : (ثمانية علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة، والحارث بن الصمة، وحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، فلم يقتل أحد منهم)، وروى ابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٥٩٣ بسنده عن سعيد بن المسيَّب قال: (لقد أصابت عليًّا يوم أحد ستَّ عشرة ضربة كل ضربة تلزمه الأرض، فما كان يرفعه إلا جبريل عليه السلام)، وروى في أسده ٣/ ٥٩٤ بسنده أيضًا عن عكرمة قال: (قال علي: لما تخلّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقلت: والله ما كان ليفرَّ وما أراه في القتلى، ولكن الله غَضِبَ علينا بما صنعنا فرفع نبيَّه، فما فيَّ خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جَفن سيفي، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلّم بينهم).

وذكر الواقدي في إحدى رواياته بمغازيه ١/ ٢٤٠: إن سبعة من المهاجرين ومثلهم من الأنصار ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في ذلك اليوم العصيب وهم: (أبو بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام؛ ومن الأنصار الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، ويقال ثبت سعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، فيجعلونهما مكان أُسيد بن حضير وسعد بن مُعاذ). ولكنه عاد فقال في الصفحة نفسها أيضًا: (وبايعه يومئذ على الموت ثمانية؛ ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار: عليٌّ، والزبير، وطلحة عليهم السلام، وأبو دُجانة، والحارث بن الصمّة، وحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حُنيف، فلم يقتل منهم أحد).

ما بعد الانسحاب

وعلى الرغم من الجراح المميتة التي أصابت المرتضى فإن رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما طلب منه الخروج في آثار القوم بعد توقُّف القتال ليرى (إن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكّة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة)، وقال صلى الله عليه وآله: « والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنَّهم »، (قال

علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكَّة) كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/٥٤، والطبري في تاريخه ٢/٥٢٧ وأبو الفرج في أغانيه ١٥/١٩٤. ومن معجزات الله سبحانه وتعالى استطاعته الخروج بعد كلّ الدماء التي نزفها وآلام الجراح التي كان يعاني منها.

وأستنتج من الإحصاء الذي ذكره ابن هشام في سيرته ٣/٩٥–٩٧ عن ابن إسحاق أن قتلى المشركين في معركة أحد اثنان وعشرون رجلاً، ولك أن تنظر في قتلاهم أيضًا أنساب البلاذري ١/٤٠٧–٤٠٨ ومغازي الواقدي ١/٣٠٧ وغيرها.

– قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أُبَيَّ بن خلف بيده، وقتل عمرو بن عبد الله بن عمير صبرًا.

– وشارك خمسة من المهاجرين، هم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود، في قتل بعض من قتل من المشركين.

أما سعد بن أبي وقّاص فقال ابن إسحاق: إنه قتل أبا سعد بن أبي طلحة من بني عبد الدَّار، وقد رجَّح ابن هشام في سيرته ٣/٢٢ أن قاتله مبارزة علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكنه ذكر أيضًا أن ابن إسحاق قال: إن سعد بن أبي وقاص رماه بسهم أصاب حنجرته، وإلى ذلك ذهب البلاذري في أنسابه ١/٤٠٧ والواقدي في مغازيه ١/٢٢٧ وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٨٢، ونقل ما روي على لسان سعد (ثم ضربته حتى قتلته، وأخذت أسلبه درعه، فنهض إليَّ سُبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعوني سلبه، وكان أجود سلب رجل من المشركين: درع فضفاضة، ومغفر وسيف جيِّد ولكن

حيل بيني وبينه)، وعلّق ابن أبي الحديد بقوله: (شتان بين علي وسعد! هذا يجاحش على السلب ويتأسف على فواته، وذلك يقتل عمرو بن عبد ودّ يوم الخندق، وهو فارس قريش وصنديدها مبارزة فيعرض عن سلبه، فيقال له: كيف تركت سَلَبَه وهو أنفس سلب؟ فيقول: كرهت أن أبزَّ السّبِيَّ ثيابه، فكأن حبيبًا عناه بقوله:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب)

أما عبد الرحمن بن عوف فقال ابن هشام في سيرته ٣/٩٤: إنه قتل كلاب بن طلحة، وخالفه ابن إسحاق فقال: إنَّ قاتله قزمان حليف لبني ظفر، وأما البلاذري في أنسابه ١/٤٠٧ فقال: قتله الزبير بن العوام، وأما عبد الله بن مسعود فقال ابن هشام : إنه قتل عبيدة بن جابر من بني عامر بن لؤي، وأما ابن إسحاق فقال: إن قاتله قزمان.، ولم يرد في أنساب البلاذري ١/٤٠٨ اسم عبيدة بن جابر من بني عامر بن لؤي، ولذي ورد عبيد بن حاجز قال: قتله أبو دجانة.

وأضاف البلاذري في أنسابه ١/٤٠٧ سادسًا وسابعًا، أما السادس فهو الزبير بن العوام وقال: إنه قتل كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، وإلى ذلك ذهب أيضًا ابن سعد في طبقاته ٢/٤١، والواقدي في مغازيه ١/٢٢٨ ولكن ابن هشام نقل في سيرته ٣/٩٥ عن ابن إسحاق أن قاتله قزمان. وأما السابع فهو طلحة بن عبيد الله وقال: إنه قتل جلاس بن طلحة بن أبي طلحة، وإلى ذلك ذهب أيضًا ابن سعد في طبقاته ٢/٤١، والواقدي في مغازيه ١/٢٨٨، ولكن ابن هشام نقل في سيرته ٣/٩٥ عن ابن إسحاق أن جلاّسًا هذا قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وذكر البلاذري في أنسابه ١/٤٠٨ أن طلحة

قتل أيضًا شيبة بن مالك بن الضرب من بني عامر بن لؤي، غير أن ابن هشام ذكر في سيرته ٣/٩٧ عن ابن إسحاق أن قاتله قزمان.

وقتل علي بن أبي طالب عليه السلام من ذلك المجموع برواية ابن إسحاق:

١- طلحة بن أبي طلحة وهو من بني عبد الدار، صاحب لواء المشركين يوم أحد وذكره الواقدي في مغازيه ١/٣٠٧ وتابعه ابن الأثير في كامله ٢/١٥٢ أيضًا.

٢- عبد الله بن حميد من بني أسد بن عبد العزى، ولكن الواقدي في مغازيه ١/٣٠٧ قال: قتله أبو دجانة.

٣- أبا الحكم بن الأخنس الثقفي وذكره الواقدي في مغازيه ١/٣٠٨ أيضًا.

٤- أبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم، ويبدو أن قتله كان بعد انسحاب جيش المسلمين، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ١/٣٩٨ :(وجعل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي يقول: يوم بيوم بدر، فشدَّ عليه علي عليه السلام، فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أنا ابن العواتك»)، وإلى ذلك ذهب الواقدي في مغازيه ١/٣٠٨.

واستثنى البلاذري من المجموع، عبد الله بن حميد فقال: قتله أبو دجانة، وذكر أن ابن الكلبي قال: قتل يوم بدر، أما إذا أردنا أن نأخذ برواية الطبري وابن أبي الحديد وابن الأثير التي سنأتي على ذكرها، فسيتضاعف عدد قتلى سيف الإمام مرَّات ومرَّات.

واختلف في:

١- أبي سعد بن أبي طلحة فقيل: قتله سعد بن أبي وقاص في رواية ابن إسحاق، وقيل: قتله علي بن أبي طالب في رواية ابن هشام، وسبق أن ذكرنا أن ابن هشام روى في سيرته ٣/٢٢ أن عليًّا صرعه مبارزة، فكشف عورته

فحاد عنه ولم يجهز عليه، ولكنه مات من تلك الضربة، وذكر رواية أخرى تؤيد قتله بسيف علي عليه السلام. ولكن البلاذري في أنسابه ١/٤٠٧ قال: قتله سعد بن أبي وقاص وكذا قال ابن سعد في طبقاته ٢/٤١.

٢– صؤاب غلام هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. قال ابن إسحاق: قتله قزمان، وقال ابن هشام: ويقال: قتله علي بن أبي طالب، ويقال سعد بن أبي وقاص، ويقال أبو دجانة، ونقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٨٣ ما قاله الواقدي في مغازيه ١/٢٨٨ بشأن الاختلاف في مقتل صؤاب فقال: قيل: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وقيل: سعد بن أبي وقاص، وقيل: قزمان وهو أثبت الأقوال، وإلى هذا ذهب ابن سعد في طبقاته ٢/٤١.

٣– وذكر البلاذري أن عليًا عليه السلام قتل أيضًا قاسط بن شريح بن عثمان بن عبد الدار، قال: ويقال غيره.

٤– أرطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف، قيل: قتله علي، وإلى ذلك ذهب والواقدي في مغازيه ١/٢٨٨ والبلاذري في أنسابه ١/٤٠٧ وتابعهما ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤/٣٨٣، وإلى ذلك ذهب أيضًا ابن سعد في طبقاته ٢/٤١، أما ابن هشام فذكر في سيرته ٣/٩٦ أن قاتله حمزة سيد الشهداء.

وذكر ابن هشام في سيرته ٩٥: ٢–٩٦ أن حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه قتل:

١– عثمان بن أبي طلحة. وإلى ذلك ذهب ابن سعد في طبقاته ٢/٤٠ والبلاذري في أنسابه ١/٤٠٧.

٢– سباع بن عبد العزى حليف بني زهرة. وأيَّده البلاذري في أنسابه ١/٤٠٧.

أما بقية قتلى قريش فذكر ابن إسحاق وتابعه ابن هشام وغيرهما أنهم من قتلى سيوف الأنصار، فقتل قزمان ثمانية منهم، وقيل: سبعة، وقتل الباقين عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وأبو دجانة (ينظر في أسماء من قتل من المشركين بأحد السيرة ٣/٩٥–٩٧، أنساب الأشراف ١/٤٠٧ طبقات ابن سعد ٢/٤٢–٤٨ شرح نهج البلاغة ١٤/٣٨٠–٤١٢).

من حكايات الصمود الفداء

وتستطيع أن تستنتج من جميع كتب السيرة التي تحدَّثت عن هذه المعركة أن السيوف الحقيقية في جيش المسلمين الذي بلغ السبعمائة مقاتل هي سيوف علي وحمزة وأبي دجانة وقزمان وعاصم بن ثابت، وتليها سيوف سعد بن أبي وقّاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، ولقد أسهبت كثير من المصادر في الحديث عن بطولات المرتضى وتضحياته في هذه المعركة، وما أصيب فيها من جراح، وعن صموده مع النبيّ، والوسام الذي وشحه به جبرائيل حين شقَّ أجواء أحد وهو ينادي:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

فروى ابن أبي الحديد في شرحه النهج ١٤/٣٩١–٣٩٢ عن محمد بن حبيب في أماليه وأبي عمر الزاهد موقفًا للإمام بعدما فرَّ أصحاب النبيِّ عنه جدير بالنقل: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرَّ معظم أصحابه عنه يوم أحد، وكثرت عليه كتائب المشركين، وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة، فيها بنو سفيان بن عُويف؛ وهم: خالد بن سفيان، وأبو الشعثاء وأبو الحمراء بن سفيان، وغراب بن سفيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي اكفني هذه الكتيبة، فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين

فارسًا وهو عليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه ثم تجتمع عليه هكذا مرارًا حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة، وتمام العشرة منها، ممن لا يعرف بأسمائهم، فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبرائيل عليه السلام وأنا منكما. وسمع ذلك اليوم صوت من قِبَلِ السماء، لا يرى شخص الصارخ به، ينادي مرارًا:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا جبرائيل.

قلت: وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدِّثين وهو من الأخبار المشهورة، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق، ورأيت بعضها خاليًا عنه، وسألت شيخي عبد الوهاب بن سكينة رحمه الله عن هذا الخبر، فقال: خبر صحيح، فقلت: فما بال الصحاح لم تشتمل عليه؟ قال: أو كلّما كان صحيحًا تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة!).

ونقل الخبر السابق بصورة مقاربة عن محمد بن جرير في تاريخه ٢/٥١٤ يرفعه إلى محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده وتابعه أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ١٥/١٨٦–١٨٧ وابن الأثير في كامله ٢/١٥٢، ١٥٤، ١٥٤: (لما قَتَلَ علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل ففرق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله بن الجمحي. قال: ثم أبصر رسول

الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم، فحمل عليٌّ ففرق جمعهم وقتل شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي، فقال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، إن هذه للمواساة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّه مني وأنا منه، فقال جبريل وأنا منكم قال: فسمعوا صوتًا:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي).

وذكر ابن هشام في سيرته ٣/ ٦٥ أن بعض أهل العلم حدَّثوه أن ابن أبي نجيح قال: (نادى منادٍ يوم أحد:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٣١٨: (وقد قاتل علي يوم أحد قتالاً شديدًا، وقتل خلقًا كثيرًا من المشركين، وغسل عن وجه النبي صلى الله عليه وسلَّم الدم الذي كان أصابه من الجراح حين شجَّ في وجهه)، وقد وثَّق خبر قتله عليه السلام أصحاب الألوية وقول جبريل (وأنا منكما) أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٢٥ برقم ٢٤٣.

وروى المجلسي في بحاره ٢٠/ ٥١ أيضًا أن أبا الحسن قتل في هذه الواقعة من أصحاب الألوية طلحة وأبا سعيد وعثمان ومسافع والحارث أبناء أبي طلحةَ، وعزيز بن عثمان وعبد الله بن جميلة بن زهير وأرطأة بن شرحبيل وكلهم من بني عبد الدار، فأخذها مولاهم صؤاب فقتله أيضًا، ولما انكسر سيفه عليه السلام في هذه الواقعة أعطاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم سيفه ذا الفقار يقاتل به، ولقد أصيب في هذه الواقعة على رواية المجلسي في بحاره ٢٠/ ٥٤ بتسعين جراحة، وروى أيضًا في٢٠/ ٨٦ عن عكرمة أن

المرتضى جزع جزعًا شديدًا لمّا انهزم الناس، واندفع يضرب بسيفه، ثم رجع كي يطمئن على أخيه صلى الله عليه وآله فلم يره، وظنّه قد رفع إلى السماء فحاشاه أن يفرَّ ولم يكن قد رآه بين القتلى، فكسر جفن سيفه، واندفع في القوم، فلمَّا أفرجوا له رأى الرسول مغميًا عليه بسبب الجراح التي أصيب بها، فقام على رأسه، فأفاق، وسأله عن الناس فأخبره بهزيمتهم، ويبدو أن الحزن بلغ من الرسول مبلغه حتى قال لأخيه: مالك لا تذهب مع القوم، ثمَّ اندفع يردَّ عنه الكتائب التي أقبلت نحوه يضرب فيها يمينًا وشمالاً. إلى أن رجع إليه بعض صحابته بعد تلك الدَّهشة التي أخذتهم كلَّ مأخذ.

ولقد سجِّلت في هذه الواقعة مواقف جديرة باعتزاز المسلمين أيضًا، لأبي دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت ونسيبة بنت كعب المازنية وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبي وقّاص، وحسيل بن جابر وثابت بن وقش وهما شيخان كبيران آثرا الشهادة على البقاء في الآطام مع الصبية والنساء، ويهودي من بني ثعلبة اسمه مهريق الذي أوصى لرسول الله بماله إن قتل في الواقعة، وأصيرم من بني عبد الأشهل الذي أسلم في يوم الواقعة واستشهد بها، وعمرو بن الجموح وكان شديد العرج منعه أولاده الأربعة من الخروج وهم من المجاهدين، فطلبه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فنال الشهادة فيها كما ذكر ابن هشام في السيرة ٣/ ٣٤-٤٩.

ويقابل هذا الصمود والإصرار على الشهادة، تنحّي بعض كبار الصحابة أو فرارهم منها، فعمر بن الخطاب يذكر موقف ضرار بن الخطاب الفهري الذي تمكّن منه أثناء فراره ولم يقتله، فقد ذكر ابن هشام في سيرته ٢/ ٢٨ (كان ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري لحق عمر بن الخطّاب يوم أحد،

فجعل يضربه بعرض الرمح، ويقول: انج يا ابن الخطاب لا أقتلك، فكان عمر يعرفها له بعد إسلامه)، وروى البلاذري في أنسابه ١/٣٩٨: (وكان ممن ولّى يوم أحد: الحارث بن حاطب، وثعلبة بن حاطب، وسواد بن غزية، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيظي في نفر من بني حارثة، فلقيتهم أم أيمن فجعلت تحثو التراب في وجوههم وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزل به، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه ممن ولّى يوم أحد، فعفا الله عنه في عدّة من الناس)، وروى المجلسي في بحاره ٢٠ /٨٤ أن زيد بن وهب قال لابن مسعود: (انهزم الناس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله حتى لم يبق معه إلاّ علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسهل بن حنيف، فقال: انهزم الناس إلاّ علي بن أبي طالب وحده، وثاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نفر، وكان أوّلهم عاصم بن ثابت، وأبا دجانة، وسهل بن حنيف، ولحقهم طلحة بن عبيد الله، فقلت له: وأين أبو بكر وعمر؟ قال: كانا ممن تنحّى، قلت: وأين كان عثمان؟ قال: جاء بعد ثالثة من الوقعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «لقد ذهبت فيها عريضة»)، قال زيد بن وهب: (وأين كنت؟ قال: كنت ممن تنحّى، قلت له: فمن حدّثك بهذا؟ قال: عاصم وسهل بن حنيف، قال: قلت له: إن ثبوت علي عليه السلام في ذلك المقام لعجب، فقال: إن تعجّبت من ذلك فقد تعجّبت منه الملائكة، أما علمت أن جبريل عليه السلام قال في ذلك اليوم، وهو يعرج إلى السماء:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

قلت له: فمن أين علم ذلك من جبريل؟ فقال: سمع الناس صائحًا يصيح في السماء بذلك، فسألوا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلّم عنه فقال: ذلك جبريل).

وقد أيّد بعض هذا ابن الأثير في كامله ١٥٨/٢ فقال: (وانتهت الهزيمة بجماعة من المسلمين، فيهم عثمان بن عفان وغيره، إلى الأعوص، فأقاموا به ثلاثًا ثمَّ أتوا النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فقال لهم حين رآهم: «لقد ذهبتم فيها عريضة»).

وروى الطبري في تاريخه ٥١٩/٢ بسنده عن السُّدّي قال: (وتفرّق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصّخرة فأقاموا عليها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يدعو الناس: إليَّ يا عباد الله! إليَّ يا عباد الله).

ويؤيد رواية المجلسي السابقة الذكر من ثوبة بعض صحابته رضوان الله عليهم ما رواه ابن هشام في سيرته ٣٧/٣ عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن رافع أخو بني النجار قال: (انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل)، وقد ذكرها أيضًا الطبري في تاريخه ٥١٧/٢ وابن الأثير في كامله ١٥٦/٢.

ولقد أصيب المسلمون بدهشة عظيمة أثناء شيوع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلّم خاصّة، وسقط ما بأيديهم ولكنهم سرعان ما ثابوا إلى

رشدهم بعد انتشار خبر سلامته وصمود عليٍّ عليه السلام ذلك الصمود الأسطوري فسارع نفر من الصحابة إليه فنهضوا به إلى فم الشعب على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٩/٣ رواية عن ابن إسحاق.

وذكر ابن هشام في سيرته ٤١/٣ وتابعه الطبري في تاريخه ٥١٩/٢ أنّه لما انتهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى فم الشعب (خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ملأ دَرَقَته ماء من المهراس فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصبَّ على رأسه وهو يقول: اشتدَّ غضب الله على من دمىً وجه نبيه).

وصدق المصطفى يوم قال لأخيه صلوات الله وسلامه عليهما: «لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا» كما ذكر ابن هشام في سيرته ٦٥/٣، فما هي إلاّ سنيات حتى كان الفتح العظيم.

وكان معاوية بن المغيرة ممن مثلوا بجسد سيد الشهداء حمزة رضوان الله عليه، وتشاء قدرة الله تعالى أن ينهزم يوم أحد، وبات قريبًا من المدينة، فجاء إلى عثمان ليجيره، كما ذكر البلاذري في أنسابه ٤١٠/١ وابن الأثير في كامله ١٦٥/٢ فأدخله داره، وصيَّره في ناحية منها ثم خرج كي يطلب له الأمان كما قال: فسمع الرسول يقول: « إن معاوية بالمدينة وقد أصبح بها، فاطلبوه» قال البلاذري: (فقال بعضهم: ما كان ليعدو منزل عثمان، فاطلبوه فيه، فدخل منزل عثمان، فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيَّره عثمان فيه، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال عثمان حين رآه، والذي بعثك بالحقّ ما جئت إلاّ لأطلب له

الأمان منك، فهبه لي، فوهبه له، وأجّله ثلاثًا، وأقسم لئن وجد بعدها بشيء من أرض المدينة وما حولها ليقتلنّ، وخرج عثمان، فجهّزه واشترى له بعيرًا، ثم قال له: ارتحل، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد، وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ويأتي بها قريشًا، فلما كان اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن معاوية أصبح قريبًا ولم ينفذ، فاطلبوه، واقتلوه»، فأصابوه قد أخطأ الطريق، فأدركوه، وكان اللذان أسرعا في طلبه زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمار بن ياسر فأخذاه ..فضربه زيد بن حارثة، وقال عمار بن ياسر: إن لي فيه حقًا، ورماه بسهم فقتلاه... ومعاوية هذا هو أبو عائشة أم عبد الملك بن مروان)، وقال البلاذري في أنسابه ١/ ٤١١ (ويقال: إن الذي قتل معاوية بن المغيرة عليٌّ عليه السلام).

ويبدو أنه بعد فرار من فرَّ من جيش المسلمين وصلت أخبار المعركة إلى المدينة، فلم تستطع الزهراء سلام الله عليها البقاء فيها، فخرجت في نسوة لمعرفة ما حلَّ بأبيها صلى الله عليه وآله وسلّم، فلمّا رأت الدم على وجهه الشريف جاءت بإناء فيه ماء غسل وجهه به، والتحق به أبو الحسن ينوء بجراحاته، فسلّم سيفه للزهراء، وقال لها: خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم، فقال الرسول: « خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش» على ما ذكر المجلسي في بحاره ٨٨/٢٠ والرواية في السيرة ٦٤/٣ عن ابن إسحاق أن المرتضى ناول سيفه إلى الزهراء، وقال لها: (اغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لئن صدقت القتال لقد

صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة») ، وتابعه الطبري في تاريخه ٢/٥٣٣.

وذكر ابن هشام في سيرته ٣/٧٢-٩٠ أن الله سبحانه وتعالى أنزل في يوم أحد ستين آية من سورة آل عمران.

أما ذو الفقار فقد غنمه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في غزوة بدر وكان لمنبه بن الحجاج، وقيل لأخيه نبيه، وقيل: للعاص بن منبه بن الحجاج، كما روى البلاذري في أنسابه ٢/١٧٥ ، وذكر الواقدي في مغازيه ١/١٠٣ أنه لمنبِّه بن الحجَّاج السهمي، وأيًا كان القول فالراجح أن الثلاثة قتلهم الإمام في واقعة بدر، ويبدو أنَّ السيف انتقل إلى علي بن الحسين من جدِّه عليهما السلام، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٤٨٦ ، ثمَّ انتقل إلى محمد ذي النفس الزكيَّة ، فقد ذكر ابن خلّكان في وفياته ٦/٣٣٠ أنه قد ورثه ، وكان معه في ثورته على أبي جعفر المنصور، وفي حينها كان مدينًا لأحد التجار بأربعمائة دينار ، فلمَّا شعر بدنوِّ أجله أعطى السيف لذلك التاجر فاشتراه منه جعفر بن سليمان بالمبلغ المذكور، فوصل إلى المهدي ، ومنه إلى هارون الرشيد ، ويقال : إنه موجود في قسم الودائع المقدسة بمتحف طب قبي سراي باستنبول، وقد رأيت في المتحف المذكور سيفًا كتب على لوحة الصندوق المحفوظ به أنه ذو الفقار، والله أعلم.

تدابير ما بعد واقعة أحد

الخروج إلى حمراء الأسد

كان لزامًا أن يتخذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم قرارًا يخفّفُ فيه من هول جراحات تلك الواقعة، ويعيد لصحابته الثقة بقدرتهم على الصمود والاستمرار في نشر دعوتهم والدفاع عنها ضدّ الاستكبار القرشي، وفي الوقت ذاته يكسر من حدَّة الزهو الذي عادت به قريش، ويبثُّ في نفوس قادتهم الرعب والخوف، ويعلمهم أن النصر الذي حقّقوه لم يكن إلاّ كبوة عابرة لن تفلَّ في عضد المسلمين، ولعلّه أيضًا كان يرتقب كرَّة من عدوّه لابد أن يتهيَّأ لها.

ويسبب من موقف ابن سلول ومن تابعه من المنافقين الذين كان لهم دورهم في إضعاف عزيمة جيش المسلمين وذلك بانسلاخهم منه بعد خروجهم معه قرَّر تلقينهم درسًا حاسمًا، وذلك بعدم قبوله مشاركة أي رجل في هذه الغزوة إلاَّ من كان معه في غزوة أحد، وكان قاطعًا في طلبه، ولم يستجب إلاّ إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الذي تخلّف عن أحد بطلب من أبيه الذي خلّفه على بناته السبع، فأذن له الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، وهو إجراء من سيد الحكماء يقي فيه جيشه هزَّة تفلُّ من عضده إن حدث حادث ينسلخ المنافقون فيه عن الجيش ثانية، ولكلّ تلك الأسباب قرر - في يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال في رواية ابن هشام بسيرته ٦٥/٣، أو لثمان خلون منه في رواية الواقدي بمغازيه ٣٣٤/١، أو لثمان أو تسع منه في رواية البلاذري بأنسابه ٤١٣/١، أي بعد مرور ليلة واحدة على

معركة أحد - المسير لعدوِّهم فيه، وقال الواقدي في مغازيه ٣٣٦/١ (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلّم بلوائه، وهو معقود لم يُحَلَّ من الأمس، فدفعه إلى علي عليه السلام، ويقال: دفعه إلى أبي بكر)، والقول في دفعه لأبي بكر لم أقف عليه عند غيره.

وعلى الرغم من الجراحات التي كان ينوء بها غالبية صحابته فإنهم تسابقوا لتلبية ندائه، وحينما انتهى إلى موضع يقال له حمراء الأسد، وهو على ثمانية أميال من المدينة، مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكان على الرغم من شركه هو ومن لم يسلم من قومه في صفّ رسول الله، فعبَّر عن أسفه لما حدث للمسلمين، ولما فارقه التقى بأبي سفيان ومن معه، ووجدهم ينوون الكرَّة فعلاً إلى المدينة، فهوَّل معبدٌ عليهم الأمر، وحدَّثهم عن اجتماع كلمة المسلمين على الحرب، وخروجهم خلفهم وهم أكثر قوة ومنعة، وذلك بالتحاق من تخلّف في الواقعة به، فثنى ذلك من عزم أبي سفيان ومن معه، وعاد إلى مكّة بعد أن بعث رسالة إلى النبي المصطفى يتوعَّده فيها.

وأقام الرسول ثلاثة أيّام بحمراء الأسد عاد بعدها إلى مدينته على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٦٦/٣—٦٧ عن ابن إسحاق.

وما بعد أحد أيضًا

بعد عودة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من حمراء الأسد كانت الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض، وكأنها جميعها تهيئ ليوم الفتح الكبير، الذي سيؤدي إلى توحيد جزيرة العرب تحت لواء الإسلام، فكانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد، وكانت حكاية يوم الرجيع التي غدر فيها الهذليون بالمسلمين الستة الذين أرسلهم رسول الله إلى رهط من بني الهون، ثم غزوة

بئر معونة التي ذهب فيها أربعون صحابيًّا من خيار صحابة رسول الله رضوان الله عليهم بسبب غدر عامر بن الطفيل، ونجاة عمرو بن أمية الذي أسره عامر، ثم أعتقه، وما كان من عامر هذا الذي قتل عامريين معهما عقد وجوار من النبي وهو لا يعلم به، وكان على الرسول أن يدفع ديَّتهما، وبسبب من وضع المسلمين المادي المتردّي أراد أن يستعين ببني النضير في ديَّة القتيلين، فلما خرج إليهم بيَّتوا قتله والغدر به، فغزاهم، وأجلاهم، فسار بعضهم إلى خيبر وسار آخرون إلى الشام، وقد نزلت في بني النضير سورة الحشر بأكملها كما ذكر ابن هشام في سيرته ١٧٢/٣، ويبدو أن كعب بن الأشرف قتل في هذه الغزوة، وذكر ابن هشام أن ابن إسحاق روى قصيدة تنسب للمرتضى عليه السلام في قتل ابن الأشرف هذا، ولكن ابن هشام نفى نسبتها إليه، ثم **غزوة ذات الرقاع**، وكان لواء النبي مع المرتضى صلوات الله وسلامه عليهما كما ذكر ابن الأثير في كامله ١٧٤/٢.

وكان أبو سفيان واعد المسلمين بلقاء في بدر فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله لميعاده في شعبان سنة أربع للهجرة، يحمل لواءه الأعظم علي بن أبي طالب كما ذكر الواقدي في مغازيه ٣٨٨/١ وخرج أبو سفيان بأهل مكّة حتى إذا وصل إلى موضع مِجَنَّة من ناحية الظهران عاد من حيث أتى بحجة جدب ذلك العام.

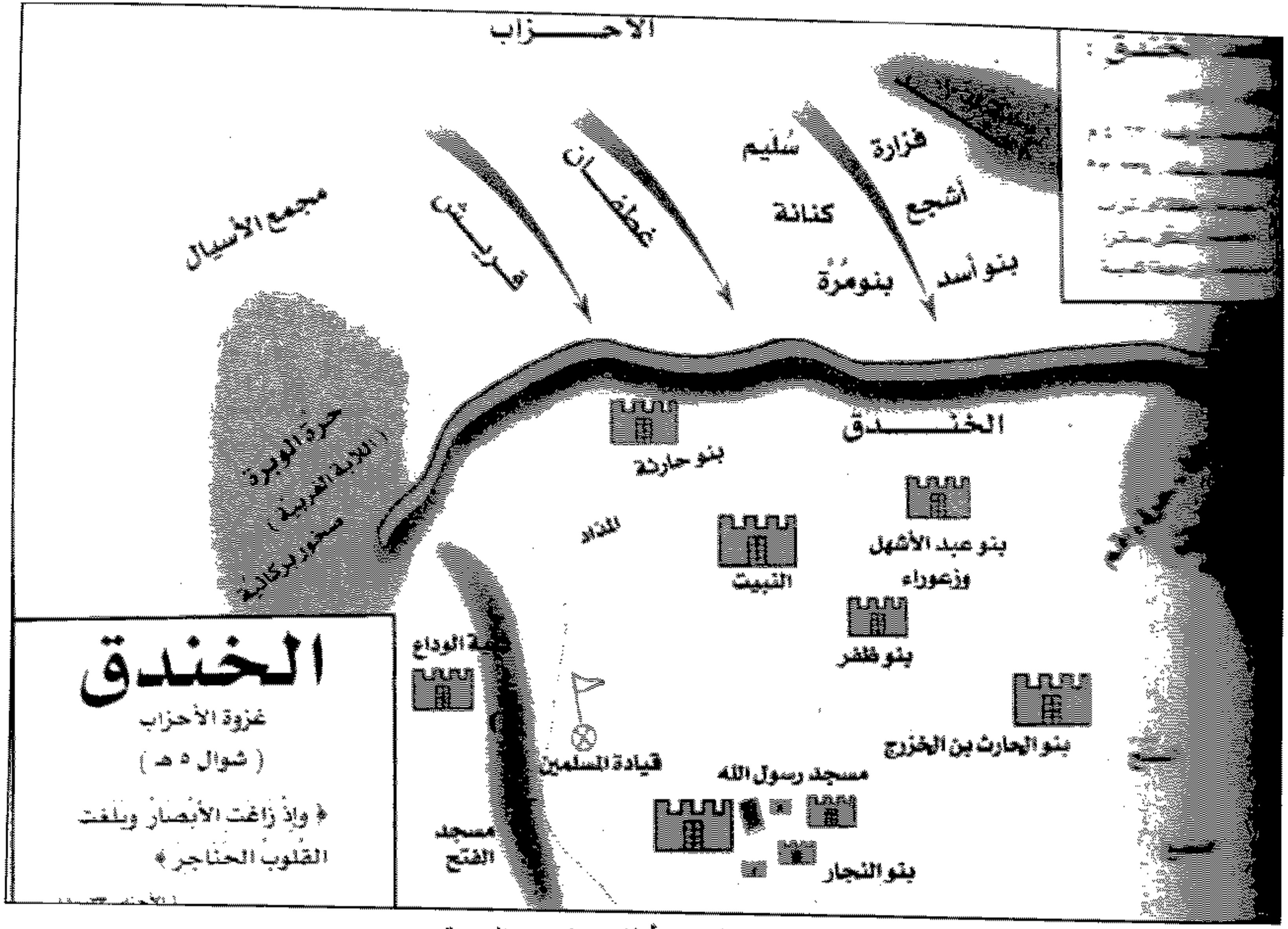

الخندق عن كتاب أطلس السيرة النبوية

الخندق قاصمة ظهر الشرك

﴿ ربِّ لا تذَرْني فَرْدًا وأنتَ خيْرُ الوارثين ﴾

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَال ﴾

«برز الإيمان كلُّه إلى الشرك كلِّهِ»

«اللهمَّ إنَّك أخذتَ منِّي حمزةَ يوم أُحُدٍ، وعُبَيْدَةَ يوم بدرٍ، فاحفظ عليَّ عليًّا»

«لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمَّتي إلى يوم القيامة»

جيَّشت قريش في السنة الخامسة للهجرة كلَّ طاقاتها بعد غزوة أحد بقيادة أبي سفيان لملاقاة رسول الله صلى الله عليه وآله سلم، وذلك للقضاء عليه قضاء مبرمًا بزعمها، وآزرها في الخروج من آزرها وتابعها من الأحزاب من تابعها، وكان وراء تشجيعها على الخروج يهود بني النضير ومن تابعهم من يهود خيبر، فقد خرج حيي بن أخطب في أربعة عشر رجلاً إلى مكَّة يدعون قريشًا لحرب النبِّي والقضاء عليه، ووعدوهم الحلف والنصرة، وخرجت قريش بجيش لم تشهده الجزيرة العربية من قبل، إذ قارب العشرة آلاف ما بين فارس وراجل، كما روى الواقدي في مغازيه ٢/٤٤٣ وابن هشام في سيرته ٣/٢٠٣، واتَّجهت نحو المدينة، وكانت على يقين أنها ستكون القاصمة التي تثأر بها من الرسول وتقتص منه، وتقضي على دعوته التي زلزلت مجد الأصنام ومكانتها بين القبائل.

وبنصيحة سلمان رضوان الله عليه - الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم في تلك الأثناء « سلمان رجل منا أهل البيت» بعد رغبة الأنصار والمهاجرين أن يكون منهم كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٤٤٦ - حُفِرَ الخندقُ كي يحتمي به المسلمون من الطغيان ومن تابعه، ويبدو أن أيّامه كانت أيّام قحط وشدَّة على المسلمين، ولكنَّ النبيَّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه جاهدها واحتملها بجلد وصبر، ومما رواه الإمام الرضا في صحيفته ٧١ -٧٢عنها قول عليٌ عليهما السلام: (كنَّا مع النَّبي صلى الله عليه وآله في حفر الخندق، إذ جاءت فاطمة ومعها كِسرةٌ من خبز فدفعتها إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: النبي صلى الله عليه وآله «ما هذه الكِسرة؟» قالت: قُرصًا خبزته للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسرة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أما إنَّه أوَّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث »، وما إن وصل الجيش القرشي حتى اصطدم بهذا العائق الذي لم يكن له على بال، فقرَّروا محاصرة المسلمين إلى أن يستسلموا.

وشاء قدر الله سبحانه وتعالى أن تكون بداية نهاية الشرك في الجزيرة العربيَّة على يد أبي الحسنين عليه السلام في هذه الواقعة، كما كان خسرانها على يده بالدرجة الأولى في الوقعتين السابقتين بدر وأحد.

ولسنا بصدد تفصيل الحديث عن هذا العدوان، ولا عن عدَّة قريش وعددها وما قامت به لتنفيذها، وما سبقها ولحقها، ولكننا بصدد دور المرتضى فيها، وما قيل عنه، وأهميته في مجريات الدعوة الإسلامية.

كانت غزوة الخندق على رأي البلاذري في أنسابه ١/٤٢٧ في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، وقال الواقدي في مغازيه ٢/٤٤٠:

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عسكر يوم الثلاثاء لثمان مضت من ذي القعدة، أما ابن هشام فقد ذكر في سيرته ١٩٧/٣ أنها في شوال من السنة الخامسة للهجرة، وكذا ورد في العبر ١/ ٧، أما اليعقوبي فقد ذكر في تاريخه ٣٦٨/١ أنها (في السنة السادسة للهجرة)، ولا شكَّ أن هناك خطأ قد وقع في الطباعة أو من المحقِّق، لأن اليعقوبي حدَّد تاريخها أيضًا بقوله: (بعد مقدم رسول الله بالمدينة بخمسة وخمسين شهرًا)، وهذا يعني وقوعها في السنة الخامسة.

وتعذَّر على جيش الشرك عبور الخندق، ويبدو أن المناوشات استمرَّت بين جيش المسلمين الذي لم يتجاوز عدده السبعمائة كما ذكر اليعقوبي، وجيش الشرك الذي ذكرنا شيئًا عن عدده وعدَّته، وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٢/ ٤٩٠ أنَّ بعض مصادره ذهبت إلى أنَّ المناوشات استمرَّت مدَّة شهر عبر الخندق بتراشق السهام أو بقذف الحجارة، ولكنَّ اليعقوبي ذكر في تاريخه ١/ ٣٦٩ أنه بعد خمسة أيّام استطاع خمسة أو ستة من صناديد قريش عبور الخندق من أضيق موضع فيه، وهم عمرو بن عبد ودّ، وكان قد شهد بدرًا، وقتل فيها عمير بن أبي وقّص كما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٥٣/١، وكاد يموت بسبب ما أصيب بها من جراح، وحمل منها وبه رمق، وبقي يعاني منها فترة طويلة، ولم يستطع مشاركة قريش في معركة أحد بسببها، وضرار بن الخطاب الفهري، الذي رأيناه في معركة أحد فارسًا معلّمًا كاد يقتل عمر بن الخطاب فيها ولكنّه طلب منه الفرار والنجاة بنفسه، كما سبق ذكر ذلك، وعكرمة بن أبي جهل، الذي رأيناه واحدًا من صناديد جيش قريش في معركة أحد، وقائدًا لميسرته، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وكلاهما من صناديد قريش أيضًا.

وتقدَّم هذه المجموعة عمرو بن عبد ودٍّ يدعو المسلمين إلى البراز مرارًا، فملكهم الهلع والجزع ولم يقم إليه أحد، فلمَّا أكثر قام عليٌّ واستأذن الرسول بمبارزته، فأمره بالجلوس، وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، فقال عمرو: أيها الناس، إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنَّة وقتلانا في النار، أفما يحبُّ أحدكم أن يقدم على الجنة أو أن يقدِّم عدوًّا له إلى النار! فلم يقم إليه أحد، فقام عليٌّ دفعة ثانية وقال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس، فجال عمرو بفرسه مقبلاً مدبرًا، وجاءت عظماء الأحزاب فوقفت من وراء الخندق، ومدَّت أعناقها تنظر، فلمَّا رأى عمرو أن أحدًا لا يجيبه، قال:

ولقد بَحِحْتُ من النداءِ بجمعهم: هل من مبارز
ووقفت مذ جَبُنَ المشيِّعُ موقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل متسرِّعًا قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقام عليٌّ عليه السلام فقال: يا رسول الله، ائذن لي في مبارزته، فقال صلى الله عليه وآله وسلَّم: اذنُ، فدنا فقلَّده سيفه وعمَّمه بعِمامته وقال: « امضِ لشأنك » ، فلمَّا انصرف قال: « اللهمَّ أعنه عليه »، كما روى الواقدي في مغازيه ٢/٤٧٠ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٩/٣٩، فلما قَرُبَ منه قال مجيبًا إيَّاه عن شعره:

لا تعجلَنَّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيَّة وبصيرة يرجو بذاك نجاة فائز
إنِّي لآمُلُ أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضَربةٍ فوهاءَ يبـ ـقَـى ذكـرها عـند الهزاهـز)

وروى أبو جعفر الإسكافي في نقض العثمانيَّة التي نقلها ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/١٩٦ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم (ضنَّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مرارًا، وفي كلِّها يحجمون ويُقْدِم عليّ، فيسأل الإذن له في البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: « إنه عمرو!»، فقال: وأنا عليّ، فأدناه، وقبَّله وعمَّمه بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودع، لقلق حاله، المنتظر لما يكون منه، ثمَّ لم يزل صلى الله عليه وسلم رافعًا يديه إلى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صُمُوت حوله؛ كأنما على رؤوسهم الطير)، وذكر أيضًا، أنه حينما رفع يديه قال: «اللهمَّ إنك أخذت منِّي حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليًّا عليًّا: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾»، وروى عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَال ﴾ في حقِّ علي بن أبي طالب عليه السلام.

وروى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/٢٢-١٧٣ للواقعة روايات عدَّة، جاء في أحدها عن عمر بن الخطاب (فقام عليٌّ فقال: دعني يا رسول الله فإنما أنا بين حسنتين إما أن أقتله فيدخل النار، وإمَّا أن يقتلني فأدخل الجنَّة).

وتجاهل عمرو المقاتل الذي برز له، وكأنه لم يعرفه في معركة بدر، ولا سمع بما فعله فيها، وما وصلته أخبار صولاته في معركة أحد، فلمَّا انتسب إليه، أجابه إجابة من لم يسمع بذكره من قبل: لقد كان أبوك نديمًا لي وصديقًا، فارجع فإني لا أحب أن أقتلك، ولا أشك في أنه يعرفه معرفة

عين، وكان يخشى مبارزته، ويعلم يقينًا أنه لا يستطيع منازلته، ولعلّه راجع نفسه بالفرار منه، ولكنَّ الحميَّة منعته من ذلك، ولقد سبق إلى هذا الرأي وبالتحليل نفسه مصدّق بن شبيب النحوي شيخ ابن أبي الحديد، فقال: (فقد عرف قتلاه ببدر وأحد، وعلم أنه إن ناهضه قتله، فاستحيا أن يظهر الفشل)، فقال له عليٌّ عليه السلام: لكني أحبُّ أن أقتلك، ولم يعدم عمرو الحيلة معه، وانتقل إلى أسلوب آخر فيه حوار ومهادنة وملاينة فقال: (يا ابن أخي، إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك)، ولا أشك في أن أسلوبه هذا يبين لك حقيقة ما ذهب إليه مصدّق.

ويبدو أن المرتضى عليه السلام شعر بما يعانيه ابن عبد ودّ من قلق وحرج، فطمع بإسلامه، إذ إنَّ وقعه في تلك الساعة على قريش لا يقلُّ عن وقع قتله، أو بعودته لوجهه بمن تبعه إلى مكّة، فقال له: إن قريشًا تتحدَّث أنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلاّ أجبت ولو إلى واحدة منها، قال: أجل، فقال علي: فإني أدعوك إلى الإسلام، قال: دعْ عنك هذه، قال: فإني أدعوك أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكّة، قال: إذن تتحدَّث نساء قريش عنّي أن غلامًا خدعني، قال: فإني أدعوك إلى البراز. وقد ذكر قريبًا من هذا ابن إسحاق برواية ابن هشام في سيرته ٣/٢٠٩، وابن سعد في طبقاته ٢/٦٨ والواقدي في مغازيه ٢/٤٧١، والطبري في تاريخه ٢/٥٧٤، وابن الأثير في كامله ٢/١٨١ وابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣١٨، وذكره جميعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٩/٣٩–٤١.

ذلك كان من بعض خلق عليٍّ ما برز لأحد إلاّ أن يدعى لأنه كان يرى أن الدّاعي باغٍ، وأن الباغي مصروع، وكان ينبذ البغي ويمقته، وما كان يحبُّ

القتل ولا القتال، ولكنَّها رسالته وعليه تأديتها، وكان على يقين بأنه سيصرع ابن ودّ ويقتله، ولكنه بعد أن غيَّر لهجته طمع في إسلامه، فإن لم يكن فبدفع بغيه، وذلك بعودته إلى مكَّة، وهو على يقين من عودته إن وافق على شرطه، ولقد كان امتحانًا عصيبًا لابن عبد ودّ بعد أن رأى الموت عيانًا يلمع على شفرة سيف عليّ، ولكنَّه آثر الموت واستحلاه على هزيمة يبقى عارها إلى الأبد من وجهة نظره، وكأنه لا يعلم بأنه ليس من عار على الفتى إن فرَّ من سيف عليّ عليه السلام.

وهزَّته الحميَّة الجاهلية فنزل عن فرسه، وتجاولا، وما هي إلا دقائق معدودات، حتَّى سمع الجيشان صيحة الله أكبر قبل أن ينجلي الغبار، فعلموا بمصرع ابن ودّ، وما إن انجلى الغبار، حتى رأى القوم عليًّا جاثمًا على صدره يحتزُّ رأسه.

وذكر ابن هشام في سيرته ٣/ ٢١٠ أن أبا الحسن عليه السلام قال:

نَصَرَ الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرتُ ربَّ محمد بصوابي

فصدرت حين تركته متجدِّلاً ... كالجذع بين دكادك وروابي

وعففت عن أثوابه ولو انني ... كنت المُقَطَّرَ بزَّني أثوابي

أما أصحابه فقد أخذهم ما أخذ المسلمين من رهبة وخوف حين برز ابن عبد ودّ يدعو للبراز، كما أخذتهم الدهشة بعد مصرعه، ففرُّوا نحو الخندق ليعبروه، أما هبيرة بن أبي وهب فقد أدركه الزبير فقطع سير سرجه فسقطت درع كان يحملها فأخذها الزبير، وألقى عكرمة رمحه وانهزم، أما ضرار بن الخطَّاب الفهري فقد ناوشه عمر بن الخطاب، فحمل عليه (ضرار حتى إذا وجد عمر مسَّ الرمح رفعه عنه وقال: إنها نعمة

مشكورة، فاحفظها يا ابن الخطاب، إني كنت آليت ألاّ تمكّنني يداي من قتل قرشي فأقتله، وانصرف ضرار راجعًا إلى أصحابه، وقد كان جرى له مثل هذا في يوم أحد) كما ذكر الواقدي في مغازيه ٤٧١/٢، وأما نوفل بن عبد الله فإن فرسه قصَّر فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة (فقال يا معشر الناس: قتلة أكرم من هذه، فنزل إليه علي عليه السلام فقتله) كما ذكر الطبري في تاريخه ٥٧٤/٢ وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٩/٤٠.

وعاد أبو السبطين عليه السلام برأس ابن عبد ودّ، فرماه بين يدي المصطفى (فقام أبو بكر وعمر فقبَّلا رأسه، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، فقال: هذا النصر! أو قال: هذا أوَّل النصر).

وتستطيع أن تقدِّر أهميَّة ذلك النصر المبين للمسلمين من حديث رواه الحاكم في مستدركه ٣٢/٣ بسنده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ودٍّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمَّتي إلى يوم القيامة»، إذ إنه لو حدث العكس لأخذت العزيمة جيش الشرك، وعبر الخندق كما عبره ذلك النَّفر، ولكانت هزيمة المسلمين محقّقة، ولكنَّ الله أراد أن يعزَّ دينه وينصره، وكان نصره بسيف عليٍّ عليه السلام.

وذكر ابن سعد في طبقاته ٦٨/٢ أن عمرو بن عبد ودّ كان ابن تسعين سنة، أما ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤٠/١٩ فذكر عن الواقدي وابن إسحاق أنه كان شيخًا كبيرًا قد جاوز الثمانين، ولا شك أنها مبالغة في تقدير عمره، إذ يصعب تصوُّر صحتها، فكيف استطاع عبور الخندق،

ولماذا أدخل كل ذلك الرعب في جيش المسلمين وهو بتلك السن المتقدِّمة!!، إلاّ أن ذلك لم يكن عجيبًا ولا خارقًا فقد رأينا عمَّارًا رضوان الله عليه في معركة صفِّين وقد جاوز التسعين، وكانت صناديد جيش معاوية تفرُّ منه، لأنَّ الفروسيَّة لا تحسب بالسنِّ وقوَّة الساعد فحسب، وإنما هي أيضًا دربة وممارسة ومجاولة في الحروب.

ولعلَّ ما ورد في تلك الضربة من أقوال بحقِّ شجاعة الإمام يعدل ما قيل عنه في جميع الحروب التي شارك فيها بجانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، ويمكن أن يعزى السبب في ذلك لأنها كانت القاصمة لظهر قريش، فقد غزاهم رسول الله من بعد، وفتح مكَّة، وبذلك قضى على أهم قلاع الشرك في الجزيرة وأكثرها خطورة وعدوانًا.

وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٩/٣٨-٣٩ ما ورد عنها من أخبار في حقِّ عليٍّ عليه السلام نجملها بالآتي:

- قال: (فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد ود فإنها أجلُّ من أن يقال عنها جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة).

- وقال أيضًا: (جاء في الحديث المرفوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال ذلك اليوم حين برز إليه: «برز الإيمان كلُّه إلى الشركِ كلِّه»).

-وقال أيضًا: وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لمَّا بارز علي عَمْرًا مازال رافعًا يديه مُقْمِحًا رأسه نحو السماء، داعيًا ربَّه قائلاً: «اللهم إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، فاحفظ عليَّ اليوم عليًّا ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ »)، وقد خرج الحديث الفتلاوي من مصادره في كتابه الكشاف المنتقى ٣٣٩.

– وقال أيضًا: سأل سائل أبو هذيل شيخ ابن أبي الحديد، أيما أعظم منزلة عند الله، علي أم أبو بكر؟ (فقال: يا بن أخي، والله لمبارزة علي عمرًا يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم وتربي عليها فضلاً عن أبي بكر وحده).

– وقال أيضًا: قال ربيعة بن مالك السعدي: (أتيت حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله إن الناس يتحدَّثون عن علي بن أبي طالب ومناقبه، فيقول لهم أهل البصيرة: إنكم لتفرّطون في تقريظ هذا الرجل، فهل أنت محدثي بحديث أذكره للناس؟ فقال: يا ربيعة، وما الذي تسألني عن علي، وما الذي أحدّثك عنه! والذي نفس حذيفة بيده لو وضع جميع أعمال أمة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم في كفَّة الميزان منذ بعث الله تعالى محمدًا إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل واحد من أعمال عليٍّ في الكفَّة الأخرى لرجح على أعمالهم كلّها، فقال ربيعة: هذا المدح الذي لا يقام له ولا يقعد ولا يحمل، إني لأظنه إسرافًا يا أبا عبد الله! فقال حذيفة: يا لكع، وكيف لا يحمل! وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتى برز إليه عليٌّ فقتله! والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجرًا من أعمال أمَّة محمد صلى الله عليه وسلَّم إلى هذا اليوم، وإلى أن تقوم القيامة).

– وقال أيضًا: قال أبو بكر بن عيَّاش: (لقد ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام أيمن منها، ضربته عمرًا يوم الخندق، ولقد ضُرِب عليٌّ ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها، يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله).

— وقال أيضًا: قال جابر بن عبد الله الأنصاري: (والله ما شبَّهتُ يوم الأحزاب، قتل عليٌّ عمْرًا، وتخاذُل المشركين بعده، إلاَّ بما قصَّه تعالى من قصَّة طالوت وجالوت في قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾).

— ونقل كاظم الفتلاوي عن مصادره في كشافه ٣٢٥ قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم« لمبارزة علي بن أبي طالب لعمر بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»، وخرَّجه من ستة عشر مصدرًا.

وكان الجاحظ في عثمانيَّته التي نقلها ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ١٩٨ قد هوَّن من أمر عمرو هذا فقال: (ثمّ قصد الناصرون لعليٍّ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم، وليسوا هناك! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ويسطام بن قيس، وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودوس، وحلف الفضول، فما سمعت لعمرو بن عبد ود ذكرًا في ذلك)، فنقض عثمانيَّته تلك أبو جعفر شيخ ابن أبي الحديد كما ذكر في شرح النهج ١٣/ ١٨٩—٢٠١ فقال: (أمر عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يحتجَّ له، فليتلمَّح كتب المغازي والسير لينظر ما رثته به شعراء قريش لَمّا قتل)، كقصيدة مسافع بن عبد مناف بن زهرة وقد ذكرها ابن هشام في سيرته ٣/٢٥٩—٢٦٠ أيضًا، وكاعتذار هبيرة بن أبي وهيب المخزومي في قصيدته عن فراره من علي وتركه عمرًا وكرثاء هبيرة بن أبي وهب وقد ذكرها أيضًا ابن هشام في سيرته ٣/٢٦١—٢٦٢، وكشعر حسان بن ثابت في غير مناسبة يذكر فيها شجاعة عمرو، وقال: (وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمْرًا إلاَّ قال: كان فارس قريش وشجاعها)، وذكر أيضًا (أن آثاره في أيَّام الفجار مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع، ولكنه لم يذكر مع

الفرسان الثلاثة، لأنهم أصحاب غارات ونهب، ولا ينهبون غيرهم من العرب، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء)، وختم بقوله: (إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك، فما باله لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدهم، فصار مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أرض واحدة، وهم ثلاثة آلاف، ودعاهم إلى البراز مرارًا لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه، ولا سمح منهم أحد بنفسه، حتى وبَّخهم وقرَّعهم وناداهم: ألستم تزعمون أنه من قتل منَّا فإلى النار، ومن قتل منكم فإلى الجنَّة أفلا يشتاق أحدكم إلى أن يذهب إلى الجنَّة).

ويبدو أن المرتضى عليه السلام لم يقتل ابن عبد ود في واقعة الخندق لوحده، وإنما قتل ابنه حسل بن عمرو أيضًا كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/ ٢٤٦، وذكر ابن الأثير في كامله ١٨٢/٢ (وقتل مع عمرو رجلان، قتل عليٌّ أحدهما، وأصاب الآخر سهم فمات منه بمكَّة).

ولقد رثى عمرو بن ود وبكاه غير شاعر ذكر بعضهم ابن هشام في سيرته ٢٥٩/٣–٢٦١ منهم مسافع بن عبد مناف بن وهب، الذي قال من بين ما قال في ذكر علي عليه السلام:

فاذهب علي فما ظفرت بمثله   فخرًا ولا لاقيت مثل المعضل

ومنهم هبيرة بن أبي وهب الذي اعتذر عن فراره، وبكى عمرًا وذكر عليًّا عليه السلام فقال:

فعنك علي لا أرى مثل موقف   وقفت على نجد المقدَّم كالفحل
فما ظفرت كفَّاك فخرًا بمثله   أمنت به ما عشت من زلَّة النعل

وذكر أيضًا أبياتًا لحسان بن ثابت يفخر فيها بمقتل عمرو بن ودٍّ.

غزوة بني قريظة

ما كاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يضع سلاحه ويعود من معركة الخندق إلى مدينته، وقبل قيامِ قائم الظهيرة فيها جاءه أمر الله بالمسير إلى بني قريظة يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس من هجرته المباركة، فأذّن بالناس أن صلاة العصر ستكون فيهم، وتقدم عليٌّ عليه السلام برايته ممتطيًا صهوة جوادٍ، وهي المرّة الأولى التي نراه فيها فارسًا ممتطيًا جوادًا، إذ لم تشر المصادر التي وقفت عليها إلى شيء من هذا قبل هذه الغزوة، كما لم تشر أيضًا إلى اسم الجواد ولا إلى طريقة حصوله عليه.

وسبق المرتضى الرسول صلوات الله وسلامه عليهما في كوكبة من الأنصار والمهاجرين، وما إن اقترب من الحصن برايته حتى سمع كلامًا قبيحًا منهم بحق المصطفى، فلم يشأ أن يسمعه النبيُّ، فعاد أدراجه كي يثني عزمه من التقدُّم إلى حصونهم، وكأن النبيَّ كان على بيِّنة مما يقولون، فقال له: إنهم سيقولون غير ذلك إن رأوني، وصدق وهو الصادق الأمين، كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٤٩٦، والطبري في تاريخه ٢/٥٨٢.

وحاصرهم صلى الله عليه وآله وسلّم في حصونهم خمسًا وعشرين ليلة كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/٢٢٣ والطبري في تاريخه ٢/٥٨٣، فجهلهم الرعب والخوف، وقرر أبو الحسن مهاجمة حصنهم، فصاح: (يا كتيبة الإيمان، وتقدَّم هو والزبير بن العوّام، وقال: والله لأذوقنَّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنَّ حصنهم)، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/٢٣٠ وقد زلزلت تلك الصيحة كيانهم وهدَّته من

أساسه فهم يعرفون صاحب الصوت، ويقدِّرون شجاعته وعزيمته، فما كان منهم إلاَّ الاستسلام الذليل جزاء خيانتهم العهود، ومؤامرتهم الكبرى ضدَّ المسلمين، وشهادتهم أن أصنام قريش خير من ديانة محمد وصحبه، وتجييشهم القبائل ضد المسلمين، وبدلاً من نصرة نبيِّ الله بحسب العهد المبرم في ما بينهم، تآمروا عليه ونصروا عدوَّه، ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم ترك لهم فرصة للتسلُّلِ من حصونهم في أيَّام الحصار الأولى إذ كان يحاصرهم نهارًا ويتركهم ليلاً، وقد تسلَّل منهم من تسلَّل، وأسلم منهم من أسلم، وبسبب من شدَّة الحصار ويأسهم من الحياة استسلم من بقي منهم، وتقدّم الأوس من النبيِّ وطلبوا منه أن يفعل بهم ما فعله ببني القينقاع، ولكنه اقترح عليهم أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ، فارتضاه الأوس حكمًا كما ارتضاه بنو قريضة فحكّم فيهم سعدٌ السيفَ، وقد تولّى تنفيذ الأمر عليٌّ والزبير كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٥١٣، والطبري في تاريخه ٢/٥٨٧، وهكذا ترى أن سيوف القرشيين من المهاجرين خرجت نظيفة أيضًا من هذه الغزوة كما خرجت غالبيّتها من غيرها، وهكذا أضافت الأحداث عاملاً جديدًا من عوامل كراهية الإمام عليه السلام، وذلك لتنفيذه أوامر النبي في إنزال القصاص بأعداء الإسلام. وأقام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم أشهرًا معدودات في مدينته، وخرج في جمادى الأولى بعد ستة أشهر من فتح بني قريظة إلى بني لحيان، ووصل في غزوته هذه مشارف مكّة، ووعد بالعود إليها في الحين المقدَّر، وما إن عاد إلى المدينة حتى كانت غزوة ذي قرد بسبب غارة قادها عيينة بن حصن الفزاري وقتل فيها رجلاً من بني غفار، واحتمل زوجته على لقاح لرسول الله، ولك أن تنظر أخبار تلك الغزوات بما مرَّ عليك من مصادرنا.

غزوة بني المصطلق

عاد النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى المدينة وأقام فيها شيئًا من جمادى الآخرة ورجبًا، وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان خرج من المدينة لغزو بني المصطلق بعد أن بعث بريدة بن الحُصَيب الأسلمي كي يعرف أخبارهم كما ذكر الواقدي في مغازيه ١/٤٠٤، فأعلمه أنهم جيَّشوا جيشًا لقتاله بقيادة الحارث بن ضرار أبي جويرية التي تزوجها رسول الله من بعد.

وكان في جيش المسلمين الذي خرج لهذه الحرب ثلاثين فرسًا، عشرة منها بيد المهاجرين، وعشرين منها بيد الأنصار، (ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فرسان، وكان عليٌّ عليه السلام فارسًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والمقداد بن عمر، وفي الأنصار سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضير...) وغيرهم، وقد التحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم (بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها) رغبة بالغنيمة، وقد ضربت للنبيِّ قبَّة من أدم، و (معه من نسائه عائشة وأم سلمة) كما ذكر الواقدي أيضًا، وذكر أنَّ النبيَّ دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر، وقيل: لعمار بن ياسر، ودفع راية الأنصار إلى سعد بن عبادة، ولقي بني المصطلق على ماء لهم يقال له المريسيع، فحمل عليهم جيشه حملة رجل واحد فلم يفلت منهم أحد إذ وقعوا في الأسر جميعًا باستثناء عشرة منهم قتلوا، ولم يستشهد من المسلمين إلاَّ رجل واحد، وكان النصر المبين لجيش المصطفى.

وقتل منهم علي بن أبي طالب سلام الله عليه رجلاً يسمى مالكًا وقتل ابنه أيضًا، وقتل عبد الرحمن بن عوف رجلاً يقال له أحمر أو أحيمر، ولم يذكر ابن هشام من قتلى بني المصطلق سوى الرجال الثلاثة الذين سبق ذكرهم، وكانت جويرية طالع يمن وبركة على أهلها، إذ أرسل الناس ما بأيديهم منهم بعد أن علموا بقرار الرسول الزواج بها، فأعتق مائة أهل بيت من بني المصطلق كما ذكر الواقدي في مغازيه ٤١١/١، ولم يدخل بها النبيُّ في حينها، وقدم أبوها بفداء ابنته فدفعه إلى النبي، ثمَّ أسلمت جويرية، كما أسلم أبوها فخطبها الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم منه وأصدقها أربعمائة درهم كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢٨٥/٣-٢٩٣، وفي هذه الغزوة كان من حديث **الإفك** ما كان، وقد غاب صلى الله عليه ،وآله وسلّم عن المدينة في غزوته هذه شهرًا إلاّ ليلتين كما ذكر الواقدي في مغازيه ٤٠٤/١.

أحاديث الإفك

لم يسلم بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من قالة المنافقين ودسّهم وشرورهم، وفي مثل هذه الأحوال لابد من دفع ذلك الشرّ، ووأد القالة في مهدها، وهو أمر يحتاج إلى الحكمة وبعد النّظر، كما يحتاج إلى شخصية يعتمد عليها ويأمن جانبها، ويرى فيها الحكمة كي تجَلّي الحقيقة أمام المسلمين، وليس غير المرتضى عليه السلام يمكن الاعتماد عليه في كثير من الأحيان.

فبعد أن اقترب النبيّ صلوات الله عليه من المدينة في أثناء عودته من غزوة بني المصطلق التي سميت أيضًا بغزوة المريسيع بات في أثناء الطريق، وفي آخر الليل أذّن للناس بالرحيل، ويبدو أنَّ السيدة عائشة ذهبت لقضاء حاجة، فضاع منها في أثناء خروجها عقد انشغلت بالتفتيش عنه، وفي هذه الأثناء أتى الرجلان المكلّفان بهودجها وهما يظنّان أنها به فحملاه على بعيرها وانطلقوا به، فبقيت في مكانها بانتظار اكتشاف عدم وجودها فيه، وكان صفوان بن معطّل السُّلمي في مؤخّرة الجيش، فوصل موضع عائشة عند الفجر، فرأى سواد إنسان، فلما علم أنها عائشة أناخ لها بعيره، والتحق بالعسكر وقت الضحا، فشاعت قالة نالت من أم المؤمنين عائشة، وطعنت بعفّتها، وحاشا لزوج الرسول أن تفكّر بخيانته، وحاشا لصفوان ذلك الصّحابيّ أن يطمع بظعينة رسول الله، ولكن النفاق والإفك وجد فرصة للإساءة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل كادت تقع بسبب ذلك الإفك وقعة بين الأوس والخزرج دفعها النبيّ بحكمته وطول أناته، ولقد شارك بذلك الإفك وقاده كلٌّ من عبد الله بن أبي، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن

المطلب وحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، وذهبت الأخبار إلى أن الله أظهر براءة زوج الرسول بقرآنه إذ قال العزيز الحكيم في محكم كتابه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ ﴾، ولك أن تنظر في تفاصيله ما ذكره ابن هشام في سيرته ٣/ ٢٩٤–٣٠٢ والواقدي في مغازيه ٢/٤٢٦–٤٣٤، والبلاذري في أنسابه ٢/٤٢٣–٤٢٥، وابن الأثير في كامله ٢/١٩٦.

ورأيت في موقف الإمام من الحدث برمَّته ما لا يسيء إلى السيِّدة عائشة، قدر ما يحسن إليها وسط ذلك الدخان الأسود من حديث الإفك الذي عمَّ المدينة، ولعلَّه في موقفه ذاك خفَّف من حزن رسول الله، وقرَّب الحلَّ إليه وأزاح عن صدره كثيرًا من الهمِّ الذي ركبه، وقطع الإفك من دابره.

وبسبب علاقة الإمام عليه السلام بهذه الحكاية التي خلَّفت ما خلَّفت في الصدور رأيت أن نقف عليها سريعًا، ولها روايتان عن عائشة، إحداهما ذكرها الواقدي، وفيها أن النبي استشار أسامة وعلي أما أسامة فقال: (يا رسول الله هذا الباطل والكذب، ولا نعلم إلاّ خيرًا، وأن بريرة تصدقك، وقال علي عليه السلام: لم يضيِّق الله عليك، النساء كثير، وقد أحلَّ الله لك وأطاب، فطلِّقها وانكح غيرها قالت: فانصرفا) ثم أن النبي أرسل إلى بُرَيْرة جارية عائشة فقالت خيرًا فيها. ذلك ملخص رواية الواقدي.

أما الرواية التي نقلها ابن هشام في سيرته ٢٩٨/٣ فهي أقرب إلى القبول، وهي أيضًا في تاريخ الطبري ٦١٥/٢ لأني رأيتُ فيها من حكمة الإمام ما لا يشين تقواه وعدالته وقضائه الذي اتَّفقت الروايات على أنه أقضى المسلمين كما سبق ذكر ذلك، فهو في رواية الواقدي يدفع النبي إلى تطليق عائشة بلا ذنب متحقق، ويوثق قالة أصحاب الإفك على زوج الرسول، وليس من المعقول أن

يأتي عليه السلام لبيت النبوّة بما يسيء إليه، فحتى لو أن الرسول أخذ برأيه، فستبقى التهمة عالقة في بيته وهذا ما لا يرضاه المرتضى مهما كانت علاقته بعائشة، وستلاحظ أن عاقبة رأيه كانت في صالحها من جهة، وفي صالح بيت النبوّة من جهة أخرى، وقد أزاحت عن صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهمّ الذي ركبه بسبب إفك المؤتفكين.

قالت عائشة: (فدعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأسامة بن زيد رضي الله عنه فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى علي خيرًا وقالة، ثم قال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منهم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف غيرها، وسل الجارية فإنها ستصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ليسألها وقالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضربًا شديدًا ويقول: اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلاّ أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله، قالت: ثم دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي أبواي وعنده امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « يا عائشة إنه قد كان قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله فإن كنت قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده»)، وذكر ابن هشام على لسانها: أما أبواها فقد دخلهما كرب عظيم، ولم ينطقا بشيء، وأما هي فقد أقسمت على عدم التوبة لأنها لم تقترف ذلك الذنب كي تتوب عليه، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبرئ ساحتها، فبشّرها بما أنزل الله عليه في براءتها.

وتلاحظ أن موقف المرتضى عليه السلام كان في غاية الذكاء والحكمة، فما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يبحث عن الذي يشهد له على نقاء ثوب ظعينته، ولا يراودني شكٌّ في أن الإمام ما فكّر مطلقًا بما يشين زوجة أخيه بأيِّ سوء، وإنما كان المصطفى في حاجة إلى مخرج من ذلك القيل والقال الذي بدأ يطرق سمعه ولابد من وسيلة مقنعة لدفعه، فهون عليه الأمر بتسريحها إن كان في نفسه أي شك، وفي الوقت عينه أبعد ذلك الشك، باستدعاء بريرة خادمة عائشة وضربها ذلك الضرب المبرِّح ليزيل الشك ويقيم الحجة على براءتها، ويرد كيد المنافقين إلى نحورهم، فبريرة أقرب الناس إلى زوج النبي وأعرفهم بحركاتها، ولا أدل على ذلك أن النبيَّ بعد ذلك التحقيق، دخل على عائشة وعندها أبواها، بعد أن كان قد هجرها بضعًا وعشرين ليلة كما ذكرت بعض الروايات، فبموقف المرتضى قام بزيارتها، وكان ما كان من أمر الله سبحانه ببراءتها، ولم تكن أم المؤمنين قد عركتها التجربة كي تستطيع استيعاب أهميَّة تصرُّف عليٍّ عليه السلام، إذ إنها لم تبلغ الخامسة عشرة بعد، وفي مثل عمرها من الصّعب استيعاب تصرفات الآخرين بصورتها الحقيقيَّة، وبذا فسَّر موقفه على خلاف نتيجته، فترك في نفسها شرخًا كانت نتيجته قدرًا من أقدار الله وامتحانًا لها وللمرتضى وللمسلمين جميعًا.

وليست تلك آخر القالات التي نالت من أهل بيت النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه، فقد تلتها أخرى، فيوم أهدى المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم جملة من الهدايا من بينها جاريتين أختين، مارية القبطية وشيرين، أرسل معهما خصيًا أهداه للنبي أيضًا، وقد أسلمت الجاريتان حين عرض عليهما حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي إلى المقوقس،

أما الخصي فلم يسلم إلا بعد وصوله إلى المدينة، ومات سنة ستين للهجرة ودفن في البقيع، أما مارية فقد تزوجها النبي صلى الله عليه وآله، وأسكنها بالعالية في المكان الذي يعرف بمشربة أم إبراهيم كما سمّاه الواقدي في مغازيه ١/ ٣٧٨ والبلاذري في أنسابه ٨٦/٢، وهو مكان كان لبني النضير قبل أن يجلوهم النبيُّ منه، وكأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أراد أن يبعدها عن سكن زوجاته، أو أن تكون له دار في ما فاء الله عليه يرتاح أو ينفرد بنفسه فيها أحيانًا، وكان عمر بن الخطاب قد سأله إن كان يخمس ما أصاب من بني النضير كما خمّس في بدر فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلّم « لا أجعل شيئًا جعله الله عزَّ وجلَّ لي دون المؤمنين! بقوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ »، وسبَّبَ زواجُهُ من مارية غيرة بعض نسائه، ولاسيما السيِّدة عائشة فقد روى البلاذري في أنسابه ٨٧/٢ أنها كانت تقول: (ما غرت على امرأة غيرتي على مارية، وذلك لأنها كانت جميلة، جعدة الشعر، وكان رسول الله معجبًا بها، ورزق منها الولد وحرمناه)، ويوم مات إبراهيم عليه السلام ذهب المرتضى إلى بيت مارية وجلبه منه، ونزل في قبره كما ذكر ابن عساكر في تاريخه ٣ /١٤٧، والغيرة طبيعة في النفس البشريَّة عامَّة، وفي المرأة خاصَّة، وهي ليست المرَّة الأولى التي أشار فيها المؤرخون إلى غيرة أزواجه، فقد ذكر ابن الأثير في كامله ٢٦٠/٢ أنه أراد أن يتزوَّج مُلَيْكة بنت داود الليثيَّة بعد الفتح، (فجاء إليها بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقلن لها: ألا تستحين تتزوَّجين رجلاً قتل أباك؟ فاستعاذت منه، ففارقها).

وثارت قالة في المدينة مفادها أن الخصي الذي بعثه المقوقس إلى رسول الله يكثر الدخول إلى بيت مارية، ويتحدَّث معها، وأنه غير مجبوب، وأنه يقع

عليها، وشائعة مثل هذه نستطيع تقدير وقعها على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فما كان منه إلاّ أن طلب من أخيه المرتضى أن يجلّي له الأمر، فإن تحقق من كونه غير مخصيٍّ قتله، وشاء الله أن ذلك العبد الصالح حينما رأى الإمام عليه السلام أحسَّ بالخطر، وعرف الغاية من مجيئه، فاسقط إزاره (فإذا هو مجبوب ممسوح...فجاء به علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأراه إياه، فحمد الله على تكذيبه المنافقين بما أظهر من براءة الخصي واطمأنَّ قلبه) كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/٨٧.

وذكر ابن عساكر روايتين في تاريخه ٣/١٣٣ إحداهن عن أنس، والثانية عن عبد الرحمن بن زياد أن جبريل عليه السلام أتاه وقال له: السلام عليك يا أبا إبراهيم، لرفع الشك من نفسه صلوات الله عليه.

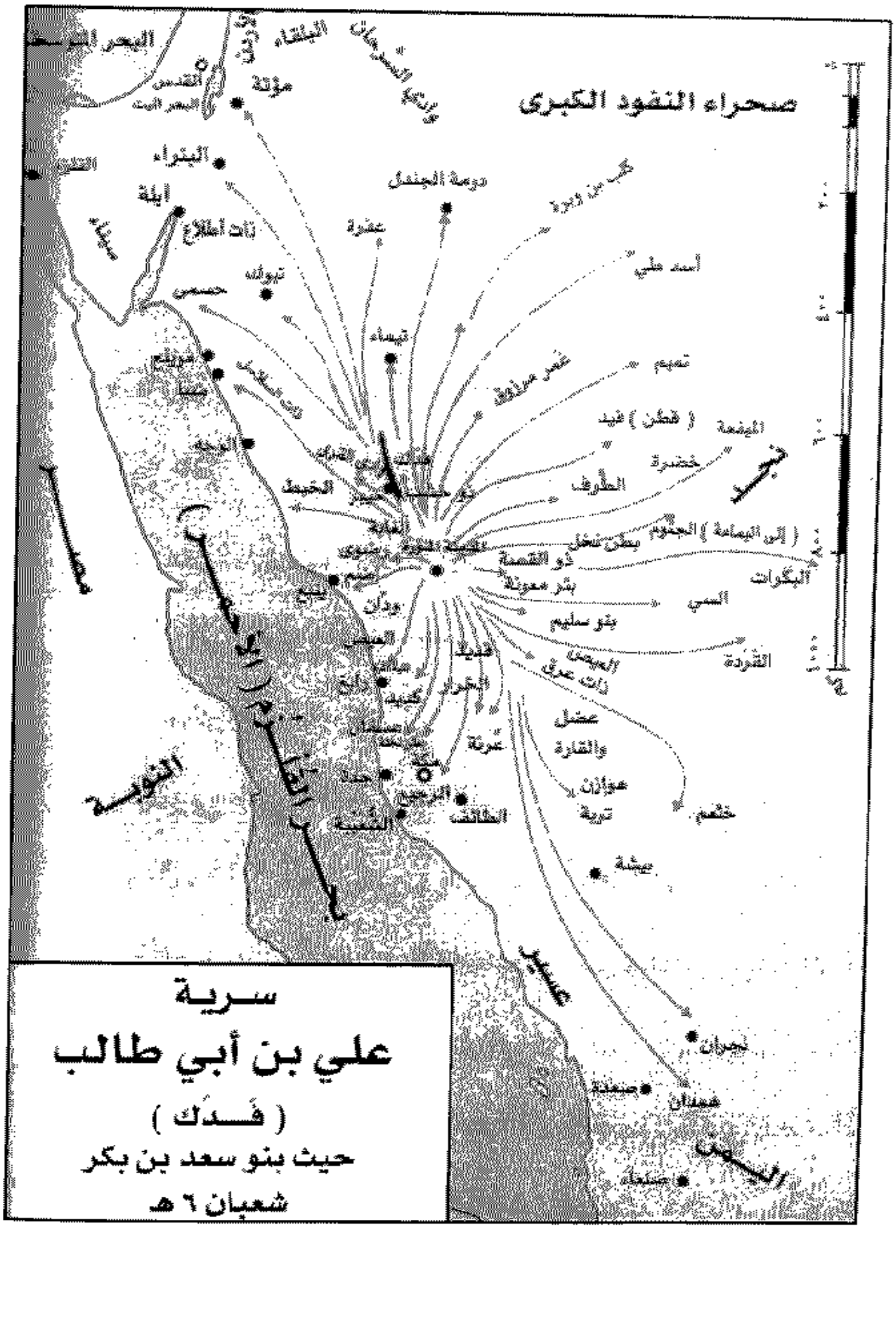

سرية
علي بن أبي طالب
(فَـدَك)
حيث بنو سعد بن بكر
شعبان ٦ هـ

سرية المرتضى

إلى بني سعد بفدك

بدأ اليهود يشعرون بالخطر يدهمهم بعد الوقائع التي نزلت ببني قريضة وبني المصطلق وغيرهم بسبب موقفهم العدواني من النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ودعوته، ولابدَّ أن يتفرَّغ لهم بزعمهم، وبدلاً من المبادرة لإثبات حسن النيَّة بالاعتذار عما بدر منهم وتجديد العهد معه أعدُّوا عدَّتهم للحرب، ويبدو أنه صلوات الله وسلامه عليه أراد أن يخفِّف من الضغط الذي قد يواجه جيشه إن تجمَّعت قبائلهم ومن والاها ضدَّه، وبلغ علمه كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٥٦٢–٥٦٣ وابن سعد في طبقاته ٢/٨٩–٩٠ والطبري في تاريخه ٢/٦٤٢ إنهم يتجمعون لرفد يهود خيبر، وليس غير المنصور المؤيد في مثل هذه المواقف يستطيع أن يتكئ عليه، فبعثه بسرية في شعبان سنة ست من هجرته المباركة، قال ابن سعد وقاربه الطبري في تاريخه ٢/٦٤٢: (فبعث إليهم علي بن أبي طالب في مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى الهَمَج، وهو ماء بين خيبر وفدك، وبين فدك والمدينة ستّ ليالٍ، فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم فقال: أخبركم على أنّكم تؤمنوني، فأمّنوه، فدلّهم، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمائة بعير، وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظُّعُن ورأسهم وَبَر بن عُلَيْم، فعزل علي صَفِيَّ النبي صلى الله عليه وسلم، لَقوحًا تدعى الحفذة، ثم عزل الخمس، وقسَّم سائر الغنائم على أصحابه، وقَدِمَ المدينة ولم يلق كيدًا).

بيعة الرضوان وصلح الحديبية

خاصف النَّعل

وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلّم بفتح مكّة بعد ما خرج منها خفية من بطش قريش وجبروتها ليجعل من بيتها العتيق منارة للإسلام وعاصمة للمسلمين يحج إليه من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

واليوم ليس كالأمس، إذ ما عاد الإسلام ذلك الضعيف الذي تطاوله قريش بطغيانها وجبروتها، بل أصبحت تخافه وترهب جيشه وتحسب له ألف حساب وإن لم تفصح عن ذلك حفاظًا على هيبتها ومكانتها بين القبائل.

أقام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم في المدينة بعد عودته من غزوة بني المصطلق التي كانت في شعبان سنة ست للهجرة الشريفة شهرَ رمضان وشوالاً، وقرر الخروج إلى مكّة في هلال ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة بقصد العمرة لزيارة البيت الحرام كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/ ٢٥٨، ٣٠٨ والبلاذري في أنسابه ٢/ ٤٣٩ لا يريد حربًا، ولكي يدفع عدوانًا استنفر مَن حوله من الأعراب للخروج معه، وخرج بمن استطاع من المهاجرين والأنصار، وبمن التحق به من غيرهما، وكان في سبعمائة رجل يسوقون سبعين بدنةً لنحرها بمكة تقربًا إلى الله تعالى، وما إن سمعت قريش بخروجه حتى أعدَّت العدَّة لصدِّه ومنعه من الدخول، وحين وصل مهبط الحديبية من أسفل مكّة أمر صحابته بالنزول في ذلك الوادي، وأرسل عثمان بن عفان يخبر قريشًا برغبته في زيارة البيت، فالتقى أبا سفيان وغيره من

عظماء قريش، وحدثهم برغبة رسول الله، وبسبب تأخر عودته شاع بين المسلمين أن قريشًا قتلته، فقرر النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم قتال القوم، ودعا صحابته إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت شجرة، وكانت بيعة على الموت أو على عدم الفرار، ثم علم الرسول بأن عثمان لم يقتل.

وتراسلت الوفود بينه وبين قريش، ثم بدأت عيونهم تترى من مكّة عليه، تستطلع الأخبار لمعرفة نيّته، وحدثت بعض المناوشات مع بعض فرسان قريش، وأعلن النبيُّ صلى الله عليه وآله عن رغبته في وقف القتال، وكان من بين من أوفدته قريش عروة بن مسعود الثقفي لمقابلته، وكان حواره مع النبيِّ بين الترهيب والترغيب، ترغيب بالعودة إلى المدينة، وترهيب في أن أصحابه سيتركونه ويفرُّون منه إذا نشبت حرب بينهما، فقال له أبو بكر بحسب رواية الطبري في تاريخه ٢/٦٢٦: (امصص بظر اللات أنحن نفِرُّ وندعه! فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر، فقال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أُجْزِك بها لأجبتك، وجعل يكلّم النبي صلى الله عليه وسلّم، فكلّما كلّمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلّم ومعه السيف؛ فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف؛ وقال: أخِّر يدك عن لحيته، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ فقالوا: المغيرة بن شعبة، قال: أي غُدَرُ؛ ألستُ أسعى في غُدرتك! وكان المغيرة بن شعبة صحِب قوما في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غَدْرٍ لا حاجة لنا فيه»). وهكذا يتبيَّن لك الأساس الذي أسلم عليه ذلك النفر من أمثال المغيرة، وما سيفعلونه بالإسلام والمسلمين من بعد.

وبعثت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزّى وبعضًا من عيونهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لمصالحته على أن يرجع في عامه ذلك، ويعود في قابل، ووقع الصلح، وكان من كرامة المرتضى أن النبيَّ دعاه لكتابة وثيقته كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٢٠/٣، وابن الأثير في كامله ٢٠٤/٢، والطبري في تاريخه ٦٣٤/٢ وغيرهم، وشاء بعض رواة الواقدي في مغازيه ٦١٠/٢ أن يقولوا: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يكتب الكتاب بينهم، ودعا أوس بن خَوْليّ يكتب، فقال سهيل: لا يكتب إلاّ أحد الرجلين، ابن عمّك عليٌّ أو عثمان بن عفان، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا يكتب)، ولم أقف على من يوثّق تلك الرواية، أو يأخذ بها، فالمشهور أن الدعوة كانت لعليٍّ، وأنها صدرت من النبي وليس بسبب رغبة سهيل، ويغلب على ظنّي أن ما يبعد صحة تلك الرواية أن غير عليٍّ يمكن أن يكتب بين يديه في غيابه عليه السلام، كما هو مشهور، بل المشهور أن عهوده ومواثيقه خاصّة يكتبها عليٌّ عليه السلام، كما ذكر الشيخ علي الأحمدي في كتابه مكاتيب الرسول ١٣٨/١، وقد يكتب له غيره في غيابه، أما بوجوده فذلك مستبعد، وخاصّة حينما يتعلّق الأمر بوثيقة مهمة كهذه، ويستبعد أيضًا أن يطلب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من غيره كتابتها، ومما يوثّق ما ذهبنا إليه أيضًا ما رواه أحمد في فضائل أمير المؤمنين ١٧٥ برقم ١٢٦ عن معمر الذي قال: (سألت الزهري: من كان كاتب الكتاب يوم الحديبية؟ فضحك وقال: هو علي، ولو سألت هؤلاء، قالوا عثمان، يعني بني أميّة)، ولقد رأيناه صلى الله عليه وسلم يرسله بسورة براءة إلى مكّة في الوقت الذي كُلّف فيه أبو بكر بالحجّ تلك السنة على ما هو مشهور.

ويستفاد من نصٍّ وقفت عليه في تاريخ الطبري ٢/ ٦٣٠ أيضًا أن بعض مفاوضات الصلح جرت قبل كتابة وثيقته قام بها المرتضى من جهة النبيّ صلوات الله عليهما، وسهيلَ بن عمرو وحاطبًا من جهة قريش؛ قال: (ثمَّ إنَّ قريشًا بعثوا سُهيل بن عمرو وحاطبًا، وبعث النبي صلىَّ الله عليه وسلَّم عليًّا في صلحه)، وبعد انتهاء المفاوضات كتبت وثيقة تخلَّلها حوار وعلى الصورة الآتية:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

قال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، ويأمن فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يرده عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة - كل طرف يكف عن الطرف الآخر -، وأنه لا إسلال ولا إغلال - سرقة أو خيانة -، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه... وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب والسيوف في القرب لا تدخلها بغيرها).

وشهد (أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن مسلمة، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وهو يومئذ مشرك، وعلي بن أبي طالب، وكتب، وكان هو كاتب الصحيفة)، وقد روى ما سبق ابن هشام في سيرته ٣٢١/٣، وتابعه الطبري في تاريخه ٦٣٧/٢، فذكر الذي ذكره.

وروى الطبري أيضًا في ٦٣٦/٢ أيضًا أنَّه لمَّا كتب علي عليه السلام: (هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ؛ فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ؛ ولكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله»، قال لعلي عليه السلام: « امحُ رسول الله»، قال: والله لا أمحاك أبدًا، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وليس يحسن يكتب - فكتب مكان رسول الله محمد) ، وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٦٢٧/٢–٦٢٨ عن أعلام الورى، وروضة الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام، وواقعة صفّين، أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلّم حينما رأى غضب أخيه وقوله لسهيل : (بلى والله إنَّه لرسول الله وإن رُغِمَ أنفُكَ)، قال له: « يا عليّ، إني لرسول الله، وإني لمحمد بن عبد الله، ولن يمحو عنّي الرسالة كتابي إليهم: من محمد بن عبد الله. اكتب ما يأمرك، إنَّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد!»، (فمحا رسول الله اسمه بيده، وأمرني فكتبت: من محمد بن عبد الله ..).

ويبدو أن سهيلاً وبعض رؤساء المشركين من قريش الذين حضروا الصُّلح قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلّم بعد انتهاء كتابة وثيقته: إن بعض أبنائنا وإخواننا وأرقّائنا خرجوا إليك، دون رغبة في دين، ولكن لأسباب أخرى،

وطلبوا منه إعادتهم إلى مكّة، فكان جوابه، وسامًا من أوسمة الفخار كَرَّمَ به أبا الحسنين عليه السلام في هذه المناسبة، كما كرّمه من قبل في كلّ مناسبات الإسلام الكبرى، كما ورد في المصادر التي وقفت عليها، منها ما ذكره الترمذي في سننه برقم ٣٧٩٩ عن ربعي بن حِراش قال: أخبرنا علي بن أبي طالب بالرحبة فقال: (لمّا كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سُهيل بن عمرو، وأناس من رؤساء المشركين فقالوا يا رسول الله: خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقّائنا وليس لهم فقه في الدين، وإنما خرجوا فِرارًا من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفَقِّهُهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معشر قريش لَتَنْتَهُنَّ أو ليَبْعَثَنَّ الله عليكم من يضرِبُ رقابكم بالسيف على الدِّين، قد امتحن الله قلوبهم على الإيمان - كذا، ولعل صوابه قلبه -»، قالوا من هو يا رسول الله؟ فقال له أبو بكر من هو يا رسول الله، وقال عمر من هو يا رسول الله؟ قال: «هو خاصف النعل»، وكان أعطى عليًّا نعله يخصفها، قال: ثم التفت إلينا عليٌّ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «من كذب عليَّ متعمِّدًا فلْيَتَبَوَّأ مقعده من النار»)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث رِبعي عن علي، وذكر الوسام أيضًا الذهبي في عهده ٦٤٢-٦٤٣ عن أبي سعيد الذي قال: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ... الحديث، قال: (فقال أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا، ولكنَّه خاصف النَّعل، وكان أعطى عليًّا نعله يخصفها)، قال الذهبي: فقاتل الخوارج الذين أوّلوا القرآن برأيهم وجهلهم)، ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣/١٦٣-١٧٢

بروايات عدَّة، عن عمر بن علي بن أبي طالب، وعن أبي سعيد الخدري من طرق عدَّة، وعن عبد الرحمن بن بشير.

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه ١/١٣٢، وابن الأثير في أسده ٣/٦٠١ رواية عن رِبْعي بن حِراش أنه سمع الإمام عليه السلام يقول وهو في المدائن: (جاء سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنه قد خرج إليك ناس من أرقّائنا ليس بهم الدِّين تعبدًا فارددهم علينا. فقال أبو بكر وعمر: صدق يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم « لن تنتهوا يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب أعناقكم؛ وأنتم مُجْفِلون عنه إجفال النَّعم »، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. قال: لا. قال له عمر: أنا هو يا رسول الله.« قال: لا. ولكنه خاصف النَّعل »، قال: وفي كفّ عليٍّ نعل يخصفها لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم).

وذكر ابن الأثير في أسده ٣/٣١٠ وأبو نعيم في حليته ١/٦٧ رواية متمِّمةً عن أبي سعيد الخدري، جاء فيها (فجاء - أي الإمام - فبشَّرناه بذلك، فلم يرفع به رأسًا، كأنه شيء قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلَّم)، وهي عند ابن عساكر أيضًا.

وليس غريبًا أن الإمام عليه السلام لم يرفع رأسه، فأيّ أمر من أمور الإسلام والمسلمين لم يحدِّثه به النبيُّ، وهو الخليل والأخ والصَّاحب والوصيُّ والوزير، لقد واكبه وسايره خطوة خطوة قبل أن يهبط جبريل عليه إلى أن رحل صلى الله عليه وآله وسلَّم، فكان من بعده، القائم بالأمر، وإن دُفِعَ عنه، والرقيب على القوم إلى أن رحل شهيد المبادئ التي آمن بها.

وقُدِّم الهدي بين يدي النبيّ في الحديبية فنحر، وحلق فيها المسلمون وقصَّروا، وعاد من حيث أتى، وكان الفرح الأعظم بنزول سورة الفتح عليه صلى الله عليه وآله وسلّم.

وقبل أن تدور الأرض دورتها وإذا بسهيل (بن عمرو في حجّه قائمًا عند المَنحرِ ويُقَرِّب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بُدْنَه، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم ينحرها بيده، ودعا الحلاّق فحلق رأسه، وأنظر إلى سُهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينه) كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٦١٠، وكأنه نسي ذلك اليوم الذي أبى فيه أن تكتب البسملة في أول معاهدة الصلح، وأن يقرَّ بنبوَّة خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وتدور الأرض دورتها ثانية، وإذا بابن العاص ينكر على أمير المؤمنين إمرة المؤمنين في صفّين، ويأبى إلاَّ أن يكتب اسمه عليه السلام، فيقبل أمير المؤمنين الأمر، ويراه كيوم صلح الحديبية حين كتب اسم رسول الله مجرَّدًا من النبوة أو الرسالة.

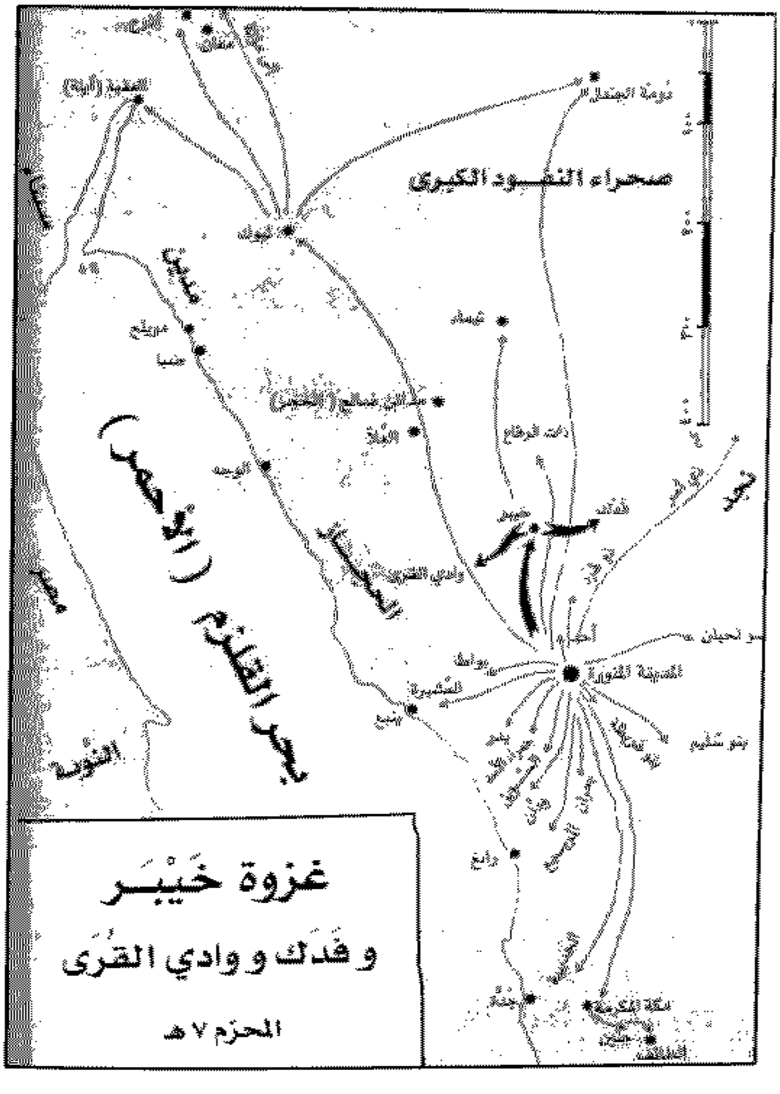

عن كتاب أطلس السيرة النبوية

سيف المرتضى في غزوة خيبر

«لأعطينَّ الراية غدًا رجلاً يحبهُ اللهُ ورسولُه، ويحبُّ اللهَ ورسولَه، كرَّارٌ غير فرَّار، يفتح الله على يديه»

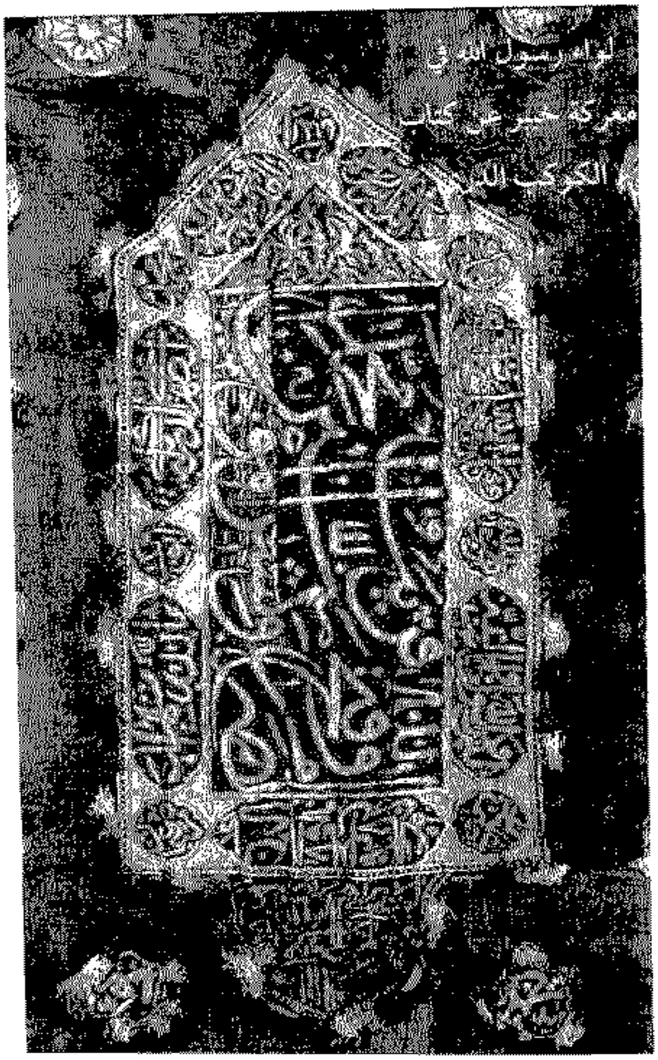

في السنة السادسة من الهجرة المباركة عاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من صلح الحديبية إلى مدينته، وأقام بها شهر ذي الحجة، وبعضًا من شهر محرم الحرام، ثم خرج إلى خيبر في بقيَّته، أو في صفر أو في جمادى الأولى أو في هلال ربيع الأوَّل سنة سبع على اختلاف الروايات بين الواقدي في مغازيه ٢/٦٣٤ وابن هشام في سيرته ٣/٣٣٢ والبلاذري في أنسابه ١/ ٤٢٧ ، ودفع رايته المنصورة إلى أخيه عليه السلام، وكانت بيضاء كما ذكر ابن هشام، ويعود سبب خروجه إليهم إلى استمرار تآمرهم على المسلمين، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ٤٢٧ أنهم حينما وصلت فلولهم خيبر بعد تلك الوقائع التي لم يحصدوا من ورائها إلاَّ الخسران (خرج حُيَيٌّ بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهما

حتى أتوا مكّة فدعوا أبا سفيان بن حرب وقريشًا إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعلموهم أنهم يد لهم عليه... ثم أتت اليهود إلى غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنةً على أن يعينوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلّم... ثم أتوا بني سليم بن منصور، فسألوهم مثل ذلك، فأنجدوهم، وساروا إلى جميع العرب ممن حولهم)، فكان لزامًا على النبي أن يتخلّص نهائيًا من ذلك الخطر المحدق بمدينته.

ورأت مجموعة من منافقي المدينة ومن تابعهم في غزوته هذه مناسبة طيّبة للغنيمة، بعد أن أصبح في يقينها أن النصر يسير في ركاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان المصطفى يعرفهم وعلى بيِّنة من سوء ظنهم بالله وبرسوله، لذا خيَّر هذه الطائفة بين البقاء في المدينة أو الخروج معه ولكن ليس لهم إلاّ الجهاد إن أرادوا، أما إذا غنم المسلمون غنيمة فلا يشاركونهم بها.

وحاول يهود المدينة بكلّ جهدهم بثّ الرعب في نفوس المسلمين لمّا علموا بنيّتهم في الخروج إلى خيبر وذلك بتهويل قوّة حصون اليهود وعظمة جيوشهم، ولم يكتفوا بذلك وإنما ضيّقوا عليهم كي يمتنعوا من الخروج، وذلك بمطالبتهم بما عليهم من دين، وما أكثر ديونهم على الأوس والخزرج، فأدُّوها لهم على الرغم من شديد حاجتهم.

ولقد أسهب الواقدي وابن هشام في الحديث عن عدد مقاتلي اليهود، وقوّة استحكامات حصونهم، وتنوع أسلحتهم وكثرتها، وعديد خيولهم ومؤونتهم التي لا حصر لها، وزيادة في حرصهم على دحر جيش المسلمين وإلحاق الهزيمة به فإن وجوه اليهود يتقدّمهم كنانة بن أبي حقيق في أربعة عشر رجلاً تحالفوا مع غطفان على نصف تمر خيبر لسنة إذا خرجوا لمساندتهم،

وعلى الرغم من معرفة المسلمين بكلِّ ذلك فإنهم لم يتردَّدوا في الخروج ليقينهم بالنصر الذي وعدهم الله به. وخرج المسلمون يتقدَّمهم عامر بن سنان برجز لعلَّ جميع من بالجيش ردَّده معه:

اللهم لولا أنتَ ما اهتدَينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فألقِيَنْ سَكِينةً علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقَيْنا
إنّا إذا صِيحَ بنا أتينا ... وبالصِّياح عوَّلوا علينا

وخيبر منطقة فيها مجموعة من الحصون، كالصعب، والخرصة، وآل أبي حقيق، والمزار، وناعم وحصون النطاة، وحصون الشِّق، وأكبرها وأهمها حصن خيبر.

ولقد سُجِّلت لأمَّةٍ من المسلمين عامَّة ولفتية من الأنصار خاصَّة كمحمد بن مَسْلمة وأخيه محمود، وأبي دجانة وقائع محمودة في معارك تلك الحصون لسنا بصدد ذكرها، ويسَّرَ الله على المسلمين فتحها أيضًا بمساعدة مجموعة من اليهود أسلم بعضها وحسن إسلامه واستشهد، وبعضها لم يسلم دلَّتهم على مداخل يسهل الدخول منها إلى تلك الحصون أو السيطرة عليها، ولذي يهمنا من هذه الغزوة المهمة، التقاط ما ذكرته كتب السيرة من أخبار عن دور المرتضى عليه السلام فيها.

ويبدو من إحدى الروايات التي سنأتي على ذكرها أن المرتضى تخلَّف حين وصل خيبر عن جيش أخيه صلى الله عليه وآله وسلَّم بسبب تردِّي وضعه الصحِّي لرمد أصاب عينيه آذاه وكاد يمنعه من إبصار طريقه، وعلى الرغم من علَّته تلك لم يحتمل البقاء فالتحق بعد هجمتين لجيش المسلمين كانت الأولى بقيادة أبي بكر والثانية بقيادة عمر الخطاب، وقيل: ثلاث هجمات كانت

الثالثة بقيادة رجل من الأنصار، لعلّه سعد بن عبادة الذي أصيب بحملة الأنصار فرجع إلى المعسكر قبل انسحابها، وقيل أيضًا: إن المرتضى عليه السلام بسبب ما أصابه من عارض انصرف لطحن الدَّقيقِ، وهي رواية تنبئ عن مدى تواضعه وحرصه على القيام بأيِّ عمل بعد أن أحسَّ بصعوبة المشاركة في المعركة، وقيل أيضًا: إنه بسبب آلامه انصرف إلى ظلِّ شجرة يعاني منها لوحده، وقيل: إنه ما كان ليبصر طريقه، فجاء به غلامان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم حينما طلبه.

انطلق النبيُّ صلوات الله عليه من المدينة إلى تلك الحصون، وتقدَّم المرتضى بلوائه ، ويبدو أنه حينما قاربها أصيب عليه السلام بتلك العلّة التي أقعدته عن القيادة فتولاّها غيره على ما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٦٥٣-٦٥٤ الذي قال: (وقد كان دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئًا، ثمَّ دفعه إلى آخر فلم يصنع شيئًا، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلّم لواء الأنصار إلى رجل منهم، فخرج ورجع ولم يعمل شيئًا...وخرج أُسير اليهودي يقدم أصحابه معه عاديته - الذين يعدون على أرجلهم - وكشف راية أصحاب الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله في موقفه، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم في نفسه حِدَّة شديدة، وقد ذكر لهم الذي وعدهم الله، فأمسى رسول الله صلى الله عليه وسلّم مهمومًا، وقد كان سعد بن عُبادة رجع مجروحًا وجعل يستبطئ أصحابه، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطئ أصحابه ويقول: أنتم وأنتم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن اليهود جاءهم شيطان فقال لهم: إن محمدًا يقاتلكم على أموالكم! نادوهم: قولوا لا إله إلاّ الله، ثمَّ قد أحرزتم بذلك أموالكم

ودماءكمُ وحسابكم على الله. فنادوهم بذلك فنادت اليهود: إنا لا نفعل ولا نترك عهد موسى والتوراة بيننا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يُحِبُّه الله ورسولُه، يفتح الله على يديه، ليس بفرَّار، أبشر يا محمد بن سلمة غدًا ، إن شاء الله يُقتلُ قاتل أخيك وتُوَلّى عادية اليهود». فلمَّا أصبح أرسل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أرمد، فقال: ما أُبصِرُ سهلاً ولا جبلاً. قال: فذهب إليه فقال: افتح عينيك، ففتحهما، فتفل فيهما. قال علي: عليه السلام: فما رمدتُ حتى الساعة، ثمَّ دفع إليه اللواء، ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر، فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مَرحب في عاديته، فانكشف المسلمون وثبت علي عليه السلام فاضطربا ضربات فقتله علي عليه السلام، ورجع أصحاب الحارث إلى حصنٍ فدخلوه، وأغلقوا عليهم، فرجع المسلمون إلى موضعهم، وخرج مرحب وهو يقول:

قد عَلِمَتْ خَيْبَرُ أني مَرْحَبُ   شاكي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

أضرِبُ أحيانًا وحينًا أُضْرَبُ

فحمل عليٌّ عليه السلام فقطَّره على الباب وفتح الباب).

أما الرجلان اللذان دفع لهما الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم رايته ولم يصنعا شيئًا فهما عند ابن هشام في سيرته ٣/٣٤١-٣٤٢ أبو بكر وعمر بن الخطاب، وبذلك حدَّث أيضًا أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢١٤ برقم ١٥٨ عن بريدة الأسلمي، وأيّد قولهما ابن عساكر في ترجمته بتاريخه بروايات عدَّة عن كبار الصحابة الذين شاركوا في تلك المعركة أو لم يشاركوا فيها، عن سلمة الأكوع في ١/١٨٩، وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي في ١/١٩٤

وعن ابن عباس في ٢٠١/١ وعن أبي ليلى في ٢١٨/١ وغيرهم، وقد أورد رواياته من غير طريق.

وروى ابن الأثير في كامله ٢١٩/٢ عن بريدة الأسلمي أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه (ربما أخذته الشّقيقة فيلبث اليوم واليومين لا يخرج، فلمّا نزل خيبر أخذته فلم يخرج إلى الناس، فأخذ أبو بكر الراية من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ثمَّ نهض فقاتل قتالاً شديدًا، ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديدًا هو أشدُّ من القتال الأول، ثم رجع، فأُخبر بذلك رسول صلى الله عليه وسلّم، فقال: « أما والله لأعطينها غدًا رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله، يأخذها عنوة». وليس ثمَّ علي، كان قد تخلّف بالمدينة لرمد لحقه، فلمَّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته تطاولت لها قريش، فأصبح فجاء علي على بعير له حتى أناخ قريبًا من خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أرمد قد عصب عينيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم «ما لك؟» قال: رمدتُ بعدك. فقال له: «ادنُ مِنّي» فدنا منه، فتفل في عينيه، فما شكا وجعًا حتى مضى لسبيله. ثم أعطاه الراية، ونهض بها وعليه حلّة حمراء، فأتى خيبر، فأشرف عليه رجل من يهود فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال اليهودي: غُلِبتم يا معشر يهود. وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني قد نقبه مثل البيضة على رأسه وهو يقول:

قد عَلِمَتْ خَيْبَرُ أني مَرْحَبُ   شاكي السّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

فقال علي:

أنا الذي سَمَّتني أمّي حيدره   أكيلكم بالسّيفِ كيلَ السّندره

ليثٌ بغاباتٍ شديدٌ قَسْوَره

فاختلفا ضربتين، فبدره عليٌّ فضربه فقدَّ الحجفة - الترس من جلد بلا خشب - والمغفر ورأسه حتى وقع في الأرض وأخذ المدينة)، وقريب من هذا ما رواه أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢١٧ برقم ١٦٠ عن إياس بن سلمة عن أبيه الذي قال في نهاية روايته: (ففلق رأس مرحب بالسيف وكان الفتح على يديه).

وروى الواقدي في مغازيه ٢/٦٥٥ عن أبي رافع قال: (كنَّا مع عليٍّ عليه السلام حين بعثه النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بالراية، فلقي عليٌّ عليه السلام رجلاً على باب الحصن، فضرب عليًّا واتَّقاه بالترس عليٌّ، فتناول عليٌّ بابًا كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده حتى فتح الله عليه الحصن، ويعث رجلاً يبشِّرُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم بفتح الحصن، حصن مرحب ودخولهم الحصن).

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣١٨ (وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة ومشاهد طائلة، منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لأعطينَّ الراية غدًا رجلاً يُحِبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه» فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها، فدعا عليًّا -وكان أرمد - فدعا له، وبصق في عينه فلم يرمد بعدها، فبرأ وأعطاه الراية، ففتح الله على يديه، وقتل مرحبًا اليهودي)

ذلك المشهور في حكاية فتح الحصن، وسنذكر من بعد ما وقفنا عليه من روايات أخرى تؤيده، ولكن الواقدي عاد فقال في مغازيه ٢/٦٥٥: إنه يقال: إن محمد بن سلمة طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أن

يبرز لمرحب لأنه قد وتر في يوم سابق بأخيه محمود الذي قتله مرحب كما قال بزعم الرواية، فأذن له النبي، فلمَّا اشتبكا (ضرب محمد ساقي مرحب فقطعهما...وجاوزه ومرَّ به علي فضرب عنقه، وأخذ سلبه، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم في سلبه، فقال محمد بن سلمة: يا رسول الله، والله ما قطعت رجليه ثم تركته إلاّ ليذوق مرّ السلاح وشدَّة الموت كما ذاق أخي، مكث ثلاثًا يموت، وما منعني من الإجهاز عليه شيء، قد كنت قادرًا بعد أن قطعت رجليه أن أجهز عليه. فقال عليٌّ عليه السلام: صدق، ضربت عنقه بعد أن قطع رجليه. فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلّم محمد بن مسلمة سيفه ودرعه ومغفره وبيضته).

وعلى الرغم من السند الذي ذكره الواقدي من بعد، فإن هذه الرواية تدعو إلى المناقشة، فالحملة يقودها المرتضى، ولا شك أنها تبتعد عن مقر القيادة الذي يجلس فيه النبي، ورأس حملة اليهود مرحب صاحب الحصن، والالتحام لابد أن يكون معه فهو وجه الجيش، وبمصرعه ستنكسر شوكة اليهود، ولابد أنه عليه السلام حينما التحم بجيشه قصد مرحبًا ولم يقصد غيره، كما فعلها في المرَّة السابقة حينما قتل أخا مرحب، ولابد لمرحب هذا أن يقصد عليًّا للثأر منه فقد قتل أخاه بالأمس، ولم يكن النبي مع الحملة حينما زحف المرتضى، في الوقت الذي نلاحظ أن محمد بن مسلمة كان مع النبي في أثنائها فقد طلب الإذن منه بزعم الرواية، وما كان الأمر يحتاج إلى إذن من النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، وكان له أن يكون ضمن الحملة لو أراد، ولكنه لم يكن، يضاف إلى هذا أننا لم نقف على نصٍّ قبل هذه الواقعة أو بعدها أشير فيه إلى أن المرتضى سلب أحد قتلاه، أو اختصم على سلب،

فكيف نستطيع أن نأخذ بهذه الرواية التي نراه فيها يخاصم صاحبه إلى رسول الله في سلب أيِّ سلب كان، وقد رأيناه عفّ عن أسلاب بدر وأحد والخندق من قبل. وسنقف من بعد على رواية يكون فيها ثأر محمد بأخيه بطريقة أخرى عند ابن هشام في سيرته ٣/٣٣٩ فقد ذكر عن ابن إسحاق بسنده عن جابر بن عبد الله صورة أخرى (قال: خرج مرحب اليهودي من حصنهم قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ....

من يبارز...فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لهذا؟»، قال محمد بن سلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس، فقال: «فقم إليه اللهم أعنه عليه» قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه .... ضربه محمد بن مسلمة حتى قتله)، وذكر في السيرة ٣/٣٤١ عن ابن إسحاق أيضًا: (ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يقول: من يبارز؟ فزعم هشام بن عروة أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله، قال: « بل ابنك يقتله إن شاء الله»، فخرج الزبير فالتقيا، فقتله الزبير)، وما أكثر ما روي عن عروة، وهو من أشدّ المبغضين لأبي الحسن عليه السلام، ويبدو أن رواية ثأر محمد بن مسلمة الصحيحة رواها ابن عمر في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام بتاريخ بن عساكر ١/ ٢٤٥، ٢٠٠ وهي فيه عن ابن عمر من طريقين كلاهما عن حبيب بن أبي ثابت الذي قال: (جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله إن اليهود قتلوا أخي، فقال: لأدفعنَّ الراية غدًا إلى رجل يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله، فيفتح الله عليه، فينكل—

وفي رواية فيمكّنه الله– من قاتل أخيك... فأخذ عليٌّ قاتل الأنصاري فدفعه إلى أخيه فقتله)، أما رواية مقتل ياسر فلها رواية أخرى في مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٧ وفيها أن ياسرًا هذا برز له علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال الزبير: أقسمت عليك ألاّ خلّيت بيني وبينه، ثم تأتي بقية حكاية صفيَّة وقول النبي صلوات الله وسلامه عليه.

ولحكاية ثأر محمد بن سلمة في سيرة ابن هشام ٣/٣٤٥ حكاية أخرى أيضًا تدفع الروايات التي ذهبت إلى أن قاتل مرحب هو محمد بن سلمة، ومفادها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع بكنانة بن الربيع إلى (محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمد بن سلمة).

ووسام أبي الحسن المذكور في هذه الواقعة من أشهر أوسمته عليه السلام، وهو على حدّ تعبير ابن عبد البر في الاستيعاب ٣/١١٠٠ من الآثار الثّابتة، وهو في صحيح مسلم في باب فضائل علي بن أبي طالب برقم ٢٤٠٥ وسنن الترمذي برقم ٣٨٠٨، وسنن ابن ماجة ١/٨٤ برقم ٤/١١٧، وذكره ابن عبد ربه في العقد ٤/٢٨٧ وروى أيضًا أنه صلى الله عليه وآله وسلّم دعا له فقال: « اللهم قِه داء الحرّ والبرد» (فكان يلبس كسوة الصيف في الشتاء وكسوة الشتاء في الصيف ولا يضُرُّه)، ورواه أيضًا ابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٥٩٤، ولا يعني هذا في ما أحسب أنه عليه السلام قد فقد الإحساس بالحرّ والبرد، وإنما قدرته على مقاومتهما وتحملهما بيسر وسهولة.

ولقد حقّ لجميع الصّحابة التطلّع إلى مثل ذلك الوسام، فأي رجل هذا الذي لا شكّ في حبّه الله ورسوله بصريح عبارة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولا شك في حبّهما له عليه السلام بشهادة رسول الله، وحقّ

لعمر بن الخطّاب أن يقول: (ما أحببت الإمارة إلاّ يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أُدعى لها)، بل حقٌ لغيره أيضًا أن يتطلّع لذلك المجد كما روى عنه ابن عساكر في ترجمة المرتضى من غير طريق، ولكنّه دعا عليًا، وقال: «امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» (فسار عليٌّ شيئًا ثمّ وقف ولم يلتفت. فصرخ يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمّدًا رسول الله فإذا فعلو ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالَهم إلاّ بحقّها. وحسابهم على الله »). وتريك الرواية السابقة من بين ما تريك مدى التزام المرتضى وطاعته في ما يأمره به أو يوصيه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بلا مناقشة أو حوار، فأيّ أدبٍ أدّبه به الله، وأيّ إيمانٍ تغلغل في روحه ونفسه الزّكية سلام الله عليه، وروى ابن عساكر أيضًا في ترجمته ١٧٩/١ عن أبي هريرة: (.. فمشى عليٌّ هنيهة ولم يلتفت للعزمة فقال: يا رسول الله علام أقاتل الناس؟ قال: « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله، وإنّي رسول الله، فإذا قالوها منعوا منّي - وقال ابن عمران - عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله »)، وذكر الوسام والحكاية أيضًا البلاذري في أنسابه ٣٤٧/٢ وذكر أيضًا رواية عن ابن عباس قال: (فؤتي بعلي فدفعها إليه فجاء بصفية بنت حُيَيّ بن أخطب).

وذكر مسلم طريقًا آخر للحديث برقم ٢٤٠٦، وتابعه ابن الأثير في أسده ٣ /٦٠٤ عن سهل بن سعد قال: (فبات الناس يدوكون - يتحدثون في ذلك - ليلتهم أيّهم يُعطاها. قال: فلمّا أصبح الناس غدَوا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يرجون أن يُعطاها فقال: « أين علي بن أبي طالب» (فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق - في رواية أخرى

فتفل، وفي أخرى فنفث وهي الأسلم - رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له فبرأ ..وقال: « فوالله لأن يَهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حمرُ النعم »)، وللحديث في صحيح مسلم طريق آخر برقم ٢٤٠٧، وذكره عن سلمة الأكوع (كان علي قد تخلّف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر، وكان رَمِدًا. فقال: أنا أتخلّفُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج عليٌّ فلحق بالنبي ﷺ)، بل إنّه دعا له في هذه المناسبة أيضًا أن يذهبَ عنه الحرَّ والبرد، فقال: « اللهم أذْهِب عنه الحرَّ والبرد»،

والوسام المذكور ذكره ابن ماجة في سننه ١/ ٨٣ أيضًا كما ذكره غيره، أما حكايته ومناسبته عند ابن ماجة فيرويها عن عبد الرحمن بن أبي ليلى :(قال: كان أبو ليلى يسمر مع علي عليه السلام، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف، فقلنا: لو سألته. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليَّ وأنا أرمد العين، يوم خيبر. قلت: يا رسول الله! إني أرمدُ العين، فتفل في عيني، ثم قال: «اللهم أذهب عنه الحرَّ والبرد» قال: فما وجدت حرًّا ولا بردًا بعد يومئذ)، فما وجد حرًّا ولا بردًا منذ ذلك اليوم.

وذكره أحمد في مسنده برقم ٢٨٧ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أيضًا، وذكره أحمد أيضًا برقم ٢٨٦ عن أبي سعيد الخدري، وبرقم ٢٨٩ عن أبي هريرة، وذكره الذهبي في تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين ٦٢٥ ، وروى أيضًا في ٦٢٦ عن أم موسى قالت: (سمعت عليًّا يقول: ما رمِدتُ منذ مسح رسول الله صلى الله عليه وسلّم وجهي وتفل في عيني)، وهو أشهر من أن يوثّق، تكاد تجمع على روايته الكتب التي تعرضت لسيرة المصطفى أو سيرته عليهما السلام.

وروى الذهبي في عهده ٦٢٧ عن عامر بن سعد عن أبيه، كما رواه في ٦٢٦ عن أبي رافع مولى رسول الله قال: (خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته، فلمَّا دنا من الحصن، خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول عليٌّ بابًا عند الحصن، فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل، حتى فتح الله علينا، ثمَّ ألقاه، فلقد رأيتنا ثمانية نفر نجهد أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا قلبه)، وتابعه في الرواية أيضًا ابن الأثير في كامله.

وروى الذهبي في عهده ٦٢٦ أيضًا عن جابر بن عبد الله إن عليًّا حمل بابًا على ظهره يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها يعني خيبر، وأنهم جرُّوه بعد ذلك، فلم يحمله إلاَّ أربعون رجلاً، وقد ذكر مثل هذا ابن عساكر في ترجمته عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، وذكر أيضًا تخريج ابن عساكر للرواية المذكورة.

وروى أحمد في مسنده برقم ٢٨٥ عن أبي بريدة الأسلمي قال: (حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له، ثمَّ أخذه من الغد عمر فخرج فرجع ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدَّة وجهد فقال رسول الله .... الحديث ...قال بريدة: وأنا فيمن تطاول لها).

وذكر حكاية الوسام ابن هشام في سيرته ٣٤١/٣–٣٤٢ عن ابن إسحاق عن سلمة بن عمرو بن الأكوع، وفيها أن راية الرسول التي بعثها مع أبي بكر كانت بيضاء، وفيها أنه صلوات الله وسلامه عليه قال للمرتضى: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك» قال سلمة: (فخرج والله بها يأنح يهرول هرولة، وإنَّا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت

الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، قال: يقول اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، أو كما قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه)، وروى عن ابن إسحاق عن أبي رافع قال: (خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه - حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته - فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطرح ترسه من يده، فتناول علي عليه السلام بابًا كان عند الحصن، فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٣١٨: (وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر أن عليًّا حمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، فلم يحملوه إلاّ أربعون رجلاً. ومنها أنه قتل مرحبًا فارس يهود وشجعانهم)، فأيّة عجيبة كان عليه السلام قوّة وشجاعة وفروسيّة وعزيمة.

أما ابن عساكر فقد ذكر حديث الراية ومصرع مرحب على يديه، وحكاية الباب، والتترُّس بها، وعبور الصحابة عليها، ووثقها، في ترجمته بتاريخه ١/ ١٦٩–٢٤٦ بروايات عدّة عن جمهرة من الصحابة، ممن حضر الواقعة أو ممن سمعها عن غيره، أو ممن سمعها منه.

ولعلّه عليه السلام لم يسمع بالوسام الذي وشّح به إلاّ بعد انقضاء المعركة، وهو وسام ليس ابن ساعته في ما أحسب، وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله هوًى أو رغبة وإن، فما كان لينطق عن الهوى، وإن ذهب إلى ذلك بعض المغرضين.

المرتضى في عمرة القضاء

«أنت منّي وأنا منك»

عاد النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم إلى المدينة مظفَّرًا بعد غزوة خيبر، وبقي فيها أشهر جمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوَّال، ثمَّ خرج في شهر ذي الحجَّة معتمرًا بحسب الاتفاق مع قريش في الحديبية، وخرج معه المسلمون الذين خرجوا معه في عمرته الأولى، وساق معه من الهدي سبعين بدنة، وما إن سمعت قريش بمقدمه حتى خرجت من مكَّة وأنفها راغم، وما إن دخل دار الندوة حتى اصطفَّ من بقي من القرشيين لاستطلاع أحواله وأحوال صحابته بعد أن أشاعت فئةٌ منهم أنه وأصحابه في عسر وجهد، فخرج الرسول يهرول ومعه أصحابه يهرولون، وبين يديه عبد الله بن رواحة يرتجز بشعر كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣/٣٨٣.

وكان المصطفى صلى الله عليه وأله وسلّم يوم خرج خرج بكامل العدَّة والسلاح، وجنَّب مئة من الخيل تحرُّسًا من غدر قريش، فلمَّا علمت بمقدمه بتلك العدَّة بعثت نفرًا من أهل مكَّة لتذكيره بما جاء في عقد الصلح الذي أشير فيه إلى دخوله مكة والسيوف في أغمادها، ومن دون عدَّة حرب فأعلمهم أنه على شرطهم، ولن يدخل بسلاحه، وفعلاً تركه، وترك عليه من يحرسه، ودخل معتمرًا فلمَّا أتم عمرته أرسل رجالاً كي يقوموا مقام من تركهم على السلاح لأداء عمرتهم، كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٧٣٣–٧٣٨، وذكر أيضًا غصَّة قريش ولوعتها حينما صعد بلال على الكعبة وأذَّن.

وذكر الواقدي في مغازيه ٢/٧٣٨–٧٣٩ أن عمارة بنت حمزة رضوان الله عليه كانت بمكّة، وأمها سلمى بنت عميس أخت أسماء، فعزَّ على المرتضى عليه السلام تركها بمكّة بين المشركين، فاصطحبها إلى المدينة، فلمَّا رآها زيد بن حارثة قال: أنا أولى بها لأنها ابنة أخي، لأنه كان وصيَّ حمزة، ولأنَّ النبي حينما آخى بين المهاجرين آخى بين زيد وبين حمزة رضوان الله عليهما، ولمّا سمع جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه قال: وأنا أحقُّ بها لمنزلة خالتها التي كانت عنده، فامتنع المرتضى وقال: أنا أخرجتها من بين أظهر المشركين، وليس بيننا اختلاف في النسب، فقال رسول الله صلوات الله عليه «أنا أحكم بينكم! أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله، وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي، وأما أنت فتُشبه خَلقي وخُلُقي، وأنت يا جعفر أحقُّ بها! تحتك خالتها»، وزوَّجها النبي من بعد سلمة بن أم سلمة، وكان قد زوَّجه أمه أم سلمة فقال له النبي حين زوَّجه ابنة عمه عمارة: «هل جزيت سلمة؟» وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣١٨ أنه قال لعلي عليه السلام: «أنت منِّي وأنا منك»، ولكنَّه لم يذكر المناسبة، وإنما قال: (وشهد علي عمرة القضاء، وفيها قال له النبي صلى الله عليه وسلّم.. الحديث).

أما الحاكم في مستدركه ٣/١٢٠ فذكر أن عليًّا حينما أخذ ابنة عمِّه حمزة ناولها لفاطمة، وقال لها عليهما السلام: (دونك ابنة عمك)، فلما قدما المدينة حصلت حكاية الخصومة بينه وبين زيد وجعفر رضوان الله عليهم.

وتزوَّج النبيُّ ميمونة بنت الحارث، وأقام بمكّة ثلاثًا، ويبدو أنه كان يرغب بالمقام بها أكثر من ذلك، ويبدوا أنه أرسل إليهم المرتضى يحدِّثهم برغبته في الدخول بميمونة بمكّة وأن يصنع طعامًا يحضرونه، ولكنَّ المشركين

أرسلوا إليه مع عليٍّ عليه السلام أن يخرج منها، وأنهم لا حاجة لهم بطعامه، فخرج صلى الله عليه وآله وسلّم، وبنى بميمونة بسرف، كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٢٢٧–٢٢٨، ولا شكَّ أنَّ النبيَّ أراد أن يفتح معهم صفحة أخرى يجنِّبهم فيها ما هو شديد عليهم سيأتيهم في قريب ليس ببعيد.

مواضع أوثان العرب وأصنامهم عن كتاب أصلس السيرة النبوية

المرتضى وأصنام العرب

صنم مناة الثالثة

بدأت أصنام العرب تتهاوى صنمًا بعد آخر، قبل الفتح وبعده، أما قبل الفتح فقد هدم أبو الحسنين عليه السلام مناة الثالثة الأخرى، وهو من أعظم أصنام العرب، وكانت عامَّة القبائل تعظِّمه، بما في ذلك قريش، وهو لهذيل وخزاعة، جاء في معجم البلدان ٢٣٦/٥ أنه يوم (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من المدينة في سنة ثمان للهجرة، وهو عام الفتح، فلمَّا سار من المدينة أربع ليال أو خمس بعث علي بن أبي طالب إليها فهدمها، وأخذ ما كان لها، وأقبل به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من جملة ما أخذه سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني أهداهما لها أحدهما يسمَّى مِخْذَمًا، والآخر رسوبًا، وهما سيفا الحارث، فوهبهما النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه، فأحدهما يقال له: ذو الفقار سيف الإمام علي، ويقال: إن عليًّا وجد هذين السيفين في الفَلْس)، وذكر الرواية الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ١٩٦/٣ عن ابن الكلبي في أصنامه ١٤، ١٥ وذكر سيفي الحارث مخذمًا ورسوبًا، ولكنَّ ابن الكلبي لم يشر إلى أنَّ أحدهما يقال له: ذو الفقار، ويبدو أن الأمر قد اختلط على ياقوت، فأما ذو الفقار فقد غنمه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في غزوة بدر الكبرى كما سبق القول، ورأيناه في يمينه عليه السلام في واقعة أحد، وأما مخذَّم ورسوب فسنراهما من بعد في خزينة صنم الفلس وهو لطيئ، ولا يمنع أن يكون الرسول الكريم أهدى هذه الأسياف لأخيه أيضًا.

وذكر ابن هشام في سيرته ١/ ١٢٩ (وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل -جبل يهبط منه إلى قديد قريب من مكّة - فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم إليها أبا سفيان بن حرب، ويقال: علي بن أبي طالب)، ولا يقرب من ظنّي أن يكون صلوات الله عليه قد بعث أبا سفيان، ولعلّها مكرمة من مكارم الأمويين حاكها لهم رواتهم، ويبدو أن مناة هذه ليست مناة الثالثة التي ذكر ياقوت أن عليًا عليه السلام هو الذي هدمها، وما ذكره ابن هشام من أن أبا سفيان هو الذي هدم مناة الأوس والخزرج، لا يقارب الصواب، فقد ذكر الواقدي في مغازيه ٢/ ٨٧٠ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمُشلل فهدمه.

صنم هبل

واختلف في صنم هبل، هل كسره المصطفى أثناء الفتح أو ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلّم، فقد نقل الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/ ٢٢٨—٢٢٩ رواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (لما ألقيت الأصنام كلُّها لوجوهها وقد بقي على البيت هبل الصَّنم الطويل، فنظر النبي صلى الله عليه وآله إلى عليٍّ عليه السلام وقال له: يا علي تركب أو أركب عليك لألقي هُبل عن ظهر الكعبة؟ فقال علي: بل تركبني، فلما جلس علي وصعد النبي على منكبه قال: بل أركبك يا رسول الله، فنزل وضحك وطأطأ ظهره وقال له: اصعد على منكبي، فصعد على منكبه ثم نهض النبيُّ به حتى صعد على الكعبة وتنحَّى رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان صنم قريش الأكبر هبل من نحاس موتَّدًا بأوتاد إلى سطح الكعبة. فقال النبي لعلي: عالجه،

فما زال يعالجه ورسول الله يقول له: ايه ايه ايه! ثم قال له: دقّه، فدقّه حتى كسره، فقال له: اقذف به. فقذفه، فتكسَّر كما تتكسَّر القوارير، ولمّا أراد أن ينزل علي ألقى بنفسه من صوب الميزاب تأدّبًا وشفقة على النبي صلى الله عليه وآله، فلما استقرَّ على الأرض ضحك، فسأله النبيّ عن تبسُّمه فقال: لأني ألقيت نفسي من هذا المكان الرفيع وما أصابني ألم؛ فقال له النبيُّ: كيف يصيبك ألم وقد رفعك محمد وأنزلك جبرئيل)، وذكر اليوسفي في الحاشية (أخرج خبره أمّة من أئمة لتاريخ والحديث، ذكر الأميني له أربعين مصدرًا في الغدير ٧/١٠–١٣).

أما الدكتور علي الصلابي في كتابه علي بن أبي طالب ١/٤٠ فلم يشر إلى الرواية التي ذكرها اليوسفي الغروي، وضعَّف الرواية التي وردت في مسند أحمد، الموسوعة الحديثية ١٠٢ برقم ٨٣/٦٤٤ التي تذهب إلى كسر هبل ليلة هجرة النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، بل أنكرها، ورأى أنها لا تتماشى مع الفترة المكيَّة التي منع النبي فيها أصحابه من استخدام القوَّة أو الاعتداء على أصنامهم، والرواية فيه (عن علي رضي الله عنه قال: انطلقت أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلَّم حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «اجلس»، وصعد على مَنْكِبِي، فذهبت لأنهض به فرأى منِّي ضَعفًا، فنزل وجلس لي نبيُّ الله ﷺ وقال: «اصعد على مَنْكِبِي»، قال: فصعدت على منكبه، قال: فنهض بي قال: فإنه يخيَّلُ إليَّ أني لو شئتُ لنِلْتُ أُفقَ السماء حتى صَعِدْتُ على البيت، وعليه تمثالٌ صُفرٌ أو نحاس، فجعلتُ أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنتُ منه قال لي رسول الله ﷺ: «اقْذِفْ به»، فقذفت به فتكسَّر كما تتكسَّر القوارير، ثم

نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ حتى توارينا بالبيوت خَشْيَة أن يلقانا أحدٌ من الناس)، ولكي يزيد من توهين الرواية ذكر في الحاشية (وصحح الحاكم إسناده، واستدرك عليه الذهبي فقال: إسناده ضعيف ومتنه منكر، وقد قام أحمد ميرين البلوشي في رسالته التي حقق فيها خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالحكم على رجال السند وحكم عليه بالضعف، خصائص علي بن أبي طالب ١٣٥، ١٣٦، وقد صحّح الحديث أحمد شاكر ٢/٨٥)، والحديث الذي وهَّنه الصلابي، وصحَّحه أحمد شاكر، صححَّه الحاكم في مستدركه ٣/٥ وهو بسنده عن أبي مريم الأسدي عن علي عليه السلام قال: (لمّا كانت الليلة التي أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أبيت على فراشه وخرج من مكّة مهاجرًا انطلق بي رسول الله إلى الأصنام، فقال اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة، ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبي، ثم نهض فنهضت به، فلما رأى ضعفي تحته قال: اجلس فجلست فأنزلته عني، وجلس إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا علي اصعد على منكبي فصعدت على منكبيه، ثم نهض بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيل إلي أني لو شئت نلت السماء وصعدت على الكعبة، وتنحى رسول الله صلى الله عليه وآله، فألقيت صنمهم الأكبر، وكان من النحاس موتدًا بأوتاد من حديد إلى الأرض، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: عالجه، فعالجت فمازلت أعالجه ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول إيه إيه فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فقال: دقه، فدققته فكسرته ونزلت)، وعلى الرغم من أن رواية الحاكم ليس فيها اسم هبل وإنما وصف الصَّنم بعين الوصف الذي جاء في رواية مسند أحمد، وقال: (هذا حديث

صحيح الإسناد ولم يخرّجاه)، وعلى هذا فإن تحليل الخبر بصورته يختلف مع تحليل الصلابي، إذ إن تهشيم الصنّم كان بعد هجرة جلّ صحابته، وفي ليلة هجرته صلوات الله وسلامه عليه، وليس في أثناء مكوثه مع صحابته بمكّة، ولست بصدد التعقيب على ما ذهب إليه الصلابي السابق الذكر، ولا على هامشه المشوّه، ولا على حكم البلوشي المذكور في هامشه، ولكنّه لو قدّر أن ما ورد في نهاية روايته (ثم انطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس) لا ينسجم مع الرواية مطلقًا، بل إن الرواية عند الحاكم ليس فيها هذه الزيادة وأنه دُسّ فيها دسًّا، ولو تدبّر الأمر لقال بصحة الحدث سواء أكان وقع ليلة الهجرة أو بعد الفتح.

صنم الفلس

ووجّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم نظره إلى قبيلة طَيِّئ التي كانت تتعبّد لصنم يقال له الفُلْس، فبعث إليها المرتضى عليه السلام في شهر ربيع الآخر سنة تسع من هجرته المباركة في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار على مئة بعير، وخمسين فرسًا، ودفع له راية بيضاء، ولواء أسود.، وليس معه في سريته هذه أحد من المهاجرين كما ذكر الواقدي في مغازيه ٩٨٤/٣، ولك أن تنظر أيضًا كامل ابن الأثير ٢٨٥/٢.

فاتّجه نحو آل حاتم، وشنّ غارة ماحقة فَجْرًا هدّم خلالها صنمهم الفلس، وأسرت سريّته عليه السلام، وغنمت، وكان من بين الأسرى سفّانة أخت عدي بن حاتم، وما إن سمع عدي بقدوم جيش المسلمين حتى هرب إلى الشام، وكان قد أعدّ العدّة من قبل ليوم هربه، ولم يكن عديٌّ مشركًا، وإنما كان نصرانيًّا ومن أكثر الناس كراهية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ووجد المرتضى في خزانة الصَّنم ثلاثة أسياف يقال لأحدها رسوب، وللآخر المخْذم، ويقال لثالثها اليماني، ووجد فيه أيضًا ثلاثة أدرع، فاصطفى سيفين من أسياف الفلس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ثم صار الثالث له أيضًا، واستخرج الخمس، وقسَّم باقي الغنائم على أصحابه، وعزلَ آل حاتم فلم يقسِّمهم، وعاد مظفَّرًا منصورًا إلى المدينة.

وحبست ابنة حاتم في مكان أعدَّ لهذا الغرض قرب مسجد رسول الله، وذكر الواقدي في مغازيه ٩٨٨/٣ أيضًا رواية تذهب إلى أنّها أنزلت دار رملة بنت الحارث، وكانت امرأة حازمة تحسن الخطاب، فما أن رأت الرسول حتى قالت: (يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، قال: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفارُّ من الله ورسوله؟» ثمَّ تركها، ولما كان اليوم الثاني كررت عليه الخطاب، فكرر عليها الجواب، فلما كان اليوم الثالث شعرت بيأس من استجابته، ويبدو أن المرتضى عليه السلام قد أعجب بفصاحتها وكلامها، وهو إمام البلغاء، كما قدَّر من قبل مكانتها يوم لم يقسِّم آل حاتم، فوقعت في نفسه موقعًا حسنًا كما ذكر أبو الفرج في أغانيه ٣٦٤/١٧–٣٦٥، فأشار عليها أن تقوم وتسأل النبي ولم تكن عرفته، فقامت وكررت عليه القول، فقال صلى الله عليه وآله: «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثمَّ آذني»، وقال لها: «لو كان أبوك إسلاميًّا لترحمنا عليه، خلُّوا عنها فإن أباها يحبُّ مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق»، ولمَّا منَّ عليها الرسول بما منَّ عليها به سألت عن الرجل الذي أشار عليها فقيل لها: ذلك علي بن أبي طالب، ولا شكَّ أنه وقع منها

موقفًا حسنًا أيضًا فبفضل إشارته أطلقت من الأسر، ولابدَّ أنها نقلت هذا الفعل الكريم إلى أخيها يوم التقته، ولعل ذلك الموقف كان سببًا من بعد للعلاقة الوثيقة التي ربطت حاتم بأمير المؤمنين فكان من خيار صحابته.

ويوم آذنت بالرحيل كساها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وحملها وأعطاها نفقة، والتحقت بأخيها عدي بن حاتم بالشام، وأقنعته باعتناق الإسلام، فاستجاب لطلبها وتوجَّه إلى المدينة ودخل على الرسول في مسجده، فلما عرفه صلى الله عليه وآله وسلّم انطلق به إلى بيته الشريف، وقدَّم له وسادة من ليف جلس عليها، وجلس الرسول على الأرض، ودار بينهما من الحديث ما حبَّب النبيَّ الكريم لعدي فأسلم وحسن إسلامه، ويبدو أيضا أن شمائله هي التي حبَّبته لأبي الحسنين عليه السلام، فأصبح ابن حاتم من أخصِّ أصحابه. أما حكايته وحكاية أخته فقد ذكرها ابن هشام في سيرته ٤/٢٦٥–٢٦٨، وأما السرية فقد ذكرها ابن سعد في طبقاته ٢/١٦٤، ٣/٣٢، وابن الأثير في كامله ٢/٢٨٥، وياقوت في معجم بلدانه ٤/٣١٠ وغيرهم.

ونقل الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/٣١١ عن إرشاد الشيخ المفيد أن النبيَّ أرسل عليًّا في خيل إلى خثعم حول الطائف، وأمره بكسر أيِّ صنم يجده، فلما خرج عليه السلام لقيه جمع كثير من فرسانهم، فقتل فارسهم شهاب، وكسَّر أصنامهم، وعند عودته خرج من حصن الطائف نافع بن غيلان بن معتِّب في خيل من ثقيف فلقيه المرتضى فقتله، وانهزم من معه وعاد بالظفر عليه السلام إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

رسم تقريبي لبناء الكعبة المشرّفة وبيان أبعادها

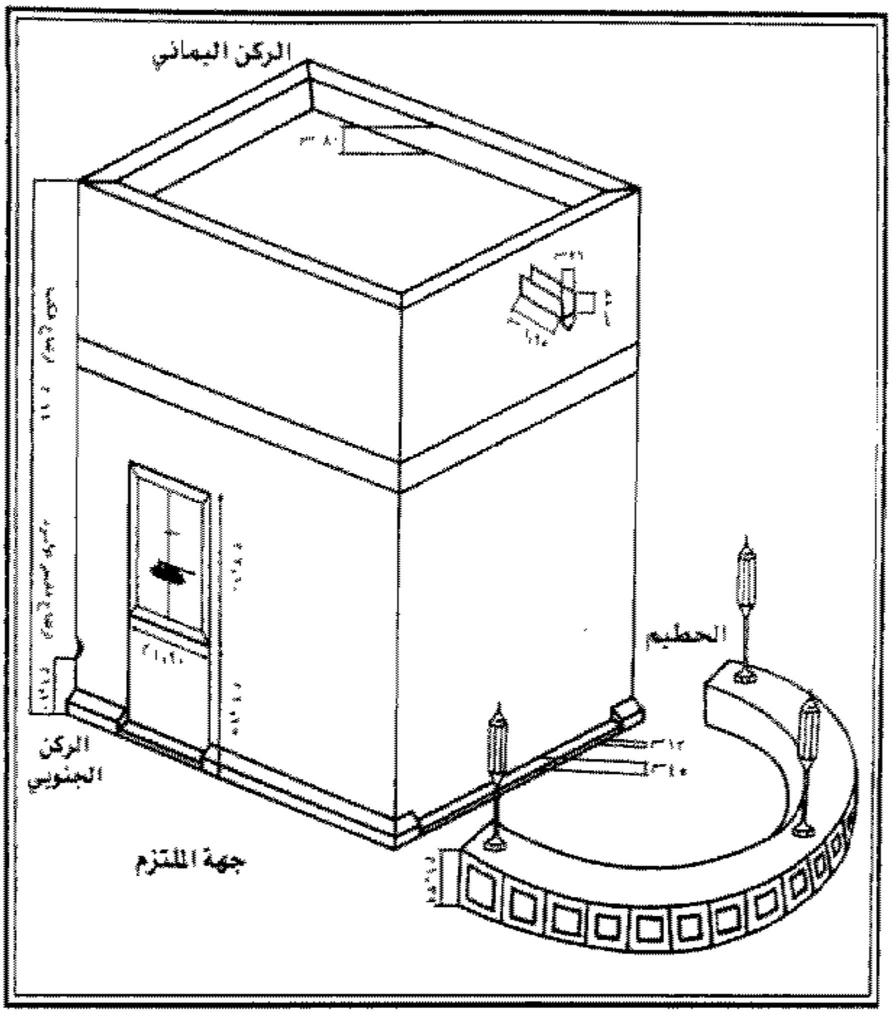

- ارتفاع الكعبة المشرّفة ١٤ م.
- طولها من جهة الملتزم ١٢,٨٤ م.
- طولها من جهة الحطيم ١١,٢٨ م.
- بين الركن اليماني والحطيم ١٢,١١ م.
- بين الركنين ١١,٥٢ م.

الكعبة المشرفة عن كتاب أطلس السيرة النبوية

فتح مكّة

عاهدت قريش النبي صلى الله عليه وآله وسلّم بعد صلح الحديبية فشرطوا له وشرط لهم كما ذُكِرَ، وكان من بين شروط الصلح كما ذكرنا (أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعهده فليدخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلّم)، ولكن قريشًا نقضت عهدها وآزرت بني الديل من بني بكر في عدوانها على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، فقدم عمرو بن سالم الخزاعي على النبي وحدثه بما جرى، وطلب نصره فاستجاب الرسول الكريم لطلبه، وفي هذه الأثناء شعرت قريش بحجم الجرم الذي ارتكبته، فخرج أبو سفيان إلى المدينة علّه يجد مخرجًا لتلك المحنة، ويوثّق العقد ويزيد من مدَّته، ولكن محاولته باءت بالفشل لعدم انطلاء حيلته على النبي، ويوم وصل المدينة دخل على ابنته السيِّدة أم حبيبة، ولما أراد الجلوس على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوته، وجبهته ومنعته من الجلوس عليه، ثم خرج فأتى الرسول، فكلّمه، ولكنه لم يردَّ عليه، ثم ذهب إلى أبي بكر وطلب منه أن يكلم له النبي، فلم يستجب له، ثم ذهب إلى عمر فكلمه فقال: (أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ورضي عنها، وعندها حسن بن علي عليه رضوان الله عليه غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم

بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم)، وهنا تتجلّى حكمة الإمام عليه السلام وإنسانيته المنقطعة النظير في الردِّ على أشد الناس عداوة لدين الله، فلم يجبهه كما جبهه أبو بكر وعمر ومن قبلهما ابنته أم حبيبة، بل اعتذر له اعتذار من لا يستطيع الشفاعة لأنها خارجة عن قدرته فقال: (ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلّم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه)، ويبدو أن أبا سفيان حينما رأى لينًا من أبي الحسن في الردِّ التفت إلى الزهراء سلام الله عليها وقال: (يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟)، فكان جوابها كله حكمة وعقل، وليس فيه من روح العدوان شيء وهي تخاطب أشد الناس عداوة لأبيها، فلم تنتهز الفرصة لإذلاله أو لتذكيره بسابق مواقفه من أبيها، وإنما قالت له: (والله ما بلغ بُنَيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلّم)، ولم ييأس أبو سفيان من ذلك البيت الكريم الذي أذهب الله عنه الرجس، فطلب مشورة المرتضى عليه السلام في ما ينبغي أن يقوم به، فقال له: (والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك)، وهكذا ترى أمرًا يعسر أن تلحظ مثيلاً له، فالمرتضى يرى، أن الذل والهوان ركب هذا الطاغية المتجبر حتى أذنيه، فلم يشأ إذلاله، ولم يشأ اغتنام الفرصة للانتقام منه، وإنما عامله معاملة كريم سيد في السلم، وبكلِّ أخلاق الفروسيَّة الراقية في الحرب، لقد نصح له، وهدَّأ من روعه، وأعزَّه حينما قال له عليه السلام: (إنك سيد

بني كنانة)، ولم يلعب به يوم أشار عليه كما ذهب إلى ذلك قومه حين حدثهم بسفارته التي لم تفعل شيئًا، وقد ذكر كل ذلك وفصّله ابن هشام في سيرته ٤/٣-١٤، كما ذكر كثيرًا منه وذكر غيره الواقدي في مغازيه ٢/٧٨٠-٨٧١، وابن الأثير في كامله ٢/٢٣١، ونقل ابن أبي الحديد ما جاء في شرحه ١٧/١٨٠-٢١٣ عن فتح مكّة من مغازي الواقدي.

وأعدَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم العدَّة لفتح مكّة، وطلب من أصحابه التجهُّزَ للغزو، ولكنَّه لم يخبرهم بوجهته حرصًا على عدم وصول أخباره إلى قريش، واتجه بعينه إلى رب السماوات والأرضين فقال سيِّد القائلين: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها»، ونقل اليوسفي في موسوعته ٣/١٨٦ أنَّ رسول الله منع خروج أحد من المدينة، وذكر أيضًا عن الطبرسي أنّه وضع حرسًا على المدينة يقودهم حارثة بن النعمان، ويبدو من رواية في مغازي الواقدي ٢/٧٩٦ أنه كلَّف عمر بن الخطّاب بهذه المهمَّة أيضًا قال: (وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنقاب، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيِّمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدًا يمرُّ بكم تُنكِرونه إلاَّ رددتموه.. إلاَّ من سلك إلى مكّة فإنَّه يُتحفَّظ به ويُسأل عنه، أو ناحية مكّة)، وبعد شيوع خبر الغزو، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش وأعطاه إلى امرأة اختلف في اسمها فقيل: إنها من مزينة، وقيل: إنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب يعلمهم فيه بما عزم عليه الرسول من حربهم، وقيل: إنه كتب (إلى ثلاثة نفر: صفوان بن أميَّة، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل) ونص الرسالة عند الواقدي في مغازيه ٢/٧٩٨ (إنَّ رسول الله قد أذَّن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد

غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يدٌ بكتابي إليكم)، وجعل للمرأة التي حملت الرسالة جعلاً إن أوصلتها، وذكر الشيخ اليوسفي في موسوعته ١٨٥/٣ عن الكوفي في تفسيره أن نص الرسالة الآتي: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة: إنَّ محمدًا قد نفر، وإني لا أدري إيّاكم أريد أو غيركم فعليكم الحذر)، ويبدو من هذه الرسالة أنَّ حاطبًا لم يكن على يقين من أمر التجهُّز، ولكنه رجح عنده أنَّ النبيَّ يريد مكّة هذه المرَّة، وهو أقرب للقبول، لأن مجريات الأخبار تذهب إلى أنَّ المسلمين لم يكونوا على بيِّنة من وجهته، ولاسيما بعد أن وجَّه نفرًا من المسلمين بسريَّة لزيادة التعمية.

ولم يكن أمر حاطب بخافٍ على النبيّ، فقد كان على بينة من فعلته، إذ أتاه خبر السماء به، فأرسل من وراء تلك المرأة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام كما ذكر الواقدي في مغازيه ٧٩٨/٢، وابن الأثير في كامله ٢٤٢/٢، وزاد البلاذري في أنسابه ٤٥٠/١ أبا مرثد الغنوي، وقال: (وكلهم فارس)، فأدركاها، وفتشا رحلها، فلما لم يجدا شيئًا فيه أقسم عليٌّ عليه السلام بالله أن الرسول لم يكذب، وطلب منها إخراج الكتاب أو يضطر إلى كشفها، فلما عرفت الجدَّ منه اشترطت عدم إيذائها أو قتلها أو إرجاعها إلى المدينة، وحلّت قرون شعرها وأخرجته، فأخذه وسلمه لأخيه صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا حاطبًا وسأله عن فعلته تلك، فاعتذر وقال: (يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما غيرت ولا بدَّلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « وما يدريك يا

عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم»، فأنزل الله في حاطب هذا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ كما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/١٦–١٧، ولا شكّ أنَّ قول الرسول الكريم «لعلَّ الله قد اطّلع على أصحاب بدر..» لا يفيد القطع، وإنما هو رجاء.

و ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٢٥١ أن سارة هذه عادت إلى مكّة مرتدَّة بعد فعلتها تلك، فأمر النبي بقتلها يوم الفتح، فقتلها عليّ بن أبي طالب، ويبدو أن عودة سارة في تلك الظروف يشوبها شيء من الغموض، ولكنَّ رواية أخرى ذكرها اليوسفي في موسوعته ٣/١٨٢ تبدو أكثر قبولاً، ومفادها أنَّ سارة كانت مغنية نائحة في مكّة، وأنها يوم جاءت إلى المدينة لم تقدم عليها مسلمة مهاجرة، وإنما كانت عينًا لقريش، ويوم وصلت المدينة وقابلت النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وأعلمته أنها لم تأت مسلمة، وإنما الفقر ألجأها للالتحاق بمواليها لمساعدتها، وأنَّ النبيَّ حثَّ بني عبد المطلب لمساعدتها، ثم عادت من حيث أتت. ويبدو أنَّ حاطبًا اغتنم عودتها فأرسل معها تلك الرسالة.

وتجهز الرسول الكريم في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار، ومن غيرهم من القبائل التي دخلت في حلفه، وعسكر ببئر أبي عنبة، وعقد فيها الألوية والرايات، ثلاث من راياته صلى الله عليه وآله وسلم دفعها للمهاجرين، (راية مع الزبير، وراية مع علي عليه السلام، وراية مع سعد بن

أبي وقّاص) ، كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٨٠٠ ، وابن سعد في طبقاته ٣/ ٢٣ ، وذُكِرَ أيضًا أنه عقد راياتٍ وألويةً دفعها إلى الأنصار وغيرهم من القبائل التي التحقت به. وكان خروجه صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأربعاء لعشر خلون خن رمضان بعد العصر كما ذكر الواقدي في مغازيه ٢/٨٠١.

وإذا كانت المصادر السَّابقة قد أشارت إلى رايات الفتح، ولم تشر إلى لواء النبيِّ فيه، فإني أستبعد أن يكون مع غير عليٍّ عليه السلام، وسبق أن أشرنا إلى أن المصادر كادت تجمع على أنه حامل لواء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم في جميع حروبه، بل إن ما سنذكره لاحقًا يبيِّن كيف أن الله سبحانه وتعالى جعله بيده عليه السلام يوم دخل جيش الفتح مكّة المكرَّمة.

وذكر ابن هشام في سيرته ٤/١٨ أن العباس بن عبد المطلب لقي النبيَّ بالجحفة مهاجرًا بعياله، وذكر أيضًا أن أخا النبيّ في الرضاعة وابن عمّه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة لقيا الرسول بمنطقة تسمى نيق العقاب في ما بين مكة والمدينة، وكانا من أشدِّ المشركين إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، ووسَّطا أم سلمة كي تأخذ لهما الإذن عليه ، فدخلت وقالت: (يا رسول الله، ابن عمك وصهرك، قال: « لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال»، (فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنَيّ له فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيدي بنيّ هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلَّم رقَّ لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما)، كما روى ابن الأثير في كامله ٢/٢٤٢ ، وذكر أيضًا رواية أخرى لعلّها الأنسب

والأقرب لأنَّ فيها من حكمة الإمام عليه السلام ما يكفل دفع ما في نفس النبيِّ ويطيِّب خاطره قال: (وقيل: إنَّ عليًّا قال لأبي سفيان بن الحارث: إيتِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقل له ما قال أخوة يوسف ليوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ فإنَّه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن منه فعلاً وقولاً، ففعل ذلك. فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾»، وقرّبهما، فأسلما)، وذكر الواقدي في مغازيه ٢/٨٠٦–٨١٢ روايات بعضها يلتقي مع ما ذكرنا وبعضها يبتعد عنها، من مثل امتناع عليٍّ والعباس من مفاتحة النبي في العفو عن ابن عمّه وقبول عذره وإسلامه، إذ يبعد عن الواقع أن يتوسط العباس في العفو عن أبي سفيان بن حرب وهو أشد أعداء رسول الله، ويعتذر عن التوسط لابن أخيه، ومن مثل تأخُّر عفو النبيِّ على ابن عمّه إلى ما بعد خروجه لحرب هوازن، ورواية أخرى ذكر فيها أنه لما رأى المسلمون إعراض رسول الله صلى الله عليه وسلّم عنه أعرضوا عنه، وقال: (فلقيني ابن أبي قحافة معرضًا، ونظرت إلى عمر يُغري بي رجلاً من الأنصار، فألزَّ بي الرجل يقول: يا عدوَّ الله، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله..)، مما اضطرَّه إلى الدخول على عمّه العبَّاس ليكفَّ الرجل عنه وغيرها.

ولا أشكُّ في أنَّ الروايات التي تذهب إلى تأخُّر عفو النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه قابلة للنظر كثيرًا، فذلك كان يوم عفو وتآلف، وقد عفا عن أبي سفيان بن حرب وغيره، فكيف لا يعفو عن صهره وابن عمّه بعد تدخُّلِ أم سلمة، ونصيحة المرتضى عليه السلام التي لا أشكُّ في أنَّ رسول الله قد عرف مصدرها.

وذكر ابن هشام أيضًا أن النبيَّ حينما نزل بمر الظهران شعر العباس بهول ما سيصيب قريشًا إن دخل النبي بذلك الجيش فخرج على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عسى أن يعثر على من يأتيه بنفر من وجوه قريش لعل النبيَّ الكريم يمنح أهل مكة الأمان قبل أن يدخلها عنوة، وإذا بأبي سفيان وبديل بن الورقاء يتحدثان عن هول نيران المسلمين وكثرة عددهم وعدتهم، ولعلهما حينما رأيا العباس رضوان الله عليه أحسا بالفرج من تلك الشديدة التي ألمت بهما، فأبو سفيان على بينة أن الرسول سيضرب عنقه إن رآه، وكذا أعناق غيره من رؤوس الشرك، فطلب من العباس الرأي والمشورة بانكسار شديد، فأردفه العباس وراءه على بغلة رسول الله، وبينما هما يمرّان بنيران المسلمين لمحهما عمر بن الخطاب، وحث خطاه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم كي يأخذ منه الأمر بقتل أبي سفيان، ولكن العباس سبقه بالدخول، وأعلم الرسول بأنه قد أجار أبا سفيان، ثم جلس إليه وأخذ برأسه يناجيه، ولما أكثر عمر في شأن أبي سفيان، قال العباس: (مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال النبي لعمه: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به»، وفي الصباح جاء به العباس، (فلما رآه الرسول قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله»، فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن

شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق)، ثم طلب العباس من النبي أن يجبر بخاطر أبي سفيان ويمنحه عطفه، وما يفخر به في ذلك اليوم الأشد سوادًا من حنك الغراب على المشركين من قريش فقال النبي: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، وطلب الرسول من العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي كي يرى جيش المسلمين، فتنكسر نفسه ويدخله من الرعب والخوف ما يدخله، فلما مرت الكتائب وجاءت كتيبة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الخضراء لكثرة ما فيها من آلة الحرب، وفيها المهاجرون والأنصار، سأل عنها أبو سفيان العباس، فقال له: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال أبو سفيان: (ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا، فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن)، ثم طلب العباس من أبي سفيان أن يسرع إلى مكة كي يخبر أهلها بما تفضل به عليهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر ذلك ابن هشام في سيرته ٤/ ١٨، وقاربه ابن الأثير في كامله ٢/ ٢٤٦، وبتلك الصورة أسلم أبو سفيان، ولا أجد ما يدفعني للتعليق عن عمق إيمانه وقيمة صحبته، ولكنها ستتّضح لك بعد حين في غزوة حنين كي تتبيّن.

يوم الفتح العظيم

دخل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم مكة نهارًا على راحلته حتى انتهى إلى البيت كما ذكر البلاذري في أنسابه ١/ ٤٧٥، مردفًا أخاه عليًّا

صلوات الله وسلامه عليهما وراءه كما روى ابن الأثير في أسده، وذكر ابن هشام في سيرته ٢٦/٤–٢٧ وقاربه الواقدي في مغازيه ٨٢١/٢–٨٢٢ أنه أمر سعد بن عبادة أن يدخل مكة من كِداء، فلما تقدَّم كي يدخلها قال: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة)، ويبدو أن عمر بن الخطاب سمعها فسارع إلى رسول الله وأخبره بما قال سعد وقال: (ما نأمن أن تكون له في قريش صولة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها»)، وقاربهما ابن الأثير في كامله ٢٤٦/٢ في ما ذكرا.

وذكر الواقدي في مغازيه ٨٢١/٢ رواية أخرى قال: (فلمَّا مرَّ سعد براية النبي صلى الله عليه وسلم نادى: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحلّ الحرمة! اليوم أذلَّ الله قريشًا، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟ زعم سعد ومن معه حين مرَّ بنا قال: يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحلّ الحرمة! اليوم أذلّ الله قريشًا، وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبرّ النَّاس وأرحم النَّاس، وأوصل الناس. قال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان: يا رسول الله، ما نأمن سعدًا أن يكون منه في قريش صولة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليوم يوم المرحمة! اليوم أعزَّ الله فيه قريشًا» قال: وأرسل رسول الله إلى سعد فعزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللواء لم يخرج من سعد حين صار لابنه، فأبى سعدٌ أن يسلّم اللواء إلاّ بإمارة من النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمامته، فعرفها سعد فدفع اللواء إلى ابنه قيس).

المرتضى في بيت أم هانئ

ونزل النبيُّ بأعلى مكّة ليستريح ويغتسل من وعثاء السفر، أما أخوه عليه السلام فقد نزل على أخته أم هانئ كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٢/٤ وفي أثناء ترحيبها به شاهد في بيتها رجلين من أحمائها من بني مخزوم ممن أهدر النبي دمهما وهما الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أميَّة بن المغيرة، فامتشق حسامه ليقتلهما، ولكنَّ أم هانئ سارعت فأغلقت الباب عليهما، ثم حثَّت خطاها إلى الرسول فوجدته يغتسل وفاطمة عليها السلام تستره بثوبه، فلما ارتدى ثوبه رحب بها، فأخبرته بخبر الرجلين، فأجار صلى الله عليه وآله وسلّم من أجارت، وكان الواقدي في مغازيه ٨٢٩/٢ قد وصف مدخل المرتضى على أخته وعبد الله والحارث في بيتها بقوله: (قالت أم هانئ: فهما عندي إذ دخل عليٌّ فارسًا مدجَّجًا في الحديد، ولا أعرفه، فقلت له: أنا بنت عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: فكفَّ عنِّي وأسفر عن وجهه، فإذا علي عليه السلام، فقلت: أخي! فاعتنقته وسلّمت عليه، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما. فقلت: أخي من بين الناس يصنع بي هذا! قالت: وألقيت عليهما ثوبًا، وقال: تُجيرين المشركين؟ وحُلْتُ دونهما فقلت: والله لتبدأنَّ بي قبلهما!..).

مصير من أهدر المصطفى دمه

وكان صلوات الله عليه حين أمر قادة جيشه بالدخول إلى مكّة أمرهم ألاَّ يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلاَّ أنه أمر بقتل نفر سمَّاهم وإن استجاروا بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي، وهو أخو عثمان بن عفان للرضاعة، أسلم، ثم ارتدَّ مشركًا، فهرب عند عثمان فغيَّبه، وبعد اطمئنان

الأوضاع أتى به عثمان إلى رسول الله كي يأخذ له الأمان، ولكن الرسول صمت بانتظار أن يقوم أحد من المسلمين كي يقتله، ولما طال صمته ولم يقم أحد إليه قال الرسول: «نعم»، فلما انصرف عثمان وصاحبه قال الرسول لمن حوله من أصحابه: «لقد صمتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»، فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليَّ يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله سلم: «إن النبي لا يقتل بالإشارة» كما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/٣٠.

وروى الواقدي في مغازيه ٢/٨٥٧ وتابعه البلاذري في أنسابه ١/٤٥٦ أن منهم الحويرث بن نُقَيد، وكان ممن يؤذي رسول الله بمكّة، وينشد الهجاء فيه، (فبينما هو في منزله يوم الفتح قد أغلق بابه عليه، وأقبل عليٌّ عليه السلام يسألُ عنه، فقيل: هو في البادية، فأُخبر فهرب من بيته يوم الفتح، فلقيه علي بن أبي طالب فقتله).

وذكر الواقدي في مغازيه ٣/٨٨٩ أيضًا أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه افتتح مكّة لثلاث عشرة مضت من رمضان، وقيل: كان الفتح يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم (غدا يوم السبت لست ليال خلون من شوَّال)، وذكر ابن هشام في سيرته ٤/٧٠ أن ابن إسحاق قال: (وكان فتح مكّة لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان)، وذكر البلاذري في أنسابه ١/٤٤٩ أن غزوة مكّة كانت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثمان، وقال في ٤٦٣: (قالوا: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم مكة لثماني عشرة خلت من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، فأقام بها اثنتي عشرة ليلة).

فعلة خالد بن الوليد ببني جذيمة
ودور المرتضى في إصلاحها

بعد أن منَّ الله على النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بفتح مكة واستقرار الأمور فيها بعث سرايا للقبائل التي تقطن حولها، وأمر قادتها بدعوتها إلى لإسلام وعدم الاشتباك معها بحرب أو قتال، وكان خالد بن الوليد من بين من بعثهم، داعيًا إلى دين الله كما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/ ٥٦ والواقدي في مغازيه ٨٧٥/٣ وابن الأثير في كامله ٢٥٥/٢ في شوال سنة ثمانٍ كما ذكر البلاذري في أنسابه ٤٩٠/١، فوصل مضارب بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة – وهم في موضع قرب مكة يسمى الغميصاء كما ذكر ياقوت في بلدانه ٢٤٢/٤– ولمّا رآه القوم أخذوا سلاحهم، إلا أن خالدًا أمرهم بوضعه، لإسلام الناس، وروى ابن هشام أن رجلاً من بني جذيمة يدعى جحدم خوَّف رهطه من خالد، وامتنع عن نزع سلاحه إلا أن قومه نزعوه منه وقالوا له: أتريد أن تسفك دماءنا، إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب أوزارها، وذكر ابن هشام في سيرته ٥٧/٤ رواية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام جاء فيها (فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل منهم من قتل، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم رفع يديه إلى السماء ثم قال: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»، وذكر براءة الرسول من فعلة خالد تلك الواقدي في مغازيه ٨٨١/٣، وابن الأثير في كامله ٢٥٦/٢، وروى ابن هشام أيضًا في

سيرته ٥٨/٤ أن رسول الله قال: « رأيت كأني لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها، فأدخل عليٌّ يده فانتزعها»، (فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض، فتبعث عليًا فيسهله). وكان ما أحبَّ المصطفى، فقد أرسل أخاه إلى بني جذيمة فأصلح ما أفسده ابن الوليد، على ما سيتبين لنا من رواية الواقدي في مغازيه ٨٧٥/٣—٨٨٣، وابن هشام في سيرته ٥٨/٤—٦٨، وابن الأثير في كامله ٢٥٦/٢—٢٥٨.

كان لخالد بن الوليد ثأر في بني جذيمة على ما ذكر الواقدي في مغازيه ٣/ ٨٨٠ وابن هشام في سيرته ٦١/٤، وابن الأثير في كامله ٢٦٥/٢، فاستغلَّ الفرصة أبشع استغلال للانتقام والثأر، إذ روي أن الفاكه بن المغيرة عم خالد خرج رفقة عوف بن عبد عوف، وكان معه ولده عبد الرحمن، وعفان بن أبي العاص، وكان معه أيضًا ولده عثمان في تجارة إلى اليمن، وفي أثناء عودتهم حملوا مال رجل من بني جذيمة إلى ورثته بعد هلاكه، فادَّعاه رجل من جذيمة يقال له خالد بن هشام لقيهم بأرض بني جذيمة قبل وصولهم إلى أهل الميت، فامتنعوا من تسليمه المال، فقاتلهم بمن معه من الرجال، وقاتلوه، فقُتِل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة، ونجا عفان وابنه عثمان، واستطاع عبد الرحمن بن عوف قتل قاتل أبيه خالد بن هشام، وتهيأت قريش لغزو بني جذيمة، غير أنها دفعت عن نفسها بأن ما حدث لم يكن بعلمها، وأنهم على استعداد لدفع ما بذمتهم من دم ومال، فقبلت قريش بذلك.

وذكر الواقدي في مغازيه ٣/ ٨٧٥ —٨٧٦ أن بن الوليد يوم دهم القوم كان في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من الأنصار والمهاجرين ومن بني سُلَيم، وما إن حلَّ بمضاربهم حتى طلب منهم أن يستأسروا على الرغم من أنهم أخبروه بإسلامهم، وعلى الرغم من ظهور مساجدهم للعيان، فاستجاب القوم لطلبه واستأسروا، ثم أمرهم أن يكتف بعضهم بعضًا، وما إن حلَّ الظلام حتى نادى خالد بن الوليد: (من كان معه أسير فلْيُذافه - والمذافة: الإجهاز عليه بالسيف، فأما بنو سُلَيم فقتلوا كلَّ من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم) أما فعلة بني سُليم فسببها طلبهم بثأر في بني جذيمة له حكاية لسنا بصددها.

واعترض جمهور من الصحابة على فعلة خالد تلك فقد روى الواقدي في مغازيه ٣/ ٨٧٧ بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: (لما نادى خالد بن الوليد في الأسرى يُذافون، وَثبتْ بنو سُلَيم على أسراهم فذافوهم - أما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم— فغضب خالد على من أرسل من الأنصار، فكلَّمه يومئذ أبو أسيد الساعدي وقال: اتَّق الله يا خالد، والله ما كنَّا لنقتل قومًا مسلمين! قال: وما يدريك؟ قال: نسمع إقرارهم بالإسلام، وهذه المساجد بساحتهم)، ولا أجد تفسيرًا معقولاً على سكوت من كان في ذلك الجيش من المهاجرين والأنصار خاصَّة على فعلة خالد، وكيف ساغ لهم عدم منعه من ارتكاب تلك الجريمة واكتفوا بمجرَّد الاعتراض، ولماذا لم يقف المهاجرون والأنصار في وجهه عندما أمرهم بقتل الأسرى وهم على يقين من إسلامهم، وعلى فرض أنهم ليسوا من المسلمين، فكيف جاز لهم السكوت على قتلهم على الرغم من أنهم لم يؤسروا في

حرب أو قتال، وإنما انصاعوا لطلب خالد في الاستشار ليقينهم أن أحدًا لن يجرؤ على قتلهم.

ولقد نال خالد من غضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وتقريع بعض الصحابة ما نال، إذ إنه لما عاد إلى المدينة وقع كلام بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، إذ قال له على ما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/٦١ وابن الأثير في كامله ٢/٢٥٦: (عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال إنما ثأرت بأبيك، فقال له عبد الرحمن: كذبت قد قتلت قاتل أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: « مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أُحُدٌ ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»، وللحديث بقية عند الواقدي في مغازيه ٣/٨٨٠ -٨٨١ هي (قال عبد الرحمن: ويحك يا خالد، ولو لم أقتل قاتل أبي كنتَ تقتل قومًا مسلمين بأبي في الجاهلية؟ قال خالد: ومن أخبرك أنهم أسلموا؟ فقال: أهل السرية كلهم يخبروننا أنك وجدتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام، ثم حملتهم على السيف. قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أُغير عليهم، فأغرت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم. فقال عبد الرحمن: كذبت على رسول الله... وأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن خالد وغضب عليه)، وبحضور خالد في مجلس النبي (دخل عمار بن ياسر على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، لقد حمش قومًا قد صلُّوا وأسلموا، ثم وقع بخالد عند النبي صلى الله عليه وسلم، وخالد جالس لا يتكلم، فلما قام عمار وقع به خالد فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «مه يا خالد! لا تقع

بأبي اليقظان، فإنه من يعاده يعاد الله، ومن يُبْغِضه يُبْغِضُهُ الله، ومن يسفّهْه يُسفّهه الله)، ولم يكن عبد الرحمان وعمار لوحدهما من استنكر فعلته تلك، وإنما استنكرها جمهور من المسلمين منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة، وقد كان الأخيران في جيش خالد وهناك تفصيلات أخرى عن تلك المجزرة تجدها في السيرة والمغازي والكامل وغيرها.

سفير المصطفى يمحو فعلة خالد

ويسبب من تلك الفعلة التي تأثر منها الرسول الكريم أيما تأثر بادر إلى الشروع بمعالجة الأمر بسرعة، وقد اضطر بسببٍ من ظروفه المادية القاسية إلى الاستدانة من ابن أبي ربيعة، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، لدفع ديات تلك الواقعة، ومعلوم أن المال لا يمكن أن يمحوَ ما يفعله السيف، وكان لابد من إرسال حكيم واع تتمثل به الصفات الإنسانية، وسعة الأفق كي يمحو من أذهان القوم شنار تلك الفعلة على الإسلام والمسلمين، فدعا رسول الله أخاه صلوات الله وسلامه عليهما، فذهب إلى القوم، وعلينا أن نتصور ما دار من حديث بينهم وبين سفير المصطفى، وكيف استطاع أن ينزع من نفوسهم كل حزن وغضب وعداوة برفق ومودة وحسن تصرف وبعد نظر، قال الواقدي في مغازيه ٨٨٢/٣ وتابعه ابن الأثير في كامله ٢٥٦/٢ في أغلب ما روى: (فخرج علي عليه السلام بذلك المال حتى جاءهم، فودى لهم ما أصاب خالد، ودفع إليهم مالهم، وبقي لهم بقية المال، فبعث علي عليه السلام أبا رافع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يستزيده، فزاده مالاً، فودى لهم كل ما أصاب حتى إنه ليدي لهم مِيلغة الكلب، حتى إذا لم يبق لهم شيء يطلبونه بقي مع علي عليه السلام بقية من المال، فقال علي

عليه السلام: هذه البقية من هذا المال لكم من رسول الله صلى الله عليه وسلّم مما أصاب خالد، مما لا يعلمه ولا تعلمونه. فأعطاهم ذلك المال ... فلما رجع علي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما صنعت يا علي؟ فأخبره وقال: يا رسول الله، قدمنا على قوم مسلمين، قد بنوا المساجد بساحتهم....)، ولم أقف في ما بين يديَّ من مصادر على تعقيب أو نقد وجّهه المصطفى لخالد على فعلته تلك باستثناء براءته من فعلته تلك، ولكنَّ مما لا ريب فيه أن سفارة المرتضى، وما فعله لمسح تلك الفعلة ترك أثرًا سلبيًّا في نفس خالد اتجاه المرتضى أضيف إلى سابق كراهيته له.

غزوة حنين

بعد أن سمعت قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وغيرها بما منَّ الله على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم من فتح عظيم في سنة ثمان للهجرة المباركة، اجتمعت وأعدَّت العدَّة لحربه بقيادة مالك بن عوف النصري، فسار بذلك الجمع مع نسائهم وأبنائهم، فلما علم النبي بجمعه الغفير تجهَّز له بجيش الفتح الذي انضمَّ له ألفان من أهل مكّة، وذكر البلاذري في أنسابه ١/٤٦٣ أنه سار بعد اثنتي عشرة ليلة أقامها بمكّة نحو حنين يريد لقاء هوازن، وكانت قد كمنت له في شعاب وادي حنين ومضايقه، وأعدوا عدّتهم للهجوم على جيشه، فما أن انحدر المسلمون في الوادي حتى شدَّت عليهم هوازن ومن تابعها شدَّة رجل واحد فكانت هزيمة المسلمين منكرة لا يلوي أحدهم فيها على شيء، وكانت ثلّة من قريش ممن حاربت الله ورسوله فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أميَّة، وكلدة بن الحنبل، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة، خرجوا مع جيش المسلمين طمعًا في سلب، أو بهزيمة رسول الله، فما أن وقعت الهزيمة حتى كانت فرحتهم لا يسعها فسيح ذلك الوادي، فقال أبو سفيان: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته، وصرخ كلدة بن حنبل، وهو مع أخيه صفوان بن أميَّة شرك في المدَّة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلّم ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت فضَّ الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن ... وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد

الدار: اليوم أدرك ثاري، وكان أبوه قتل يوم أحد، اليوم أقتل محمدًا، قال: فأدرت برسول الله لأقتله، فاقبل شيء حتى تغشّى فؤادي، فلم أطق ذلك، فعلمت أنه ممنوع مني) كما ذكر ابن هشام في السيرة ٨٠/٤، وذكر نحوه الواقدي في مغازيه ٨٩٥/٣، وروي أيضًا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه دفع لواء المهاجرين لأخيه المرتضى عليه السلام، ودفع راية لعمر بن الخطّاب وأخرى لسعد بن أبي وقّاص، ورايات أخرى للأنصار. وذكر في سيرته ٧٨/٤ - ٧٩ أيضًا بسنده عن جابر بن عبد الله بشأن هزيمة جيش المسلمين: (فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدُّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، ثم قال: «أين أيها الناس، هلمُّوا إلي، وأنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» قال: فلا شيء وحملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفي من ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد، وأيمن بن أم أيمن بن عبيد، قتل يومئذ، قال ابن هشام... وبعض الناس يعد فيهم قثم بن العباس، ولا يعد أبا سفيان)، ذلك ما ذكره ابن هشام في سيرته، أما البلاذري فذكر في أنسابه ٤٦٣/١-٤٦٤ بشأن من ثبت معه صلوات الله وسلامه عليه روايتين الأولى: قوله: (فانكشف المسلمون إلاّ مائة ثبتوا وصبروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب،

وعمر وأيمن بن عبيد)، والثانية: قوله: (ويقال: إن من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ العباس، وعلي، وأبو سفيان بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، والزبير، وعبد الله بن الزبير، وأسامة، وجعل أبو سفيان يقاتل ويقول:

بنو أبيه اليوم من أمامه ... ومن حواليه ومن أهضامه
فقاتل المسلم عن إسلامه ... وقاتل الحَرَمِيُّ عن إحرامه)

أراد بعبد الله بن الزبير، ابن عم رسول الله الزبير بن عبد المطلب.

أما الواقدي فقال في مغازيه ٩٠٠/٣ وتابعه ابن الأثير في كامله ٢٦٣/٢: (وبقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته؛ العبَّاس، وعليّ، والفضل بن عبَّاس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عُبيد الخزرجي، وأسامة بن زيد، وأبو بكر وعمر).

وكان المأمون يوم سأل إسحاق بن إسماعيل في احتجاجه على الفقهاء بأفضلية المرتضى عليه السلام على غيره الذي نقله ابن عبد ربه في عقده ٩٥/٥ قال له: (فحدّثني عن قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أتعلم من المؤمنون الذين أراد الله في هذا الموضع؟ قلت لا أدري يا أمير المؤمنين. قال: الناس جميعًا انهزموا يوم حنين، فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلاّ سبعةُ نفر من بني هاشم: علي يضرب بسيفه بين يدي رسول الله، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله، والخمسة محدقون به خوفًا من أن يناله من جراح القوم شيء، حتى أعطى الله لرسوله الظفر، فالمؤمنون في هذا الموضع عليٌّ خاصَّة، ثم من حضره من بني هاشم، قال: فمن أفضل: من كان مع رسول

الله صلى الله عليه وسلّم في ذلك الوقت، أم من انهزم عنه ولم يره الله موضعًا لِيُنْزِلها عليه؟ قلت: بل من أنزلت عليه السكينة).

ونقل الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/٢٨٠ قول الشيخ المفيد في الإرشاد ١/١٤١ حول من ثبت مع النبي فقال: (لما التقى المسلمون المشركين لم يلبثوا حتى انهزموا بأجمعهم! فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلاّ عشرة أنفس: ثمانية من بني هاشم وتاسعهم علي عليه السلام، وهم: أبو سفيان ممسكًا بسير سرجه، ثم لحقه العباس بن عبد المطلب عن يمينه، ثم ابنه الفضل بن العباس عن يساره ونوفل وربيعة ابنا الحارث بن عبد المطّلب أخو أبي سفيان، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، فهؤلاء تسعة من بني هاشم خاصّة وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، فقتل أيمن رحمه الله).

وحدَّث ابن هشام في سيرته ٤/٨١ عن العباس بن عبد المطلب قال: (.. قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من الناس: «أين أيها الناس»، فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: «يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة» قال: فأجابوا: لبيك لبيك، قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا ...فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال: «الآن حمي الوطيس».

وقال جابر بن عبد الله في ما ذكر ابن إسحاق بسنده في سيرة ابن هشام ٤/ ٧٩، ٢٨ : إن رجلاً (من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ... بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع إذ هوى له علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه علي بن أبي طالب من خلفه، فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري إلى الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله، قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله)، والأنصاري الذي ذكره جابر في مغازي الواقدي ٣/ ٩٠٢ هو أبو دجانة رضوان الله عليه، والرواية فيه أكثر وضوحًا ولها تتمَّة، وهي (وكان رجل من هوازن على جمل أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام الناس، إذا أدرك طعن، قد أكثر في المسلمين القتل، فيصمد له أبو دجانة فعرقب جمله، فسمع خرخرة جمله، ويشدُّ عليٌّ وأبو دجانة عليه، فيقطع عليٌّ يده اليمنى، ويقطع أبو دجانة يده الأخرى، وأقبلا يضربانه بسيفهما جميعًا حتَّى تثلَّم سيفاهما، فكفَّ أحدهما وأجهز الآخر عليه، ثم قال أحدهما لصاحبه: امضِ، لا تُعرِّج على سلبه! فمضيا يضربان أمام النبي صلى الله عليه وسلَّم، ويعترض لهما فارس من هوازن بيده راية حمراء، فضرب أحدهما يد الفرس ووقع لوجهه، ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سلبه، ويمرُّ أبو طلحة فسلب الأوَّل ومرَّ بالآخر فسلبه، وكان عثمان بن عفان وعلي وأبو دجانة وأيمن بن عُبيد يقاتلون بين يدي

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم)، أما ابن الأثير في كامله ٢/٢٦٣ فلا يشرك أحدًا في قتله مع عليٍّ عليه السلام.

ونقل الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/٢٨٣ -٢٨٤ عن إرشاد الشيخ المفيد، أن الفارس المذكور الذي قتله المرتضى عليه السلام هو أبو جرول، وكان قتله سببًا مباشرًا في خذلان قومه، وبعد أن كرَّ المسلمون من المهاجرين والأنصار تقدَّمهم علي عليه السلام فقتل أربعين رجلاً من جيش هوازن مما سبَّب هلعهم وهزيمتهم.

وبعد هزيمة المشركين رأى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه امرأة مقتولة في الطريق فسأل عن قاتلها فقيل له: خالد بن الوليد، فأمر رجلاً يدرك خالدًا ويقول له: «إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدًا أو عسيفًا -أجيرًا- » كما ذكر الواقدي في مغازيه ٣/٩١٢ وليست المرَّة الأولى يتدارك فيها أفعال خالد.

وها أنت تلحظ أن جميع أصحاب السير لم يذكر مقابلة حقيقيَّة بين من استلم السلطة من بعد وبين فرسان من جيوش الشرك في جميع المواقع، ومن اللافت للنظر أن أم سليم ابنة ملحان كانت مع زوجها ممن ثبت مع رسول الله في هذه الواقعة الكبيرة على الرغم من حملها بولدها عبد الله بن أبي طلحة فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لها: «أم سليم» (قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أو يكفي الله يا أم سليم» كما روى ابن هشام في سيرته ٤/٨٣ .

وروى في سيرته ٤/٨٧ أيضًا عن ابن إسحاق رواية عن أنس بن مالك قال: (لقد استلب أبو طلحة يوم حنين وحده عشرين رجلاً)، وما يدعو إلى

التساؤل، كم استلب أبو الحسنين عليه السلام في هذه الواقعة التي كان فيها من أعظم الصابرين المدافعين عن رسول الله !!!

ولقد قيل في هذه الواقعة شعر كثير ذكر بعضه ابن هشام في سيرته ٤/ ١٠٢ – ١٢٩ ومن بين ما ذكر أبياتًا قالها بجير بن زهير بن أبي سلمى جاء فيها :

إذ قام عمٌّ نبيكم ووليه يدعون يا لكتيبة الإيمانِ

أين الذين هم أجابوا ربهم يوم العُرَيْضِ وبيعة الرضوان.

ومما يكلم القلب من فعلة آل أبي سفيان من بعد بذريَّة رسول الله وبأخيه موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا البيت يوم قسَّم ما فاء الله عليه في غزوة حنين، فقد بدأ بالمؤلّفة قلوبهم وكان أبو سفيان في مقدمتهم، قال الواقدي في مغازيه ٣/٩٤٤– ٩٤٥ : (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد غنم فِضَّة كثيرة ؛ أربعة آلاف أوقيَّة، فجمعت الغنائم بين يدي النبي صلّى الله عليه وسلّم، فجاء أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً! فتبسَّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: أعطني من هذا المال يا رسول الله! قال: « يا بلال، زِن لأبي سُفيان أربعين أوقيَّة، وأعطوه مائة من الإبل». قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « زِنوا ليزيد أربعين أوقيَّة، وأعطوه مائة من الإبل»، قال أبو سفيان: ابني معاوية، يا رسول الله! قال: « زِن له يا بلال أربعين أوقيَّة وأعطوه مائة من الإبل»، قال أبو سفيان إنَّك الكريم، فداك أبي وأمّي! ولقد حاربْتك فنِعم المُحارَبُ كنت، ثمَّ سالمتك فنعم المُسالَم أنت، جزاك الله خيرًا)!!،

وشهد أبو سعيد على ما روى الواقدي في مغازيه ٣/٩٤٨–٩٤٩ أنه سمع عليًّا عليه السلام يحدِّث أنه حين وزَّع الرسول ما فاء الله عليه في هذه الغزوة

جاء ذو الخويصرة التميمي وقال: (اعدِل يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « ويلك! فمن يعدِل إذا لم أعدل؟» قال عمر: ايذن لي أن أضرب عنقه! قال: « دعه، إن له أصحابًا يحقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوِزُ تراقيهم، يمرقون من الدّين كما يمرُقُ السهمُ من الرَّميَّة .. يخرجون على فِرقة من المسلمين، رأيتهم إن فيهم رجلاً أسود، إحدى يديه مثل ثدْي المرأة أو كبَضعَةٍ تَدَرْدَرُ»).

وفي الجعرانة أتته وفود هوازن، فأشهرت إسلامها، وقام زهير بن صرد من بني سعد بن بكر، وهم الذين أرضعوا رسول الله فقال: (يا رسول الله إنّما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك، ولو أنّا أرضعنا الحارث بن أبي شمر الغسّاني أو النعمان بن المنذر لرجونا عطفه)، فاسترجع من المسلمين أبناءهم ونساءهم كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٢٦٨—٢٦٩ وغيره.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى المنافقين وبعض الطلقاء من ذلك الفيء شيئًا كثيرًا يتألّف قلوبهم للإسلام، فظن الأنصار أنه فضّل قريشًا وغيرهم عليهم: فقال صلوات الله وسلامه عليه قولته الشهيرة التي أوردها بكامل حكايتها الواقدي في مغازيه ٣/٩٥٨ في حقّ الأنصار: «أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكتِ الأنصار شِعْبًا لسلكت شِعبَ الأنصار... اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»، قال الواقدي: (فبكى القوم حتى أخضلوا لِحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله حَظًّا وقَسْمًا)، وأوردها أيضًا الطبري في تاريخه ٣/٩٤ وغيره.

نحو الطائف

« ما أنا انتجيته، ولكن الله انتجاه »

ذكر الواقدي في مغازيه ٩٢٨/٣ أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عليه اتَّجه نحو الطائف بعد فراغه من حُنَيْن فنزل قريبًا منها وعسكر، فحاصرهم، وذكر اختلاف الروايات في عدد أيام الحصار، (فقال قائل: ثمانية عشر يومًا، وقال قائل: تسعة عشر يومًا، وقال قائل خمسة عشر يومًا)، روى ابن هشام في سيرته ١٣٥/٤–١٣٨ أن حصارهم دام بضعًا وعشرين ليلة، ولكن أمر الله لم يأتِ بفتحها، وكان النبيُّ على بيِّنة من ذلك بحيث حينما قالت له امرأة عثمان بن مظعون: يا رسول الله، أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلى بادية ابنة غيلان بن مسلمة، أو حلى الفارعة بنت عقيل، فقال لها: « وإن كان لم يأذن لي في ثقيف يا خويلة»، فخرجت، وأخبرت عمر بن الخطاب، فدخل على النبي وسأله عن حديث خويلة فقال صلى الله عليه وآله وسلَّم: « قد قلته»، قال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: « بلى». فأذن عمر بالرحيل.

وذكر ابن حجر في مطالبه ٥٦/٤–٥٧ برقم ٣٩٤٧ أن الحصار دام سبعة عشر يومًا أو ثمانية عشر فلم يفتحها، (ثمَّ أوغل روحة وغدوة فنزل ثمَّ هجَّر فقال: «يا أيها الناس، إني فرط لكم، وأوصيكم بعترتي خيرًا، وإن موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده ليُقيمُنَّ الصلاة، وليُؤتُنَّ الزكاة، أو لأبعثَنَّ إليهم رجلاً منِّي -أو كنفسي - فليضربَنَّ أعناق مقاتليهم، وليسبينَّ ذراريهم»، قال: فرأى الناس أنه أبو بكر أو عمر، فأخذ بيد علي، فقال: «هذا»، ويبدو

أن ابن حجر خلط بين مناسبتين، أو أنَّ المناسبة اقتضت أن يذكر عترته صلوات الله عليه ويذكر بعثه رجلاً منه، ففي أثناء الحصار (نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامته، من كان محاصرًا بالطائف عبيد، فاسلموا، فأعتقهم)، ولمّا أسلم أهل الطائف (تكلم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «لا، أولئك عتقاء الله»، وكان ممن تكلم فيهم الحارث بن كلدة) كما ذكر الواقدي في مغازيه ٩٣١/٣ -٩٣٢ وابن هشام في سيرته ١٣٩/٤، ويبدو أنَّ نزولهم كان بعد أن نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرٌ) فخرج بضعة عشر رجلاً كما ذكر الواقدي في مغازيه ٣/ ٩٣١ فيهم أبو بكرة.

وذكر البلاذري في أنسابه ٣٦٤/٢ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لوفد ثقيف حين جاءوه وطلبوا منه إعادة عبيدهم: « والله لتسلمن أو لأبعثن إليكم رجلاً مني -أو قال: مثل نفسي - فليضربن أعناقكم، وليسبين ذراريكم وليأخذن أموالكم» قال عمر: فوالله ما اشتهيت الإمارة إلاّ يومئذ فجعلت أنصب صدري له رجاء أن يقول: هذا فالتفت إلى عليٍّ فأخذ بيده ثم قال: « هو هذا، هو هذا»، وذكر الحديث والرواية أيضًا أحمد في فضائل أمير المؤمنين ١٨١ برقم ١٣٢ وابن عبد البر في استيعابه ١١١٠/٣.

ولم يكن ذلك الوسام الوحيد الذي ناله المرتضى أثناء غزوة الطائف تلك، وإنما أراد الله سبحانه إظهار منزلته وكرامته وسط ذلك الجمع الحاشد فأمر نبيَّه صلوات الله وسلامه عليهما أن يختليَ به، فطالت الخلوة، مما دفع بعض الصحابة إلى لمز تلك النجوى، فقالوا: لقد أطال نجواه بابن عمّه،

وكان لمزهم مناسبة لم يحسبوا حسابًا لها، إذ لم يكن يدور في خلدهم أن أمر النجوى كان من الله سبحانه، وإن كانت برغبته صلوات الله وسلامه عليه أيضًا، فقال لهم: «ما أنا انتجيته، ولكن الله انتجاه»، وقد ذكر الحديث ومناسبته الترمذي في سننه برقم ٣٨١٠ وابن الأثير في أسده ٦٠٢، وابن كثير في البداية والنهاية ٤٧٢/٥ وخرّجه كاظم الفتلاوي من ثلاثة وثلاثين مصدرًا في كتابه الكشاف المنتقى ٣٥٤-٣٥٦.

براءة من الله ورسوله
في يمين عليٍّ

«لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»

حلَّت السنة التاسعة من الهجرة المباركة، وجاء موسم الحجِّ، ولم يعم الإسلام بعد أقطار الجزيرة العربيَّة، ولم تتعمَّق قيمه في نفوس كثير من أبنائها، ومازال غالبية أعربها يحجُّون كعادتهم في هذا الموسم المعظَّم، ويقيمون شعائرهم ويلبُّون فيه على طريقتهم، ومن سننهم فيه عدم الإمساك بثيابهم بعد انقضاء حجِّهم يتركونها صدقة ولا يلبسونها بعد الطواف، وكان بعضهم يستعير ثوبًا لطوافه أو يكتريه، فإن لم يجد طاف عريانًا في البيت، ويراودني يقين أنَّ غالبيتهم ما كانوا من أصحاب الثراء والمال، لذا فلم يكن غريبًا أن يضطرَّ بعضهم إلى الطواف وهم عراة.

وكانت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وبعض القبائل التي لم تدخل الإسلام عهود، وكانوا يؤدون حجَّهم على ما اعتادوا عليه، فكره النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم أن يحجَّ، ويسمع تلبية الأعراب لغير الله، أو يراهم عراة في بيته المعظَّم، فكلَّف أبا بكر أن يقيم الحجَّ للناس ذلك العام، فخرج وخرج معه ثلاثمائة رجل، وبعث معه عشرين بدنةً، كما ذكر الواقدي في مغازيه ١٠٧٧/٣، وما إن خرج حتى نزلت سورة براءة على رسول الله، فدعا عليًّا عليه السلام وأرسله بها، وروى ابن هشام في سيرته ٢٢٣/٤–٢٢٤ (عن أبي جعفر محمد بن علي رضوان الله عليهم،

أنه قال: لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال: «لا يؤدي عني إلاّ رجلٌ من أهل بيتي»، ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له «اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته»، فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه بالطريق قال: أمير أو مامور؟ فقال: بل مأمور ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذّن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته، وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة، إلاّ أحدًا كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدّته فهو له إلى مدّته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان).

وروي في مسند علي بن أبي طالب ٩٦ برقم ٣٣/٥٩٤ أن زيد بن أثيع قال: (سألنا عليًا رضي الله عنه بأيّ شيء بعثت، يعني يوم بعثه النبي صلى

الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه في الحجّة؟ قال: بُعِثتُ بأربع: لا يدخل الجنَّة إلاّ نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهدٌ فعهده إلى مدَّته، ولا يحجُّ المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا).

ويبدو أن بعضهم تولاّه الغضب من هذا البلاغ فقال بلغة فيها تهديد واصطناع بطولة لعليٍّ عليه السلام على ما روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٨٦ برقم ٢١٢: (لولا أن ينقطع الذي بيننا وبين ابن عمِّك من الحلف. فقال علي: لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرني ألاّ أحدث شيئًا حتى آتيه لقتلتك).

وروى البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٥ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله: (بعث بسورة براءة مع أبي بكر، ثم أرسل عليًّا فأخذها منه فقال: «لا يؤدي عنّي إلاّ رجل من أهلي»)، أما ابن الأثير في كامله ٢/٢٩١، فقد وافق ابن عباس في ما ذهب إليه بشأن آيات براءة، وفصَّل روايتها فقال: (فلمَّا كان بذي الحليفة - أي أبو بكر - أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أثره عليًا وأمره بقراءة براءة على المشركين، فعاد أبو بكر وقال: يا رسول الله أنزل فيَّ شيء؟ قال: لا، ولكن لا يبلّغ عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي ..)، وزاد أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤٢٧ برقم ٣٢٨ (فرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله نزل فيَّ شيء؟ «قال: لا ولكنَّ جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك»)، وإلى قريب من ذلك ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد، كما ما ذكر اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/٥٣٩ فذكر أن النبيَّ أرسل آيات براءة مع أبي بكر، ولكن أمر

الله جاء بأن لا يؤديها إلا رجل من أهل بيته صلوات الله عليه وعليهم فأمر عليًّا باللحاق بأبي بكر كي يأخذها منه ويؤدّيها، وللخبر في الموسوعة تفصيلات أخرى مختلفة عن مصادره.

وللوسام المذكور صيغة أخرى لا تقلُّ شهرة ودورانًا في كتب الحديث عن صيغته السابقة، بل هي الأشهر، وهي « علي منّي وأنا من علي، لا يؤدي عنّي إلا أنا أو علي ».

وقد رواه بصورته هذه الترمذي في سننه برقم٣٨٠٣ عن حبشي بن جنادة، وتابعه ابن ماجة في سننه ٨٥/١ برقم ٦/١١٩ والذهبي في عهده ٦٣٠ قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث)، وقال: (رواه ابن ماجة عن سويد، وأخرجه النسائي في الخصائص)، أقول: ورواه أحمد بن حنبل في مسنده برقم ٢٦٥ عن حبشي بن جنادة أيضًا عن يحيى بن آدم السلولي، (وكان قد شهد يوم حجَّة الوداع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليٌّ منّي وأنا منه ولا يؤدي عنّي إلاّ أنا وعليّ»).

وسام المنزلة في غزوة تبوك

أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبيّ بعدي.

والوسام المذكور توشح به المرتضى في صيف السنة التاسعة للهجرة يوم توجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك في شهر رجب كما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/٩٤٣ ، ويبدو أن خروجه كان في صباح يوم خميس من ذلك الشهر كما ذكر الواقدي في مغازيه ٣/٩٩٧ ،وخلّف أخاه على المدينة ، وهو من أشهر أوسمة المرتضى عليه السلام، وأكثرها دورانًا على ألسنة الفقهاء والمحدثين والمؤرخين وأرباب السير، وتكاد تجمع على ذكره جميع كتب الحديث والتراجم والسير التي تناولت فضائله أو سيرته ، ورواه ابن عساكر بروايات جاوزت الخمسين في كتاب ترجمته عليه السلام ١/٣٠٦–٣٩٣، وورد في صحيح مسلم في باب فضائل علي بن أبي طالب برقم ٢٤٠٤، وسنن الترمذي عن سعد بن أبي وقاص ، وعن جابر بن عبد الله وعن زيد بن أرقم وعن أم سلمة وعن أبي هريرة في سنن الترمذي الحديث رقم ٣٨١٣ ورقم ٣٨١٤ ، ومسند أحمد برقم ٢٨١– ٢٨٣ ، وورد في سنن ابن ماجة ١/ ٨٢ برقم ١١٥/ عن سعد بن أبي وقاص ، وذكره أيضًا ابن سعد في طبقاته ٣ /٢٤–٢٥ من طرق عدَّة ، والبلاذري في أنسابه ٢/٣٤٨–٣٤٩ من طرق عدَّة أيضًا كما ذكر مناسبته ، ورواه أيضًا ابن عبد ربه في العقد ٤/٢٨٦ ، ولعلّ ما يؤكد ما ذكر أن ابن عبد البر قال في استيعابه ٣/١٠٩٧ : (وهو من أثبت الآثار وأصحها ، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص،

وطرق حديث سعد فيه كثيرة جدًا قد ذكرها ابن أبي خيثمة وغيره، ورواه ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس، وجابر بن عبد الله، وجماعة يطول ذكرهم)، وذكره وذكر مناسبته عن ابن إسحاق ابن هشام في سيرته ١٨٧/٤ ، أثناء حديثه عن غزوة تبوك، كما ذكره في أثنائها أيضًا ابن الأثير في كامله ٢٧٨/٢ ، ومما ورد في مناسبته أنه عليه السلام قال: (يا رسول الله أتخلّفني في الخالفة في النساء والصبيان... قال: بلى يا رسول الله قال: فأدبر علي مسرعًا كأني أنظر إلى غبار قدميه)، ومن طريق آخر ذكره أحمد في مسنده أنه عليه السلام (خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء ثنية الوداع وعلي رضي الله عنه يبكي يقول: تخلفني مع الخوالف...الحديث).

وذكر الذهبي في تاريخ الإسلام عهد الراشدين ٦٢٧ عن عامر بن سعد عن أبيه: أن معاوية أمر سعدًا فقال: (ما يمنعك أن تسبَّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن تكون لي واحدة منهنَّ أحبَّ ألي من حمر النعم، سمعت رسول الله يقول، وخلّف عليًّا في بعض مغازيه، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتخلفني مع النساء والصبيان؟! قال: « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»، وذكر ابن الأثير في أسده ٦٠٢ أن سعيد بن المسيب قال: (فأحببت أن أشافه سعدًا، فلقيته فذكرت له ما ذكر لي عامر، فقلت: أنت سمعته؟ فأدخل يده في أذنيه وقال: نعم وإلاّ فاستكّتا)، وذكره ابن حجر في مطالبه ٥٧/٤ برقم ٣٩٥٠ عن سعيد وأم سلمة كما ذكره الذهبي في عهده ٦٢٦ أيضًا عن زيد بن أرقم.

ومن طريف ما رواه المسعودي في مروجه ٢٣/٣، حول الوسام حكاية تبيِّن أنه ما كان ينبغي على من تخلَّف عن بيعته عليه السلام التخلُّفَ عنها، أو الاصطفاف مع أعدائه، قال المسعودي: (لمَّا حجَّ معاوية وطاف بالبيت ومعه سعد، فلمَّا فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في علي وشرع في سبِّه، فزحف سعد، ثم قال: أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سبِّ علي، والله لأن تكون فيَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن أكون صهرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن لي من الولد ما لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله..... وأيم الله لا دخلت لك دارًا ما بقيت، ونهض ليقوم فضرط له معاوية، وقال له: اقعد حتى تسمع جواب ما قلت، ما كنت عندي قطُّ ألأم منك الآن، فهلاَّ نصرته، ولم قعدت عن بيعته، فإني لو سمعت من النبي صلَّى الله عليه وسلَّم مثل الذي سمعت فيه لكنت خادمًا لعلي ما عشت)، وغريب أن يكون كل الذي استطاع أن يردَّ به سعد على معاوية (والله إني لأحق بموضعك منك) بعد أن أفحمه بما قال!!.

وذكر ابن عبد البر في استيعابه ١٠٩٧/٣ أن الإمام عليه السلام (لم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ قدم المدينة إلاَّ تبوك، فإنه خلَّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة وعلى عياله بعده في غزوة تبوك، وقال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى).

ولاشك أن الوسام المذكور من أهم الأوسمة التي تقلدها، ولا شك أن المصطفى صلى الله عليه وآله حينما وشَّحه به لم يوشحه بسبب عاطفة أو قرابة أو مصاهرة أو دور فحسب، فحاشاه أن يصدر عن هوًى، أو أن يقوله

جبرًا لخاطر عليّ لأنه تركه في المدينة ولم يصحبه في تلك الغزوة كما ذهب إلى ذلك بعضهم، وحقٌّ لأبي الحسنين عليه السلام أن يقول من بعد كما روى ابن عبد ربه في عقده ٢٨٧/٤ : (أنا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمّه، ولا يقولها بعدي إلاّ كذّاب).

ويبدو أن الوسام كان محلّ ذكر من النبيّ ومن المرتضى صلوات الله وسلامه عليهما في غير مناسبة، ومما ذكره أحمد في كتاب فضائله ٢٨٢ برقم ٢٠٩ بسنده عن زيد بن أبي أوفى قال: (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فذكر قصّة مؤاخاة رسول الله بين أصحابه. فقال علي - للنبي صلى الله عليه وآله - : لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري، فإن كان هذا من سخط عليّ فلك العتبى والكرامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « والذي بعثني بالحقّ ما أخّرتك إلاّ لنفسي، فأنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي» قال: وما أرث منك يا رسول الله؟ قال: « ما ورث الأنبياء قبلي» قال: وما ورث الأنبياء قبلك؟ قال: « كتاب الله وسنّة نبيّهم، وأنت معي في قصر في الجنّة مع فاطمة ابنتي، وأنت أخي ورفيقي» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إخوانًا على سُرُرٍ مُتقابلين ﴾ «المتحابُّون في الله ينظر بعضهم إلى بعض»).

ولقد وقفت على رأي للمأمون بصدد هذا الوسام الذي نقله ابن عبد ربه في عقده ٩٦/٥—٩٧ جدير بالنقل والتأمُّل وهو:

قال المأمون: أتروي يا إسحاق حديث (أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟) قال: نعم. قال: (فهل يمكن أن يكون الرسول ﷺ مزح بهذا القول؟

قلت: أعوذ بالله. قال: فقال قولاً لا معنى له، فلا يوقف عليه؟ قلت: أعوذ بالله. قال: أفما تعلم أن هارون كان أخا موسى لأبيه وأمِّه؟ قلت: بلى. قال: فعليٌّ أخو رسول الله لأبيه وأمِّه؟ قلت لا. قال: أوليس هارون كان نبيًّا وعليٌّ غير نبيٍّ؟ قلت: بلى. قال: فهذان الحالان معدومان في عليٍّ وقد كانا في هارون، فما معنى قوله: أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى،؟ قلت له: إنما أراد أن يطيِّب بذلك نفس علي لمَّا قال المنافقون إنه خلَّفه استثقالاً له. قال: فأراد أن يطيِّب نفسه بقول لا معنى له؟ قال: فأطرقت. قال: يا إسحاق، له معنى في كتاب الله بيِّن. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عزَّ وجل حكايةً عن موسى لأنه قال لأخيه هارون: ﴿ اخْلُفْني في قومي وأصلح ولا تتَّبع المفسدين ﴾، قلت: يا أمير المؤمنين، إن موسى خلَّف هارون في قومه وهو حيٌّ، ومضى إلى ربِّه، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خلَّف عليًّا كذلك حين خرج إلى غزاته. قال: كلاَّ ليس كما قلت. أخبرني عن موسى حين خلَّف هارون، هل كان معه حين ذهب إلى ربِّه أحدٌ من أصحابه أو أحد من بني إسرائيل؟ قلت: لا . قال: أو ليس استخلفه على جماعتهم؟ قلت: نعم، قال: فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزاته، هل خلَّف إلاَّ الضعفاء والنساء والصبيان؟ فأنَّى يكون مثلَ ذلك؟ وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدلُّ على استخلافه إيَّاه لا يقدر أحدٌ أن يحتجَّ فيه، ولا أعلم أحدًا احتجَّ به، وأرجو أن يكون توفيقًا من الله. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عزَّ وجلَّ حين حكى عن موسى قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ❁ هَارُونَ أَخِي ❁ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ❁ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ❁ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ❁ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾: فأنت مني يا علي بمنزلة هارون من

موسى، وزيري من أهلي، وأخي أشدُّ به أزري، وأُشركه في أمري، كي نسبح الله كثيرًا، ونذكره كثيرًا، فهل يقدر أحد أن يُدخل في هذا شيئًا غير هذا؟ ولم يكن ليبطل قول النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون لا معنى له).

ولا أظن بعد تعقيب المأمون يحتاج الوسام إلى تعقيب.

المباهلة وسببها

سبق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن كتب إلى أهل نجران يدعوهم إلى الإسلام، فخرج إليه وفدهم بأربعة عشر رجلاً من أشراف نصاراهم ذكرهم ابن سعد وذكر حكايتهم في طبقاته ١/٣٥٧–٣٥٨ فيهم عبد المسيح الكندي الملقّب بالعاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم، والسيِّد، وهو صاحب رحلتهم، فلمّا دخلوا عليه بزي الرهبان، سلّم عليهم، ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم ما تيسّر من الذكر الحكيم، ولكنّهم أبوا تصديقه، فدعاهم إلى المباهلة بعد إنكارهم ما قال لهم، واتّفقوا على يوم آخر تتم فيه الملاعنة فنزل قوله تعالى ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾، فحضر ومعه المرتضى والزهراء والحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم وقال لهم: « اللهم هؤلاء أهلي»، كما روى الترمذي في سننه برقم ٣٨٠٨ وأحمد في مسنده برقم ٢٨٨ وابن الأثير في أسده ٣/٦٠٠ والذهبي في عهده ٦٢٧ عن سعد بن أبي وقاص، وبحديث المباهلة وآيتها تحدد تمامًا المقصود بأهل بيت المصطفى صلوات الله عليهم أجمعين، فقد انحصرت بمن خرج معه منهم.

وذكر الشيخ اليوسفي في موسوعته ٣/٥٤٧ عن مصادره أنّ سبب الدعوة إلى المباهلة يعود إلى أن وفد نجران سألوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى ما يدعو؟ فقال: « إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وإني رسول الله، وأنّ عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويُحدث»، فقالوا: فمن أبوه؟ فنزل عليه

الوحي فقال: قل لهم: « ما تقولون في آدم عليه السلام؟ أكان عبدًا مخلوقًا يأكل ويشرب وينكح؟» فسألهم النبي ذلك فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فَبُهِتُوا وبقوا ساكتين.

فأنزل الله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ❁ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ❁ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « فباهلوني، فإن كنت صادقًا أُنْزِلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذبًا نزلت عليَّ» فقالوا له: أنصفت! فتواعدوا للمباهلة ، ورجعوا إلى منزلهم)، وجاء موعد المباهلة، وإذا برسول الله ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، فسأل الوفد عنهم فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيّه وختنه علي بن أبي طالب وتلك ابنته الزهراء، وهذان الحسنان، وحينما رأى الوفد ما رأى أحسَّ بخطورة الأمر، وعواقب المباهلة، وقالوا: (قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك)، فصالحهم رسول الله على ما صالحهم عليه، وما كاد عبد المسيح والسيِّد يعودان حتى عادا وأعلنا إسلامهما، فأنزلهما النبي دار أبي أيوب الأنصاري كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/ ٣٥٨.

وذكر ابن الأثير في كامله ٢/ ٢٩٣ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج لمباهلتهم ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين قالوا عند رؤيتهم: (هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه)، وكان قدوم وفدهم المدينة كما ذكر الطبري في تاريخه ١٣٩/٣ في السنة العاشرة

للهجرة، ورجح الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٥٤٦/٣ أنها كانت في السنة التاسعة لأنَّ العرب كانوا ينسئون الشهور العربية بسبب اختلاف المواقيت ما بين السنة الشمسية والقمرية، ومعلوم أنَّ النسيء حرم عند نزول سورة براءة، ونقل الشيخ عن كتاب مسار الشيعة الكرام ٥٩، ٥٨ أن المباهلة كانت في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة في السنة التاسعة.

وقريبًا من كلِّ ذلك ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ونقله عنه الصلابي في أسمى المطالب ١٣٦/١ -١٣٧، فذكر رسالة رسول الله صلوات الله عليه إلى أهل نجران، ودخول وفدهم عليه بزينتهم، وامتناعه عن التحدث معهم، وسؤالهم عليًّ ابن أبي طالب عن سبب امتناعه صلوات الله وسلامه عليه من التحدُّث معهم، فأشار عليهم بتغيير زينتهم والدخول على رسول الله بملابس سفرهم، وما تلا ذلك من احتجاج انتهى إلى المباهلة، وخوفهم من الملاعنة، وخضوعهم لحكمه صلوات الله وسلامه عليه.

وكُتِبَتْ معاهدة الصلح، وأشهد النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم شهودًا عليها قال ابن سعد في طبقاته ٣٥٨/١: إنهم أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة، ولكن الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣ /٥٥٣ نقل عن كتاب الإرشاد للشيخ المفيد أن الذي شهد عليها عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وكتبها علي بن أبي طالب عليه السلام، وذكر مصادر عدَّة في هامشه تؤيد كتابة المرتضى لذلك الصلح، ومما يؤيد ما ذكره ما جاء في السنن الكبرى ١٢٠/١٠ عن سالم وعن عبد الخير قالا: (لمَّا ولي عليٌّ عليه السلام جاءه أهل نجران، وأدخل بعضهم يده في كُمِّه وأخرج كتابًا من الأديم أحمر فوضعه في يد علي عليه السلام وقال: يا أمير المؤمنين، هذا

خطك بيمينك وإملاء رسول الله عليك. قال عبد خير: وكنت قريبًا من علي فرأيته قد جرت الدموع على خدِّه ثم رفع رأسه وقال لهم: يا أهل نجران، إن هذا لآخر كتاب كتبته بين يدي رسول الله).

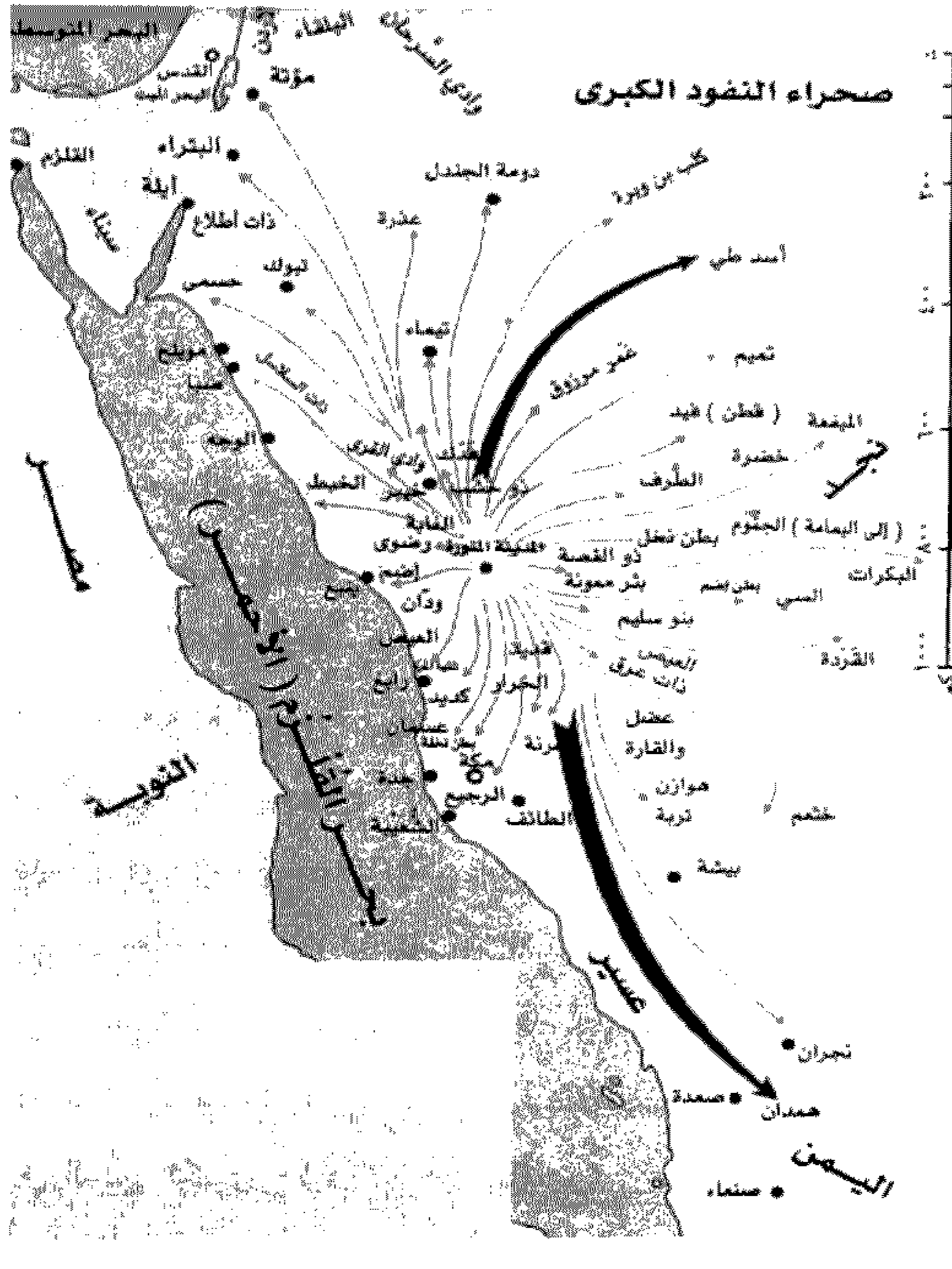

سرية المرتضى إلى اليمن عن كتاب أطلس السيرة النبوية

بعث المرتضى إلى اليمن

«لا تشكوا عليًّا، فوالله إنه لأُخَيْشِنٌ في ذات الله»

دخلت السنة العاشرة لهجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم، والفتى الذي نام في فراشه بالأمس لم يعد فتًى، فقد عركته التجربة التي مرّت به خلال السنوات الماضية، ولعلّه اليوم قارب الثلاثين أو تجاوزها، وأصبح أبًا لأربعة أطفال هم زينة البيت الهاشمي وأقمارهم التي تشعُّ عليهم بالنور والبهجة، تراهم تملأ ضحكاتهم أرجاء البيت النبوي المبارك ويتردَّد صداها في مسجده الشريف، وتمنحه دفءًا كان مبعث سعادة المصطفى وراحته وحبوره، ولعلّه بات من الصَّعب على الذي كان فتًى أن يفارق بيته طويلاً لأي أمر كان، ولكنه كان يفارقه عن طيب خاطرٍ في أيِّ وقتٍ امتثالاً لأمر الرسول الكريم، ورغبةً في نشر دينه الحنيف.

وفي السنة التاسعة بعد صلح الحديبية بدأت الوفود تترى على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وازداد توافدها بعد فتح مكّة وتهاوي أصنامها، فانفتح الطريق لدعوته، كما انفتح لأنصاره يسيحون بين القبائل لدعوتها إلى الإسلام أو لتبصير من آمن منهم بأحكامه، ولعلَّ الوفود التي كانت تأتيه من جنوب الجزيرة أكثر من التي كانت تأتيه من شمالها، بل لعلَّ وفود قبائل اليمن كان أكثر من وفود غيرهم، ولا أشك في أن أخبار الدين الجديد الذي بدأ بالانتشار في جزيرة العرب، وخاصّة بعد صلح الحديبية قد عرفت اليمن أخباره قبل حين، بل لعلها عرفتها قبل أن يهاجر النفر المكّي إلى الحبشة، فما

زالت علاقات اليمن بمكّة من ناحية، وبالحبشة من ناحية أخرى قائمة منذ القدم واستمرت حتى العصر الحديث.

ولا شك أن وزيره سلام الله عليه كان بجانبه صلى الله عليه وآله وسلّم عند وفادة الوفود، يكتب العهود بين يديه وينسخها، فقد اختصَّ من بين ما اختصَّ به بكتابتها كما ذكر الشيخ علي الأحمدي في كتابه مكاتيب الرسول ١/ ١٣٨ -٢٤٠ عن مصادره، أما بقيَّة وقته فكان يقرئ هذا أو ذاك من الصَّحابة أو حديثي الإسلام القرآن، ويفقّههم في الدين، وإن وجد وقتًا ذهب يكدُّ ويكدح كي يوفِّر قوت عياله وطارقيه، ولاسيما بعد أن عرف فقراء المدينة ومساكينها باب داره، وكان لعبادته وتوسُّلاته وقتها المقدَّس الذي لم يحد عنه طرفة عين إلى أن ذهب إلى جوار أخيه يوم ذهب سلام الله عليهما.

وما كان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يجد من يتكئ عليه في المهمات الصعبة غيره، فهو على يقين بأن أخاه لن يحيد عن الدرب الذي يرسمه له قلامة ظفر، وهذه اليمن لابد لها من عليٍّ عليه السلام، فهو باب مدينة علمه الذي ليس كمثله بين المسلمين من استوعب الإسلام بجميع آفاقه وأحكامه وأوامره ونواهيه، وما كان عليٌّ يناقش أمرًا يأمره به النبيُّ، أو يجتهد به في حضوره، أو يظهر تململاً أو عدم رغبة في تنفيذه مهما كانت الأسباب.

واليمن ليست كبقيَّة البلاد المحيطة بمكّة والمدينة، فهي من حيث المساحة واسعة مترامية الأطراف مختلفة التضاريس، ما بين وديان وجبال وسهول وصحارى، أما مجتمعها فهو في غالبيَّته زراعيٌّ عرف بحضارته الموغلة في القدم، ومازلنا نقرأ عن الهجرات التي انطلقت منه إلى العراق وبلاد الشام وشمال الجزيرة العربية وغيرها، بل إن اليثربيين من الأوس والخزرج هم من

مهاجريه، وقد أشير إليه في القرآن الكريم غير مرّة، وعرف العمران قبل غيره من بلاد العرب، ومازالت آثار حضارته قائمة حتى الآن، ومازالت قصّة سدّ مأرب محلّ دراسة وتنقيب، وللك في حكاية بلقيس ملكة سبأ التي وردت في القرآن الكريم، وكعبة إبرهة التي بناها، وأراد يومها هدم كعبة إبراهيم عليه السلام لتحويل مواسم الحجّ إلى كعبته، وعلاقة حملته تلك بذكرى ولادة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وغيرها من قصص دولهم وحكايات حضاراتهم، وعربيّتهم الجنوبيّة من حميريّة وقتبانيّة وحضرميّة خير دليل على وعي ذلك المجتمع، وعمق ثقافته.

وقد عرف قسم من اليمنيين ديانات التوحيد، ولاسيما اليهوديّة والنصرانيّة منها، ولعلّهم عرفوها قبل غيرهم من أبناء الجزيرة، بل إن الديانة المسيحيّة انتقلت منها إلى الحبشة، أما مكّة فعلاقتها باليمن كعلاقتها ببلاد الشام، وكانت رحلة الشتاء تنطلق منها إليها كلّ عام، وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج أن أمر اليمن لم يكن بغائب عن المصطفى صلوات الله عليه، وأنه كان يحتل حيّزًا كبيرًا من اهتمامه، ولا يستبعد أن وعيهم الحضاري والديني قد مهّدَ لقبول الدين الجديد بين كثير منهم بعد انتشار أخباره بينهم.

روايات البعث واختلاطها

وقد التبست الروايات والأخبار التي تتعلّق ببعث المرتضى عليه السلام إلى اليمن بحيث أصبح من الصعب الفصل بينها، فالمصادر التاريخية وغيرها تذكر أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعثه مرّتين إلى اليمن، حتى يكاد الأمر يلتبس على الدارس، هل أنّ بعثه إلى نجران أحد البعثين، أو أنه لا علاقة له بهما؟ بسبب تداخل الأخبار أحيانًا وتنافرها، إذ يشار إلى بعثه لتخميس ما غنمه خالد

بن الوليد في بعثه إلى اليمن، ويشار أيضًا إلى بعث سريتين إلى اليمن الأولى على رأسها المرتضى، والثانية بقيادة خالد بن الوليد، وخصّ المرتضى بقيادة السريتين إن التقتا، ويشار أيضًا إلى أنه خلف خالد بن الوليد بعد فشل حملته في تأدية مهمتها، ويشار أيضًا إلى أنه بعثه حاكمًا على اليمن، وروى المبرد في كامله ٣/ ١١٠٨-١١٠٩ (أن عليًا رضي الله عنه وجَّه إلى رسول الله بذَهَبٍ من اليمن، فقسَّمها أرباعًا، فأعطى رُبعًا للأقرع بن حابس المجاشعي، وربعًا لزيد الخيل الطائي، وربعًا لعلقمة بن علاثة الكلابي، وربعًا لعيينة بن حصن الفزاري، فقام إليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ناتئ الجبهة، فقال: لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورَّد خدَّاه، ثم قال: أيأمنني الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ فقام إليه عمر فقال: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم إنه سيكون من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، تنظر في النَّصل فلا ترى شيئًا، وتنظر في الرِّصاف فلا ترى شيئًا وتتمارى في الفُوق).

ويشار أيضًا إلى أنه بعثه قاضيًا، وروى أحمد في كتاب فضائله ٤٦٦ برقم ٣٦٣ حكاية عن قضائه هناك في الأربعة الذين وقعوا في حفرة الأسد، ويشار أيضًا إلى غير ذلك سنأتي عليه، ووقف الواقدي في مغازيه ٣/١٠٧٩ - ١٠٨٨ وقفة ليست قصيرة مع بعثه عليه السلام إلى اليمن، ولكن من دون إشارة إلى علاقة بعث الإمام ببعث خالد بن الوليد، وذكر أن بعثه كان في رمضان سنة عشر من الهجرة المباركة.

ويسبب ما ذكرناه من تداخل بات من الصعب وضع تصوُّر دقيق لمسيرة المرتضى عليه السلام في تلك البلاد، ولنسبة الأحداث بحسب مناسباتها.

وليس بغائب عن بالك أن السيرة المباركة كتبت غالبيَّة فصولها في عصر المأمون، أي في القرن الثالث الهجري، ودخلها ما دخلها من أخبار لأسباب أشرنا إليها في ما سبق، وقد فعلت ما فعلته من تشويه والتباس حتى بات من الصعب رفع الأذى عنها على الرغم من الجهد الاستثنائي الذي بذله نقّادها قديمًا وحديثًا لتنقيتها، بل إن الرواية الواحدة - إن صحَّت - تجد لها أحيانًا روايات تخلط الغثَّ بالسليم فيختلط الحابل بالنابل كما يقال، وليس على الباحث إلاَّ أن يفحص ويمحِّص كي يصل إلى الحقيقة أو يقترب منها، وكان السيِّد علي الشهرستاني ألف كتابًا قيِّمًا بعنوان منع تدوين الحديث، وذكر في مقدّمته ١٤ من بين ما ذكر: (ولعلَّ أهم وأبرز حدث أثَّر في السنة النبوية -نصًّا ومعنى - هو منع الشيخين التدوين والتَّحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ودورهما في تطبيق هذه الرؤية، واستمراره في عهد الخليفة عثمان بن عفّان ومعاوية بن أبي سفيان، ثم اتَّخذه الخلفاء من بعد منهجًا يُعمل به حتى أوقفه الخليفة عمر بن عبد العزيز وأمر بتدوين الحديث)، ولعلَّ مصداقًا لكلِّ ما قلناه رواية بريدة التي سنأتي على ذكرها فقد تشعَّبت وأصبحت روايات من الصعب فكّ الاشتباك الذي حدث فيها، وقد تكون الحقيقة بتمامها قد غابت، وما وصلتُ إليه قد اقترب منها.

علاقة البعث ببعث خالد بن الوليد

والراجح عندي أنَّ بعث المرتضى إلى أهل نجران لا علاقة له ببعثه الأول أو الثاني إلى اليمن، ويغلب على ظنّي أنَّ بعثه الأوَّل عليه السلام الذي ارتبط بسريَّة خالد كان إلى بعض نواحي اليمن، وإن كان في السنة العاشرة للهجرة الشريفة كما ذكرت الروايات حول بعث اليمن، فإنه سيكون في

شهورها الأول، وأنَّ بعثه الثاني الذي ذكره الواقدي في مغازيه وفصَّل الحديث فيه - كما سيأتي - وذكر أنه في رمضان من السنة العاشرة هو الذي أرسله فيه المصطفى صلى الله عليه وآله حاكمًا أو قاضيًا، لأنَّ الروايات التي سنأتي على ذكرها تشعرك أن بالإمكان تقسيمها على قسمين، الأول: تظهر فيه علاقة لسرية خالد بن الوليد ببعث المرتضى، أما الثاني: وإن ورد ذكر خالد في بعض رواياته فإننا لا نلمس فيه علاقة بسريته، أما ذكره فيها فبسبب تداخل بين الروايات.

ومما ذكره الطبري في تاريخه ١٣٢/٣ بشأن بعث خالد أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعثه إلى بعض نواحي اليمن، ولكنَّ أحدًا لم يذكر إلى أيَّة ناحية كان البعث، والراجح أنه بعثه داعيًا إلى بعض القبائل التي لم تدخل في الإسلام، ولم ترسل وفدًا تعاهد النبي كما فعل أهل غيرها، وليس محاربًا، لأن حرب النبيِّ انحصرت بقريشٍ بسبب مواقفها، وباليهود لنقضهم العهود وتآمرهم عليه، وبمن شهر سلاحًا في وجهه، أو لم يستجب لشروط الإسلام في البلاد الخارجة عن خيمته، ولا يختلف اثنان في أن خالدًا من المحاربين الشجعان الذين عرفوا بالقدرة على القيادة، ولقد رأيناه في معركة أحد كيف اقتنص الفرصة في وقتها المناسب بكلِّ براعة، وهو رجل سيفٍ لا شكَّ في ذلك، ولكنه عرف أيضًا بالتهوُّر أحيانًا، وبالعصبيَّة في أحيان أخرى، يضاف إلى هذا أننا لا نستطيع أن نؤمن أنه قد استوعب الإسلام بكل قيمه في ذلك الحين، فمازال لوقت قصير من أقوى سيوف الشرك، ومازلنا نتذكَّر ما فعله ببني جذيمة، واليوم ليس كالأمس، فالإسلام في حاجة إلى الملاينة والتدبر والمحاورة والعقل، وإذا صحَّ أنَّ خالدًا قد نجح في سريته هذه في بعض المواقع

بالسيف، فإنه لم يحقق النتائج التي توخّاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهي نشر الإسلام والدعوة إليه، فأرسل عليًا عليه السلام في سريَّةٍ من ورائه، وطلب من خالد العودة بسريته، وترك الخيار لمن أراد أن يلتحق من سريَّته بسرية علي فله ما أراد، وكان البراء بن عازب في سريَّة خالد، فالتحق منها بسريَّة عليٍّ عليه السلام.

وتقدَّم الروايات المتعلقة ببعث خالد حكاية غريبة سيتبيَّن بطلانها من بعد مفادها أن خالدًا اشتبك مع بعض القبائل اليمنية، فاجتمع عنده سبي أراد تخميسه فأرسل رسولاً إلى النبي يطلب منه أن يبعث له من يخمِّسه، فطلب المصطفى من عليٍّ عليهما السلام القيام بالمهمَّة، ولم يكن المرتضى بالشخصيَّة المحبَّبة إلى خالدٍ، فمازال يتذكر ما فعله يوم بعثه النبيُّ إلى بني جذيمة لإصلاح ما أفسده عندما بعثه داعيًا إلى الإسلام وليس محاربًا، ولابد أن ذلك الموقف ترك في نفسه من النفور منه ما ترك، وخالد لا ينسى أيضًا ما فعله سيف عليٍّ في معاركه السَّابقة بجيوش قريش، بل إن الغالبيَّة العظمى من قريش ما كانت تكنُّ لعليٍّ عليه السلام مودَّة ولا محبَّة.

حكاية تخميس السبي

أما رواية الحكاية فغاية في التشويه، لأنها تهدف في مفاصل منها إلى الإساءة لعليٍّ عليه السلام، وذلك بإظهاره في لبوس حاشا أن يلبسه ربيب الوحي، فبعد أن تذكر في مقدِّمتها مدى كراهية خالد لعليٍّ تذكر رفقة رافقته في سريته تبطن له عليه السلام الكراهية والبغضاء أيضًا من بينهم بريدة، بل قد أحبَّ بريدة خالدًا ورافقه لبغضه عليًّا وإن لم تصرِّح بعض الروايات باسم خالد، ثم تنتقل إلى أمرٍ غاية في البشاعة من الصَّعب أن نقبله من غير عليٍّ إن

صحَّ وقوعه في ذلك الزمن، فكيف بنسبته لعليٍّ عليه السلام، فقد روى أحمد في مسنده ٥/٣٥١ عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: (أبْغَضْتُ عليًا بُغْضًا لم يُبْغِضْهُ أحدٌ قطُّ، قال: وأحببتُ رجلاً من قريشٍ لم أُحِبَّه إلاّ على بغضهِ عليًا. قال: فبُعِث ذلك الرجلُ على خيلٍ، فصحِبْتُهُ، ما أصحَبُهُ إلاّ على بُغْضِهِ عليًّا، قال: فأصبنا سَبْيًا، قال: فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابعثْ إلينا من يُخَمِّسه، قال: فبعثَ إلينا عليًّا، وفي السبي وصيفة هي من أفضلُ السَّبي، فخمَّس وقَسَمَ، فخرجَ رأسه مُغَطًّى، فقلنا يا أبا الحسن ما هذا؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي؟ فإني قَسَمْتُ وخمَّسْتُ فصارت في الخمس، ثمَّ صارت في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صارت في آل علي، فوقعت بها، قال: فكتب الرجُلُ إلى نبيِّ الله، فقلت: ابعَثْني، فبعثَني مُصَدِّقًا، قال: فجعلتُ أقرأ الكتابَ وأقولُ: صَدَقَ. قال: فأمسك يدي والكتابَ وقال: «أتُبْغِضُ عليًا؟» قال: قلت: نعم، قال: «فلا تُبْغِضْهُ، وإن كنت تُحِبُّهُ فازددْ له حُبًّا، فوالذي نفس محمَّدٍ بيده! لنصيبُ آل عليٍّ في الخمس أفضل من وَصيفةٍ»، والرواية في كتاب فضائله لأحمد ٤٠٠ برقم ٣٠٥ أيضًا، وفيها تتمَّة هي: (فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أحبَّ إليَّ من علي)، والرواية عن أحمد في البداية والنهاية ٥/٤٥٨ أيضًا، وفي أخرى عن بريدة رواها أحمد في مسنده أيضًا أن خالد بن الوليد قال لبريدة لما وقع عليٌّ على الوصيفة بزعمه: (ألا ترى ما يصنع هذا؟ لما صنع عليٌّ). ولا شكَّ أن مثل هذه الروايات إما أن تكون مختلقة، أو دخلها كثير من التحريف بصورة متعمَّدة، وزيد عليها ما زيد كي تبدو بالصورة التي حبكت بها.

وستقف موقف المتردِّد منها من بدايتها، إذ لم أقف في أثناء قراءتي لسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلّم على قائد لإحدى سراياه طلب منه إرسال من يخمِّس غنيمة لا من قبل ولا من بعد، وستشارك في رفضها إذا تتبَّعتها في مصادرها المختلفة، فأنت تلحظ أن قسمها الأول أظهر المرتضى بصورة أريد منها الإساءة إلى شخصه وسيرته الطاهرة النَّقيَّة، فليس هو الذي يطمع بجارية ويفعل بها ما فعل بزعم الرواية، يخمِّس ويقسِّم، ويستخرج سهمًا لآل علي بدون علم النبي، ويكون السهم جارية يدخل فيها بتلك الطريقة، ويخرج منها والماء يقطر من رأسه، وهو أمر يستحيل أن يدخل في إطار تربية ربيب الوحي الذي أدَّبه الله بأدب نبيِّه، وستلحظ من بعد أن القسم الأول منها قد اختلفت روايته عند الترمذي الذي جاء برواية (فأصاب جارية)، وتأخذ الرواية أوجهًا مختلفة عند أحمد نفسه، فتأتي مرَّة بصورة (فاصطفى علي امرأة من السبي) كما في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد بن حنبل برقم ٣٠٠، ومرَّة في المصدر نفسه برقم ٣٠٢ بصورة (فأخذ علي جارية من الخمس)، وتصبح شيئًا آخر ليس غير (فأحدث أمرًا) بلا تصريح عن ذلك الأمر كما ورد في مسند أحمد بترتيب أحمد عبد الرحمن البناء برقم ٢٥٩، وترد بصورة (ونحو ذلك) -كما ذكر - عن بريدة في المسند برقم ٢٦٠، ولعلَّ خير دليل على بطلان هذا القسم منها، ما فعله عليه السلام من بعد ببعض من رافقه في بعثه إلى أهل نجران يوم فكَّروا بركوب إبل الصَّدقة، وما فعله بهم يوم لبسوا البرد التي جاء بها من اليمن، وهي في خمس النبي، لقد كان بإمكانه أن يلبس واحدة، أو يأخذ واحدًا من تلك الجمال فيدَّعيه من حصَّة آل عليٍّ ويتَّخذه هديًا، ولكنه يوم نوى الحجَّ أشركه النبيُّ بهديه صلوات الله وسلامه

عليهما، لأنه لم يكن يملك هديًا كما ذكر ابن هشام في سيرته ٢٥٩/٤، فأين ذهبت حصَّته من سريَّته، ولماذا وصل مكّة وهو لا يملك ثمن هديه، فاشركه النبيُّ في هديه كما ذكرت جميع المصادر التي تعرَّضت لأحداث حجَّة الإسلام، لا شكَّ أنه وجد في طريقه من هم في حاجة إلى ما غنمه فتصدَّق به، فمن يفعل تلك الأفعال التي لم يفعلها غيره من قادة الإسلام يصعب أن نتصور دخوله بالجارية بتلك الطريقة الشبقة التي ذكرتها الرواية.

وتزعم رواية أخرى أنه لم يكن بريدة وحده يكنُّ البغضاء لعليٍّ في تلك السَّرية، وإنما كانت معه رفقة على صفته، إذ تعاقد أربعة ممن أرسلهم خالد مع بريدة في ما أحسب أن يذكروا أمر الوصيفة إلى رسول الله أيضًا، مما أغضب النبي صلوات الله وسلامه أشد الغضب، فقال: «ما تريدون من علي، ما تريدون من علي إن عليًا منّي وأنا منه، وهو ولي كلِّ مؤمن بعدي»، وقد روى الترمذي الحديث في سننه برقم ٣٧٩٦ بسنده عن عمران بن حصين الذي قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشًا واستعمل عليهم علي بن أبي طالب، فمضى في السريَّة فأصاب جارية فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: إن لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أخبرناه بما صنع عليٌّ، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدءوا برسول الله صلّى الله عليه وسلم فسلّموا عليه، ثم انصرفوا إلى رحالهم، فلما قدمت السرية سلّموا على النبي صلّى الله عليه وسلم، فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله: ألم تر إلى عليٍّ بن أبي طالب صنع كذا وكذا، فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم قام الثاني فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام إليه الثالث فقال مثل مقالته فأعرض

عنه، ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والغضب يُعرَفُ في وجهه فقال : « الحديث المذكور» وعلّق الترمذي بقوله: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان).

وقال أحمد عبد الرحمن البنا مرتب مسند أحمد: رواه الحاكم في المستدرك بأطول منه وبلفظ (ما تريدون من علي، إن عليًّا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي، وأورده الترمذي بأطول منه وبلفظ (ما تريدون من علي - قالها ثلاثًا - إن عليًّا مني وهو ولي كل مؤمن بعدي)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر، وجعفر هذا هو الضُّبَعي بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة، أبو سليمان البصري صدوق كان يتشيع من الثامنة مات سنة ثمان وسبعين)، ولك أن تعرف مصدر غرابة الحديث، فهو ليس بسبب شكٍّ في الرواية، ولا لأنَّ الحديث من المراسيل، أو لأنه من الأحاديث المقطوعة، أو لأن في سنده ما يدعو إلى الريبة به، مصدر الغرابة من الرواية لأن أحد رواتها صدوق ولكنه كان يتشيع، وليته شكَّ في حكاية الجارية فتتبَّع الرواية وجاءنا بالحقيقة، بل ليته ذكر روايات أخرى سنقف عليها، لا تنفي حكاية طلب خالد من النبيّ أن يبعث له من يخمّس مغانم بعثه فحسب، وإنما تنفي صحيفتها السوداء، وتنفي مغانم خالد، وتكون الجارية التي أصابها المرتضى وفعل فيها ما فعل بزعم الرواية من مغانم سيف عليٍّ اصطفاها لرسول الله صلى الله عليه وآله، وليس لنفسه، وسنأتي على ذكرها في موضعها من هذا المبحث.

وروى ابن حنبل الحكاية في مسنده برقم ٢٥٨ عن ابن عباس، وأعاد ذكرها برقم ٢٥٩ عن عمران بن حصين، ولكن ليس بصورتها السابقة،

قال: (أن النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم بعث سرية بإمرته عليه السلام فأحدث شيئًا في سفره - لم يذكره ابن حنبل -، فتعاقد أربعة من الصحابة أن يذكروا أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وقام رجل عند عودتهم فقال: يا رسول الله إن عليًّا فعل كذا وكذا، فأعرض الرسول عنهم، وقام آخر فقال مقولة صاحبه، فأعرض عنه، ثمَّ قام ثالث فأعرض عنه، ثم قام رابع فقال: إن عليًّا فعل كذا وكذا. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرابع وقد تغيَّر وجهه فقال: «دعوا عليًّا إن عليًّا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي»)، ولكنَّ الرواية لا تذكر ما أحدثه عليه السلام، على أنَّ الذهبي في عهده ٦٣٠-٦٣١ بعد أن ذكر الحديث عن جعفر بن سليمان، قال: (أخرجه أحمد في المسند والترمذي، وحسَّنه، والنَّسائي)، وقد ورد الحديث أيضًا عن ابن عباس في استيعاب ابن عبد البر ١٠٩١/٣.

وتقدَّم بعض الروايات حكاية ليس فيها مبعوث لتخميس خمس ذكرها الترمذي في سننه في أبواب المناقب برقم ٣٨٠٩ عن البراء قال: (بعث النبي صلى الله عليه مسلَّم جيشين وأمَّر على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد وقال: « إذا كان القتال فعلي »، قال: فافتتح عليٌّ حصنًا فأخذ منه جاريةً فكتب معي خالد كتابًا إلى النبي صلَّى الله عليه وسلم يشي به، قال: فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ الكتاب فتغير لونه ثم قال: « ما ترى في رجل يحب الله ورسولَه ويُحِبُّه اللهُ ورسولُهُ »، قال: قلت أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، وإنما أنا رسول فسكت)، وقد ذكر حكايته مع خالد الذهبي في عهده ٦٢٩ عن البراء أيضًا، وهنا تلحظ أن الحصن افتتحه المرتضى، ولا علاقة للأمر بخالد، وكأنه كان في ذلك البعث

بإمرة علي عليه السلام، وليس فيه اصطفاء لجارية ولا دخول فيها، وإنما (افتتح حصنًا فأخذ منه جارية).

ويقدِّم ابن عساكر في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٢/٤٠٠–٤٠٢ روايات أخرى حول حكاية بريدة ترفع بعض القذى الذي أساء إلى سيرة المرتضى، وتهدم الفرية التي نسجتها الفئة الباغية كما نسجت عشرات غيرها، وهي أكثر وضوحًا في سرد الأحداث وبيانها ومناسبتها سنأتي عليها في هذا المبحث.

وعلى الرغم من الدسيسة التي شوَّهت وجه الحقيقة فإن المرتضى نال وسامًا من أوسمة الفخار ذُكْرَ بسابق ولايته عليه السلام، ومهَّد بعد حين ليس ببعيد لحديث الولاية العامة في غدير خم، وإن كانت هذه ليست المرَّة الأولى التي يعلنه وليًّا على رؤوس الأشهاد، فقد سبقتها مرَّات بصورة أو بأخرى منها يوم أنذر عشيرته الأقربين بمكة قبل الهجرة.

وكان ابن عبد البر في استيعابه ٣/١١٢٠–١١٢١ أكثر وضوحًا بشأن علاقة الإمام ببعث خالد، وبشأن طبيعة ذلك البعث، إذ إنه لم يكن إلى قتال، وإنما كان لدعوة إلى الإسلام، كما سبق أن ألمحنا لذلك، ويبدو أن خالدًا فشل في تحقيق ما كان يصبو إليه النبي صلوات الله عليه، فأرسل من ورائه عليًّا يأمره بالقفول ويواصل الدرب مكانه، فقد روى بسنده أن البراء بن عازب قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبي صلى الله عليه وسلَّم علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالد ومن تبعه، إلاَّ من أراد البقاء مع علي رضي الله عنه

فيتركه، قال البراء: فكنت فيمن قعد مع علي، فلمَّا انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلَّى بنا عليٌّ الفجرَ، فلما فرغ صَفَفْنَا صفًا واحدًا، ثم تقدَّم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فأسلمت همدان كلّها في يوم واحدٍ، وكتب بذلك علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فلمَّا قرأ كتابه خرَّ ساجدًا، فقال: السلام على همدان، وتتابع أهل اليمن على الإسلام)، ولا شكّ أن الأمر لم يتمَّ بالطريقة التي تقدمها الرواية، فلابد من حوار عقلانيٍّ أخذ بتلابيب عقول القوم فأقنعهم بدخول الإسلام، ولا شكّ أن الحُجَّة التي قدَّمها المرتضى كانت قاطعة بحيث أسلمت همدان كلها في يوم واحد.

أما فشل خالد بتحقيق المهمَّة التي أرسله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأجلها فقد ذكره أيضًا ابن الأثير في كامله ٢/ ٣٠٠، فقال: (وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه)، وذكر أيضًا إسلام همدان كلِّها في يوم واحد على يد عليٍّ بعد أن قرأ عليهم كتاب المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما، وطبيعيٌّ أن حدثًا من هذا النوع سيترك أثرًا غاية في السلبيَّة في نفس خالد، ولا أشك - إذا صحَّت الرواية - أنه أضاف سببًا جديدًا لتعميق كراهيته، وزيادة بغضه، وللرواية مبحث سيأتي.

اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه

ولا شكَّ أن بعث المرتضى إلى اليمن لم يكن إلى همدان خاصَّة، وإنما كان إلى النواحي التي دخلت الإسلام منه أو لم تدخل كي يفقّه من دخل الإسلام منهم بشرع الله، ويقضي بينهم، وكي يدعو إلى الإسلام بالكلمة الطيِّبة، والمنطق الصَّائب، والحوار الإيجابي الذي تعلَّمه من أخيه صلوات الله وسلامه

عليهما، وليس إلى حرب أو قتال، ولاسيما أن فترة ما بعد فتح مكّة لم تكن فترة حرب في جزيرة العرب بقدر ما كانت فترة دعوة، ولعلّ خير ما يوثق ذلك حديث سنأتي على ذكره كاملاً إذ أوصاه النبي، وقال له: « والله لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحدًا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس»، ودعوة مثل هذه كفيلة لوحدها أن تدفع المرتضى عليه السلام إلى بذل أقصى طاقة ممكنة لإقناع القوم بالدين الحنيف، ويبدو أنه بسبب إسلام همدان ارتبط بعثه بها، ويغلب على الظن أن هذا البعث هو الذي دعا له فيه صلوات الله وسلامه عليه أن يثبّت الله لسانه ويهدي قلبه، فما شكّ عليه السلام من بعد في قضاء قضاه، ذكر البلاذري في أنسابه ٣٥٢/٢ عن أبي البختري عن علي عليه السلام قال: (بعثني النبي صلى الله عليه وسلّم إلى اليمن، فقلت: أتبعثني وأنا شابٌّ، ولا أدري ما القضاء، فضرب صدري ثم قال: « اللهم اهد قلبه، وثبّت لسانه»، فما شككت في قضاء بين اثنين).

وحديث الدعاء من الأحاديث المشهورة، خرَّجه محمد فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء ١٠٩ من مصادر مختلفة وطرق عدَّة، وخرَّجه أيضًا كاظم عبود الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى من تسعة وسبعين مصدرًا، وفيها بألفاظ مختلفة تزيد وتنقص، ومما أخرجه أبو داود، وأحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤١٨ برقم ٣٢٠ عن الإمام قوله: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيًا، فقلت: يا رسول الله إنك تُرسلني إلى قوم يسألونني ولا علم لي بالقضاء، فوضع يده على صدري وقال: « إن الله سيهدي قلبك ويثبّت لسانك، فإذا قعد الخصمان

بين يديك فلا تقضِ حتَّى تسمعَ الآخر كما سمعت من الأوَّل، فإنه أحرى أن يتبيَّن لك القضاء»، فما زلتُ قاضيًا، أو: ما شككتُ في قضاء بعد).

أخبار زمن السريتين

ذكر السيِّد عبد الحسين شرف الدِّين في كتاب المراجعات ١٩٦ أن بعث الإمام الأوَّل إلى اليمن كان سنة ثمان للهجرة، ووثَّق هذا التاريخ محققه الشيخ حسين الراضي في الهامش من السيرة النبوية لزين دحلان المنشور بهامش السيرة الحلبيَّة ٢/٣٤٦، ولكنِّي لم أقف على سيرة الزين، كما لم أقف على مصدر في ما بين يديَّ يؤيِّد ذلك، ولا أدري إن كان ما ذهب إليه السيد عبد الحسين قريب إلى الصَّواب.

ويبدو أنَّ بعثه إلى أهل نجران كان في إثناء عودته من اليمن إلى مكَّة وأن مروره بأهلها كان في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة، فقد التحق بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكة كما ذكر ابن هشام في سيرته، ولم يكن الإمام بغريب عن أهلها، إذ كان كاتب معاهدة الصلح مع وفدهم والشاهد عليها كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١/٣٥٨.

وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/ ٤٢٦–٤٢٧ بشأن سريَّة الإمام الأولى: (لعلَّ إرسال رسول الله لعليٍّ عليه السلام هذه المرَّة بهذه السرية إلى بني زبيد باليمن وهي التي عناها ابن سعد كاتب الواقدي لما قال: إن النبيَّ أرسل عليًّا إلى اليمن مرَّتين: الأولى في السنة الثامنة...والثانية كانت في شهر رمضان من السنة العاشرة في ثلاثمائة إلى مذحج اليمن)، وأحال في الهامش على الطبقات الكبرى ٢/٣٢٧، ولكن النصَّ في الطبقات لا توجد فيه إشارة إلى السنة الثامنة، والذي فيه (ثم سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن

مرّتين، إحداهما في شهر رمضان سنة عشر من مُهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلّم)، وقال الشيخ اليوسفي في هامش ٤٢٧/٣ بشأن تاريخ الغزوة الأولى: (والصّحيح أن الأولى كانت قبل تبوك في السنة التاسعة)، ولعلّه اتكأ على ما ذكر من أنه صلوات الله وسلامه عليه أرسل وفودًا ورسائل في تلك السنة إلى القبائل التي عاهدت أو التي لم تعاهد، وربط الشيخ اليوسفي هذا البعث أيضًا بردّةِ عمرو بن معدّ يكرب، وحكى أن عمرًا بعد إسلامه أبصر قاتل أبيه أُبيّ بن عثعث الخثعمي، فأخذه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم للاقتصاص منه، ولكن الرسول قال له: يا عمرو، أهدر الإسلام ما كان في الجاهلية. فانصرف عمرو، ولكنّه ارتدّ عن الإسلام، وأغار على قومٍ، ومضى إلى قومه، غير أنّ اليوسفي على غير عادته لم يوثّق حكاية ردّة عمرو، وذكر أيضًا أن النبي استدعى عليًا فأمّره على جمع من المهاجرين فيهم خالد بن سعيد بن العاص الأموي، وأنفذهم إلى بني زبيد، وأرسل خالد بن الوليد إلى بني جعفى الذين تحالفوا مع بني زبيد، قال: فلما سمع بنو جعفى بجيش خالد ذهبت فرقة منهم فانضمّت إلى بني زبيد، وذهبت فرقة أخرى إلى تخوم اليمن، وطلب المرتضى من خالد بن سعيد أن يلحق بابن الوليد ويحبسه، فلحق به وحبسه، ثم توجّه المرتضى إلى بني زبيد فلقيهم في وادي كُسْر من نواحي صنعاء، ولم يوثّق الشيخ اليوسفي كل هذا على غير عادته أيضًا، وذكر أيضًا أن المرتضى قتل أخا عمرو وابن أخيه، وانهزم عمرو وبنو زبيد، وخلف علي عليه السلام على بني زبيد خالد بن سعيد ليؤمّن من عاد إليه من هرّابهم مسلمًا، ويقبض صدقاتهم، قال: فرجع عمرو فاستأذن على خالد بن سعيد وعاد إلى الإسلام، ويبدو أن الشيخ اليوسفي أفاد هذه

المعلومات حول المبارزة والقتيلين بسيف الإمام عليه السلام وعودة عمرو إلى الإسلام من كتاب الإرشاد للشيخ المفيد كما ذكر في هامش ٣/٤٢٥. ويبدو على رواية اليوسفي بعض الغموض، وهي في حاجة إلى مزيد من التوثيق والإيضاح، فلم أستطع أن أتبيَّن أي شيء عن دور خالد في هذه السرية، هل عاد إلى المدينة بعد أن حبسه الإمام عليه السلام، أو شارك تحت إمرته فيها.كما أن خبر ردَّة عمرو بن معدٌ التي ذكرها في حاجة إلى توثيق أيضًا، لأن ابن سعد في طبقاته ١/٣٢٨ ذكر أن عمرًا بقي على إسلامه ولم يرتدَّ إلاَّ بعد وفاة رسول الله ثم رجع إلى الإسلام، وحقٌ للشيخ أن يكتنف الغموض ما ذهب إليه بسبب شحَّة الأخبار، وتشوُّه الموجود منها وتداخله كما سبق التنويه.

وسبق أن رجَّحت أن بعث المرتضى لم يكن إلى جهة بعينها، وقد تكون قبيلة زبيد من تلك الجهات التي ذهب إليها أيضًا، فقد ذكر الواقدي في مغازيه عن سالم مولى أبي جعفر قال: (لما ظهر علي عليه السلام على عدوِّه ودخلوا في الإسلام، جمع ما غنم، واستعمل عليه بريدة بن الحُصَيب، وأقام بين أظهرهم، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا مع عوف المزني يخبره أنه لقي جمعًا من زبيد، فأبوا ذلك فقاتلهم. قال علي عليه السلام: فرزقني الله الظفر عليهم حتى قتل منهم من قتل، ثم أجابوا إلى ما كان عُرِضَ عليهم، فدخلوا في الإسلام، وأطاعوا بالصدقة، وأتى بشرٌ منهم للدين، وعلِّمهم قراءة القرآن، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافيه في الموسم، فانصرف عبد الله بن عمرو بن عوف إلى علي عليه السلام بذلك)، تلك كانت رواية الواقدي بشأن زبيد، ولكنَّ ما جاء في البداية والنهاية ٥/

٤٥٧ غير هذا إذ قال: (قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا الأجلح الكندي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعثتين إلى اليمن على إحداهما علي بن أبي طالب وعلى الأخرى خالد بن الوليد، وقال: « إذا التقيتما فعلي على الناس، وإذا افترقتما فكل واحد منكما على جنده»، قال: فلقينا بني زبيد من أهل اليمن فاقتتلنا فظهر المسلمون على المشركين فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية فاصطفى عليٌّ امرأة من السبي لنفسه، قال بريدة: فكتب معي خالد بن الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك، فلما أتيت رسول الله دفعت إليه الكتاب فقرئ عليه فرأيت الغضب في وجه رسول الله فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائذ بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه فبلغت ما أرسلت به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقع في علي فإنه منّي وأنا منه، وهو وليكم بعدي»)، والرواية هي الرواية في ترجمته عليه السلام بتاريخ ابن عساكر ١/ ٤٠٠، ولكن الذي فيها (واصطفى علي جارية من الفيء)، ورواها عن بريدة بسند آخر جاء فيه: (وأخذ علي امرأة من ذلك السبي قال: فكتب معي خالد بن الوليد -وكنت معه - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ينال فيه من علي، ويخبره بالذي فعل، وأمرني أن أنال منه...)، وجاء فيه في رواية أخرى: (فنظر إليَّ فقال: «يا بريدة إنَّ عليًا وليكم بعدي، فأحبَّ عليًا فإنه يفعل ما يؤمر»).

ورواية البداية والنهاية السابقة الذكر بعينها في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٣٩٤ برقم ٣٠٠ وهي بصورها هذه تبتعد عن الصورتها السابقة، ولكنها تنبع من العين نفسها التي صدرت منها، فلم يصب خالد مغنمًا، ولم

يبعث للنبي من يخمّسه، وإنما المغنم كان بسيف عليٍّ الذي اضطر -إن صحّت الرواية - إلى الدخول في معركة مع قبيلة زبيد، وبسبب ورود قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «وهو وليكم بعدي» علق ابن كثير بقوله: (هذه اللفظة منكرة والأجلح شيعيٌّ ومثله لا يقبل إذا انفرد بمثلها، وقد تابعه فيها من هو أضعف منه والله أعلم. والمحفوظ في هذا رواية أحمد عن وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كنت وليه فعلي وليُّه»)، ورواية وكيع في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٣٩٦ برقم ٣٠٢، ولكن مناسبتها مختلفة عن سابقتها، فقد مرَّ بريدة على مجلس سوء تناول المرتضى بسوء، فحذّرهم بريدة وأخبرهم بسابق موقفه من المرتضى، وما قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويبدو أن ابن كثير أنكر الحديث بالصورة التي روي بها عن الأجلح، ولم ينكر الرواية، وكان قد روى روايات عدة للحديث ووثّقها.

بل إن ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٤٠٧/١ يروي للحكاية رواية أخرى ليست عن الأجلح الذي اتهمه ابن كثير بالتشيّع، وإنما عن عطيَّة عن بريدة ترفع كلَّ القذى من الحكاية التي لفقتها الفئة الباغية للإساءة إلى المرتضى، وتريك وجهًا آخر ناصعًا للإمام وسلوكه، فالسبيَّة لا يصطفيها عليه السلام لنفسه، وإنما لرسول الله، -وهي ليست المرَّة الأولى التي يصطفي فيها للمصطفى صلى الله عليه وسلّم شيئًا من مغانم بعثه، فقد رأيناه يوم بعثه لهدم أصنام طيِّء كيف عزل أسرة حاتم ليرى النبيُّ رأيه فيها، ورأيناه يصطفي سيفين لرسول الله يوم بعثه لهدم مناة الثالثة - قال بريدة: (فأصابوا سبيًا فانطلق عليٌّ إلى جارية حسناء وأخذها ليبعث بها إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلّم، فأبى عليه خالد بن الوليد وقال: لا بل أنا أبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما سمعه انطلق خالد فبعث بريدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم...).

ولست بصدد سند الحديث ورأي ابن كثير فيه، أو الحكاية -وإن أطلت الوقوف عليها - وما ورد فيها من غثٍّ لا يصدِّقه عقل، وإنما بصدد ما لحقها من تشويه جاهد أن يسيء إلى عليٍّ عليه السلام، ويصدد مسيرتها في بعض جوانبها مع ما ذكره الشيخ اليوسفي من ذهاب جيش المرتضى إلى بني زبيد، وفي الوقت ذاته ابتعدها عن حكاية الجارية التي اصطفاها المرتضى لنفسه من خمس الغنيمة التي غنمها خالد بزعم الرواية التي سبق ذكرها.

أما بريدة سفير خالد الذي كان شديد الكراهية والبغضاء للمرتضى بزعم الرواية، فقد رأيناه وقد ملأت نفسه محبَّة عليٍّ بعد حديث النبي معه، وأصبح من المقرَّبين إلى نفسه عليه السلام أيضًا.

وذكر ابن هشام في سيرته ٤/٣٤١ رواية عن أبي عمرو المدني مفادها: أن النبيَّ بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن في جند، (ويعث خالد بن الوليد في جند آخر، وقال: «إن التقيتما فالأمير علي بن أبي طالب»).

وجاء ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٣١٨ برواية أخرى إذ قال: (وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرًا وحاكمًا على اليمن ومعه خالد بن الوليد)، ولكنَّه لم يضف إلى ذلك ما يوضِّح البعث أو يؤرخه، ولم يذكر الأحداث التي وقعت في أثنائه، ولعل هذا هو البعث الثاني الذي كان في رمضان من السنة العاشرة، وأن اسم خالد قد حشر في رواية ابن كثير بسبب تداخل البعثين واختلاط أخبارهما.

وروى ابن سعد في طبقاته ١٦٩/٢ أن المصطفى أرسل عليًا في ثلاثمائة فارس في رمضان من السنة العاشرة للهجرة، ولعلَّ عين شانئيه قد فقئت حين عقد الرسول بيده الشريفة لواءه، وعمَّمه بيده، وقال صلى الله عليه وآله وسلم على ما ذكر ابن سعد: «امضِ ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك»، فخرج عليه السلام خروج الأسد من عرينه يتكفأ في مشيته تحفُّ به دعوات رسول الله بالنصر وسلامة العودة، ولعلَّ مسيره هذا قد ترك حزنًا دفينًا في قلب النبيِّ وقلب ابنته وقلبه عليهم السلام، لبعد المسافة ما بين المدينة واليمن، ولخطورة ما يمكن أن يحدث فيها للمرتضى، ويغلب على الظن أن قلق المصطفى على أخيه في بعثه هذا كان شديدًا فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: « اللهم لا تمتني حتّى تُريني عليًا »، وورد الحديث في سنن الترمذي برقم الحديث ٣٧٩٩ ص ٢٧٩–٢٨٠، وتابعه في روايته ابن الأثير في أسده ٦٠٢، أما مناسبته فقد ذكرها الترمذي في سننه في الحديث رقم ٣٨٢٠، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بعثه في سريَّة، وقلق عليه من مكروه قد يصيبه فقاله، وروي أيضًا عن أم شراحيل قالت: حدثتني أم عطية قالت: بعث النبي جيشًا فيهم علي، قالت: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو رافع يديه ويقول: « اللّهم لا تُمِتْني حتى تُريني عليًّا». وعلّق بقوله: هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه.

وذهبت بعض الأخبار إلى حدوث مناوشات بين جيشه وبين بعض القبائل اليمنيَّة، أعقبها دخول اليمنيين زرافات في الإسلام.

وفصَّل الواقدي في مغازيه ١٠٧٩/٣ الحديث عن هذه السريَّة فقال: (قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب عليه السلام

في رمضان سنة عشر، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعسكر بقباء فعسكر بها حتى تتامّ أصحابه، فعقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ لواء، وأخذ عمامة فلفّها مَثْنِيَّة مربّعة فجعلها في رأس رمح، ثمَّ دفعها إليه، وقال: هكذا اللواء! وعمَّمه عمامة، ثلاثة أكوار، وجعل ذراعًا بين يديه، وشبرًا من ورائه، ثم قال: هكذا العِمَّة!.

...عن أبي رافع قال: لما وجَّهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: امضِ ولا تلتفت! فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، كيف أصنع؟ قال: « إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم، تَلَوَّمْهم وتُرِهِم أناةً، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلاَّ الله؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أن تصلُّوا؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم صدقة تَرُدُّونها على فقرائكم؟ فإن قالوا نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك. والله لأن يَهدي الله على يدك رجلاً واحدًا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت!»)، وتلاحظ أن الهدف الأكبر لرسول الله صلوات الله عليه من هذه الغزوة أو أية غزوة أو سريَّة سبقت، ليس الفتح وما يجلبه، وإنما القضاء على ديانة الشرك، والإيمان بالله واليوم الآخر، فهداية واحد لدين الله عنده خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت.

ولا يستبعد أن مناوشات حدثت حينما وصل المرتضى أرض مذحج وغنم المسلمون فيها بعض المغانم، فتركها عليه السلام في عهدة بريدة بن الخُصيب، الذي رأيناه بمعيَّة خالد، ولا أشكُّ في أنَّ كراهيته قد سُلَّت بعد حديث النبي معه، ويبدو أن الحقيقة اتَّضحت أمام ناظريه إن صحَّت حكاية الرواية

بمجملها، ولا أظنها تصح، إذ سنرى بريدة من بعد أحد شهود حديث الولاية في غدير خم، وغيره من الأحاديث التي وشّحت المرتضى بأوسمة الخلود.

وذكر الواقدي في مغازيه ٣/١٠٨٠ أيضًا أن المرتضى (لقي جمعًا فدعاهم إلى الإسلام وحرَّض بهم، فأبَوا ورمَوا في أصحابه، ، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السُّلمي فتقدَّم به، فبرز رجل من مَذْحِج يدعو إلى البراز فبرز إليه الأسود بن الخُزاعي السُّلمي، فتجاولا ساعة وهما فارسان، فقتله الأسود وأخذ سلبه، ثمَّ حمل عليهم عليٌّ بأصحابه فقتل عشرين رجلاً، فتفرَّقوا وانهزموا وتركوا لواءهم قائمًا)، فمنع المرتضى جيشه من ملاحقتهم، ودعاهم بحسب وصية رسول الله بالكلمة الطيِّبة إلى الإسلام فهداهم الله، واستجابوا لطلبه، وتقدَّم بعض رؤسائهم فبايعوه على مَن ورائهم من قومهم، وطلبوا منه أن يأخذ حقَّ الله من صدقاتهم. فجمع عليه السلام الغنائم فجزَّأها خمسة أقسام ثم أخرج منها سهم الخمس.

غير أن البلاذري في أنسابه ١/٤٩٢ ذكر أنه (لم يقاتله أحد، وأدُّوا إليه الصدقة)، وكذا قال الطبري في تاريخه ٣/ ١٣٢، وروى عن بن عازب، - الذي كان بمعيَّة خالد، وآثر الانتقال إلى جيش المرتضى - أنه قال: (فلمَّا انتهينا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فصلَّى بنا عليٌّ الفجر، فلمَّا فرغ صفَّنا صفًّا واحدًا ثم تقدَّم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمت همدان كلُّها في يوم واحد، وكتب المرتضى بذلك الفتح العظيم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا قرأ كتابه خرَّ ساجدًا، ثم جلس، فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»، ثمَّ

تتابع أهل اليمن على الإسلام)، ومرَّ علينا مثل هذا أيضًا عن ابن الأثير في كامله ٢/٣٠٠.

ويبدو مما ذكره الواقدي في مغازيه ١٠٨٣/٣ أن كعب الأحبار حينما سمع بوصول علي عليه السلام، جاء مع بعض أحبار يهود اليمن لسماع موفد نبيِّ الإسلام، فحضر خطبته، قال الواقدي: (.. قال كعب الأحبار: لَمّا قدِم علي عليه السلام اليمن، لقيته فقلت: أخبرني عن صفة محمد، فجعل يخبرني عنه، وجعلتُ أتبسَّم، فقال: ممَّ تتبسَّم؟ فقلت: مما يوافق ما عندنا من صفته. فقال: ما يُحِلُّ وما يُحَرِّم، فقلت: فهو عندنا كما وصفت! وصدَّقْتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمنت به، ودعوت مَن قِبلنا من أحبارنا، وأخْرجتُ إليهم سِفرًا فقلت: هذا كان أبي يختمه عليَّ ويقول: لا تفتحه حتى تسمع بنبي يخرج بيثرب، قال: فأقمت باليمن على إسلامي حتى تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، ويا ليت أني كنت تقدَّمت في الهجرة)، من هنا يبدو أن إسلام كعب كان على يدي المرتضى عليه السلام، إلاَّ أنه انحرف عنه من بعد، بل روى ابن أبي الحديد في نهجه ٢٩٣/٤ (أن عليًّا عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذَّاب)، إلا أن ابن الأثير ذكر في كامله ١٣٥/٣ (أنه أسلم أيَّام عمر).

بعث المرتضى إلى أهل نجران

وسبقت الإشارة إلى أنَّ الوفود بدأت تترى على النبيِّ الكريم خلال السنة التاسعة من الهجرة، وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم قد أرسل بعد عودته من الحديبية جملة من أصحابه إلى بعض نواحي اليمن وملوكهم وشيوخهم يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل المهاجر بن أبي أميَّة

المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري أحد ملوك اليمن، وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت، كما بعث غيرهما إلى بعض نواحي اليمن الأخرى للدعوة إلى الإسلام، وكتب رسائل كثيرة إلى أهل تلك الجهات ووجوه القوم فيها، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٠٢/٤،٢٩٢، وابن سعد في طبقاته ٣٢١/١–٣٥٩. وبدأت وفودهم تترى على النبيّ ذكر ابن سعد أربعة وأربعين وفدًا منهم.

وإذا ترجَّح بعث المرتضى إلى اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة، فيبدو أنَّ بعثه إلى نجران كان في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة، بعد سنة الوفود كما سمَّاها ابن هشام التي كانت في السنة التاسعة، ولا شك أنها بعد معاهدة الصلح التي كتبها الإمام بين يدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، وقد وثّق هذا البعث ابن هشام في سيرته ٤/ ٢٩٥، وابن سعد في طبقاته ١٦٩/٢، وابن الأثير في كامله ٣٠١/٢، وكانت الغاية منه جمع صدقات أهلها وجزيتهم، بعد عودة وفدهم الذي تعاهد مع رسول الله، كما سبق بيان ذلك، وذكر ابن هشام في سيرته ٢٩٢/٤ عن ابن إسحاق أيضًا أن النبيَّ (حينما بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى البلاد التي أوطأها الإسلام بعث علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم).

ويبدو أنَّ المرتضى عليه السلام توجَّه منها إلى مكّة، فقد روى ابن هشام في السيرة ١٦٨/٤ عن ابن سحاق إنه قال: (حدثني عبد الله بن أبي نجيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث عليًا رضي الله عنه إلى نجران، فلقيه بمكّة).

والظاهر أنَّ البعثة مرَّت بسلام، وحقَّقت أهدافها، ولم يحدث في أثنائها أو خلالها معكِّر يستدعي الذكر.

ويبدو أن أمراء الجيوش الذين كان يرسلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم في السرايا كانوا يقتطعون جزءًا من الخمس يقدِّمونه إلى بعض جنودهم، أو يوزعونه بينهم جميعًا، ثم يخبرون الرسول من بعد، ولكن المرتضى لم يأخذ بهذا الاجتهاد، فقد رأى أن الذي يحق له التصرُّف بتلك الأموال هو النبي، وليس غيره، يتولَّى توزيعها بنفسه وبمعرفته، وليس لأحد الحقَّ في التصرُّف بها في حياته، فلما طلب منه بعض من كان معه شيئًا من الخمس امتنع عليهم، وخبَّرهم أن أمر التصرُّف به لرسول الله وليس له، فقد ذكر الواقدي في مغازيه ١٠٨١/٣، أن الأمراء كانوا (يفعلون أمورًا، وينفِّلون من أرادوا من الخمس)، فترك ذلك في نفوس بعضهم أثرًا سيئًا دفعهم إلى الاتفاق على شكايته إلى النبي عند عودتهم.

وأرسل كتابًا إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم سبقت الإشارة إليه مع عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يخبره فيه بما كتب الله له من النصر بمهمَّته تلك، فأمره النبيُّ بموافاته بمكَّة في موسم الحجِّ، ولم يكتفِ المرتضى في أثناء عودته بما اتَّخذه من إجراء بشأن الأموال التي جاء بها، وإنما منع أصحابه ركوب إبل الصدقة أيضًا، وقد أثار هذا الأمر في نفوس بعضهم ما أثار.

وما إن قارب مكَّة حتى ترك أبا رافع على الجيش وتعجَّل إلى رسول الله محرِمًا بما أحرم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم كما أخبره عليه السلام.

أما أبو رافع فقد سمح للجيش بلبس بعض البرد التي كانت في الخمس بسبب إلحاحهم كما ذكر الواقدي في مغازيه ١٠٨١/٣، ولما عاد المرتضى إلى

أصحابه ووجدهم في تلك الثياب عاتب أبا رافع على سماحه لهم، وطلب منهم خلعها، وقد ترك هذا الأمر شرخًا آخر في نفوس بعضهم، دفعهم إلى القالة، وإظهار ما خفي من كراهيتهم له، ولعلَّ مبغضيه من طلقاء قريش وغيرهم، وجدوها فرصة لنهش لحمه عليه السلام، من دون أن يرتكب في حقِّهم أو حقِّ غيرهم أي شيء، قال الواقدي في مغازيه ١٠٨١/٣ : (فلمَّا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شَكَوا، فدعا عليًّا فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال: ما أشكيتهم؟ قسمت عليهم ما غَنِموا، وحبست الخمس حتى يقدم عليك وترى رأيك فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أمورًا، وينفِّلون من أرادوا من الخمس، فرأيت أن أحمله إليك لترى فيه رأيك. فسكت النبي صلى الله عليه وسلَّم)، وروى مثل هذا ابن هشام في سيرته ١٦٩/٤، وابن الأثير في كامله ٣٠١/٢، وذكرا أنه بسبب شكاية الجيش قام النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم خطيبًا فقال: « أيُّها الناس لا تشكوا عليًّا فوالله إنه لأخيشن في ذات الله وفي سبيل الله».

ويبدو أن من بين من شغب على المرتضى أيضًا عمرو بن شاس الأسلمي -وهو من أصحاب الحديبية - فقد روى أحمد في مسنده عنه أنه قال: (خرجت مع علي إلى اليمن، فجفاني في سفري، حتى وجدت في نفسي عليه، فلمَّا قدمت أظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله صلى الله عليه وسلَّم في ناس من أصحابه، فلمَّا رآني أبدَّني عينيه - يقول: حدَّد إلي النظر - حتى إذا جلسنا قال: «يا عمرو، والله لقد آذيتني»، قلت: أعوذ بالله أن أُوذِيَك يا رسول الله! قال: «بلى، من آذى عليًّا فقد آذاني»، ولا شك

أن جفوة عمرو ليس دافعها موقف خاصٌّ منه، فلابد أنه قد صدر منه ما دعاه إلى جفوته، وعلى الرغم مما سبَّبه من أذى للإمام عليه السلام فإنه لم يعتب عليه، ولم يكلّمه، كما لم يعتب على غيره، وليس في الرواية ما ينبئ أنه قد أخبر النبيَّ بموقف عمرو، ولكن الخبر شاع في المسجد فوصل إلى النبي، ويغلب على ظني أن ابن شاسٍ غير موقفه من الإمام بدليل روايته ذلك الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وهكذا اشترك ملأ آخر في كراهية أمير المؤمنين عليه السلام وبغضه لا لشيء إلاّ لأنه أراد إحقاق حقّ الله، فهو لم يميّز نفسه على أحدٍ، ولم يغتصب حقَّ أحدٍ، ولكنه في ذات الوقت لم يسمح لنفسه أو لغيره التصرُّف في حقوقٍ لا يحقُّ لأحد التصرف بها لأنَّ موارد إنفاقها معروفة لا تنطبق على من كان معه في غزوته تلك لذا قال النبيُّ في حقّه ما قال.

المتعة في حَجَّة الإسلام

(حَجَّة الوداع)

حجَّ النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حَجَّة واحدة بعد هجرته إلى المدينة، وذكر الطبري في تاريخه ٣٢/٣ من طبعة الأعلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام عن جابر (أن النبي حجَّ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر، وحجة بعدما هاجر معها عمرة).

وكان قبلها يضحي كل عام من دون حلاقة أو تقصير، واعتمر أربع عمر، أوَّلها عمرة الحديبية، التي نحر فيها ولم يدخل مكّة، وكانت في السنة السادسة للهجرة، ثم كانت عمرته الثانية التي سُمِّيت بعمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، واعتمر في سنة ثمان للهجرة، وسمِّيت بعمرة الجعرانة، أما الرابعة فكانت مع حجَّته، وكانت عمراته كلُّها في ذي القعدة كما ذكر ابن سعد في طبقاته ١٧٠/٢–١٧٢، وأشار الطبري في تاريخه ٣٢/٣ إلى مثل ذلك وخرج المسلمون رفقة أبي بكر في السنة التاسعة للهجرة وفيها نزلت سورة براءة كما سبق التنويه.

وفي شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة قرَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الحجّ، فخرج معه خلق كثير من المسلمين لا يحصيه إلا الله، وسُمِّيت حجَّته تلك بحجَّة الإسلام، لأن ابن عباس قال: (كُرِهَ أن يقالَ حَجَّة الوداع، فقيل: حَجَّة الإسلام).

وكتب رسول الله لأخيه المرتضى عليهما السلام كي يلتحق به في حجَّته تلك على الرغم من أنه كان في اليمن، ولا شكّ أن كثيرًا من فرائض الإسلام عامَّة ومناسك الحجّ خاصَّة أخذها المسلمون من بعد عن عليٍّ عليه السلام، فهو أعلم المسلمين بها، ومن بينها فرائض الحجّ، إذ رافق النبيّ في حجَّته تلك خطوة خطوة، وقام بتنفيذ جميع الفروض التي طلبها منه، وفي الوقت الذي لم يكتب الله تلك الحَجَّة لكثير من المسلمين الذين رافقوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلَّم بسبب عدم توفرهم على هَدْيٍ يضحُّون به، كتبها له عليه السلام فقد ألهمه الله سبحانه وتعلى أن يحرم بما أحرم به النبي المصطفى، من دون أن يعلم أن النبي طلب من أصحابه الإحلال بعمرة.

فيوم عاد من اليمن إلى مكّة بناء على طلبه صلوات الله وسلامه عليهما، وأصبح على مشارفها ألهمه الله فقال: (اللهم إنّي أُهِلُّ بما أهلَّ به نبيُّك وعبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم).

ودخل على بنت المصطفى التي رافقت أباها عليهم السلام، فوجدها قد أحلَّت وتهيَّأت، فما أن رآها حتى سألها عن سبب إحلالها، فقالت له: (إن رسول الله أمرنا أن نحلَّ في عمرة)، ثمَّ ذهب إلى أخيه المصطفى، وبعد أن حدَّثه بما حقَّقه في بعثه، قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «انطلق فطف بالبيت وحلَّ كما حلَّ أصحابك»، فقال له عليه السلام: (إني أهللت)، فلما كرر عليه المصطفى القول، قال: (إني قلت حين أحرمت: اللهم إني أهلُّ بما أهلَّ به نبيُّك وعبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلَّم)، فقال النبي: «فهل معك هدي؟» قال: لا، فأشركه النبي بهديه وثبت على إحرامه، وحجَّ معه، وقد ذكر كلَّ هذا ابن هشام في سيرته ٤/٢٩٥–١٩٦، كما ذكره غيره

من أصحاب السير والحديث والتاريخ كابن كثير في البداية والنهاية ٣١٩/٥ الذي قال: ثم وافى رسول الله صلوات الله عليه في (عام الوداع إلى مكّة، وساق معه هديًا، وأهلَّ كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم، فأشركه في هديه، واستمرَّ على إحرامه، ونحرا هديهما).

ورواية ابن كثير السابقة الذكر التي جاء فيها (وساق معه هديًا)، قد توقع القارئ باللبس، إذ قد يفهم منها أن المرتضى ساق هديًا خاصًّا به، وواقع الروايات أن الهدي الذي ساقه هو الهدي الذي جلبه من اليمن وساقه لرسول الله، فجمع مع الهدي الذي ساقه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم، وفي يوم النحر اشترك معه في نحره، كما سيتبيَّن لك من بعد، ولابد أن نتساءل لماذا أشركه النبيُّ في هديه، وكيف لا يكون مع المرتضى عليه السلام هدي، وقد عاد لتوِّه من اليمن، ومن الطبيعي أنه قد غنم في الأقل من سريَّته تلك مثلما غنم أصحابه، إذ سبق أن ذكرنا قول الواقدي في مغازيه ١٠٨١/٢ :(فلمَّا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلَّم شكَوا، فدعا عليًّا فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال: ما أشكيتهم؟ قسمت عليهم ما غَنِموا)، ولا شكَّ أن ما غنمه يتجاوز قيمة الهدي بكثير، فأين ذهب ما غنمه؟ لا أشكُّ في أنه عليه السلام لم يستطع إمساكه، كما لم يستطع من بعد ومن قبل الإمساك بمال، فما أكثر المحتاجين الذين التقاهم وهو في طريقه للقاء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم في بيت الله، لقد آثرهم على نفسه وعياله، وعاد من حيث أتى صفر اليدين، عاد وقد كسب من بعد عزَّ الدنيا ونعيم الآخرة.

وجمع النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم الهدي الذي جاء به المرتضى من اليمن إلى الهدي الذي جاء به من المدينة فبلغ مائة، فنحر ثلاثين منها، وقيل:

ثلاثًا وستين، ونحر المرتضى الباقي منها، ثم أمر بأخذ قطعة من لحم كل تلك الذبائح، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها، وقسَّم المرتضى لحومها بين الناس كما قام بتوزيع جلودها وجلالها، بأمره صلوات الله عليهما، ولم يعط جازرًا منها شيئًا، إذ قال له المصطفى: «نحن نعطيه من عندنا».

ويبدو أن النبي طلب من أخيه المرتضى أيضًا أن يضحي بكبشين، واحد عنه صلى الله عليه وآله وسلّم، والآخر عنه عليه السلام، ومازال الإمام ينحر كبشين كلَّ عام في موسم الحجِّ إلى أن رحل إلى جوار أخيه، وقد سئل عن ذلك فقال: (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن أضحِّي عنه فأنا أُضحي عنه أبدًا)، وقد رواه أحمد في فضائل أمير المؤمنين ٤١٥ برقم ٣١٨، وورد أيضًا بمعناه وبمناسبته في موضع آخر من الفضائل برقم ٣٢٤ والسائل فيه حنش الذي قال رأيت عليًّا عليه السلام يضحي بكبشين، فقلت ما هذا؟ فقال: (أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن أضحي عنه).

وقد خطب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه غير خطبة في حجَّته المباركة تلك، إحداها بمنى، رجَّح الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٣/ ٦٠٩ -٦١٢ أن حديث الثقلين قاله صلوات الله عليه في خطبته تلك، ثمَّ ذكرها وذكر حديث الثقلين من ضمنها، وأشار في هامشه إلى أن الخطبة رواها الواقدي في مغازيه ٣/١١١٠ -١١١٣ بسندين، الأول: عن عمرو بن اليثربي، والثاني: عن ابن عباس، ولكنَّه لم يذكر حديث الثقلين فيها، ومثله فعل ابن هشام في سيرته ٤/٢٩٧ -٢٩٨، على الرغم من شهرته.

أما اليعقوبي في تاريخه ١/٤٣٩ -٤٤٢ فقد تحدَّث عن تلك الحَجَّة أيضًا، وذكر أنَّ النبيَّ خطب فيها غير خطبة، إحداها (قبل التروية بيوم بعد الظهر في

يوم عرفة، حين زالت الشمس على راحلته قبل الصلاة من غد يوم منى، فقال في خطبته: «نَضَّرَ الله وجهَ عبدٍ سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم بلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة الحق، واللزوم لجماعة المؤمنين، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم»)، ويبدو أنه صلوات الله وسلامه عليه بعد أن انتهى من خطبته قدمت البدن بين يديه فنحر على ما ذكر اليعقوبي ستين بدنة، أو أربعًا وستين، وترك بقيتها لعليٍّ لينحرها، ثم أخذ من كلٍّ ناقة قطعة من لحم فطبخت بماء وملح، وأكلا صلوات الله وسلامه عليهما.

وذكر اليعقوبي في المصدر السابق ١/ ٤٣٩ أيضًا أن النبيَّ بعد رميه جمرة العقبة عاد إلى البيت فطاف فيه قبل الصلاة، فلما انتهى منه، وقف عند زمزم وخطب خطبة حجَّة الوداع الشهيرة وقد تضمَّنت حديث الثقلين، قال بسنده: (وأمر ربيعة بن أمية بن خلف فوقف راحلته، وكان صبيا، فقال: «يا ربيعة! قل يا أيها الناس إن رسول الله يقول: لعلكم لا تلقونني على مثل عامي هذه وعليكم هذا. هل تدرون أي بلد هذا ؟ وهل تدرون أي شهر هذا؟ وهل تدرون أي يوم هذا؟» فقال الناس: نعم هذا البلد الحرام والشهر الحرام واليوم الحرام!. قال: «فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة يومكم هذا. ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «واتقوا الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها». ثم قال: «الناس في الإسلام سواء، الناس طف الصاع لآدم وحواء لا فضل عربي على عجمي

ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد». ثم قال: « لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم ، فأقول للناس هكذا، ولكم هكذا، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد. ثم قال: «كل دم كان في الجاهلية موضوع تحت قدمي، وأول دم أضعه دم آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان آدم بن ربيعة مسترضعا في هذيل، فقتله بنو سعد بن بكر، وقيل في بني ليث، فقتلته هذيل، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «وكل ربا كان في الجاهلية موضوع تحت قدمي، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «يا أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله منها أربعة حرم: رجب الذي بين جمادى وشعبان يدعونه مضر، وثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «أوصيكم بالنساء خيرا ، فإنما هن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكتاب الله ، ولكم عليهن حق، ولهن عليكم حق كسوتهن ورزقهن بالمعروف، ولكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحدا، ولا يأذن في بيوتكم إلا بعلمكم وإذنكم، فإن فعلن شيئا من ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «فأوصيكم بمن ملكت أيمانكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن أذنبوا فكلوا عقوباتهم

إلى شراركم ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم. قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «إن المسلم أخو المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه ولا يحل له دمه ولا شئ من ماله إلا بطيبة نفسه ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم! قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بعد اليوم ، ولكن يطاع في ما سوى ذلك من أعمالكم التي تحتقرون ، فقد رضي به ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم! قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «أعدى الأعداء على الله قاتل غير قاتله وضارب غير ضاربه ، ومن كفر نعمة مواليه فقد كفر بما أنزل الله على محمد ، ومن انتمى إلى غير أبيه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم! قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «ألا إني إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وإني رسول الله ، وإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق ، وحسابهم على الله ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم! قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «لا ترجعوا بعدي كفارا مضلين يملك بعضكم رقاب بعض ، إني قد خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ألا هل بلغت»؟ قالوا : نعم! قال : «اللهم اشهد». ثم قال : «إنكم مسؤولون فليبلغ الشاهد منكم الغائب»).

ويلاحظ أن البلاغ بمنزلة عترته عليهم السلام لم يكن في أثناء خطبته صلى الله عليه وآله وسلّم ، ولا في بدايتها ، وإنما كان بعد أن تمكن من أسماعهم في ذلك الجمع الغفير ، وبعد أن انتهى من وصاياه ، وهي بمجملها ، وبما ترتَّب عليها تمثل عيون القيم الإسلاميَّة ، ولابد للمسلمين من مرجع بعد رحيله صلوات الله وسلامه عليه ، يبين لهم ما انبهم عليهم من أمور دينهم ، فبيَّن

لهم في نهايتها المرجع الذي يرجعون إليه ويتمسكون به ، وهو كتاب الله وأهل بيته عليهم السلام ، وليس بخاف عليك أنَّ إمام أهل بيته هو المرتضى عليه السلام كما سيتبين لك من بعد.

وسام الولاية وحديث الثقلين

«من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»

لم يقم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بمكّة بعد أن انتهى من فروض الحجّ، وبعد أن بلّغ بخطبته سالفة الذكر ما أراد تبليغه يوم نزول آية التبليغ، وعلى الرغم من اقتراح بعض الصحابة عليه بالبقاء بضعة أيّام إلاّ أنّه آثر الرحيل، وقال على ما ذكر اليعقوبي: « ما كنت لأنزل بلدا أخرجت منه »، وذكر في تاريخه ٢/ ١١٢ أيضًا أنّه خرج من مكّة إلى المدينة ليلاً (فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم، لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وقام خطيبا وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «فمن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ثم قال: «أيها الناس أني فرطكم وأنتم واردي على الحوض، وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ «قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تضلوا، ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي») .

ووسام الولاية وحديث الثقلين من أشهر أوسمة الإمام عليه السلام، وأكثرها جدلاً واختلاف وجهة نظر بين الفرق الإسلاميّة، وهو حديث الغدير المشهور السابق الذكر، وقد ذكر كاظم عبود الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى ٣٨٧–٣٩٩ عشرات المصادر التي خرّجته، كما

ذكر المؤلفات التي اختصَّت به، ولعلَّ في مقدِّمتها كتاب الغدير في الكتاب والسنَّة والأدب لعبد الحسين الأميني الذي طبع غير مرَّة في أحد عشر جزءًا ضخمًا، وكتاب حديث الثقلين الذي نشرته دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة الذي سبق ذكره، واكتفى فؤاد عبد الباقي في كتابه مناقب علي ٢٦–٣٢ بتخريج روايات أحمد للحديث في مسنده.

وخرَّجه من غير مصدر وناقشه مناقشة مطولة محمد تقي الحكيم في كتابه الأصول العامة للفقه المقارن ١٦٤–١٨٩، وأشار إلى أنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قاله في غير مناسبة، وهو عن الرضا عليه السلام في صحيفته ٥٩.

وذهبت بعض الروايات إلى أن الثَّقلين هما «كتاب الله وسنَّتي»، فخصَّ السيِّد علي الميلاني هذه الروايات برسالة من رسائله التي نشرها في كتابه الموسوم بالرسائل العشر، وعنوانها فيه (خبر الثقلين «كتاب الله وسنَّتي»)، فناقشه مناقشة علميَّة وافية، ونظر في أسانيده، وأثبت بطلانها.

ونشر أيضًا كتابًا بعنوان حديث الولاية، نشره ملحقًا بالجزء السادس عشر من كتاب نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار في الرد على التحفة الأثني عشرية وذكر في الصفحات ١١ -١٣١ أربعة وتسعين راويًا للحديث في كتب أصحاب الحديث، ثم ذكر أسانيده الصحيحة في تسعة من كتب أصحاب الحديث.

ثم وقف وقفة مطولة على الحديث برواية ابن عباس عند مشاهير أئمة أهل السنة فتابعه عندهم من منتصف القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن التاسع الهجري منه، ثم انتقل من بعد إلى حديث عن دلالته على العصمة، وعلى الولاية، ثم ناقش آراء بعض المحدِّثين في معنى (وليُّكم)، التي ذهبت

إلى أن معناها، ناصركم أو محبكم، فناقش تلك الحجج، واستدلّ على بطلانها.

وأسهب الحافظ ابن عساكر في ذكر روايات حديث الغدير، فذكر له خمسًا وثلاثين رواية عن كبار الصحابة، بل ذكر غالبيَّة الروايات المبثوثة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وقد استغرقت رواياته بتاريخه الصفحات ٥-٩٧ من الجزء الثاني الخاص ترجمته عليه السلام، والروايات فيه عن زيد بن أرقم، وعامر بن واثلة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعميرة بن سعد، وعمر ذي مر، وسعيد بن وَهب، وزيد بن يثيع، وحذيفة بن أسيد، والبراء بن عازب، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وجرير بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن أبي أوفى، وغيرهم كثير. ومن بين رواياته رواية جاءت في ٨٢/٢ عن سالم بن أبي الجعد الذي قال: (قيل لعمر: إنك تصنع بعلي شيئًا لا تصنعه بأحدٍ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم! قال: إنه مولاي)، وأخرى عن أبي سعيد الخدري في ٨٦/٢ الذي قال: (لما نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا بغدير خمٌ فنادى له بالولاية، هبط جبريل عليه السلام عليه بهذه الآية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ !!

وحديثا الولاية والثقلين على ما هو مشهور قالهما النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم في غير مناسبة، ولكنَّ أشهر مناسباتهما كانت أثناء خطبته بغدير خمٌّ، وقد ذكرته أمّة من المحدّثين والمؤرخين، منهم أحمد في فضائل أمير

المؤمنين ١٦٠ برقم ١١٤ وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إنِّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا بعدي: الثقلين؛ واحد منهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ألا وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» قال ابن نمير: قال بعض أصحابنا عن الأعمش قال: « انظروا كيف تخلفوني فيهما»).

والحديث أيضًا في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢١٢ برقم ١٥٦ عن زيد بن ثابت، وكان محمَّد الإستنبولي قد أصدر كتابًا بعنوان التزكية الإلهيَّة في الثقلين، شرفت بالتقديم له، وخرَّج الحديث كاظم عبود الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى ٢٠٨–٢١٤ برواية فيه عن زيد بن ثابت الذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إني تارك فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»، وقال: (هذا الحديث الشريف تكرر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أكثر من مرَّة)، وخرَّجه من مائة وتسعة وعشرين مصدرًا.

وقد بيَّنَّا أن حديث الولاية قاله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم حينما كان المرتضى في اليمن، يوم اشتكاه نفر من الصَّحابة، كما قاله من قبل بعد إنذار عشيرته صلوات الله وسلامه عليه.

أما أشهر مناسباته فكانت في غدير خمٍّ، وذكره محمد تقي الحكيم أيضًا في غير موضع من كتابه عبد الله بن عباس، وكان السيد عبد الحسين شرف الدين قد خرَّجه من مصادر عدَّة وناقشه بإسهاب في كتابه المراجعات ١٥٦–٢٤٥ بدءًا من المراجعة الأربعين وما بعدها.

واعتمد السيِّد عبد الحسين في كتابه السابق الذكر ١٧٩-١٨١ على رواية الطبراني وغيره، وذكر في حاشية الصحيفة ١٨١ (هذا لفظ الحديث عند الطبراني وابن جرير والحكيم الترمذي عن زيد بن أرقم، وقد نقله ابن حجر عن الطبراني وغيره باللفظ الذي سمعته، وأرسل صحّته إرسال المسلّمات) قال: (أخرج الطبراني وغيره بسند مجمع على صحّته عن زيد بن أرقم، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغدير خُمٍّ تحت شجرات، فقال: «أيها الناس يُوشَكُ أن أدعَى فأُجيب، وإني مسؤول، وإنكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيرًا، فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأن جنَّته حق، وأن ناره حقٌّ، وأنَّ الموت حقٌّ، وأن البعث حقٌّ بعد الموت، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد».

ثمَّ قال: «يا أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا مولاه - يعني عليًّا - اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه»، ثم قال: «يا أيها الناس إني فرطُكم، وإنكم واردون عليَّ الحوض؛ حوض مما بين بصرى إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فِضَّة، وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثَّقلين، كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عزَّ وجل، سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلُّوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنه قد أنبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليَّ الحوض»)، وروايته التي ذكرها هي عين إحدى روايات ابن كثير في كتابه

البداية والنهاية ٤٦٣/٥ التي سنأتي على ذكرها ثانية والتعليق على موقفه من حديث الغدير.

وذكر السيد عبد الحسين أيضًا أربعين رواية للحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام، وذكر أيضًا أن سبب الخطبة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ التي نزلت يوم غدير خُمٍّ في عليّ بن أبي طالب كما ذكر الواحدي في كتابه أسباب النزول وغيره، وحينما خطب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خطبته المذكورة أنزل الله عليه قوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾.

وذكر الشيخ اليوسفي في موسوعته ٦١٩/٣–٦٢٣ غير رواية بشأن زمان نزول آية التبليغ ومكانها، بعضها يذهب إلى نزولها على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عشيَّة عرفة، وفلم يبلِّغ لخوفه من تكذيب أهل الإفك، وبعضها يذهب إلى نزولها بمنى وبعضها يذهب إلى نزولها بغدير خمٍّ، وتحدَّث أيضًا حديثًا مفصَّلاً في ما ورد فيها من روايات، كما تحدَّث حديثًا مطولاً في موسوعته ٣/ ٦١٨–٦٣٨ بشأن توثيق حديث الغدير من طريق علماء أهل البيت خاصَّة. وبهامش تلك الصفحات تحقيقات مهمَّة يمكن العودة إليها لمن رغب في الاستزادة.

ولست بصدد توثيق الحديث أو مناقشته لتغيير ما يراه الآخر بما جاء فيه بحقِّ عليٍّ وأهل بيت النبُوَّة عليهم السلام، فقد ناقشته أمَّة من المسلمين قديمًا وحديثًا، من الذين جاهدوا في لي المعنى كي يستقيم مع رؤيتهم التي لا علاقة لها بمعنى الحديث من قريب أو بعيد، أو من علماء أهل البيت وغيرهم ممن دفع تلك الحجج، لوضوحه وضوح الشمس فلا ينفع معه ليٌّ ولا تحوير.

وكان حديث الغدير - كما ذكر السيد عبد الحسين شرف الدين في مراجعته السادسة والخمسين ١٨٤ -١٩٢ - محلَّ عناية الله عز وجل ورسوله، كما كان محلَّ عناية أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، بالإضافة إلى تواتره من طريق جمهور المحدِّثين.

وبسببٍ من أهميَّته، وخطورته في التاريخ الإسلامي رأيت أن أنظره في المصادر التي أتيح لي الوقوف عليها، ليس لتوثيق ما لا خلاف عليه عند غير المتعصِّبين من المسلمين، وإنما لأن مجريات الحديث عن سيرة أبي السبطين عليه السلام تستدعي الوقوف على تلك الخطبة.

ذكر البلاذري في أنسابه ٣٥٦/٢ عن أبي هريرة قال: (نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بغدير خم وهو قائم يخطب وعليٌّ جنبه فأخذ بيده فأقامه وقال: «من كنت مولاه فهذا مولاه» وذكره أحمد في مسنده بطرق مختلفة برقم ٢٧٢ز عن عبد الرحمن بن أبي ليلى وتابعه في هذا الطريق ابن الأثير في أسده ٦٠٤/٣ قال: (شهدت عليًّا رضي الله عنه في الرحبة ينشد الناس أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول يوم غدير خم من كنت مولاه لما قام فشهد، قال عبد الرحمن فقام اثنا عشر بدريًّا كأني أنظر إلى أحدهم فقالوا نشهد أنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجي أمهاتهم؟ فقلنا بلى يا رسول الله قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، وذكر ابن الأثير في أسده ٦٠٥/٣ أن البراء بن عازب روى مثل هذا وزاد: (فقال عمر بن الخطاب: يا ابن أبي طالب أصبحت اليوم ولي كل مؤمن)، وحديث البراء رواه أيضًا البلاذري في أنسابه ٣٥٦/٢ وفيه: (لما أقبلنا مع

النبي صلى الله عليه وسلّم في حجته فكنا بغدير خم نودي إن الصلاة جامعة، وكسح للنبي صلى الله عليه وسلّم تحت شجرتين فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: « أيها الناس أولست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ » قالوا بلى. قال: « أوليس أزواجي أمهاتهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: « هذا ولي من أنا مولاه؛ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ورواه البلاذري في أنسابه ٢ /٣٥٦ أيضًا عن عدي بن ثابت عن البراء، وعن زيد بن أرقم وعن بريدة بن الخصيب، وعن أبي سعيد الخدري، ورواه أحمد برقم ٢٧٧ز عن عبد الرحمن بن أبي ليلى من طريق آخر قال: (شهدت عليًا رضي الله عنه في الرحبة أنشد الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ وشهده يوم غدير خم ولا يقوم إلاّ من قد رآه، فقام اثنا عشر رجلاً فقالوا سمعناه حيث أخذ بيده يقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، فقام إلاّ ثلاثة لم يقوموا فدعا عليهم فأصابتهم دعوته)، ورواه برقم ٢٧٩ز عن سعيد بن وهب وعن زيد بن يثيع قالا: (نشد علي الناس... الحديث.، وبرقم ٢٨٠ عن سعيد بن وهب قال: نشد علي الناس فقام خمسة أو ستة من أصحاب النبي ﷺ فشهدوا ... الحديث). ورواه برقم ٢٧٤ عن زيد بن أرقم، وذكر عن زيد بن أرقم من طريق آخر ... الحديث قال: (فقام ستة عشر رجلاً فشهدوا)، ويبدو أنه سأل رجلاً من الصحابة عن الحديث كما جاء في كتاب فضائله عليه السلام ٥١ برقم ٢٣ فكذّبه فقال له علي: (إنك قد كذّبتني فقال ما كذّبتك، قال: فأدعو الله عليك إن كنت قد كذّبتني أن يعمي الله بصرك. قال: فدعا الله أن يعميه فعمى). وروى البلاذري في أنسابه ٢ /٣٨٦ الحديث من طريق شقيق بن سلمة قال: (قال علي على المنبر: نشدت الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ

يقول يوم غدير خم « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» إلا قام فشهد، وتحت المنبر أنس بن مالك والبراء بن عازب وجرير بن عبد الله، فأعاده فلم يجبه أحد فقال: اللهم من كتم هذه الشهادة وهو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها قال: فبرص أنس، وعمي البراء، ورجع جرير أعرابيًّا بعد هجرته؛ فأتى السراة فمات في بيت أمه بالسراة).

وروى أحمد برقم ٢٧٥ عن رياح بن الحارث وهو في فضائله ١٢٩ برقم ٩١ قال: (جاء رهط إلى علي بالرحبة فقالوا السلام عليك يا مولانا. قال: كيف أكون مولاكم، وأنتم قوم عرب؟ فقالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم يقول من كنت مولاه فإن هذا مولاه، قال رياح: فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري). وروى أحمد من طريق آخر عن رياح قال: (رأيت قومًا من الأنصار قدموا على علي في الرحبة فقال: من القوم ؟ قال: مواليك يا أمير المؤمنين فذكر معناه).

وروى برقم ٢٧٨ عن ذازان بن عمر قال (سمعت عليًّا ..الحديث فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا)، وورد في كتاب فضائله لأحمد ١٨٩ برقم ١٤٠ أيضًا عن البراء بن عازب، وفيه: (فلقيه عمر بعد ذلك فقال: هنيئًا لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة).

أما الترمذي فقد حدَّث في سننه برقم ٣٧٩٧ عن حذيفة بن أسيد صاحب رسول الله أو عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم قال: (من كنت مولاه فعلي مولاه). وروى في سنن ابن ماجة

٨٢/١ برقم ١١٥/٢ أن البراء بن عازب قال: (أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حجته التي حجّ، فنزل في بعض الطريق، فأمر الصلاة جامعة، فأخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال: « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى. قال: « ألست أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى. قال: « فهذا وليٌّ من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»).

وذكر ابن عبد البر في استيعابه ١٠٩٩/٣ أن (بريدة، وأبو هريرة، وجابر، والبراء بن عازب وزيد بن أرقم، كل واحد منهم عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال يوم غدير خم: « من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه » وبعضهم لا يزيد على « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه »)، وانظر أيضًا مناقب أمير المؤمنين لأحمد ١٦٣ برقم ١١٦ والمطالب العالية ٦٠/٤ برقم ٢٩٥٧ عن جابر، وفيه (كنا بالجُحفة بغدير خُم، إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد علي فقال: « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»)، وذكر رواية أخرى برقم ٣٩٥٨ عن يزيد الأودي قال: (دخل أبو هريرة المسجد فاجتمع إليه الناس فقام إليه شاب فقال: أنشدك بالله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه؟» قال: اللهم نعم)!

ومن طريف ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/ ٢٨٦ عن شيخه أبي جعفر الإسكافي عن سفيان الثوري بسنده عن عمر بن عبد الغفّار قال: (إن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية، كان يجلس بالعشيّات بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاء شابٌّ من الكوفة فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشد الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب: « اللهمّ وال

من والاه وعاد من عاداه!»، فقال: اللهمَّ نعم، قال: فأشهد بالله، لقد واليت عدوَّه، وعاديت وليَّه، ثمَّ قام عنه).

أما الذهبي في تاريخ الإسلام عهد الراشدين ٦٢٨ فقد رواه من طريق إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، وقال: إبراهيم هذا قال النسائي: ضعيف، ولكن محقق كتاب الذهبي الدكتور عمر عبد السلام قال في الحاشية: (أخرجه ابن ماجة في المقدمة ١١٦ من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب، وأحمد في المسند ١/١٥٢، ١١٩، ١١٨، ٤/ ٢٨١، ٣٦٨ ، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٥/ ٣٧٠ بأسانيد مختلفة، وابن المغازلي في مناقب أمير المؤمنين علي ص٣١ رقم ٢٣ و ٢٦ و٢٧)، وورود سند فيه شخصية ضعيفة لا يقلل من مصداقيَّة الحديث إذا كان مرويًا بطرق مختلفة، ولا أشهر من هذا الحديث في كتب المسلمين.

وعاد الذهبي فقال في عهده ٦٢٩: إن زيد بن أرقم قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»)، ورواه أيضًا في الصفحة نفسها عن بريدة (من كنت وليَّه فعليٌّ وليُّه)، وذكره في ٦٣١–٦٣٣ من طرق أخرى، من طريق فطر بن خليفة، عن أبي الطفيل، قال: (جمع علي النَّاس في الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كلَّ امرئ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام، فقام ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للناس: «أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: نعم يا رسول الله، «قال: ... الحديث»، ثم قال لي زيد بن أرقم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك)، ورواه في ٦٣٢ عن (شعبة عن سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا طفيل يحدث عن أبي سُريحة، أو زيد بن أرقم - شك

شعبة -..... الحديث) وقال: حسَّنه الترمذي، ولم يصححه لأن شعبة رواه عن ميمون أبي عبد الله، عن زيد بن أرقم نحوه، والظاهر أنه عند شعبة من طريقَين، والأول رواه بندار، عن غُنْدر، عنه)، ورواه أيضًا بروايتين أخريين، وقال: (ورواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة علي يصدِّق بعضها بعضًا).

وذكر الذهبي أيضًا في ٦٣٢-٦٣٣ (قال حمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، وأبي هارون، عن عدي بن ثابت، عن البراء قال: كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين، ونودي في النَّاس: الصلاة جامعة، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم عليًّا فأخذ بيده، وأقامه عن يمينه، فقال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا بلى، فقال: فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئًا لك يا علي، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة)، ثم قال: (ورواه عبد الرزاق، عن معمر عن علي بن زيد)، وذكر محقق الكتاب في الحاشية: (أخرجه ابن ماجة في المقدمة ١١٦، وليس فيه قول عمر رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٤م٢٨١ وفيه الحديث بنصِّه كاملاً).

وحدَّث مسلم في صحيحه برقم ٢٤٠٨ عن زيد بن أرقم قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خُمًّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكَّر ثم قال: « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربِّي فأجيب، وأنا تارك ثَقَلَين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»)، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟

قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصَّدقةَ بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .قال: كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم)، وللحديث فيه طرق رواية أخرى لا تخرج عن الرواية السابقة، إلا أن فيه (فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيمُ الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثمَّ يطلّقها فترجِعُ إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده)، ولسنا بصدد ما زعم من أن زيد قال إن أهل بيت النبي هم (آل عليٍّ وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس)، لأنَّ أهل بيته صلى الله عليه وآله وسلّم حدَّدهم صلوات الله وسلامه عليه يوم خرج لملاعنة وفد نجران، كما حدَّدتهم آية التطهير.

وللحديث رواية في مطالب بن حجر ٦٥/٤ برقم ٣٩٧٢ هي: (أن النبي صلى الله عليه وسلم حضر الشجرة بخم، ثم خرج آخذا بيد علي فقال: «ألستم تشهدون أن الله ورسوله أولى بكم من أنفسكم، وأن الله ورسوله مولاكم؟» فقالوا بلى! قال: « فمن كان الله ورسوله مولاه فإن هذا مولاه، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتابَ الله سببه بيده، وسببه بأيديكم، وأهل بيتي»)، وعلق ابن حجر بقوله: هذا إسناد صحيح، وله سند آخر فيه برقم ٣٩٧٣ .

ولعلَّ من الأمور التي تستدعي التنويه موقف ابن كثير من الأحاديث الواردة في حقِّ المرتضى، فعلى الرغم من وقوفه موقفًا سلبيًّا من كثير من الأحاديث الموثّقة التي قالها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في حقِّ عليٍّ عليه السلام في كتابه البداية والنهاية ٣١٦/٥–٣١٩ واتَّهم رواتها، ونسبها إلى (ما يفتريه كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء من

أنه أوصى إلى علي بالخلافة فكذب وبهت وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير..)، ومن مثل قوله في الصحيفة نفسها: (وقد وردت أحاديث في ذلك لا يصح شيء منها بل أكثرها من وضع الروافض والقصّاص)، ومن مثل ما أورده من اتهام أو تكذيب في ٥/٤٤٣–٤٤٥ وغيرها من المواضع.

ولكنَّه وقف مع أحاديث أخر كثيرة موقف الموثّق المستقصي، فهو يذكرها ويذكر طرقها، وقد يستغرق توثيق الحديث الواحد صفحات عدّة فيه، ولك أن تنظر على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره في كتابه السابق الذكر ٥/٤٤٧–٤٧٨.

ومن الأحاديث التي وقف معها موقفًا مطوّلاً لتوثيقها حديثا الثقلين والولاية خاصَّة، إذ استغرقا الصفحات ٥/٤٥٧–٤٦٤ من كتابه، ولعلّه من القلائل الذين ذكروا جزءًا كبيرًا من خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في غدير خمٍّ، قال في ٥/٤٦٣: (وقد رواه معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال: لما قفل رسول الله من حجّة الوداع نهى أصحابه عن شجرات بالبطحاء متقاربات أن ينزلوا حولهنّ، ثم بعث إليهنَّ -كذا، ولعلَّ المراد: ثم بعث من يزيل ما تحتهن من شوك وحجارة - فصلّى تحتهنَّ ثم قام فقال: «أيها الناس قد نبَّأني اللطيف الخبير أنه لم يعمَّر نبيٌّ إلاَّ مثل نِصْفِ عمر الذي قبله، وإني لأظنُّ أن يوشِكُ أن أدعَى فأُجيب، وإنّي مسؤولٌ وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحتوجهدت فجزاك الله خيرًا، قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ جنَّتَهُ حَقٌّ وأنَّ نارَه حقٌّ، وأنَّ الموت حقٌّ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعثُ من في القبور؟» قالوا: بلى نشهدُ بذلك، قال:

«اللهمَ اشهدْ». ثم قال: «يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه»، ثم قال: «أيها الناس إني فَرَطُكُم وإنكم واردون عَلَى الحوض حَوْضٌ أعرض مما بين بصرى وصنعاء فيه آنية عدد النجوم قدحان من فِضَّةٍ، وإني سائِلكم حين تردون عليَّ عن الثَّقلين فانظروا كيف تَخْلِفوني فيهما؟ الثَّقَلُ الأكبر كتاب الله سببٌ طَرَفُهُ بيد الله وطرفٌ بأيدكم فاستمسكوا به لا تَضِلُّوا ولا تُبَدِّلُوا، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبَّأني اللطيف الخبير أنَّهما لن يفترِقا حتَّى يردا عليَّ الحوض»)، وقال: رواه ابن عساكر بطوله من طريق معروف كما ذكرنا، والخطبة في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٢/٤٥-٤٦، ولعلَّ ابن كثير من القلائل بين المحدّثين والمؤرخين الذي وثَّق الحديث من طرقه المختلفة في كتب الصحاح وغيرها.

ومن الجدير ذكره الذي أختم به هذا المبحث ما رواه أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٣٦ برقم ٢٥٣ بسنده عن السدِّي عن أبي صالح الذي قال: (لمَّا حضرت عبد الله بن عباس الوفاة قال: اللهمَّ إني أتقرَّبُ إليك بولاية علي بن أبي طالب).

من أوسمة الإمام

حقٌّ لجمهور من أهل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وصحابته وأنصاره رضوان الله عليهم أن يقلّدهم الرسول الكريم أوسمة المجد والفخار بسبب أدوارهم الخالدة في تثبيت دعائم الإسلام، بعد دفاعهم عنه بأموالهم ومهجهم، سواء أكان ذلك يوم كان الإسلام في مهده وليدًا لا يقوى على الحركة بسبب الشرِّ الذي أحاط به، وأراد بكلِّ حقده أن يطفئ نوره، أو بعد أن شبَّ وأصبح دعوة لابد لنشرها من تضحية وفداء، ولولا صدق إيمان تلك الصفوة وجهادها بأنفسها وأموالها وقوة سواعدها وتأثيرها لما كتب له الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها، فأصبح عقيدة مليار ونصف من بني البشر انتشروا في جميع أرجاء الأرض.

ولقد ألّف عدد غير قليل من المؤرخين والمحدِّثين وأصحاب السير والطبقات مؤلفات عدّة في فضائل صحابته، فذكروا أوسمتهم وتحدَّثوا عن أمجادهم وجهادهم بين يدي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم.

إلاّ أن ذلك الجمع المبارك تفاوت بالفضل، كلٌّ بحسب سابقته، وجهاده، وقدرته على البذل والعطاء، وسيطرته على نوازع النفس، وعمق إيمانه، وفهمه أبعاد الرسالة المحمدية، في حياة النبيِّ وبعد رحيله صلى الله عليه وآله وسلّم، وعلى أساس هذا التفاوت بلغ بعضهم ذرى المجد في الدارين، فكانت لهم مكانتهم الخاصة في نفوس المسلمين على مرِّ حقب التاريخ، كما شرَّفهم الله بدرجة عالية في جنان الخلد، فرحمهم

الله ورضي عنهم، وأثابهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أفضل الجزاء.

ولا يستطيع أحد من الهاشميين أو القرشيين أو الصَّحابة أو الأنصار أو غيرهم من المسلمين الادّعاء أنه ماثل ربيب الوحي وإمام المتقين أو قاربه بما نال من أوسمة الفخار في كتاب الله المحكم، أو على لسان رسوله الكريم، وما نالها عليه السلام بسبب قرابة أو محبَّة أو إثرة، وإن كانت، وإنما باستحقاق لأن الله سبحانه وتعالى أمر بها لدوره العظيم في حياة الرسول أو بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلّم، ويكفيه من مجد أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه بسدِّ جميع الأبواب الشارعة على مسجده إلا باب عليٍّ إذ قال لصحابته بعد أن وصله همسهم: «إني والله ما سددت شيئًا ولا فتحته وإنما أمرت بشيء فاتَّبعته» وأمره سبحانه وتعالى أن ينتجيه يوم الطائف فقد ذكر الترمذي في سننه برقم ٣٨١٠ عن جابر قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليًّا يوم الطّائفِ فانتجاه فقال الناس: لقد أطال نجواه مع ابن عمِّهِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما انتجيته ولكنَّ الله انتجاه)، وفسَّر الترمذي قوله: ولكن الله انتجاه، بقوله: إن الله أمرني أن أنتجي معه، فأيّ رجل هذا الذي يأمر الله سبحانه وتعالى أشرف أنبيائه أن يختلي به تلك الخلوة، وهو وحده يعلم ما بلغه من مكنون علمه فيها !.

وروى البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٥ أن أم سلمة قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلّم إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه غير علي عليه السلام).

ولقد تكاتفت أمَّة من الخلق عصورًا وعهودًا على تغطية شمس عليٍّ، وأنفقت في سبيل مشروعها أنهارًا من دماء الأمَّة وأموالها ومازالت بقايا ذلك

النسل الدنس تحاول بشتى الطرق التقليل من مكانته ومنزلته، ولقد أراد بعضهم دفع المؤرخين إلى التشكيك حتى في ضريحه الذي جاهدت على مناطحته ضرائح قوم ارتكبوا أفضع الجرائم البشعة في حقِّ الإنسانية، ولكن الله الذي اصطفاه لأعظم أدوار الإسلام وأخطرها تكفَّل بحفظه، وحفظ سنا مسيرته، فمازال على طول التاريخ علمًا هاديًا للحق والعدل والرحمة والشفقة، ولقيم السماء التي انتقاها سبحانه وتعالى لإسعاد سيِّد خلقه على الأرض.

وتطرفت أمَّة في محبَّته، بعد أن رأت ما لا يمكن تصديقه بالنسبة لها، لقد رأت عدلاً لم تره ولم تسمع بمثله، وإيثارًا وشفقة ورحمة وسماحة، وما إلى ذلك من القيم الكبرى، فظنَّته - وأستغفر الله - هو الخالق العظيم، فلما نهاهم عن غيِّهم لم ينتهوا فما كان منه إلا أن قتلهم، ثم أحرقهم، روى الذهبي في عهده ٦٤٣ أن عثمان بن أبي عثمان قال، والرواية عنه أيضًا ذكرها ابن عساكر في ترجمته ٢٦٦/٣ بتاريخه: (جاء أناس إلى علي فقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو، قال: ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا، قال: ارجعوا، فأبوا، فضرب أعناقهم، ثم خدَّ لهم في الأرض، ثم قال: يا قنبر ائتني بحزَم الحطب، فحرَّقهم بالنار)، وروي أنه عليه السلام جمعهم في صحراء أثير على ما ذكر ياقوت في معجم بلدانه ١١٧/١ وحرَّقهم فيها، لذا قال على ما روى الذهبي في عهده ٦٣٥ عن الحارث: (يهلك فيَّ رجلان، مبغض مفترٍ، ومحبٌّ مطرٍ)، والقول في كلام له عليه السلام ورد في النهج ٣٢٥ جاء فيه: (وسَيهْلِكُ فيَّ صِنفانِ: محِبٌّ مُفْرِطٌ يذهَبُ به الحبُّ إلى غير الحقِّ، ومُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يذهَبُ به البُغْضُ إلى غيرِ الحقِّ، وخيرُ الناسِ فيَّ حالاً

النَّمطُ الأوسطُ فالزَمُوهُ، والزَمُوا السَّواد الأعظمَ، فإن يدَ اللهِ معَ الجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرْقة، فإنَّ الشَّاذَّ من النَّاس للشَّيْطانِ، كما أن الشَّاذ من الغنمِ للذِّئب! ألا مَن دَعَا إلى هذا الشِّعار فاقتلوه، ولو كان تحت عِمامَتِي هذهِ)، ومصداقًا لذلك أيضًا قوله عليه السلام الذي رواه أحمد في كتاب فضائله ٤٤٨ برقم ٣٤٧: (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقال: إن فيك من عيسى مثلاً أبغضته يهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به. ألا وإنه يهلك فيَّ اثنان محبٌّ مطري يقرظني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني. ألا أني لست بنبي ولا يوحى إلي، ولكنِّي أعمل بكتاب الله وسُنَّة نبيِّه ما استطعت. فما أمرتكم من طاعة الله فحقّ عليكم طاعتي فيه أحببتم وكرهتم)، وذكر البلاذري في أنسابه ٣٦٢/٢ قريبًا من هذا عن محمد بن سيرين عن مولى لعلي قال: (يهلك في رجلان: محبٌّ مفرطٌ، ومبغض مفرط)، وروى في أنسابه ٣٦٢/٢ أيضًا (عن أبي السوار الضبعي أنه سمع عليًا على منبر البصرة يقول: ليحبني أقوام حتى يدخلهم حبي النار، وليبغضني أقوام حتى يدخلهم النار)، وذكر أيضًا بسنده في أنسابه ٣٦٣/٢ أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال لعليٍّ: «يا علي إن فيك من عيسى مثلاً أحبَّه النصارى حتى أفرطوا، وأبغضته اليهود حتى بهتوا أمه»، وقريب منه ما رواه أحمد بمسنده برقم ٢٩٢، وروى ابن عبد ربه في العقد ٢٨٧/٤، وتابعه في الرواية ابن عبد البر في استيعابه ١١٣٠/٣ بسنده عن الشّعبي الذي قال: (قال لي علقمة: تَدري ما مثل عليٍّ في هذه الأمَّة؟ قلت: ما مثله؟ قال: مثل عيسى بن مريم؛ أحبَّه قوم حتى هلكوا في حبِّه، وأبغضه قوم حتى هلكوا في بغضه)، وهو عن الشعبي أيضًا في فضائل أحمد

١٣٧ برقم ٩٨ ، وروى البلاذري في أنسابه ٢/٣٦٢ وأحمد في فضائله ١١٠ برقم ٧٥ أن أبا السوار الضبعي سمع عليًّا على منبر البصرة يقول : (ليحبني أقوام حتى يدخلهم حبِّي النار، وليبغضني أقوام حتى يدخلهم بغضي النار).

وذكر البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٥ والذهبي في عهده ٦٣٦ عن عمرو بن ميمون : (كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما إذ أتاه تسعة رهط فقالوا يا ابن عبَّاس إما أن تقوم معنا وإما أن يُخْلونا هؤلاء قال : فقال ابن عبَّاس : بل أقوم معكم ، قال: وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى ، قال : فابتدؤوا فتحدَّثوا فلا ندري ما قالوا ، قال : فجاء ينفض ثوبه ويقول : أف وتف ، وقعوا في رجل له عشر ، وقعوا في رجل قال له النبي صلى الله عليه وسلم : «لأبعثنَّ رجلاً لا يخزيه الله أبدًا يحبُّ الله ورسوله» قال : فاستشرف لها من استشرف ، قال : «أين علي؟» قال: هو في الرحل يطحن. قال: «وما كان أحدكم ليطحن». قال : فجاء وهو أرمد لا يكاد يبصر. قال : فنفث في عينيه ثمَّ هزَّ الراية ثلاثًا فأعطاها إيَّاه فجاء بصفيَّة بنت حُيَي ، ثمَّ بعث فلانًا – يعني أبا بكر الصدِّيق– بسورة التوبة ، فبعث عليًّا خلفه فأخذها منه قال : «لا يذهب بها إلا رجلٌ مني وأنا منه ،» قال: وقال لبني عمِّه: «أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟» قال: وعليٌّ جالس، فأبوا. فقال عليّ: أنا أواليك في الدنيا والآخرة. قال: أنت وليي في الدنيا والآخرة. قال: فتركه ، ثمَّ أقبل على رجل -كذا وصوابه رجال - منهم فقال: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟ فأبوا. قال: فقال عليّ: أنا أواليك في الدنيا والآخرة. فقال: «أنت وليي في الدنيا والآخرة ». قال : وكان أول من أسلم من النَّاس بعد خديجة. قال : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ثوبه فوضعه على عليٍّ وفاطمة وحسن وحسين رضي الله

عنهم فقال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»، قال: وشرى عليٌّ نفسه " أي باعها " لبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلّم ثمَّ نام مكانه. قال: وكان المشركون يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أبو بكر، وعليٌّ نائم، قال: وأبو بكر يحسب أنه نبي الله قال: فقال: يا نبي الله، قال: فقال له عليّ إن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قد انطلق نحو بئر ميمون، فأدرِكْهُ قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار. قال: وجعل عليٌّ يرمى بالحجارة كما كان يرمى نبي الله صلى لله عليه وسلم وهو يتضوَّر فدلف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح ثمَّ كشف رأسه فقالوا: إنك للئيم كان صاحبك نرميه فلا يتضوَّر وأنت تتضوَّر، وقد استنكرنا ذلك. قال: وخرج في غزوة تبوك، فقال له عليٌّ أخرج معك؟ قال: فقال له نبي الله صلى الله عليه وسلم «لا» . فبكى عليٌّ. فقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاَّ أنك لست بنبي، إنه لا ينبغي أن أذهب إلاَّ وأنت خليفتي». قال: وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنت وليي في كل مؤمن بعدي» ، وقال: «سدُّوا أبواب المسجد غير باب علي» فقال: فيدخل المسجد جنبًا وهو طريقه ليس له طريق غيره، قال: وقال: « من كنت مولاه فإن مولاه علي » ، قال: وأخبرنا الله عزَّ وجلَّ في القرآن أن رضي عنهم أصحاب الشعب فعلم ما في قلوبهم هل حدَّثنا أنه سخط عليهم بعد، قال: وقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلّم لعمر حين قال له: آذن لي فلأضرب عنقه - يعني حاطب بن بلتعة - قال: «أو كنت فاعلاً وما يدريك لعل الله قد اطّلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم »)، وليس خافيًا عليك أن ابن عباس أراد بقوله: له عشر، أي لم يشركه أحدٌ من المسلمين فيها، والرواية في

كتاب فضائله عليه السلام لأحمد ٣٨٣ برقم ٢٩٣ عن عمرو بن ميمون أيضًا!، ولاحظت أي عشر كانت، وكل واحدة كفيلة بعصمة ووصاية وولاية وخلافة.

ومن طريف ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣٥/١ عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: (كنت بين يدي أبي جالسًا ذات يوم؛ فجاءت طائفة من الكرخيين فذكروا خلافة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان بن عفان فأكثروا، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب وزادوا فأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة، والخلافة وعلي، إن الخلافة لم تزِن عليًّا بل علي زيَّنها) قال الساري - وهو أحد رواة الخبر - فحدَّثت بهذا بعض الشيعة فقال لي: قد أخرجت نصف ما كان في قلبي على أحمد بن حنبل من البغض)، وروى الذهبي في عهده ٦٣٨ أن محمد بن منصور الطوسي قال: (سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الفضائل ما ورد لعلي).

ويسبب من إيمان رسول الله المطلق بنقاء سجيَّة الإمام صلوات الله عليهما وصفائها، وسمو نفسه التي لا تتدنَّى إلى ما يشين المؤمن الصحيح، وترفعه عن الصغائر التي ليست من طبعه ولا من لبوسه، كان لا يرضى أن يمسَّه أي أحد بقول أو فعل، وعجيب كيف يشكو الناس هذا الرجل، أو يناصبونه العداوة والبغضاء ولم يأخذ من دنياهم التي أرادها خيرًا وبركة عليهم شروى نقير، ترى هل زاحمهم في عمل أو تجارة؟ هل طاولهم بأيِّ شيء يتطاول به الناس؟ هل استلب حقَّ أحد أو اعتدى على أحد أو منَّ على أحد؟ هل اهتمَّ

ببريق دنياهم أو اشتراها بدرهم أو دينار؟! وحقّ لشيعته أن يزدادوا حباً وتعلقًا به وبسيرته ولاسيما أنهم الفائزون يوم القيامة كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/ ٤٠٥ حكاية عن أم سلمة رضوان الله عليها.

ومما يجدر ذكره من أوسمة الإمام، وكلها يجدر ذكرها، ما رواه البلاذري في أنسابه ٢/ ٣٦٤ عن أنس بن مالك أن رسول الله قال: «الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمَّار وسلمان»، وليس بغريب أن يكون عمار وسلمان من خاصة صحابة الإمام أيضًا كما كانا من خاصة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

وعلى الرغم من مكانة سلمان في وسط الصحابة، وما آتاه الله من العلم، وعلى الرغم من شديد تنسكه وزهده، فإنه ما كان يستغني عن نصح الإمام، ويبدو أنه رضوان الله عليه كتب له يستنصحه قبل خلافته عليه السلام كما ورد في النهج ٦٦٨ فأجابه: (أما بعد، فإنّما مثلُ الدُّنيا مثَلُ الحيَّة ليِّنٌ ملمسها، قاتلٌ سُمُّها، فاعرضْ عمَّا يُعجِبُكَ فيها لقلَّة ما يصحَبُكَ منها، وضع عنكَ همومَهَا لما أيقنت به من فِراقِها، وتصرُّفِ حالاتِها، وكُن آنسَ ما تكون بها أحذرَ ما تكونُ منها، فإن صاحبَها كُلَّما اطْمَأَنَّ فيها إلى السرور أشخَصَتْهُ عنه إلى محذورٍ! أو إلى إيناسٍ أزالتْهُ عنه إلى أيحاشٍ، والسلام).

وإذا كنتُ قد قرأتُ من بين ما قرأت في كتاب الإمام علي ٣٣٧ لمحمد جواد مغنية ما نقله عن مناقب علي بن أبي طالب للخوارزمي، ووثّقه كاظم عبود الفتلاوي في كشافه ١٥٦ من مصادر عدَّة، وهو قول رسول الله عليه وآله وسلّم يوم قال: «إن الله جعل لأخي علي فضائل لا تحصى كثرة، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقرًّا بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر، ومن

كتب فضيلة من فضائله لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لذلك الكتاب رسم، ومن استمع إلى فضيلة من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالاستماع، ومن نظر إلى كتاب من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر، ثم قال: النظر إلى أخي علي بن أبي طالب عبادة، وذكره عبادة، ولا يقبل إيمان عبد إلاّ بولايته والبراءة من أعدائه».

وقد روى غالب ما رواه الخوارزمي ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه، فحقّ لي أن أفرد فصلاً لفضائله التي تصعب على الإحصاء والعدّ، كما أن كلّ فضيلة منها تأخذك إلى ما لا بدّ من التفكّر والتدبُّر لعلّ الله سبحانه وتعالى يحشرك مع أهل بيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وينيلك شفاعتهم، إنه على كلّ شيء قدير.

وبسبب من كثرة فضائله التي تصعب على الحصر ألف جمهور من العلماء المنصفين كتبًا فيها، ذكر كاظم عبود الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى ١٣–١٤ المطبوع من بعضها وهي:

– الأربعين المنتقى من مناقب المرتضى لأبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني الشافعي طبع في مجلّة تراثنا العدد الأول، السنة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

– أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب لشمس الدين محمد بن محمد الجزري الشافعي. مكة المكرمة ١٣٢٤ هـ.

– جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي بن أبي طالب لشمس الدين محمد بن أحمد الباعوني الشافعي. بيروت ١٤١٥هـ.

– خصائص علي للحافظ أحمد بن شعيب النسائي الشافعي، قال الفتلاوي: طبع أكثر من خمس عشرة مرة منها في القاهرة سنة ١٣٠٨هـ. وقال ابن خلكان عنه في وفياته ١/٧٧–٧٨ بتحقيق إحسان عباس (وأكثر رواياته فيه عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فقيل له: ألا تصنف كتابًا في فضائل الصحابة رضي الله عنهم؟ فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب).

– شواهد التنزيل وهو ما نزل من القرآن في علي للحاكم الحسكاني عبيد الله بن عبد الله الحنفي. بيروت ١٣٩٣هـ.

– القول الجلي في فضائل عليٍّ لجلال الدين السيوطي . بيروت.١٤١٠هـ.

– كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب لفخر الدين محمد بن يوسف الكنجي الشافعي، طبع طبعات عدة في مصر والنجف منها سنة ١٣٥٦هـ. وقد ذكره حاجي خليفة في الكشف ٢/٦٧٧.

– ما نزل من القرآن في علي للحسين بن الحكم الحبري الكوفي، بيروت ١٤٠٨هـ.

– ما نزل من القرآن في علي، لأبي الفضائل المظفربن أبي بكر الحنفي الأقسرائي. توجد نسخة منه في مكتبة لاله لي باستنبول ضمن مجموع برقم ٣٧٣٩.

– مناقب أمير المؤمنين، لأبي الحسن علي بن محمد المالكي الواسطي الشهير بابن المغالي. طبع طبعات عدَّة منها في بيروت سنة ١٤٠٣هـ.

– مناقب أمير المؤمنين لخطيب خوارزم الموفق بن أحمد الحنفي المكي. طبع عدة طبعات منها طبعة النجف سنة ١٣٨٥هـ.

– مناقب سيدنا علي للفقير العيني الهندي. حيدر آباد ١٣٥٢هـ

– مناقب علي للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني. طبع مؤخرًا ، وله أيضًا فضائل الصحابة مطبوع خرج منه مجلد كامل في فضائل أمير المؤمنينّ قال الفتلاوي : (استفدت منه). وقد ذكره حاجي خليفة في الكشف ٢ /٦٧٧.

وحقّق الشيخ محمد باقر المحمودي القسم الخاص من ترجمته وفضائله في كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر وطبع طبعته الثانية بمؤسسة المحمودي للطباعة والنشر ببيروت سنة ١٩٩٨م في ثلاثة أجزاء.

ووقفتُ في بعض المصادر التي استفدت منها على ذكرٍ لبعض الكتب التي تناولت مناقبه وفضائله عليه السلام وهي :

– الإمامة للصاحب بن عبَّاد (يذكر فيه فضائل الإمام علي رضي الله عنه) وفيات الأعيان ١ /٢٣٠ .

– خورنامة فارسي ، كذا ورد في الكشف ٢ /٦٧٧.

– فتح المطالب في سيرة علي بن أبي طالب للذهبي ، ذكره في طبقات قرائه ١ / ٨ قال : (ومناقب أبي الحسن جمّة أفردتها في كتاب سميته...الكتاب).

– مناقب علي بن أبي طالب لأبي المعالي المالكي ذكره حاجي خليفة في الكشف ٢ /٦٧٧ ،

– مناقب علي بن أبي طالب لعز الدين بن الأثير، قال في كتابه أسد الغابة ٦١٩ : (وبالجملة فمناقبه عظيمة كثيرة ...ومن يريد أكثر من هذا فقد جمعنا مناقبه في كتاب جامع لها).

– مناقب علي بن أبي طالب لحافظ الدين محمد بن أحمد العجمي (ت ١٠٥٥ هـ) ذكره حاجي خليفة في الكشف ٢ /٦٧٧.

– ولعلَّ ما رواه ابن عساكر من فضائله خلال ترجمته عليه السلام في تاريخه التي حققها الشيخ محمد باقر المحمودي، وهي لا تمثّل إلاّ قسمًا يسيرًا من فضائله في كتاب الله وعلى لسان نبيِّه خير دليل على عظم مكانته عند الله ورسروله صلوات الله وسلامه عليهما.

– أما ما طبع من كتب في فضائله وسيرته وآفاق فكره في العصر الحديث فتصعب على الإحصاء والحصر.

كانت محبة المصطفى لأخيه عليهما السلام لا حدود لها، ولعله لا يقاسمه تلك المحبة إلا سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، ولا أدل على ذلك من حديث أم عطيَّة الذي رواه الترمذي في سننه برقم ٣٨٢٠ إذ قالت: (بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشًا فيهم علي، قالت فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رافع يديه ويقول: اللهم لا تُمِتني حتى تُريني عليًا).

بل يكفيه من كلِّ أوسمة الفخار التي نالها ما رواه عمار بن ياسر رضوان الله عليه عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في حقّه («يا علي، إن الله عزَّ وجلَّ قد زيَّنك بزينة لم يتزيَّن العباد بزينة أحبَّ إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئًا، ولا تنال الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حبَّ المساكين، ورضوا بك إمامًا، ورضيت بهم أتباعًا، فطوبى لمن أحبَّك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبُّوك وصدقوا فيك، فهم جيرانك في دارك، ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك، فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة!»). كما جاء في أسد الغابة ٥٩٧/٣.

ولك أن تنظره أيضا في ترجمته عليه السلام ٢١٢/٢ في تاريخ ابن عساكر، وقد رواه من غير طريق، وقد ذكر بعضه عن عمار أيضًا أحمد في كتابه فضائل أمير المؤمنين ٣٧٠ برقم ٢٨٦.

وعلى الرغم من أنف الباطل الذي طالما انتصر على الحقّ في كل العهود، وشوه وجه الحقيقة الناصع بكلّ الطرق الخبيثة الدنسة، وعلى الرغم من تلاعب أمَّة من أعداء الإمام عليه السلام بالتاريخ حتى أن المتتبع للأحداث التي تلت انتقاله إلى الرفيق الأعلى ليعجب كيف استطاع أن يحفظ لنا ما حفظ من أوسمته في ذلك الدامس الذي أحيطت به سيرته، فإن من معجزات لطف الله سبحانه وتعالى أن سنا سيرته لم ينطفئ على الرغم من الحضر العدواني المرعب الذي فرض عليها ودام مئات السنين، بحيث أن ما ورد في بعض كتب غير الشيعة من المسلمين وليس جميعها يكفي لتبيان عظمة منزلته ومكانته.

ولابد أن لكلّ وسام من حكاية أهَّلته لنيله، ولكن هل حُفِظت تلك الحكايات جميعها أو أن النسيان طواها كما طوى معها آلاف الأوسمة التي استطاعت تلك الأيادي أن تطمسها بكل الحقد والكراهية التي عرفتها الإنسانيَّة الظالمة، نعم إن الباقي كثير، كما أن الباقي من سنا تلك السيرة العطرة كفيل بتسطير آلاف الصفحات التي تجعل منه عليه السلام مثالاً تقتديه الإنسانية إن أرادت نبراسًا لحياتها في الدارين يسمو بها إلى ذرى العدالة الاجتماعيَّة الحقَّة التي تبحث عنها، بل يمكن أن يدفعك كل وسام إلى مزيد من البحث والتقصّي في عوالم تلك السيرة الملائكيَّة الساحرة.

وهو حديث إن تركت العنان فيه للعقل والعاطفة أخذاك في طرقات لا نهاية لها، وحلّقا بك إلى حلم تتداخل ألوانه الزاهية من خلال عالم فاضل

من المستحيل تخيله أو رسمه من خلال عالمك الذي سادت فيه شريعة الغاب على كلِّ الشرائع، وهو حديث ذو شجون ولاسيما بعد أن أرتنا الدنيا صورًا من حقد الإنسان على أخيه الإنسان ما خطرت على بال كلِّ مجرمي العصور، وجرَّعتنا كؤوسًا من الخوف والرعب لم تشربها بلاد المسلمين من قبل، وكدنا نعتقد أن الظلم الذي حلَّ ببلادنا ما خطر في بال التاريخ من قبل، ولا أشك في أننا نستحق كلَّ الذي جرى لأننا لم نهتد لا بأحداث تاريخنا، ولا بحكمة عظمائنا ولا بهدي أهل بيت نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليهم.

نعم أحببنا آل البيت عليهم السلام، وسمَّينا ما يتجاوز السبعين بالمائة من أبنائنا في المشارق والمغارب بأسمائهم، وكان لاسم عليٍّ عليه السلام قصب السبق بعد اسم المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما، تبرُّكًا وتيمُّنًا، وحرزًا وحصنًا في وجه نكبات الدهر وعواديه، ولكن أين هدينا من هديهم، وأين قيمنا من قيمهم !!!؟؟؟

من أوسمته في القرآن

ولا شكَّ في أنك تستطيع تقدير حجم أوسمته عليه السلام في القرآن إذا اطلعت على حديث ذكره بسنده أبو نعيم في حليته ١/٦٤ رواه الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «ما أنزل الله آية فيها يا أيها الذين آمنوا إلاَّ عليٌّ رأسها وأميرها».

وللخبر رواية أخرى في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٢٠ برقم ٢٣٨ فيها زيادة هي (ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلَّم في القرآن وما ذكر عليًّا إلاَّ بخير)، فإذا كان بهذه المنزلة عند الله فهو العلو الذي ما بعده علو

بين المؤمنين، ولعلَّ في ذكر بعض ما ورد في كتاب الله المحكم ما يوضح منزلته ومكانته التي لا تحتاج إلى إيضاح أو توثيق.

— ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (البقرة ٢/٢٧٤).

ذكر هذا الوسام ابن الأثير في كتابه أسد الغابة ٣/٦٠٠ عن عبد الوهاب عن مجاهد أبيه عن ابن عباس، ورواه عنه من طريق أيوب عن مجاهد عن ابن عباس قال: نزلت الآية السابقة في علي بن أبي طالب، كان عنده أربعة دراهم، فأنفق بالليل واحدًا، وبالنهار واحدًا، وفي السِّرِّ واحدًا، وفي العلانية واحدًا). ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٢/٤١٣–٤١٤ أيضًا عن ابن مجاهد وابن عباس، وذكر المحقق في هامشه طرقًا أخرى، وخرَّجه كاظم عبود الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى ٢٤–٢٦ من ستة وأربعين مصدرًا كلها تذكر أن الآية السابقة نزلت في حقِّه عليه السلام.

— ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (آل عمران ٣/٦١).

ذكر الوسام الترمذي في سننه برقم ٣٨٠٨ وأحمد في مسنده برقم ٢٨٨ وابن الأثير في أسده ٣/٦٠٠ والذهبي في عهده ٦٢٧ عن سعد بن أبي وقاص، أنه (لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا رضوان الله عليهم أجمعين فقال: اللهم هؤلاء أهلي). وذكر الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٢٦–٣١ مائة وتسعة مصادر كلها تذكر أنهم هم وليس غيرهم أهل بيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

— ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة ٢/٢٠٧).

ذكر الوسام ابن الأثير في كتابه أسد الغابة ٥٩٩/٣ أما مناسبته فنوم الإمام عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليلة هجرته.وروى ابن الأثير أن الله سبحانه وتعالى (أوحى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله عز وجل إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين نبيي محمد، فبات على فراشه يفدّيه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه. فنزلا فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي بخٍ بخٍ ! من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله عز وجل به الملائكة! فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن علي....الآية)، وقد خرّجها الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٢٢-٢٤ من خمسة وخمسين مصدراً.

- ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (المائدة ٥/٥٥).

والوسام ذكره البلاذري في أنسابه ٣٨١/٢ قال: (حدّثت عن حماد بن سلمة، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت في علي)، ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٤٠٩/٢ بسنده عن علي قال: (نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلّم... فخرج رسول الله فدخل المسجد والناس يصلون بين راكع وقائم يصلّي، فإذا سائل فقال رسول الله: يا سائل هل أعطاك أحد شيئًا؟ فقال: لا إلاّ هذاك الركع - لعلي - أعطاني خاتمه)، وروى الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٣٥ (عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلّيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يومًا صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد إني سألت في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فما أعطاني أحد شيئا، وعليٌّ عليه السلام كان راكعًا فأومأ إليه بخنصره اليمنى - وكان فيها خاتم - فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: « اللهم إن أخي موسى عليه السلام سألك فقال: ربِّ اشرح لي صدري - إلى قوله - وأشركه في أمري فأنزلت قرآنًا ناطقًا ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً ﴾ اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فاشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واجعل لي وزيرًا من أهلي عليًّا اشدد به ظهري». قال أبو ذر رضي الله عنه: فوالله ما أتمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم هذه الكلمة حتى نزل جبريل فقال: يا محمد اقرأ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إلى آخرها). وخرَّج الفتلاوي نزول الآية بحقِّه عليه السلام من واحد وسبعين مصدرًا.

ونقل الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعته ٦١٨/٣ عن ابن طاووس عن كتاب النشر والطيّ عن حذيفة بن اليمان أن حادثة السائل كانت بعد قدوم المرتضى من اليمن وتوجُّهه للصلاة إلى الكعبة.

وقد استُدِلَّ بالآية الكريمة على ولاية المرتضى عليه السلام من بين ما استُدِلَّ به كما ذكر السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه المراجعات ١٥٦ بعد أن وثّق نزولها بعليٍّ عليه السلام بما لا يقبل الشك.

ـ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ (السجدة ٣٢/ ١٨).

ذكر البلاذري في أنسابه ٣٨٠/٢ –٣٨١(عن ابن عباس أن الوليد بن عقبة قال لعلي: أنا أسلط منك لسانًا وأحدّ سنانًا، وأربط جنانًا، وأملأ لحشو

الكتيبة، فقال: اسكت يا فاسق، فأنزل الله عز وجلَّ الآية، يعني بالمؤمن عليًّا عليه السلام)، وقريبًا من هذا ما رواه أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٢٨ برقم ١٦٧ عن ابن عباس أيضًا، وقد خرَّجها الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٦١–٦٣ من اثنين وأربعين مصدرًا.

– ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة ٦٩/١٢).

روى البلاذري في أنسابه ٢/٣٦٣ بسنده عن علي بن حوشب قال: (سمعت مكحولاً يقول: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم الآية فقال: «يا علي، سألت الله أن يجعلها أذنك» قال علي: فما نسيت حديثًا أو شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ)، ورواها ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/ ٤٢٣ بسندين كلاهما عن بريدة الأسلمي، في أولهما أبو القاسم الواسطي وفي ثانيهما صالح بن هيثم الذي قال: (سمعت بريدة الأسلمي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لعليٍّ: إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وتعي –وقال الواسطي: وأن تعي –وحقّ على الله أن تعي. فنزلت –وقال الواسطي: ونزلت – ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾)، وقد خرجها الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٩٧–٩٩ من ثمانية وأربعين مصدرًا كلها تقول: إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال لعليٍّ عليه السلام: «يا علي، سألت الله أن يجعلها أذنك».

– ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب ٣٣/ ٣٣).

قال ابن عبد ربه في عقده: (جمع النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وعليًّا والحسن والحسين، فألقى عليهم كساءه، وضمَّهم إلى نفسه، ثمَّ تلا هذه الآية)،

وروى البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٣ عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله كان يمر ببيت فاطمة عليها السلام ستة أشهر وهو منطلق إلى صلاة الصبح فيقول: « الصلاة أهل البيت».

وكنت قد رجَّحت في كتاب الزهراء في بيت علي سبب نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، فما كان أهل بيت النبيّ في حاجة إلى تنبيه لصلاة إذ متى غفلوا عنها منذ أن كانت. وذكر الفتلاوي في كتابه السابق الذكر ٦٥ عن مصادره (عن أم سلمة رضي الله عنها: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء، ثم قال: « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصَّتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». قالت أم سلمة رضي الله عنها: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «إنك إلى خير»، وقد وثّق كون المذكورين عليهم السلام هم أهل بيته من مائة وثلاثة وأربعين مصدرًا واثني عشر كتابًا، والرواية في فضائل أمير المؤمنين لأحمد ١٦٦ برقم ١٨٨ لها مناسبة، وهي فيه أن أم سلمة تذكر (أن النبي عليه السلام كان في بيتها فأتته فاطمة عليها السلام ببرمة فيها حريرة، فدخلت بها عليه فقال لها: ادعي لي زوجك وابنيك. قالت: فجاء علي وحسن وحسين عليهم السلام، فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الحريرة وهو على منامة له على دكّان تحته كساء خيبري. قالت: وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾، قالت: فأخذ فضل الكساء فغشَّاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء -وروي نحو السماء - ثم قال: « اللهمَّ إنَّ هؤلاء أهل بيتي وحامتي -جمع حميم - فأذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيرًا»، قالت: فأدخلت رأسي البيت -كذا - وقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: إنَّك إلى خير إنك

إلى خير)، ولقد رأيناه صلّى الله عليه وآله وسلّم قد جاء بهم عليهم السلام يوم أراد مباهلة نصارى نجران.

ـ ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (الحشر ٥٩/ ١٠).

روى ابن أبي الحديد في شرحه ١٥٥/١٣ بسنده عن الحسن البصري بسنده عن ابن عباس قال: (فرض الله تعالى الاستغفار لعليٍّ عليه السلام في القرآن على كلِّ مسلم، بقوله تعالى: الآية.. فكلّ من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعليٍّ).

ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (المجادلة ٥٨/ ١٢).

وآية النجوى هذه لم يعمل بها أحد من المسلمين باستثناء علي بن أبي طالب، كما نقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٨٩/١٣ عن أبي جعفر الإسكافي، وروي أن عليًا عليه السلام قال: (إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى.. الآية، كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلّما ناجيت النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قدّمت بين يدي درهمًا، ثم نُسِخَت فلم يعمل بها أحد، فنزلت أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)، وقد خرَّجها الفتلاوي في كشّافه ٩٣–٩٦ من تسعة وخمسين مصدرًا.

ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة ٥/٦٧).

وسبق أن ذكرنا مناسبة نزولها أثناء ذكر خطبة النبي في غدير خُمٍّ، وقد خرَّجها الفتلاوي في الكشاف المنتقى من ستة عشر مصدرًا.

ـ ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى ٤٢/ ٢٣).

روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٥١ برقم ٢٦٥ عن ابن عباس (قال: لما نزلت قالوا: يا رسول الله من قرابتنا هؤلاء الذين وجبت علينا مودَّتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناها عليهم السلام).

ولك في كشاف كاظم عبود الفتلاوي السابق الذكر معينًا لما نزل في حقِّ المرتضى عليه السلام من آي الذكر الحكيم، فقد أحصى في مؤلفه أربعًا وسبعين آية ذكر جمهور المفسرين وأصحاب السير والتواريخ أن قسمًا كبيرًا منها نزل في حقِّ الإمام خاصَّة، وأن قسمًا آخر منها شاركه فيها أهل بيته أو بعض الصَّحابة.

وروى ابن عساكر أيضًا في ترجمته عليه السلام ٢/ ٤٠٩–٤٣١ آيات عدَّة من الذكر الحكيم نزلت في حقِّ عليٍّ عليه السلام، رواها عن كبار الصحابة والتابعين.

أوسمته من الرسول المصطفى

ومن الصَّعب جدًّا أن نقف على عدد أوسمته التي وشَّحه بها الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في مناسباتها التي تصعب على الإحصاء، وكنت في أثناء البحث بثثت شيئًا منها هنا وهناك بحسب المناسبة التي قيلت فيها، وستجد بعضها أيضًا في الجزء الثاني من كتابنا، وأنت لا تقرأ كتابًا عن الإمام عليه السلام للقدامى والمحدثين إلاَّ وجدت فيه فيضًا منها.

– اللهم اهد قلبه وثبِّت لسانه.

لم يكن الإمام عليه السلام بغافل عن أحكام كتاب الله وسيرة نبيِّه، يوم عبَّر عن قلَّة تجربته بالقضاء، وهو في طريقه إلى اليمن، لأنه على بينة منها، ولكنَّ الله سبحانه أراد تكريمه بدعاء النبيِّ، وتثبيت ما وهبه من فضل وعلم، ولعل

مصداقًا لما ذكر قوله عليه السلام: (والله ما نزلت آية إلا علمت في ما نزلت! إن ربي وهب لي قلبًا عَقولاً ولسانًا طلقًا)، وما أكثر ما قال: (سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلاّ قد عرفتُ بليلٍ نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل)، ويوم سئل عن سبب كثرة روايته الحديث الشريف قال: (إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكتُّ ابتدأني)، ولقد قال بعد تلك الدعوة المباركة: (فوالله ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين)، وقد وردت تلك النصوص في طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣٧-٣٣٨، وأنساب البلاذري ٢/ ٣٥١ ومسند أحمد برقم ٢٩٠، واستيعاب ابن عبد البر ٣/ ١١٠٠، وأسد ابن الأثير ٣/ ٥٩٥، كما وردت في غيرها.

أما الحديث فقد ورد بطرق مختلفة، لا يخرج دعاء النبي فيها على النص المذكور، أما مناسبته، فقد أرسله الرسول الكريم إلى اليمن قاضيًا في رواية، وحاكمًا في أخرى كما أسلفنا القول، وكان لابد من تعرضه للقضاء فيه، فخصَّه بتلك الدعوة التي كان من بركتها أن يكون أقضى المسلمين حتى قال ابن عباس على ما ذكر ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨: (إذا حدَّثنا ثقة عن علي بفُتْيا لا نعدوها)، وقول ابن عباس جدير بالنظر، فهو حبر الأمّة عند المسلمين، وهو تلميذ الإمام الذي أخذ عنه علمه، وهو من أعرف الناس به. ونقل ابن سعد في طبقاته ٢/ ٣٣٨ عن عبد الله، ولعلّه أراد ابن مسعود (أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب)، وقال ابن مسعود كما روى عنه أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٩٩ برقم ٢٢١: (كنَّا نتحدَّث أن أفضل أهل المدينة علي بن أبي طالب)، ولقد قال عمر بن الخطاب في غير مناسبة على ما نقل ابن سعد في طبقاته ٢/ ٣٣٩، والبلاذري في أنسابه ٢/ ٣٥٠ (عليٌّ أقضانا)، بل روى ابن سعد في طبقاته ٢/ ٣٣٩ عن سعيد بن المسيَّب:

(كان عمر يتعوَّذ بالله من معضلة ليس فيها أبو حسن). وله عليه السلام في القضاء أحكام تصعب على الحصر.

وذكر البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٢ عن أبي البختري عن علي عليه السلام قال: (بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقلت: أتبعثني وأنا شاب ولا أدري ما القضاء؟، فضرب صدري ثم قال: «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه» فما شككت في قضاء بين اثنين)، وتابعه الذهبي في تاريخ الإسلام عهد الراشدين ٦٣٧، وذكر في ٦٣٨ أحاديث عن سعيد بن المسيب، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة في أن عليًّا أقضى الصحابة، وما كان أحد منهم يقول سلوني سواه، كما ذكر إحالة بعض الصحابة عليه في الفتيا، وقد ذكر ابن حجر في مطلبه العالية ٤/ ٥٧ برقم ٣٩٥١ ما ذكره ابن مسعود.

وروى ابن عبد البر في استيعابه ٣/١١٠٢–١١٠٣ بعض فتاواه، وإحالة بعض الصَّحابة في الفتيا عليه، وذكر طرفة من فتاواه عن زر بن حبيش قال: (جلس رجلان يتغدَّيان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مرَّ بهما رجل فسلَّم، فقالا: اجلس للغداء، فجلس وأكل معهما، واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذا هذا عوضًا مما أكلت لكما، ونلته من طعامكما، فتنازعا، وقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاث، فقال صاحب الثلاثة الأرغفة: لا أرضى إلاَّ أن تكون الدَّراهم بيننا نصفين. وارتفعا إلى أمير الممنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقصَّا عليه قصَّتهما، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بثلاثة، فقال: لا والله لا

رضيت منه إلاَّ بمرِّ الحقِّ. فقال علي رضي الله عنه: ليس لك في مرِّ الحق إلاَّ درهم واحد، فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين! وهو يعرض علي ثلاثة فلم أرض، وأشرت عليَّ بأخذها فلم أرض، وتقول لي الآن: إنه لا يجب في مرِّ الحقِّ إلاَّ درهم واحد، فقال له عليٌّ: عرض عليك صاحبك الثلاثة صُلحًا، فقلت: لم أرض إلاَّ بمرِّ الحقِّ، ولا يجب لك بمر الحق إلاَّ واحد، فقال له الرجل: فعرِّفني بالوجه في مر الحق حتى أقبله، فقال علي رضي الله عنه: أليس للثمانية الأرغفة أربعة وعشرون ثلثًا أكلتموها، وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً، ولا الأقل، فتُجعلون في أكلكم على السواء! قال: بلا. قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثًا، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة، وأكل لك واحدًا من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة بسبعته. فقال الرجل: رضيت الآن)، وذكر المبرِّد، أنه روي عن بعض الفقهاء قال: (دعاني الحجاج فسألني عن الفريضة المخمَّسة، وهي أمٌّ وأخت وجدٌّ، فقال لي: ما قال فيها الصدِّيق رحمه الله؟ قلت أعطى الأم الثلث والجدَّ ما بقي، لأنه يراه أبًا، قال: فما قال فيها أمير المؤمنين رحمه الله -يعني عثمان - قلت: جعل المال بينهم أثلاثًا، قال: فما قال فيها ابن مسعود؟ قال: قلت: أعطى الأخت النصف، والأم ثلث ما بقي، والجد الثلثين، لأنه كان لا يفضِّل أمًّا على جدّ، قال: فما قال فيها زيد بن ثابت؟ قال: قلت أعطى الأم الثلث، وجعل ما بقي بين الأخت والجدِّ للذكر مثل حظ الأنثيين، لأنه يجعل الجد كأحد الأخوة إلى الثلاث، قال: فزمَّ بأنفه، ثمَّ قال: فما قال فيها أبو تراب؟ قال: قلت: أعطى الأم الثلث، والأخت النصف، والجد

السدس، قال: فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: فإنه المرء يُرْغَبُ عن قوله)، وذكر محقق الكتاب في الحاشية أن المرصفي علّق في كتابه رغبة الآمل ٣ /١٧٩ بقوله: (كذب الحجاج، وإنما حمله على ذلك بغضه لأمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه، ومذهبه في الجدِّ هو الحق).

وليس علم الإمام حصرًا في باب، فقد كان أعلم خلق الله بعلم رسول الله، ذكر البلاذري في أنسابه ٤٠٦/٢ رواية بسندها عن أبي إسحاق قال: (مرَّ رجل على سلمان فقال: أرى عليًا يمرُّ بين ظهرانيكم فلا تقومون فتأخذون بحجزته، فوالذي نفسي بيده لا يخبركم أحد بسرِّ نبيكم بعده)!!!.

– أمر النبي بسدِّ الأبواب إلاّ باب علي.

والوسام المذكور كرامة للإمام عليه السلام من الله لم يشركه أحد من المسلمين فيها رواه الترمذي في سننه برقم ٣٨١٥، وفسره الترمذي بحديث آخر في سننه أيضًا برقم ٣٨١١ عن أبي سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: «يا علي لا يحِلُّ لأحدٍ أن يُجنِبَ في هذا المسجد غيري وغيرك»، وقد فسَّر الحديث أيضًا ضرار بن صُرَد في سنن الترمذي بقوله: (لا يحلُّ لأحد يستطرقه جنبًا غيري وغيرك)، وروى أحمد في مسنده برقم ٢٦١ عن زيد بن أرقم أنه (كان لنفر من أصحاب رسول الله أبواب شارعة في المسجد قال: فقال يومًا: «سدُّوا هذه الأبواب إلاّ باب علي». قال: فتكلَّم بعضهم. قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أما بعد فإني أمرت بسدِّ الأبواب إلاّ باب علي، وقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئًا ولا فتحته وإنما أمرت بشيء فاتَّبعته» ورواه أيضًا في مسنده

برقمي ٢٧١و ٢٧٢، عن شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بسدّ الأبواب إلا باب علي).

وغريب أن يذهب ابن كثير البداية والنهاية ٤٥٦/٥ إلى القول بعد أن ذكر الحديث «ما أنا فتحته ولكن الله فتحه»: (وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه السلام في مرض الموت بسدّ الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر الصدِّيق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه السلام، وفيه إشارة إلى خلافته)، وكأنه لا يعلم أن بيت فاطمة بجانب بيته صلوات الله عليهما، يعرفه كل من زار بيته الشريف، والأغرب من هذا أنه روى حديثين بعد قوله ذاك، الأوَّل عن أبي سعيد الخدري قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لعلي: «يا علي لا يحلُّ لأحدٍ يجنبُ في المسجد غيري وغيرك..لا يحلُّ لأحد يستطرقه جنبًا غيري وغيرك»)، والثاني عن أم سلمة قالت: (خرج النبيُّ صلى الله عليه وسلّم في مرضه حتى انتهى إلى صرحة المسجد فنادى بأعلى صوته: «إنه لا يحِلُّ المسجدُ لِجُنُبٍ ولا لِحائضٍ إلاَّ لمحمَّدٍ وأزواجه، وعلي وفاطمة بنت محمد ألا هل بيَّنت لكم الأسماء أن تَضِلُّوا»)، فكيف ينسجم هذا مع اجتهاده، وما رواه.

وروى أحمد في مسنده برقم ٢٧١ عن ابن عمر قال: (كنا نقول في زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم رسول الله خير الناس، ثم أبو بكر ثم عمر، ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، زوَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته، وولدت له، وسدَّ الأبواب إلاَّ بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر).

وكان ابن عساكر قد أسهب في ذكر روايات الحديث في ترجمته عليه السلام ١/٢٧٥-٣٠٦ بتاريخه، وكأنه أراد استقصاء أقوال الصحابة لتوثيق الحدث العظيم وحكايته.

- علي أحب خلق الله إلى الله.

والوسام المذكور كرامة أخرى للإمام عليه السلام من الله، وهو من كراماته المشهورة، ويسمى بحديث الطير، ذكره الترمذي في سننه برقم ٣٨٠٥ عن أنس بن مالك قال: (كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم طيرٌ فقال: « اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير فجاء عليٌّ فأكل معه»)، والحديث مرويٌّ عنه من غير وجه.

ورواه البلاذري في أنسابه ٣٧٨/٢ والذهبي في ٦٣٣ وابن الأثير في أسده ٦٠٦/٣ عن أنس أيضًا، وقال: (وله طرق كثيرة عن أنس متكلّم فيها، وبعضها على شرط السنن، ومن أجودها حديث قطن بن نُسيْر شيخ مسلم، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا عبد الله بن المثنى، عن عبد الله بن أنس بن مالك، عن أنس قال: أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم حَجَل مشويٌّ فقال: «اللهم ائتني بأحبِّ خلقِكَ إليك يأكل معي») وأضاف ابن الأثير في أسده ٣/ ٦٠٧ في روايته (فجاء أبو بكر فردَّه، ثمَّ جاء عثمان فردَّه، فجاء علي فأذن له)، وقال: (ذِكْر أبي بكر وعثمان في هذا الحديث غريب جدًّا. وقد روي من غير وجه عن أنس، ورواه غير أنس من الصحابة).

وذكره ابن حجر في مطالبه العالية ٦١/٤ برقم ٣٩٦٢ عن أنس أيضًا، وفيه، فسمع رسول الله صوته فقال: « انظر من هذا ؟» فخرجت، فإذا هو علي، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبرته فقال: « اللهم والِ،

اللهم والِ»، وكرر روايته برقم ٣٩٦٣ بلفظ البزار، وروى ما يقاربه عن سفينة صاحب زاد النبي برقم ٣٩٦٤.

وقد استغرق حديث الطير خمسين صفحة من الجزء الثاني من كتاب ترجمته لأبن عساكر من ١٠٥ -١٥٥، ورواه من أربعة وأربعين سندًا بطرق مختلفة موثّقة عن أمّة من الصحابة والتابعين.

واحتجَّ به المأمون من بين ما احتجَّ به على الفقهاء في أفضليَّة علي عليه السلام على غيره بحديث الطَّير، نقل ابن عبد ربه في العقد ٩٤/٥ قال المأمون: (تعرف حديث الطير؟ قلت: نعم. قال: فحدثني به.قال: فحدَّثته الحديث. فقال: يا إسحاق، إني كنت أكلمك وأنا أظنك غير معاند للحق، فأما الآن فقد بان لي عنادك، إنك توافق أن هذا الحديث صحيح؟ قلت: نعم، رواه من لا يمكنني ردُّه. قال: أفرأيت أن من أيقن أن هذا الحديث صحيح، ثمَّ زعم أن أحدًا أفضلُ من علي، لا يخلو من إحدى ثلاثة: من أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده مردودة عليه، أو أن، يقول: إن الله عرف الفاضل من خلقه وكان المفضول أحبَّ إليه، أو أن يقول: إن الله عزَّ وجلَّ لم يعرف الفاضلَ من المفضول. فأي الثلاثة أحبُّ إليك أن تقول؟ فأطرقت. ثمَّ قال: يا إسحاق، لا تقل منها شيئًا، فإنك إن قلت منها شيئًا استتبتك، وإن كان للحديث عندك تأويل غير هذه الأوجه فقله. قلت: لا أعلم).

ثمَّ يأتي من بعد الدكتور محمد الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ٣٥٧/٢–٣٥٨ فيتهم كلَّ هذه الأمَّة من المسلمين من صحابة وتابعين ومحدثين بالكذب والافتراء، ولست أدري كيف

يتهم بعض كتب الصحاح، وهي بعيدة عند أمة من المسلمين عن الاتهام بعد توثيقها الحديث، ويدَّعي -ولا أدري كيف سيغفر الله له - أن هذا الحديث من الأحاديث الضعيفة الموضوعة، وقال من بين ما قال لتوثيق فريته: (ثم وقفت على مجلَّد كبير في ردِّه وتضعيفه، أي حديث الطائر، سندًا ومتنًا للقاضي أبي بكر البقلاني - ولا أدري أين وقف على هذا المجلَّد الكبير وقد أحال في الهامش على البداية والنهاية ٣٥٤/٧ - وقال ابن الجوزي: قد ذكره ابن مردويه من نحو عشرين طريقًا كلّها مظلم - وإذا كانت طرق ابن مردويه مظلمة بزعم ابن الجوزي فقد روى الحديث ابن عساكر من أربعة وأربعين طريقًا في ترجمته عليه السلام في تاريخه ١٠٥/٢ -١٥٥، وكلها مشرقة ليست كليله الذي خاض فيه - وقال ابن تيمية: حديث الطائر من المكذوبات الموضوعات عند أهل العلم والمعرفة -فهنيئًا لك أيها الدكتور المحقق الذي لا أدري من أين نلت تلك الشهادة التي ذكرتها على غلاف كتابك بلا إشارة إلى مصدرها في الوقت الذي أشرت فيه إلى مصدر شهادتك للماجستير من جامعة أم درمان -وقال الزيلعي: كم من حديث كثرت رواته وتعدَّدت طرقه، وهو حديث ضعيف)، وصدق الزيلعي في ما قال، فكم من حديث واهٍ وثّقه الدكتور الصلابي هذا، ولا أدري هل من الإسلام في شيء كل هذه البغضاء التي يكنُّها هذا الرجل لشيعة أهل البيت، وليس حديث الطير بزعم الصلابي الذي وضعته الإماميَّة من شيعة أهل البيت بزعمه، وإنما وضعوا أيضًا حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، ولا أحيله إلاَّ على ترجمة أمير المؤمنين في تاريخ ابن عساكر لعلَّ الله يبصِّره الحقَّ فيعود إليه، وذكر أن من بين ما وضعوه أيضًا حديث الدار، ولعلَّ ما كتبته عن هذا

الحديث يبصّره بالحقِّ أيضًا، وإن شاء فليعد إلى ما ورد في ترجمة الإمام أيضًا في تاريخ ابن عساكر ١/٩٧-١٠٦ وما أورده محققه في حواشيه لعلّه يبصر الحقَّ، وما أظنه لم يبصره، ولكن.!!!

– أنت أخي في الدنيا والآخرة.

وقد ذكرت الوسام ومناسبته أمّة من المحدثين وأصحاب السير والمؤرخين كان الترمذي من بينهم وهو في سننه برقم ٣٨٠٤، وذكره أيضًا ابن سعد في طبقاته ٢٣/٣، أما ابن الأثير فقد ذكر في معرض روايته نومه عليه السلام بفراشه في كتابه أسد الغابة ٥٩٩/٣ أن المؤاخاة لم تكن برغبة من رسول الله صلى الله عليه وآله فحسب، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي آخى بينهما، وأي مجدٍ يطاول مجد عليٍّ أن يكون أخا المصطفى صلى الله عليه وسلم في الدارين، وأزعم أنه من الصَّعب تقليده بهذا الوسام وسط أمّة من المسلمين من المهاجرين والأنصار حتى وإن كان راغبًا بذلك، وإذا كان قد اتّخذه أخًا برغبته قبل ذلك اليوم، فإن الأمر بالمؤاخاة أصبح هذه المرَّة قضاء ربّانيًا ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلّم دونما حرج أو تردد، وقد روى الترمذي الحديث عن ابن عمر قال: (آخى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه فقال يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم« أنت أخي في الدنيا والآخرة»).

وذكر ابن الأثير في كتابه أسد الغابة ٥٨٧/٣ أن رسول الله صلوات الله عليه آخاه مرّتين (آخى بين المهاجرين، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعلي في كلٍّ واحدة منهما: « أنت أخي في الدنيا والآخرة»).

أما ابن حجر في مطالبه العالية ٤/ ٥٨ فقد ذكر برقم ٣٩٥٤ أن المرتضى عليه السلام قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم آخى بين الناس وتركني، فقلت: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك وتركتني، قال: « ولم ترني تركتك، إنما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك، قال: فإن حاجّك أحد فقل: إني عبد الله وأخو رسول الله، لا يدّعيها أحد بعدك إلاّ كذّاب »).

وروى ابن عبد البرّ بسنده في استيعابه ٣/ ١٠٩٨ عن أبي طفيل قال: (لما احتضر عمر جعلها شورى بين علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد، فقال لهم علي: أنشدكم الله؛ هل فيكم أحد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبينه - إذ آخى بين المسلمين - غيري؟ قالوا: اللهم لا).

- يا علي زادك الله إيمانًا وعلمًا.

وهذا الوسام رواه ابن حجر في مطالبه العالية ٤/ ٥٨ برقم ٣٩٥٥ وشكّ راويه محمَّد أهو عن زيد بن أسلم، أو عن محمد بن المكندر، وخلاصة الحكاية فيه أن جماعة من الملائكة كانوا بزيارة النبي، فطلب من علي عليه السلام عدم السماح لأحد بالدخول عليه، فجاء عمر مستأذنًا فقال له علي: ليس على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن، فظن عمر أن ذلك من سخطة من الرسول، فرجع يستأذن ثانية، فأخبره علي بأن زورًا من الملائكة عنده، فسأله عمر عن عددهم، فقال ثلاثمائة وستون ملكًا، ثم أمر الرسول بفتح بابه بعد ذهابهم، فدخل عمر وقال للرسول إن عليًّا أخبره بزواره وعددهم، فسأل رسول الله عليًّا عن كيفية علمه بعددهم، فقال: سمعت ثلاثمائة وستين نغمة،

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره ثم قال: « يا علي زادك الله إيمانًا وعلمًا ».

وحكاية أخرى ذكرها أبو نعيم في حليته ١/٦٥ بسنده أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما قال: « ليهنك العلم يا أبا الحسن؛ لقد شربت العلم شربًا، ونهلته نهلاً».

– أنت بمنزلة الكعبة، تؤتى ولا تأتي.

والوسام المذكور ذكره ابن الأثير في أسده ٣/٦٠٨ عن الصُّناجي عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: (أنت بمنزلة الكعبة، تؤتى ولا تأتي، فإن أتاك هؤلاء القوم فسلّموها إليك - يعني الخلافة - فاقبل منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك).

وفي يقيني أن من أسباب سكوت الإمام عن حقّه في الخلافة ما أخبره الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من تبدُّل الأحوال بعد رحيله، وعليه أن يصبر عليها، خوفًا على الدعوة المباركة من الفتن وتضارب الأهواء وتكالب الزمان، فآثر السكوت والاحتجاج السلمي والمراقبة خوفًا من انهيار الدعوة، وعودة الناس إلى جاهليَّتهم.

ولا أدلَّ على ذلك مما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٢٩٨ بسنده مرفوعًا عن عاصم بن عمرو بن قتادة قال: (لَقِيَ علي عليه السلام عمر، فقال له عليٌّ عليه السلام: أنشدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقي إلى عنقك، فقال: جدع

الله أنف من يُنقِذك منها! لا ولكن جعلني الله عَلَمًا، فإذا قمت فمن خالفني ضَلّ).

– هذا سيد العرب.

والوسام المذكور ذكرته السيِّدة عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما روى الذهبي في تاريخه ٦٣٥ قال: (وقال يحيى الحماني: ثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن عائشة قالت: كنت قاعدة مع النبي صلى الله عليه وسلّم، إذ أقبل علي فقال: يا عائشة هذا سيد العرب؟ قلت: يا رسول الله، ألست سيد العرب؟ قال: أنا سيد ولد آدم، وهذا سيد العرب).

ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/٢٦١–٢٦٣ بطرق مختلفة، عن سعيد بن جبير، ورواه عن ابن أبزي عن عائشة برواية أخرى قالت: (أقبل علي بن أبي طالب يومًا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «هذا سيد المسلمين»، فقلت: ألست سيد المسلمين يا رسول الله؟ فقال: «أنا خاتم النبيين، ورسول ربّ العالمين»).

وروى الحديث أبو نعيم في حليته ١/٦٣ بسنده عن الحسن بن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ادعوا لي سيِّد العرب» فقالت عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال: « أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب» فلمّا جاء أرسل إلى الأنصار فأتوه فقال لهم: « يا معشر الأنصار ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلّوا أبدًا؟» قالوا بلى يا رسول الله قال: « هذا عليٌّ فأحبوه بحُبِّي، وأكرموه بكرامتي، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عزَّ وجلّ».

– علي أول من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامة وهو يعسوب المؤمنين.

والوسام المذكور ذكره البلاذري في أنسابه ٢/٣٦١–٣٦٢ وذكر مناسبته بسنده عن أبي سخيلة قال: (مررت أنا وسلمان بالربذة على أبي ذر فقال: إنه ستكون فتنة فإن أدركتموها فعليكم بكتاب الله وعلي بن أبي طالب، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ... الحديث).

– أنت أوّل من آمن بي، وأوّل من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرّق بين الحقّ والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين؛ والمال يعسوب الكافرين؛ وأنت أخي ووزيري، وخير من أترك بعدي، تقضي ديني، وتنجز وعدي.

والوسام المذكور رواه ابن أبي الحديد في شرحه ١٣/١٥٧ بسنده عن أبي رافع، الذي قال: (أتيت أبا ذرّ بالربذة أودّعه، فلما أراد الانصراف، قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة، فاتّقوا الله، وعليكم بالشيخ عليّ بن أبي طالب، فاتّبعوه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له: الحديث).

ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/٨٧–٨٨ عن سلمان وأبي ذرّ قالا: (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد عليّ فقال: «ألا إن هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمّة يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظالمين»)، ورواه أيضًا عن أبي سخيلة عن سلمان، وعن أبي رافع.

– أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم فليأت بابه.

وهو من أشهر أوسمة المرتضى عليه السلام وهو ليس بكثير على أبي السبطين، فمن يكون باب علم النبي سواه إن لم يكن، وقد رواه ابن الأثير في أسد الغابة ٥٩٦/٣ عن ابن عباس، ولا أدل على صحّته ما رواه ابن الأثير من قول سعيد بن المسيَّب في المصدر السابق: (ما كان أحد من الناس يقول: (سلوني) غير علي بن أبي طالب)، ومن سؤال عبد الملك بن أبي سلمان لعطاء في المصدر السابق أيضًا (أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟ قال: لا، والله لا أعلمه)، وقد رواه ابن عبد البر في استيعابه ١١٠/٣، ومما ذهب إليه عبيدة السليمان الذي قال: (صحبت عبد الله بن مسعود سنة ثم صحبت عليًّا عليه السلام، فكان فضل عليٍّ على عبد الله في العلم كفضل المهاجر على الأعرابي) وهو في فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٥٥ برقم ٢٧، برواية ابن عباس في المصدر السابق أيضًا: (لقد أعطي علي تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر)، ورواه ابن عبد البرّ في استيعابه ١١٠٤/٣ أيضًا ومن قول عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة الذي ذكر في المصدر السابق أيضًا لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص حينما سأله عن سبب ميل الناس لعلي عليه السلام: (يا ابن أخي، إن عليًّا كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والفقه في السنَّة، والنَّجدة في الحرب، والجود في الماعون)، ولقد علّق ابن الأثير في المصدر السابق ٥٩٧/٣ (وله في هذا أخبار كثيرة نقتصر على هذا منها، ولو ذكرنا ما سأله الصحابة مثل عمر وغيره رضي الله عنهم لأطلنا)، وذكر أحمد من بين ما ذكر في كتاب فضائله ٣٠١ برقم ٢٢٣ أن المرتضى عليه السلام سئل عن نفسه فقال: (إنِّي أحدِّث بنعمة ربِّي كنت والله إذا سألت

أُعطيت، وإذا سكتُّ ابتُديت، فبين الجوانح منّي علم جمٌّ)، وما إلى ذلك من أخبار عن علمه وقضائه أوردنا بعضها في مواضع عدّة.

وروى الحديث أيضًا ابن عبد البر في استيعابه ١١٠٢/٣، ورواه أيضًا ابن عساكر في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٤٦٤/٢-٤٨١ بطرق كثيرة، ووثّقه بأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حول علمه وحكمته استغرقت سبع عشرة صفحة من ذلك الجزء، ولعلَّ خير شهادة توثّق أعلميَّته بسنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه شهادة عائشة التي رواها ابن عبد البر في استيعابه ١١٠٤/٣ بسنده عن جبير الذي قال: (قالت عائشة: من أفتاكم بصوم عاشوراء؟ قالوا علي. قالت: أما إنه لأعلم الناس بالسنَّة).

وعلى الرغم من شديد عداوة معاوية بن أبي سفيان لعليٍّ، فقد روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٤٨٣/٢ قول معاوية: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرُّ عليًا بالعلم غرًّا).

ـ عليٌّ أمير المؤمنين، وسيِّد المسلمين، وقائد الغرِّ المحجلين، وخاتم الوصيين.

والوسام المذكور ذكره أبو نعيم في حليته ٦٣/١ بسنده عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا أنس أوّل من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين ... الحديث» قال أنس: قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته. إذ جاء علي فقال: «من هذا يا أنس؟» فقلت: علي، فقام مستبشرًا فاعتنقه، ثم جعل يمس عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق علي بوجهه، قال عليّ: يا رسول الله لقد رأيتك صنعت شيئًا ما صنعت بي من قبل؟ قال: «وما يمنعني وأنت تؤدي عني، وتسمعهم صوتي، وتبيِّن لهم

ما اختلفوا فيه بعدي»، والحديث بسنده عن أنس أيضًا وعن الإمام الرضا عليه السلام في صحيفته ٤٧، ورواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢/ ٤٨٧، ورواه أيضًا في ٢/٢٥٦-٢٥٧ بمناسبة أخرى عن عبد الله بن أسعد بن زرارة الذي قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي انتهيت إلى ربّي عزَّ وجلَّ فأوحى إليَّ أو أخبرني - جعفر شك (كذا ورد في الأصل) - في علي ثلاث: إنه سيد المسلمين، وولي المتقين، وقائد الغرِّ المحجَّلين»، ورواه أيضًا عن ابن زرارة بسند آخر فيه زيادة.

ومما يوثق ولايته، وما جاء في الحديث من معنى ما رواه ابن عساكر ٢/ ٩٧ في ترجمته بسنده عن أبي حيان التميمي عن أبيه عن علي عليه السلام قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تولّى عليًّا فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله عزَّ وجل»، وروايته بسندها في الصفحة نفسها عن ابن عباس عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «علي أقضى أمتي بكتاب الله، فمن أحبني فليحبه، فإن العبد لا ينال ولايتي إلا بحب علي»، وروى أيضًا في الصحيفة نفسها رواية بسندها عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «يا عبد الله أتاني ملك فقال: يا محمد ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ على ما بعثوا؟! قال: قلت: على ما بعثوا؟! قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب»، ونقل ابن عساكر قول الحاكم حول سند الحديث: (قال الحاكم: تفرد به علي بن جابر عن محمد بن خالد عن محمد بن فضيل، ولم نكتبه إلاّ عن ابن مظفر، وهو عندنا حافظ ثقة مأمون).

ـ إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٦٢ برقم ١٥٩ بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: (كنا نمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم فانقطع شسع نعله فتناولها علي يصلحها ثم مشى فقال: « الحديث»، قال أبو سعيد: فخرجت فبشَّرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكترثه فرحًا كأنَّه شيء قد سمعه).

وروى أيضًا في الكتاب نفسه برقم ٢٣٤ عن ابن عباس الذي قال: إن عليًّا عليه السلام كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: (إن الله يقول: ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إنِّي أخوه ووليّه وابن عمِّه ووارثه. ومَن أحقُّ منِّي؟).

وروى ابن كثير في البداية والنهاية ٤٧٨/٥ بسنده عن أبي سعيد قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله، قال: «لا» فقال عمر أنا هو يا رسول الله، قال: «لا ولكن خاصف النعل»، وكان قد أعطى عليًّا نعله يخصفه)، والرواية أيضًا في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٢٧٩ برقم ٢٠٧ عن أبي سعيد أيضًا، وفيه (كنا جلوسًا في المسجد، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي في بيت فاطمة، وانقطع شسع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاها عليًّا يصلحها ثم جاء فقام علينا فقال: ..الحديث)

وذكر ابن الأثير بسنده في أسده ٦١٠/٣ عن أبي سعيد رواية أخرى قال فيها: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال الناكثين والقاسطين

والمارقين، فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرتنا بقتال هؤلاء، فمع من؟ فقال: مع علي بن أبي طالب، معه يقتل عمار بن ياسر).وروى ابن الأثير في أسده ٦١١/٣ عن مخنف بن سليم قال: (أتينا أبا أيوب الأنصاري، فقلنا قاتلت بسيفك المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جئت تقاتل المسلمين؟ قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين)، وروى في أسده ٦١١/٣ أيضًا عن علي بن ربيعة قال: (سمعت عليًا على منبركم هذا يقول: عهد إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين)، وذكر أيضًا أن الشعبي قال: (ما مات مسروق حتى تاب إلى الله تعالى من تخلفه عن القتال مع علي).

وروى ابن الأثير أيضًا عن عبد الله بن حبيب عن أبيه قال: (قال ابن عمر حين حضره الموت: ما أجد في نفسي من الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية).

وروى عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عمر أنه قال: (ما آسي على شيء إلا أني لم أقاتل مع علي بن أبي طالب الفئة الباغية). وأخرجه أحمد في المسند ٣٣/٣ كما هو هنا، وانظر ٨٢/٣، ٦/٦، ١٢١، ١٦٧، ٢٦٠، ٢٤٢، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١٢٣/٣، ١٢٢، وصحّحه الذهبي، وهو في مجمع الزوائد للهيثمي ١٣٣/٩، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وانظر حلية الأولياء ٦٧/١، وتاريخ بغداد ١٢٣/١.

ـ علي أحبُّ الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والوسام مرويٌّ عن السيِّدة عائشة، رواه الذهبي في تاريخه ٦٣٥ عن أبي الجحّاف (عن جُمَيع بن عُمير التيمي قال: دخلت مع عمَّتي على عائشة،

فسُئِلتْ: أيُّ الناس كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: فاطمة، فقيل: من الرجال، فقالت: زوجها، إن كان ما علمت صوّامًا قوّامًا)، وقال: أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب)، وهو من منقولات توفيق أبو علم في كتابه عن الإمام ٧٤، ومن منقولاته أيضًا ما رواه عن ابن عباس قوله: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي فجاء، فقال له: «أنت سيّدٌ في الدنيا، وسيّدٌ في الآخرة، من أحبّك فقد أحبّني، وحبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوُّك عدوّي، وعدُّي عدو الله، طوبى لمن أحبَّك، والويل لمن أبغضك»، والحديث عن ابن عبَّاس أيضًا في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٢٩٠ برقم ٢١٦، وروى الحاكم في المستدرك٣/١٣٠ أن رجلاً قال لسلمان ما أشدَّ حبك لعليٍّ! قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: « من أحبَّ عليًّا فقد أحبّني، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني».

– يا علي إنه من فارقني فقد فارق الله، ومن فارقك فقد فارقني.

ذكر هذا الوسام أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ١٢٢ برقم ٨٥ عن أبي ذر، ويقرب منه ما رواه الحاكم في المستدرك ٣/١٢١ وهو فيه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع عليًّا فقد أطاعني، ومن عصى عليًّا فقد عصاني»، ورواية الفضائل في ترجمته عليه السلام بتاريخ دمشق ٢/٢٦٧، وروى ابن عساكر بسنده عن أبي ذر أيضًا أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلّم قال لعليٍّ عليه السلام: «من أطاعك أطاعني – وزاد خيثمة أحد رجال السند – ومن أطاعني أطاع الله – وقالا: ومن عصاك عصاني، ومن

عصاني عصى الله عزَّ وجل»، وذكر أيضًا رواية أخرى عن أبي ذرٍّ أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم «من أطاعني أطاع الله، ومن عصاني عصى الله، ومن أطاع عليًّا أطاعني، ومن عصى عليًّا عصاني»، وللحديث في المصدر السابق ٢٦٨/٢ روايات أخرى عن أبي ذر وعن أبي الجحاف.

— النظر إلى وجهه عبادة.

والوسام المذكور رواه الحاكم في المستدرك ١٤١/٣ بسنده عن عبد الله بن مسعود، وعن عمران بن حصين، أما ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣٩١/٢–٤٠٧ فقد روى الحديث المذكور عن أبي بكر، وعثمان، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، ومعاذ بن جبل، وعمران بن الحصين، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأنس بن مالك، وثوبان، والسيدة عائشة، ومن بين ما ذكره في ٣٩١/٢ (عن عائشة قالت: رأيت أبا بكر الصديق يكثر النظر إلى وجه علي بن أبي طالب. فقلت: يا أبة إنك لتكثر النظر إلى علي بن أبي طالب. فقال لي: يا بنية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «النظر إلى وجه علي عبادة»)، وفي روايته عن عمران بن حصين ٤٠٠/٢ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم زار عمران في مرضٍ ألمَّ به، وطلب من أخيه عليه السلام أن يزوره بعد أن أعلمه بمرضه، (فسار عليٌّ إلى عمران فنظر إليه عمران مقبلاً، فجلس إليه ونظر إليه ثم قام، فأتبعه عمران بصره حتى غاب عنه، فقال له جلساؤه: قد رأيناك وما صنعت. قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «النظر إلى عليٍّ عبادة».

ـ أوّلكم ورودًا على الحوض، أوّلكم إسلامًا علي بن أبي طالب.

روى هذا الوسام ابن عبد البرّ في استيعابه ٣/١٠٩٠–١٠٩١ عن سلمان المحمَّدي رضوان الله عليه من غير طريق، ورواه عن سلمان أيضًا ابن الأثير في أسد الغابة ٣/٥٩٠، وابن حجر في مطالبه العالية ٤/٥٧ برقم ٣٩٥٢.

وروى أيضًا في مطالبه ٤/٦٦ برقم ٣٩٧٧ عن جابر قال: (جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن مضطجعون في المسجد فضربنا بعسيب كان بيده رطبًا وقال: «ترقدون في المسجد؟ إنه لا يُرقَدُ فيه» فانجفلنا وانجفل معنا علي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعال يا علي، إنه يحلُّ لك في المسجد ما يحلُّ لي، والذي نفسي بيده إنك لتذود عن حوضي الماء يوم القيامة، كما يذاد البعير الضال عن المال بعصا لك من عوسج، ولكأني أنظر مقامك من حوضي».

ـ أبو تراب.

وهو من أحبِّ أوسمة الإمام إلى نفسه، وقد بيَّن الجاحظ سرَّ سعادته عليه السلام بهذا الوسام إذ قال في بيانه ٣/٢٠٤ (وذكر الله آدم الذي هو أصل البشر فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَاب ﴾، ولذلك كنَّى النبي عليه السلام عليًّا أبا تراب)، وقد اختلف في مناسبته، أما ابن إسحاق فقد روى كما جاء في السيرة ٢/ ٢٥٣ عن رفيق عليٍّ عليه السلام عمار بن ياسر رضوان الله عليه، أن الوسام المذكور ناله في غزوة ذات العشيرة، أما مناسبته فيذكر أن عليًّا عرض عليه رؤية طريقة عمل المدلجين في ترميم آبارهم ورعاية نخيلهم، وما إن نظرا ساعة من النهار حتى غشيهما النعاس من شدَّة التعب، فاختارا مكانًا مناسبًا في أرض ناعمة التراب فناما بها، ولم يشعرا إلا والرسول

صلى الله عليه وآله يحركهما برجله الشريفة، ثمَّ قال لأخيه «مالك يا أبا تراب» لما يرى عليه من التراب، ثمَّ التفت صلّى الله عليه وآله وسلم إليهما فقال: « ألا أحدثكما بأشقى النَّاس رجلين ؟» قلنا : بلى يا رسول الله، قال: « أُحَيْمِرُ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه » ووضع يده على قرنه « حتى يبل منها هذه » وأخذ بلحيته. وذكر المناسبة البلاذري في أنسابه ٣٤٥/٢ أيضًا، ولعلّ الرواية المذكورة أقرب الروايات إلى القبول، إذ لابد لفرح الإمام عليه السلام من سبب بهذا الوسام، فكان بشارتين، بشارة في كونه كمثل آدم وعيسى عليهما السلام كما أشار الجاحظ، ثمَّ بشارة بالشهادة التي مازال ينتظرها المرتضى فكانت آخر أوسمته عليه السلام، وقد أيد المبرد في كامله ١١٦٦/٣ أن المناسبة كانت في غزوة ذات العشيرة، ورواه عن عمار أيضًا، كما روى حكاية أشقى النَّاس عن عمار أيضًا.

أما مسلم فقد ذكر في صحيحه برقم ٢٤٠٩ مناسبة أخرى للوسام عن سهل بن سعد، (استعمل على المدينة رجل من آل مروان فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتمَ عليًّا ، فأبى سهل. فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا تراب. فقال سهل: ما كان لعلي اسم أحبَّ إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح إذا دعي به، فقال له: أخبرنا عن قصَّته لم سمِّيَ أبا تراب؟ قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج، فلم يقِلْ عندي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان: انظر أين هو، فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقِّهِ، فأصابه ترابٌ فجعل رسول الله ﷺ يمسحه

عنه ويقول: قم أبا التراب! قم أبا التراب)، وذكر الرواية الذهبي في عهده ٦٢٢–٦٢٣ عن سهل أيضًا

وذكر الخبر أيضًا ابن عبد البر في استيعابه ١١١٨/٣ عن الطبري عن سهل بن سعد، مع اختلاف فيها، إذ لم يذكر فيها مغاضبة قال: (دخل علي على فاطمة، ثم خرج من عندها فاضطجع في صحن المسجد، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم على فاطمة رضي الله عنها، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: هو ذاك مضطجع في المسجد، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فوجده قد سقط عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: اجلس أبا تراب، فوالله ما سمّاه به إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، والله ما كان اسم أحبَّ إليه منه).

ويغلب على ظنّي أن أبا الحسنين نال الوسام المذكور أول ما ناله في غزوة ذات العشيرة، أما حكاية المغاضبة فهي بعيدة عن واقعهما، فلهما من كريم خلقهما عليهما السلام ما يجنبهما المغاضبة على أي حطام، ولا يستبعد أن يقيل الإمام في مسجد رسول الله، طلبًا للثواب، أو أن سانحة أدركته وهو منصرف إلى العبادة فيه، وليس غريبًا أن تدركه بعد قيامه الليل بين يدي خالقه سبحانه وتعالى، ولا يستبعد أيضًا أن يسأل رسول الله ابنته عن أخيه صلوات الله عليهم فتخبره بمكان قيلولته، فيقول له ما قاله له في ذلك اليوم على سبيل التّحبيب والتذكير، بل لا يستبعد أنه ناداه به في مناسبات أخرى ذكر إحداها ابن حجر في مطالبه ٦٤/٤ برقم ٣٩٦٩ عن علي عليه السلام قال: (طلبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدني في جدول نائمًا، فقال: « قم، ما ألوم الناس يسمونك أبا تراب» قال: فرآني كأني وجدت في نفسي من ذاك، فقال: « قم والله لأرضينك، أنت أخي،

وأبو ولديَّ، تقاتل عن سنتي، وتبرئ ذمتي، من مات في عهدي فهو أمين الله، ومن مات في عهدك فقد قضى نحبه، ومن مات يحبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان ما طلعت شمس أو غربت. ومن مات يبغضك مات ميتة جاهلية وحوسب بما عمل في الإسلام».

– أبشر يا علي فإني لم أسأل الله شيئًا إلاّ سألت لك بمثله.

والوسام المذكور ذكره البلاذري في أنسابه ٣٥٧/٢، أما مناسبته فنقلها عن عيسى بن زيد في إسناده قال: (قال علي: كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من الليل يقوم فيها، فقام فصلى، ثم انصرف إليَّ فقال: ... الحديث)، وقد خرَّج الحديث المذكور كاظم الفتلاوي في كتابه الكشاف المنتقى ٤٥٧ من ثمانية عشر مصدرًا، وهو فيه عن عبد الله بن الحارث برواية كنز العمال، أما مناسبته فيه فهي عن علي عليه السلام فقال عبد الله لعلي: (أخبرني بأفضل منزلتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم، بينا أنا نائم عنده وهو يصلّي، فلمّا فرغ من صلاته قال: «يا علي ما سألت الله عزَّ وجل من الخير إلاّ سألت لك مثله، وما استعذت الله من الشرِّ إلاّ استعذت لك مثله».– أنا دار الحكمة وعلي بابها.

والوسام المذكور رواه الترمذي في سننه ٣٨٠٧ عن الصُّنابحي عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنا دار الحكمة وعلي بابها ») وعلق الترمذي بقوله: هذا حديث غريب منكر، روى بعضهم هذا الحديث عن شريك، ولم يذكروا فيه عن الصنابحي، ولم نعرف هذا الحديث عن أحد من الثقات غير شريك، وفي الباب عن ابن عباس. ولعل الغرابة والإنكار

يزولان إذا علمنا أن أحمد قد رواه في كتاب فضائله عليه السلام ٢٧٥ برقم ٢٠٥ ، ورواه ابن عساكر في ترجمته ٤٥٩/٢ عن الصنابجي أيضًا ، ولم يكن عندهما غريبًا ولا منكرًا، ورواه أبو نعيم في حليته ٦٤/١ بسنده عن الصنابجي ، كما رواه أيضًا عن الأصبغ بن نباتة والحارث عن علي ، وعن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلوات الله عليه مثله.

ـ الحقُّ مع هذا.

والوسام في مطالب ابن حجر ٦٤/٤ برقم ٣٩٧٤ عن أبي سعيد قال: (كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا بلى! قال: « فإن خياركم الموفون المطيبون، إن الله يحب الخفي التقي». قال: ومرَّ علي بن أبي طالب فقال: « الحقُّ مع هذا ، الحقُّ مع هذا»

ـ علي مع القرآن والقرآن مع علي.

والوسام المذكور رواه الحاكم في مستدركه ١٢٤/٣ عن أم سلمة ، أما مناسبته فذكر أن ثابت مولى أبي ذرٍّ قال: (كنت مع علي رضي الله عنه يوم الجمل ، فلمَّا رأيت عائشة دخلني بعض ما يدخل الناس ، فكشف الله عنِّي ذلك عند صلاة الظهر ، فقاتلت مع أمير المؤمنين ، فلمَّا فرغت أتيت أم سلمة فقلت: إني والله ما جئت أسأل طعامًا ولا شرابًا ، ولكنِّي مولى لأبي ذرٍّ ، فقالت: مرحبًا ، فقصصت عليها قصَّتي ، فقالت: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟ قلت إلى حيث كشف الله ذلك عنِّي عند زوال الشَّمس. قالت: أحسنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: ... الحديث)

ـ حديث ردُّ الشمس

وحديث ردِّ الشمس رواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/٢٨٣—٣٠٥ بسنده من طرق كثيرة عن أسماء بنت عميس قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ورأسه في حجر عليٍّ فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلّيت العصر؟ قال: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعة نبيّك فاردد عليه الشمس»، قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت)، كما رواه عن غيرها، وقد خرَّج الحديث أيضًا محقق الترجمة من مصادر كثيرة.

— إن الله أمرني بحبِّ أربعة، وأخبرني أنه يحبُّهم، قيل يا رسول الله، سمِّهم لنا؟ قال عليٌّ منهم يقول ذلك ثلاثًا، وأبو ذرٍّ والمقداد وسلمان، وأمرني بحبِّهم، وأخبرني أنه يُحِبُّهم.

والوسام السابق ذكره الترمذي في سننه برقم ٣٨٠٢ عن ابن بريدة عن أبيه قال: الحديث، قال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من حديث شَريك).

وشئت أن أختم بهذا الوسام، لأن من عجيبات الصدف أن يبقى أبو ذرّ وسلمان والمقداد من خاصَّة الإمام ومن أخلص صحابته له عليه السلام، فلم يستطع الأصفر الرنَّان الذي استهوى كثيرًا من الصَّحابة أن يؤثّر على خلقهم أو سلوكهم إلى النهاية.

عليه السلام

عزَّ على بعضهم السلام على أمير المؤمنين عقب ذكر اسمه، ورآه آخرون - وإن لم يصرِّحوا - نوعًا من التطرف الذي لا يجوز، ولعل بعضهم رآه كفرًا ومروقًا على الدين وبدعة، بعضهم بحسن نيَّة، وبعضهم مكابرة، وبعضهم جهلاً، ولم يكن ذلك بمروق ولا خروج ولا تطرف، فقد اعتاد كثير من أصحاب كتب الحديث أو التاريخ أو الأدب على السلام عليه أو الصلوات أو الترضية أو التكريم، أما صلواتهم وسلامهم فهي سنَّة مؤكدة لا تصحُّ صلواتنا إلاَّ بها، فمن الواجب حينما نصلي أن نصلي على النبي وآله ونسلم فيها، وعليٌّ خير آله كما لا يختلف على ذلك إلاَّ مكابر، بل إن ابن أبي الحديد ذكر في شرح النَّهج ٢٧٣/٦ أن أصحابه من البغداديين (يكرهون إذا ذكروا عليًّا عليه السلام أن يقولوا: صلى الله عليه، ولا يكرهون أن يقولوا: صلوات الله عليه، وجعلوا اللفظة الأولى مختصَّة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلوا الثانية مشتركة بينهما عليهما السلام، ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحد من المسلمين إلاَّ على عليٍّ وحده).

وذكر الدكتور علي محمد محمد الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ٢٣٨/١-٢٣٩ كلامًا عجيبًا في لبسه وتهافته وعدم ترابطه، وفي واتِّهامه أمة من المسلمين بالغلو فيه قال: (إن الأصل عند ذكر الصَّحابة الترضِّي عنهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾)، ولا تحتاج الآية الكريمة إلى إيضاح في أن الترضية

ليست خاصَّة بجميع الصّحابة كما قال، وإنما هي مخصوصة ببعضهم، وقال: (لذلك اصطلح أهل السنَّة على الترضّي على كلِّ صحابيّ يجري ذكره أو يروى عنه حديث، فيقال مثلاً: عن أبي بكر رضي الله عنه، ولم يستعمل السلام – في ما أعلم – عند ذكر أحد منهم، مع إن السلام تحيَّة المسلمين في ما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، على هذا فالترضّي أفضل من السلام قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، وأخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم أن الله تعالى يقول لأهل الجنَّة «أحل عليكم رضواني فلا سخط عليكم أبدًا»)، أما قوله: إن أهل السُّنَّة اصطلحوا على الترضي على كلِّ صحابي يجري ذكره أو يروى عنه حديث، فإنه كلام لا ينبغي أن يصدر عن باحث يدَّعي أنه مختصٌّ بالسيرة وتاريخها ورجالها، ويحمل لقبًا أكاديميًا لا يسمح له بإطلاق الكلام على عواهنه بلا فحص وتنقيب، لأنَّ أمهات كتب السيرة والحديث والتاريخ التي ألَّفها أهل السنة لم تقل بما قال به الباحث الدكتور، ولا أخذت به بالصورة التي ذكرها، ولك أن تنظر في سيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وكتب الصحاح وغيرها إذ يندر أن نعثر فيها على الترضي على أحد من الصحابة باستثناء الخلفاء الراشدين وفي أحيان نادرة، بل لا تقف في كثير من الكتب غيرها على ترضية إلاَّ في الكتب المتأخِّرة، ولا أقول هذا كي أدفع الترضية عن الصّحابة المنتجبين رضوان الله عليهم، ولكن رأيت في كلام الرجل ما يستحقُّ الردَّ لاتهامه طوائف من المسلمين بالتطرُّف في وقت نحن فيه أحوج ما نكون إلى التقارب والتسامح ونبذ الدعوات الطّائفية التي تسيء إلى

الإسلام والمسلمين، قال: (ولكن اصطلح العلماء على أن السلام يختص بالأنبياء لقوله تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾، ولقوله: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾. ولما ورد في حقِّ علي « أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى» أخذ الغلاة كالرافضة يستعملون في حقِّ أمير المؤمنين علي: عليه السلام، أو كرَّم الله وجهه، ولا شكَّ أنه أهل لذلك، لكن يشركه في ذلك جميع الصحابة، وقد وقع هذا في عبارة كثير من النسَّاخ للكتب ومن بعض علماء أهل السنَّة أن ينفرد علي رضي الله عنه بان يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرَّم الله وجهه، هذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغي أن يساوى بين الصحابة في ذلك)، ولا أظنُّ غثًّا كهذا يليق بمن يحمل شهادة جامعيَّة، فالغلاة في بداية حديثه كلُّ من يسلِّم على الإمام أو يكرِّم وجهه، أما تكريم وجهه عليه السلام فإنَّ أممًا من علماء أهل السنَّة وخطبائهم يكرِّمون وجهه ويسلِّمون عليه، ولا أدري هل نتَّهمهم بالتطرُّف، كما أن أمَّة من كبار علماء المسلمين من أهل السنَّة سلَّموا عليه في كتبهم، بل خصَّه بعضهم بالسلام والصلاة عليه لا بسبب المؤاخاة فحسب، وإنما لأن من لم يصلِّ على أهل بيت النبوَّة لا صلاة له، وعلى الرغم من قول الكاتب إنه أهل لذلك، ولكنَّ الصحابة من غير أهل البيت يشاركونه بهذه التحيَّة، فإنَّ ما ذهب إليه اجتهاد ما قال به أحد من علماء المذاهب الإسلامية ولا دعا له.

ونتيجة لكلِّ ما سبق رأيت أن أضع يدك على ما يدحض هذه الدعاوى المغرضة التي لم تظهر إلا في عصر الغلو والطائفيَّة المجيد، لأنَّ التسليم على الإمام ما كان موضع جدل أو نقاش من جميع علماء المسلمين من كلِّ

المذاهب، ولعلَّ ما سأذكره من نصوص يمكن النظر فيها يقطع دابر كلِّ ما يسيء إلى وحدة المسلمين ويدعو إلى فرقتهم.

وروى ابن أبي الحديد أيضًا في شرح النهج ٣٠٥/٤ أنَّ أبان بن عياش قال: سألتُ الحسن البصري عن عليّ عليه السلام، فقال: (... إن عليًا كان في أمره عليًا، رحم الله عليًا وصلى عليه! فقلت يا أبا سعيد، أتقول: صلّى عليه لغير النبي! فقال: ترحَّم على المسلمين إذا ذكروا وصلِّ على النبي وآله، وعليٌّ خير آله).

ولكي لا يبقى شكٌّ أو ريب في نفسك أضع بين يديك الآتي:

ـ الواقدي قال في مغازيه ٥/١: علي عليه السلام، وسلَّمَ عليه في أغلب المواضع التي ذكره بها في مغازيه، وقد جاوزت المئة بكثير.

ـ ابن سعد في طبقاته: سلّم عليه في جميع مواضع التسليم عليه في أجزاء الطبقات.

ـ ابن هشام في سيرته: سلّم عليه في غير موضع منها في ٣٤٢/٣ من سيرته.

ـ ابن ماجة في سننه: سلّم عليه في غير موضع منها ٨٣/١ برقم ٤/١١٧.

ـ ابن قتيبة في عيونه: سلّم عليه في٣٢/١، ١١٥/١، ٢٢٧/٢، ٣٣٥/١، ٤٤٧/١، ١٠٤/٢، ١٣٥/٢، ١٣٩/٢، ١٤٧/٢، ٢٢٧/٢، ٣٨٠/٢، ٣٥٥/٢، ٤/٤، ٦٤/٤، وغيرها كثير فيه.

ـ ابن قتيبة في عيونه: صلى عليه٤٥/١، ٩١/١، ١٧٤/١ وغيرها.

ـ المبرِّد قال في الكامله: ١٢٥٧/٣ (قال المهلّب لأصحابه... ويروى أنه كان شعار أصحاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه)، وانظر أيضًا ١١٠٥/٣، ١١١٤/٣ـ١١١٥، ١١٢٣/٣، ١٢٤٥/٣، ١٢٥٧/٣.

– البلاذري في أنسابه: سلّم عليه في ١٧١/١ ، ٣٠٧ ، ٣٨٧ وقال في أول ترجمته ٣٤٥/٢ (وأما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) وغيرها كثير.

– الطبري في تاريخه: سلّم عليه في ٣٠٩/٢، ٣١٠، ٣١٢، ٥٣٣ وغيرها كثير.

– أبو الفرج في أغانيه: سلّم عليه في ١٠١/١٦، ٢٤١ ، ٢٤٨، ٢١٩، ١٧/ ٣٦٤، وغيرها كثير.

– أبو الفرج قال في أغانيه: صلّى عليه ١٩/١٨، ٢٠/٢١ ، ٢١٣/٢٣، وغيرها كثير.

– أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: سلّم عليه في جميع الموارد التي ذكر فيها اسمه الشريف أو اسم الحسنين عليها السلام.

– ابن عبد ربه سلّم عليه في عقده ٢٦٤/٢ ، ٢٦٧/٢ وغيرها كثير.

– ابن عبد ربه قال في عقده ٢٣٠/٢ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وغيرها.

– ابن الأثير في الكامل في التاريخ، وأسد الغابة: سلم عليه في مواضع كثيرة.

– ابن الجوزي في المنتظم ٤٤٧/٦ قال: (أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليهما السلام...) وغيرها.

وكان الصديق الشفيق الأستاذ الدكتور حازم الحلي قد التفت من قبل إلى هذا الأمر، فقال في تقريظه لكتاب (التزكية الإلهية في الثقلين) لمحمد الإستنبولي ١٧٥–١٧٨ : (اختص أهل البيت بنعتهم بـ«عليهم السلام» من دون سواهم من الصحابة ونساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لمنزلتهم الرفيعة ما اختصهم الله بالتطهير من الرجس والآثام كما يظهر

ذلك في أكثر من مورد)، وذكر في التقريض بعض ما جاء في الصلاة والسلام عليهم في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، ومسند أحمد، وتفسير الرازي، والكشاف، وكنز العمال، ومن شاء أن يستزيد فلينظر في الكتب السابقة.

الفهرس

المقدمة مدينة ربيب الوحي ١١

تمهيد إلى باب عليٍّ ٢٥

إمام الأئمَّة ٣٩

ميزان المرتضى........ ٤٥

ابن من، وأخو من !!! ٥٥

دفء بيت النبوَّة ٦٧

إرادة الله في إسلام أبي السبطين ٨١

إسلام جعفر وأبي ذر ١٠٣

سنوات الحصار وأيَّام الحزن........ ١٠٥

وفي سنوات الحصار أيضًا ١٠٩

إنذار العشيرة ووسام الوصاية........ ١٠٩

حول إيمان أبي طالب ١٢٢

الجوار الدنس........ ١٢٩

البحث عن الناصر ١٣١

الطريق إلى المدينة........ ١٣٥

بيعة العقبة الأولى والثانية ١٣٥

طور الرسالة الجديد ١٣٩

شيطان الفئة الباغية في دار الندوة ١٤٠

ركب الفواطم........ ١٤٦

مصادر قوَّة الإمام الخارقة ١٥٥

من يثرب إلى المدينة ١٦١
مسجد رسول الله ١٦٧
المؤاخاة ١٧٠
معاهدة المدينة ١٧٢
رايات الإسلام تغادر المدينة ١٧٥
أشقى الناس رجلين قاتل أبي تراب ١٧٧
الطريق إلى كبرى معارك الإسلام ١٨٠
بدر كبرى معارك الإسلام ودور المرتضى فيها ١٨٥
العقاب في يمين علي ١٨٥
لواء رسول الله ١٨٨
فرسان الجيشين وعدتهما ١٨٩
استشهاد المأمون بدور المرتضى في معركة بدر ١٩٢
وجه الجيش القرشي، وما فعله المرتضى به ١٩٤
بقيَّة قتلى المشركين ١٩٦
وكان النصر المبين بسيف علي ١٩٧
الطريق إلى معركة أحد ٢٢٩
أجواء ما قبل المعركة ٢٣٠
استعدادات قريش ٢٣٢
استعدادات المسلمين ٢٣٤
سيف المرتضى في واقعة أحد ٢٣٧
موقف ابن سلول وأثره في نفوس المقاتلين ٢٣٨

تعبئة الجيشين ٢٣٩
على أبواب النصر ٢٤١
انسحاب جيش المسلمين ٢٤٣
ما بعد الانسحاب ٢٤٨
من حكايات الصمود الفداء.. ٢٥٣
تدابير ما بعد واقعة أحد ٢٦٣
الخروج إلى حمراء الأسد ٢٦٣
وما بعد أحد أيضًا ٢٦٤
الخندق قاصمة ظهر الشرك.. ٢٦٧
غزوة بني قريظة ٢٧٩
غزوة بني المصطلق ٢٨١
أحاديث الإفك ٢٨٣
سرية المرتضى إلى بني سعد بفدك ٢٨٩
بيعة الرضوان وصلح الحديبية.. ٢٩١
خاصف النَّعل.. ٢٩١
سيف المرتضى في غزوة خيبر.. ٢٩٩
المرتضى في عمرة القضاء.. ٣١٣
المرتضى وأصنام العرب ٣١٧
صنم مناة الثالثة ٣١٧
صنم هبل ٣١٨
صنم الفلس ٣٢١
فتح مكّة.. ٣٢٥

يوم الفتح العظيم ٣٣٣
المرتضى في بيت أم هانئ ٣٣٥
مصير من أهدر المصطفى دمه ٣٣٥
فعلة خالد بن الوليد ببني جذيمة ودور المرتضى في إصلاحها ٣٣٧
سفير المصطفى يمحو فعلة خالد ٣٤١
غزوة حنين ٣٤٣
نحو الطائف ٣٥١
براءة من الله ورسوله في يمين عليٍّ ٣٥٥
المباهلة وسببها ٣٦٥
بعث المرتضى إلى اليمن ٣٦٩
روايات البعث واختلاطها ٣٧١
علاقة البعث ببعث خالد بن الوليد ٣٧٣
حكاية تخميس السبي ٣٧٥
اللهم اهد قلبه وثبِّت لسانه ٣٨٢
أخبار زمن السريتين ٣٨٣
بعث المرتضى إلى أهل نجران ٣٩٣
المرتضى في حَجَّة الإسلام ٣٩٩
وسام الولاية وحديث الثقلين ٤٠٧
من أوسمة الإمام ٤٢٣
من أوسمته في القرآن ٤٣٦
أوسمته من الرسول المصطفى ٤٤٣
عليه السلام ٤٧١

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٩٣٢٨٤
التاريخ / ١٩/٨/٢٠١٠

- د. صلاح مهدي الفرطوسي.
- ولد في النجف الأشرف / العراق سنة ١٩٤٦.
- دكتوراه في اللغة العربية - جامعة بغداد سنة ١٩٧٩.
- أستاذ في جامعات: بغداد، محمد بن عبد الله بالمغرب، صنعاء، السابع من أبريل بليبيا، الاسلامية بالنيجر، سراييفو، روتردام الإسلامية بهولندا.
- عيّن خبيرا للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ١٩٩٥-٢٠٠١.
- اختير عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق عن العراق سنة ٢٠٠٧.
- رئيس مجلس أمناء الجامعة الحرة / هولندا.
- صدرت له عشرات الدراسات والمؤلفات والتحقيقات منها: مختصر العين للزبيدي، والمثلث لابن السيد البطليوسي، والمهذب في علم التصريف.